

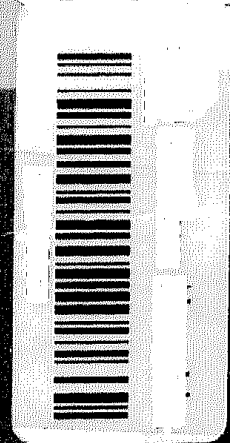
البلاغة الأصطلاحية

طه محمد آية

دكتور

معيدة عبد العزيز قلقيلة

دار الفكر العربي



البلاغة الإصطلاحية

دكتور

عبدالله محمد الهزيم قليلة

أستاذ النقد الأدبي والبلاغة
جامعة طنطا

الطبعة الثالثة.

١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

شارع جواد حسنى / القاهرة

ص ب : ١٢٠ - ت ٢٩٢٥٥٢٢

الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م

الطبعة الثانية ١٤١١هـ / ١٩٩١م

الطبعة الثالثة ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م



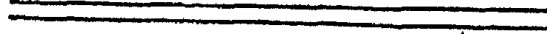
وَهُدُّوْا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوْا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿١٤﴾

سُوْرَةُ الْحَجِّ



إهداء

إلى بيت الملائكة مبنى ومعنى



مقدمة الطبعة الثالثة

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد المصطفى الأمين وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد

فهذه هي الطبعة الثالثة لكتاب «البلاغة الاصطلاحية» تصدر بعد عام من صدور الطبعة الثانية.

ولقد صححت في هذه الطبعة ما نُدُّ في الطبعة الثانية من أخطاء مطبعية قليلة، فمهما أجهد الإنسان نفسه في المتابعة والمراجعة يفاجأ بعد صدور الكتاب بوجود أخطاء تسخر من حرصنا وتؤكد بشريتنا.

* * *

وبحول الله وطوله تأتي هذه الطبعة وهي أقرب إلى الكمال من سابقتها بفضل مئازرة أخي وصديقي حضرة العالم النابه الأستاذ رزق هيبه وهو من تدين له مجلة روز اليوسف ومطبوعات دار الفكر العربي بالكمال النسبي ، أما الكمال المطلق ففوق طاقة البشر .

* * *

شكراً للسيد المهندس عاطف محمد الخضري مدير دار الفكر العربي على إخراجها الممتاز لما يصدره من كتب.

والحمد لله رب العالمين حمد الشاكرين،

عبدالعزیز قلقيله

القاهرة ٢٦/٢/١٤١٢هـ

٥ / ٩ / ١٩٩١م

قال الجاحظ :

« وكلام كثير جرى على السنة الناس وله مضرة شديدة وثمره مرة ، فمن أضر ذلك ،
لم يدع الأول للأخر شيئاً » .

قلو أن علماء كل عصر مذ جرت هذه الكلمة في أسماعهم تركوا الاستنباط لما لم ينته
إليهم عن قبلهم لرأيت العلم مختلاً ، (١) .

أو قال :

(ليس مما يستعمل الناس كلمة أضر للعلم والعلماء ولا أضر للخاصة والعامة من قولهم «
ما ترك الأول للأخر شيئاً ») (٢) .

(١) بنية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة تأليف عبد المتعال الصميدى ج ١ ص ٣٤ ط (٢)
١٣٦٢هـ / ١٩٤٢م القاهرة .

(٢) رسالة الوكلاء ضمن « رسائل الجاحظ » ٤ / ١٠٣ ط (١) مكتبة الفانجى بمصر ١٩٧٩ تحقيق
عبد السلام هارون .

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد المصطفى الأمين وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبجهد : فقد صدرت الطبعة الأولى لكتاب « البلاغة الاصطلاحية » عن دار الفكر العربى بالقاهرة سنة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

والحمد لله على حسن استقبال الناس له :

لقد رأيت بعينى حقاوتهم به ، وسمعت بأذنى ثناهم عليه ، ولست عن قرب حماسهم له ، وشرفتني لجنة النقد والبلاغة فى جامعة الملك سعود بجعله مرجعاً للمقرر ٣٢١ عرب [بلاغة] البيان والبديع ، والمقرر ٣٢٢ عرب [بلاغة] علم المعانى .

وكنت قد علمت أنه موجود بكثرة فى أيدي طلاب جامعة الكويت حتى قيل : إنه مقرر عليهم ، ولم أستبعد ذلك ؛ فقد كان الكتاب على بعد خطوات منهم فى مؤسسة دار الكتاب الحديث شارع فهد السالم ، وكانت المسئولة عن توزيعه خارج مصر . وكم أسفت لأن طبعته الأولى حفلت بكثير من الأخطاء المطبعية وتعرضت أكثر من مرة لقوت كلمة أو جملة ، ثم إن بنطها صغير وورقها خفيف وجبرها باهت فى بعض الكلمات والأسطر ، ولم تأخذ العناوين فيها أماكنها اللائقة بها مما حرمتها الوضوح والتائق .

* * *

أرجو - وقد أشرفت على هذه الطبعة ولم أشرف على سابقتها - أن تبرأ من عيوبها ، منوهاً بأننى قد صححت الأخطاء المطبعية وتداركت الفوت ، ونقحت بعض العبارات ، وأضفت بعض الآراء كجعل الجملة الاسمية مؤكدة ولو لم يكن معها مؤكد آخر ، وكجعل القصر من أنواع التوكيد .

ومن الإضافات كذلك بيان أسرار كل من السجع ، والتزام ما لا يلزم ، والمشاكلة ، ورد الصدر على العجز . أجل « رد الصدر على العجز » كما ينبغي أن يسمى ، وليس [رد العجز على الصدر] كما سماه البلاغيون القدماء والمحدثون فى محاضراتهم وكتبهم .

إلى اللقاء - إن شاء الله تعالى - فى مقدمة الطبعة الثالثة . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

عبد الله العزيز قلقيله

القاهرة }
١٤١١/٢/١٥ هـ
١٩٩٠/٩/٥ م

تقديم

البلاغة علم وفن . نظرية وتطبيق . تقنية بلاغية وكلام بليغ . ومن هنا تجب التفرقة بين المعرفة البلاغية من جهة : وتوظيف هذه المعرفة فى إبداع الأدب ونقده من جهة .

لما كانت المعرفة تأتى أولاً دائماً ، فإننى أرى أن نبدأ بالبلاغة علماً ونظرية وتقنية ، وليكن ذلك غاية فى ذاته مؤقتاً ، أجل مؤقتاً ؛ فبعد البلاغة غايةً تأتى البلاغة وسيلة ، وسيتم ذلك فورياً وتلقائياً هكذا : علم فعمل ، والأمل أن يكون عملاً جيداً ؛ لصدوره حينئذ عن بيعة، هى الإحاطة الشاملة الكاملة بالقواعد البلاغية ، وهى قواعد فنية غير ملزمة ، أقصى مداها هو (ينبغى) و (يحسن) ونحوهما .

يقول حازم القرطاجنى : « وكلامنا ليس واجباً على الشاعر لزومه ، بل مؤثر حيث يمكن ذلك » (١) .

وفى باب الفصل والوصل من كتاب عروس الأفراح يقول السبكي : « حيث قلنا فى هذا الباب : يجب الوصل ، أو قلنا : يجب الفصل ، نريد به الوجوب بحسب البلاغة ، وتطبيق الكلام على مقتضى الحال ، ولا نعى الوجوب بحسب اللغة » (٢) .

فليطمئن السادة محترفو الخوف من دراسة البلاغة دراسة أكاديمية مجردة - فى أول الأمر ، ولفترة محددة - عن أية غاية خارجية ، لأن ما نقوله هنا لقرائنا ، وهناك لطلابنا ، لا يعدو أن يكون بنوراً نبذرها لتؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، أى متى توافرت الموهبة ، نعم الموهبة.

فلا نتنظر من كل من تعلم البلاغة أن ينشئ كلاماً بليغاً ، إذ تعلم البلاغة وحده لا يكفى فى تأليف كلام بليغ ، ولكنه بكل تأكيد يكفى فى فهم الكلام البليغ ، وفى تفسيره وثوقه .

وفى المعنى نفسه يقول هوراس : « لست أدرى ما يستطيع التحصيل أن يثمر من غير نفحة وافرة من الموهبة الفطرية ، أو الموهبة الفطرية من غير التحصيل ، إن أحدهما ليلح فى طلب الآخر ، ويعاهده على صداقة دائمة » (٣) .

(١) منهاج البلاغاء وسراج الأدباء ص ٨٢ .

(٢) ج ٢ ص ١٥ .

(٣) فن الشعر ص ٩٢ ترجمة لويس عوض .

ولنأخذ التكنولوجيا الحديثة مثلاً موضحاً ، إذ يلزم لمن يريد الانتفاع بها أن يكون قادراً على تشغيلها ، وهو لن يكون قادراً على تشغيلها ما لم يفهمها فهماً جيداً ، وبحسبه ذلك أولاً ، وفى مرحلة أخرى ، أو فى مراحل تالية ، وبالجهد المريش بالعلم والموهبة يقدر على صنعها ، أما قبل ذلك أو بدون ذلك فلا .

* * *

بقى أن أوضح ما قصدت إليه من تسمية هذا الكتاب بالبلاغة الاصطلاحية . وباختصار شديد أقول : إننى قصدت بهذه التسمية ، البلاغة الخالصة من شوائب العلوم الأخرى كالأصول والفقه والمنطق والفلسفة والنحو والصرف والعروض والقافية وعلم الكلام وعلم اللغة ؛ فلكل واحد من هذه العلوم مسائله ومشاكله ومجاله .

ولقد كان هذا هو السبب فى أننى لم أقف فيه عند مبحث الحقيقة ؛ لأن الحقيقة مهما كان نوعها لا تخرج عن كونها نقطة انطلاق إلى البلاغة ، وأدق من ذلك أن نقول : إن الخروج عليها هو البلاغة .

ولو أننى وقفت فى البلاغة الاصطلاحية عند حقائق العلوم الأخرى لكررت ما فعله السكاكى المتوفى سنة ٥٢٦هـ فى كتاب يصدر سنة ١٤٠٧هـ . وأبادر فأقود أن عمل السكاكى فى مفتاح العلوم ليس عيباً أبداً ، بل إنه مزية أية مزية ، لكن الدراسة الحديثة للمقررات المختلفة والمتخصصة - وهى حولية أو فصلية - لا تساعد عليه ، بل لا تسمح به .

وتفريحا على التأجيل السابق أقول :

إننى لم أهتم فى هذا الكتاب إلا بالمعنى الاصطلاحى للموضوع الذى أدرسه ، أما معناه اللغوى ، فلم أكن أتم به إلا إذا كان المعنى الاصطلاحى يساويه أو يسامته .

وحتى فى هاتين الجائتين لم أكن أطيل الوقوف عند الدلالة البغوية للمصطلح البلاغى ، توفيراً لوقت أمضى فيه معه على طريق البلاغة لأشرحه وأوضحه ، ولأنظر : هل هو مُسَلَّم به أو مختلف عليه ، ثابت أو متطور ، واحد أو متعدد ، فهذا - من وجهة نظرى - أجدى على عملى من أن أزعجه بالمعنى المعجمى لكل مصطلح .

* * *

ومنهجى فى هذه الدراسة منهج تقليدى مزدوج :

أما أنه تقليدى ، فلأنى سرت فيه على منهج القدماء :

نبذة مختصرة عن البلاغة : علومها وبعض أعلامها .

الفصاحة والبلاغة .

البيان - المعانى - البديع .

وأما أنه مزدوج ، فلأنه كلى وجزئى معاً .

كلى ، لجعل العلوم أساس التقسيم .

وجزئى ، لأن موضوعات كل علم - وهى أجزاؤه المكونة له - قد عولج كل جزء منها

معالجة خاصة به داخل علمه .

أما بعد :

فقد نقل الشيخ بدر الدين الزركشى عن بعض المشايخ أنه كان يقول : « العلوم ثلاثة :

علم نضج وما احترق وهو علم الأصول والنحو ، وعلم لا نضج ولا احترق ، وهو علم البيان

والتفسير ، وعلم نضج واحترق وهو الفقه والحديث » (١) .

ولما كان البيان فيما نقله الزركشى مقصوداً به علوم البلاغة الثلاثة ، فإنى أقدر أن كلام

الشيخ عن هذه العلوم ما زال قائماً ، وأن ما قلته فى هذا الكتاب ليس أكثر من عشبة

صغيرة وضعتها فى نارها ، إسهماً متواضعاً منى فى إنضاجها .

والحمد لله أولاً وأخراً . .

عبد الله العزيز قنقيه

الرياض ١٤٠٤/٢/١٨ هـ - ١٩٨٣/١١/٢٢ م

(١) شرح عقود الجمان فى علمى المعانى والبيان للسيوطى ص ٣ .

البلاغة علوها ويحضر أعلامها

مما ينسب إلى رسول الله ﷺ قوله : « المرء بأصغريه ، قلبه ولسانه » ، وقد نظم الشاعر الحكيم هذا المعنى في نصف بيت هو :

لسان الفتى نصف ونصف فزاده

وإذا كان لسان المرء أحد شقيه ؛ فإن لغة الأمة كذلك أحد شقيها ، ولعله من هنا جاء اهتمام الأمم بلغاتها تنويهاً ودراسة ، حتى إذا ثبتت أركانها واستقرت أصولها ، أذاعتها وعلمتها ، وشجعت على إجادتها وإتقانها ؛ إيماناً منها بأن اللغة هي الجانب المعنوي في الإنسان شعوراً وفكراً .

* * *

وقد بعث الله في العرب رسولاً منهم وأنزل عليه القرآن الكريم كتاب العربية الأول ، وصمام الأمان لها ضد عوامل التآكل المسلطة على التراث والناس .

* * *

وبرحلتى الشتاء والصيف أولاً ، ثم بالفتوح الإسلامية ثانياً ، انتشرت اللغة العربية شمالاً وجنوباً ، وشرقاً وغرباً ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، واختلط الفاتحون العرب بالسكان الأصليين للبلاد المفتوحة ، فجرت كلمات أعجمية على ألسنتهم مثلما غزت العربية السنة العجم .

وكان من نتيجة ذلك أن وقع بعض الاعوجاج في السنة بعض العرب فخاف الحرصاء على اللغة من أن تفسد ملكة العربية ويضطرب لسان أهلها ، وقد كان هذا الخوف ظاهرة صحية ؛ فمنه كان الانطلاق نحو التأليف في علوم اللغة ، وتوجهت عناية العلماء أول ما توجهت إلى ما يحفظ هذه اللغة من جهة الإعراب والبناء ، وهو ما عرف بعدُ بالنحو ، وإلى ما يحفظها من جهة تصريفها وبنيتها ، وهو ما عرف بعدُ بالصرف ، ثم إلى ما يحفظها من جهة مادتها وهو ما عرف بعدُ بمتن اللغة .

* * *

وإذا كان فقه العربية وفهم فلسفتها وإدراك أهدافها ومعرفة صورها وإحاطة بدقائقها
الفنية

نقول : إذا كان هذا كله وغيره سهلاً وميسوراً على علماء اللغة المتبحرين فيها ،
والواقفين على أسرارها ، فإنه يصعب قليلاً أو كثيراً على غيرهم ، ولو كانوا مبرزين في
علوم أخرى كالرياضة والفلسفة والمنطق ، بل لو كانت حرفة الكتابة ، وهي الصناعة التي
تمثل الجانب العملي للمعرفة النظرية ولا سيما في الناحية اللغوية .

ها هو ذا أبو يعقوب يوسف الكندي وهو عربي يقصد أبا العباس ^(١) ليقول له : إنى
لأجد في كلام العرب حشواً ، ويسأله أبو العباس عن الموضوع الذي وجد فيه ذلك الحشو ،
فيقول له : أجدهم يقولون : عبد الله قائم ، ثم يقولون ، إن عبد الله قائم ، ثم يقولون : إن
عبد الله لقائم .

الألفاظ مختلفة والمعنى واحد ، ويجيبه أبو العباس بقوله : المعاني مختلفة ، فالأول إخبار
عن قيامه ، والثاني جواب عن سؤال سائل ، والثالث جواب عن إنكار منكر ^(٢) .

ولقد كان هذا الرد من أبي العباس هو الأساس الذي أقام عليه علماء البلاغة فيما بعد
ما سموه « أضرب الخير » .

* * *

وما هو ذا أبو عبيدة معمر بن المثنى في حضرة الفضل بن الربيع وزير المأمون قد
استدناه حتى أجلسه إليه على فرشه ، ويدخل رجل في زى الكتاب له هيبه فيجلسه الفضل
إلى جانب أبي عبيدة ، ويعرفه به قائلاً : هذا أبو عبيدة علامة أهل البصرة أقدمناه لنستفيد
من علمه ، فيدعو الرجل للفضل ، ويقرظه لفعله هذا ، ثم يلتفت إلى أبي عبيدة قائلاً : إنى
كنت إليك مشتاقاً ، وقد سألت عن مسألة ، أفتأذن لي بأن أعرفك إياها ؟ قال أبو عبيدة :
هات ، فقال الرجل : قال الله عز وجل : « طلعها. كانه رؤوس الشياطين » وإنما يقع الوعد
والإيعاد بما عرف مثله ، وهذا لم يعرف .

(١) هو ثعلب أو المبرد ، فقد كانا متعاصرين ومتفقين في الكنية ، والكندي هو يعقوب بن إسحاق من نسل
الأشعث بن قيس رضى الله عنه ، كان عظيم المنزلة عند المأمون وابنه أحمد ، وله تأليف كثيرة في
جميع العلوم ما بين كتاب ورسالة .

لائل الإعجاز لعبد القاهر طبعة الشيخ محمد رشيد رضا ص ٢٤٢ .

فقال أبو عبيدة : إنما كلم الله العر : على قدر كلامهم ، أما سمعت قول امرئ القيس :

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

هم لم يروا الغول قط ، ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعوا به (١) . فاستحسن
الفضل ذلك واستحسنه الرجل .

يقول أبو عبيدة : وعزمت من ذلك اليوم أن أضع كتاباً فى القرآن فى مثل هذا وأشباهه ،
وما يحتاج إليه من علمه . فلما رجعت إلى البصرة عملت كتابى الذى سميته المجاز ، وسألت
عن الرجل السائل ، فقيل لى : هو من كتاب الوزير وجلسائه هو إبراهيم بن إسماعيل
الكاتب .

كان ذلك سنة ثمان وثمانين ومائة . أى قبل وفاة أبى عبيدة بثمان عشرة سنة (٢) .

* * *

وبعد أبى عبيدة جاء أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ أحد شيوخ المعتزلة وأئمتهم وشيخ
الأدباء والمؤلفين والمتوفى سنة ٢٥٥ هـ ، وله فى كتابه (البيان والتبيين) مباحث كثيرة عن
الفصاحة والبلاغة ، وفضل حسن البيان ، وتبيان ما حسن من السجع والبديع .

وقد أجهد الدكتور محمد على سلطانى نفسه - شكر الله له - حتى جمع من « البيان
والتبيين » ومن « الحيوان » أربعة وعشرين وجهاً نسبها كلها إلى فنون البلاغة الثلاثة ،
والواقع أن بعض هذه الوجوه لا كلها هو الذى تصح نسبته إلى علوم البلاغة الثلاثة ؛ ثم إن
الجاحظ لم يكن أول من سمي هذه الأوجه بأسمائها كما قرر الدكتور سلطانى بحق (٣) .

ويسلمنا الجاحظ إلى الخليفة العباسى الشاعر العالم عبد الله بن المعتز المتوفى سنة
٢٩٦ هـ كان بشار بن برد ومسلم بن الوليد وأبو تمام وغيرهم يأتون فى شعرهم بضروب من
البديع ، فجاء ابن المعتز وجمع من أنواعه ثمانية عشر نوعاً ضمنها كتابه المعروف باسم
« البديع » ؛ وقد قال فيه تقريباً له : « وما جمع قبلى فنون البلاغة أحد ، ولا سبقنى إليه
(١) انظر فى تفسير الآية ، وفى التعليل التشبيهي فيها الكامل للمبرد ج ٢ ص ٧٩ نشر مكتبة المعارف فى
بيروت د . ت .

(٢) معجم الأدباء لياقوت ج ١٩ ص ١٥٨ ٤ ١٥٩ طبعة دار المأمون - القاهرة .

(٣) انظر « مع البلاغة العربية فى تاريخها » القسم الأول . الطبعة الأولى دمشق سنة ١٩٧٩ م
ص ٥٣ - ٩٠ .

مؤلف ، ومن أحب أن يقتدى بنا ويقتصر على ما اخترعناه قليلاً ، ومن رأى إضافة شئ من المحاسن إليه فله اختياره .

* * *

وقد كانت هذه دعوة من ابن المعتز استجاب لها وأياها معاصره قدامة ابن جعفر المتوفى سنة ٣٣٧ هـ ، وقد جمع في كتابه « نقد الشعر » عشرين نوعاً من أنواع البديع ، توارد مع ابن المعتز على سبعة منها ، وسلم له ثلاثة عشر ، تضاف إلى الثمانية عشر التي جمعها ابن المعتز ، فتكون جملة ما جمعها واحداً وثلاثين نوعاً هي كل ما جمع إلى ذلك الوقت .

* * *

ويعد قدامة نجد أباهلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ هـ ؛ وهو صاحب (كتاب الصناعات) :
الكتابة والشعر) .

ونجد فيه من البلاغة : الباب الأول .

الفصل الأول : في الإبانة عن موضوع البلاغة في اللغة وما يجرى معه من تصريف لفظها ؛ والقول في الفصاحة وما يتشعب منه .

الفصل الثاني : في الإبانة عن حد البلاغة .

الفصل الثالث : في تفسير ما جاء عن الحكماء والعلماء في حدود البلاغة .

الباب الخامس : في ذكر الإيجاز والإطناب .

الباب السابع : في التشبيه .

الباب الثامن : في ذكر السجع والازدواج .

الباب التاسع : في شرح البديع وهو خمسة وثلاثون فصلاً تبدأ بصفحة ٢٦٦ وتنتهي في ص ٤٣٠ ، وهذه نماذج من عناوين الفصول في هذا الباب الطويل :

الفصل الأول : في الاستعارة والمجاز .

الفصل الثاني : في المطابقة .

الفصل الثالث : في التجنيس .

الفصل الرابع : في المقابلة .

- الفصل الخامس : فى صحة التقسيم .
- الفصل الثامن : فى الإرداف والتتابع .
- الفصل التاسع : فى المماثلة .
- الفصل الثانى عشر : فى الكناية والتعريض .
- الفصل الرابع عشر : فى التذييل .
- الفصل الخامس عشر : فى الترميم .
- الفصل السابع عشر : فى التوشيح .
- الفصل الثامن عشر : فى رد الأعجاز على الصدور .
- الفصل العشرون : فى الالتفات .
- الفصل الحادى والعشرون : فى الاعتراض .
- الفصل الثالث والعشرون : فى تجاهل العارف ، ومزج الشك باليقين .
- الفصل الثامن والعشرون : فى المذهب الكلامى .

* * *

ونلاحظ أن أبا هلال قد درس الاستعارة والمجاز والكناية والتعريض والتذييل والاعتراض فى الباب المخصص للبديع ، وهى ليست منه ، ولا عجب فقد كان البديع إلى ذلك الوقت ؛ يعنى مباحث البلاغة على جهة التغليب ، وبهذا التوسع فى إطلاق اسم البديع ، وصلت أنواعه فى كتاب العمدة لابن رشيق القيروانى المتوفى سنة ٤٥٦ هـ إلى تسعين نوعاً .

وفى العمدة كما فى البديع لابن المعتز ، وكما فى الصناعتين لأبى هلال أبواب للبلاغة والبيان والإيجاز والمجاز والتمثيل والتشبيه ، والاستعارة والإشارة وغير ذلك من فنون البلاغة ومباحث علومها ، وقد ظلت هذه المباحث مختلطة وغير متميزة حتى عند عبد القاهر الجرجانى الملقب بشيخ البلاغة والمتوفى سنة ٤٧١ هـ .

نقول ذلك على الرغم من أنه أول من هذب مسائلها وأرسى قواعدها وبيوبها ورتبها فى كتابيه « أسرار البلاغة » و« دلائل الإعجاز » وهما الكتابان اللذان درسهما واستوعبهما جار الله محمود بن عمر الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ هـ ، يلمس ذلك بوضوح من يقرأ كتابه القيم : (الكشاف فى حقائق التنزيل وعلوم القرآن فى وجوه التأويل) .

وما يهمننا في مسارنا مع البلاغة هو أن نقرر أن الزمخشري - فيما نعلم - هو أول من فصل فصلاً تاماً بين علمي المعاني والبيان ، بل إنه هو صاحب هذه التسمية التي صارت نهائية بقوله في مقدمة الكشاف :

« إن أملاً العلوم بما يفمر القرائح ، وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح ، من غرائب نكت يلفظ مسلكها ، ومستودعات أسرار يدق سلكها ، علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم .. »

فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام ، والمتكلم وإن بز أهل الدنيا في صناعة الكلام ، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرية أحفظ ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه ، واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحييه ، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق ، ولا يفوص على شيء من تلك الحقائق، إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن ، وهما علم المعاني وعلم البيان ، وتمهل في ارتيادهما أونة ، وتعب في التنقيح عنهما أزمنة .

وإذا وجدنا في الكشاف بعض الفنون البديعية فإنها جاءت لحماً لا شرحاً ، ولا عجب فالفنون البديعية المكونة لعلم البديع لم تأخذ من اهتمام المتكلمين عن إعجاز القرآن الكريم وأسرار البلاغة فيه إلا أقل القليل ، وإذا بحثنا لذلك عن دليل ، فإننا نجد في نقله السيد الجرجاني عن الزمخشري نفسه من أنه لم يكن يعد البديع علماً مستقلاً بل كان يراه ذليلاً لعلمي المعاني والبيان^(١) ونجده فيما كتبه محمد بن علي بن محمد الجرجاني المتوفى سنة ٧٢٩ هـ قال : « إن نسبة صناعة البديع إلى صناعاتي المعاني والبيان نسبة صناعة النقش إلى صناعة النساجة ، إلا أنه يمكن إفراد صناعة النقش مالم يكن ذاتياً عن صناعة ما غير النقش ، ولذلك قد يتغاير الصانعان ولا يمكن إفراد صناعة البديع عن صناعاتي العلمين ؛ لأنهما صفة ذاتية للكلام » ويمضى فيقول : « لا يستحق المتكلم الموقع في كلامه صناعة البديع المدح بالإطلاق إلا بعد رعاية شرائط البلاغة ، كما أن البناء لا يستحق المدح بالإطلاق على بنائه إلا بعد رعاية دقائق صنعه كلها »^(٢).

ولما كان الكشاف كتاباً في التفسير لا في البلاغة ، فقد كان طبيعياً أن تأتي الفنون البلاغية فيه - كما أتت فيما سبقه وما لحقه - على حسب مجيئها في سور القرآن الكريم ومن خلال آياته ، ولا ننتظر - وهذا هو واقعها في القرآن الكريم وفي تفاسيره - أن تكون مرتبة الترتيب الذي نراه في كتب البلاغة منذ السكاكي .

(١) البلاغة تطور وتاريخ للدكتور شوقي ضيف ص ٢٢٢ ط ٢ دار المعارف بمصر ١٩٦٥ م.

(٢) الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة ص ٢٥٧ ٢٥٨٤ بتحقيق الدكتور عبد القادر حسين سنة ١٩٨٢ م دار نهضة مصر للطباعة والنشر .

فهذا هو عمل السكاكى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ ، وتلك هى مآثرته ، أجل . مآثرته ، فتد ألف كتابه (مفتاح العلوم) وجعله ثلاثة أقسام . بسط فى القسم الثالث منه علوم البلاغة بما سمح له أن يقول عن نفسه « إنه قضى بتوفيق الله منها الوطر »^(١) .

وقد جعل كل ما يتعلق بمطابقة الكلام لمقتضى الحال (علم المعانى) ، وكل ما يخص إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة فى وضوح الدلالة عليه (علم البيان) ، أما ما يتعلق بتحسين الكلام وتزيينه بعد رعاية المطابقة ، ووضوح الدلالة فقد جعله (علم البديع) .

ولم يأت بعد السكاكى من أضاف إلى مباحث البلاغة إضافة تذكر . كل من جاء بعده فبظله استظل ، ومن بستانه قطف ؛ كان قصارى جهدهم أن تناولوا كتابه بالاختصار تارة وبالشرح أخرى .

وأهم مختصراته تلخيص الخطيب القزوينى المتوفى سنة ٧٣٩ هـ وقد ضمنه القواعد الموجودة فى القسم الثالث من المفتاح بعد أن دعمها بما كان ينقصها فى موطنها الأصيلى من الأمثلة والشواهد .

وقد شرق هذا التلخيص وغرب ، وشرحه عدد كبير من علماء البلاغة ، ولعل القزوينى قد خاف على تلخيصه من شرح غيره له ، فشرحه بنفسه فى كتابه (الإيضاح) يقول فى مقدمته : « أما بعد ؛ فهذا كتاب فى علم البلاغة وتوابعها ترجمته بالإيضاح ، وجعلته على ترتيب مختصرى الذى سميته تلخيص المفتاح ، وبسطت فيه القول ليكون كالشرح له ، فأوضحت مواضعه المشككة ، وفصلت معانيه الجملة ، وعمدت إلى ما خلا عنه المختصر مما تضمنه مفتاح العلوم وإلى ما خلا عنه المفتاح من كلام الشيخ الإمام عبد القاهر الجرجانى رحمه الله فى كتابيه « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » ، وإلى ما تيسر النظر فيه من كلام غيرهما ، فاستخرجت زبدة ذلك كله ، وهذبته ورتبتها حتى استقر كل شئ منها فى محله . وأضفت إلى ذلك ما أدى إليه فكرى ولم أجده لغيرى ، فجاء بحمد الله جامعاً لأشتات هذا العلم » .

* * *

(١) المفتاح، مقدمة المؤلف ص ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣م دار الكتب العلمية، بيروت.

وقد تأكد بعد القزوينى ما حدث بعد السكاكى من توقف جهود علماء البلاغة عن الابتكار والتجديد ، وجمودهم على ما تركه أسلافهم لهم ، وظل الحال كذلك إلى أن جاءت النهضة الحديثة ، والنهضة الحديثة بلاغة حديثة والحديث عنها مجال آخر .

أما الآن فمع :

أوجه الحاجة إلى دراسة البلاغة :

وهذه هى :

- ١ - أن الناظر فى هذه العلوم والمحصل لملكها يعرف إعجاز القرآن الكريم معرفة يقينية ، فيكون مؤمناً عن بيعة .
- ٢ - أن المتمكن من أصولها وأحكامها يلمس بنفسه دقائق العربية وأسرارها ويدرك مراتب الكمال ومزايا صورته شعراً ونثراً ، وبعبارة أخرى يصير ناقداً واعياً .
- ٣ - أن المدارس لها الخبير بضوابطها وقوانينها إذا أراد أن يقول شعراً أو نثراً فى أى غرض يستطيع أن يجد من أمره رشداً فيصيب الهدف ويدرك القصد ، ويأتى بما يطابق الحال من الألفاظ والتراكيب ويهتدى إلى المستجاد من الكلام ، والمختار من القول ، لأن معه مصباحه الذى يستضى به ، ويسير على هديه ، وبعبارة أخرى يصير أديباً مبدعاً (١).

(١) كتاب « الصناعتين لأبى هلال العسكري » ص ٢ - ٣ الطبعة الأولى ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م تحقيق على الجاوى ومحمد أبو الفضل إبراهيم .

الفصاحة والبلاغة

الفصاحة

للفصاحة لغة أكثر من معنى ، وتلتقى هذه المعانى فى دلالتها على الظهور والبيان ، يقال: أفصح فلان عما فى نفسه إذا أعرب عنه ، وأفصح الصبى فى منطقه وفصح فيه إذا فهم عنه عندما يشرع فى التكلم ، وأفصح الأعجمى وفصح إذا انطلق لسانه بالعربية لا تشويهه اكنة ، ومنه قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام « وأخى هارون هو أفصح منى لسانا » . أى أظهر وأبين منى قولاً ، ويقول أحدنا للآخر ، أفصح إن كنت صادقاً أى بين وأظهر ، والمثل المشهور يقول : « أفصح الصبح لذى عينين » أى ظهر ، كما يقال : هذا يوم مفصح ، أى جلى لا غيم فيه .

أما الفصاحة فى اصطلاح البلاغيين ، فإن معناها يختلف باختلاف موصوفها ، وموصوفها يمكن أن يكون الكلمة ، ويمكن أن يكون الكلام ، ويمكن أن يكون المتكلم .

يقال : هذه كلمة فصيحة ، إشارة إلى كلمة معينة كلفظة أسد ، ويقال هذا كلام فصيح ، إشارة إلى مركب معين كقولنا : الشمس طالعة ، والسماء صافية ، ثم يقال : هذا متكلم فصيح ، إشارة إلى شخص معين .

فصاحة الكلمة

وهى تتحقق بخلوها من :

(١) تنافر الحروف .

(٢) مخالفة الوضع .

(٣) الغرابة .

ووجه حصر فصاحة الكلمة فى السلامة من هذه العيوب ، هو أن كل كلمة لها مادة هى حروفها ، وصورة هى صيغتها ، ودلالة هى معناها .

فعبئها إما فى مادتها وهو التنافر ، وإما فى صيغتها وهو مخالفة الوضع ، وإما فى دلالتها على معناها وهو الغرابة .

وبسلامتها من هذه العيوب تسلم مادتها وصيغتها ومعناها من كل خلل ؟

وهذا بيان بكل عيب على حدة .

١ - تنافر الحروف : وهو أن تكون الكلمة ثقيلة على اللسان .

والتنافر نوعان :

(١) تنافر شديد : مثل (الظش) للموضع الخشن ، و (الهعزع) لنبات ترعاه الإبل ،
سئل أعرابي عن ناقته فقال : تركتها ترعى الهعزع .

هاتان الكلمتان (الظش والهعزع) غير فصيحتين ؛ لما فيهما من تنافر الحروف تناقضاً
شديداً يشعر به كل ناطق بهما ، وهذا التنافر خلل واقع في مادتيهما .

(ب) تنافر خفيف : مثل لفظ (النقاخ) وهو الماء العذب في قول الشاعر :

وأحمق ممن يكرع الماء قال لى دح الخمر واشرب من نقاخ مبرد

ومثل (مستشزرات) بمعنى مرتفعات في قول امرئ القيس واصفاً شعر صاحبتة
بالارتفاع ، ويأنة أنواع ، فبعضه معقوص أى ملوى ، وبعضه مثنى أى مفتول ، وبعضه
مرسل أى غير ملوى وغير مفتول قال :

وفرع يزين المتن أسود فاحم أثيث كقنو النخلة المتعطل

غدائره مستشزرات إلى العلا تضل العقاص في مثنى ومرسل

والتنافر في هاتين الكلمتين (نقاخ ومستشزرات) أخف من التنافر في الكلمتين
السابقتين (الظش والهعزع) .

دليل خفة التنافر فيهما مجيئهما في الشعر .

* * *

وقد اختلف في سبب التنافر ، فقليل : هو قرب مخارج الحروف . وقيل : بعدها ، بمعنى
أن تكون الحروف متقاربة في المخرج ، أو متباعدة فيه ، فكلمة (الهعزع) متنافرة لتقارب
حروفها في المخرج ، فالهاء والعين والحاء خارجة كلها عن مخرج واحد هو الحلق ، وكلمة
(مستشزرات) متنافرة لتقارب حروفها في المخرج كذلك ، إذ حروفها ماعدا الميم خارجة من
مخرج واحد هو اللسان .

أما كلمة (ملح) بمعنى أسرح ، نهى أيضاً متنافرة الحروف لكن لعكس السبب السابق أى لتباعد حروفها فى المخرج ، فالميم من الشفتين ، والعين من أقصى الحلق .

وقد رد هذا السبب المزبوج ؛ لأنه غير مطرد ، فنحن لا نجد تنافراً فى كلمتى (الجيش والشجى) مع تقارب الجيم والشين فى المخرج وهو اللسان كما لا نجد تنافراً فى كلمتى (علم وملح) مع تباعد العين والميم أو الميم والحاء فى المخرج ؛ فالميم من الشفتين ، والعين والحاء من الحلق .

على أننا لو جعلنا التباعد فى المخرج أو التقارب فيه سبباً للتنافر المخل بالفصاحة لاقتضى ذلك وقوع غير الفصيح فى القرآن ، فقد جاءت مادة (علم) فى غير موضع منه مع تباعد العين والميم ؛ كما ورد فيه قوله تعالى : ﴿ ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ﴾ مع تقارب الهمزة والعين والهاء فى المخرج ، وورد غير الفصيح فى القرآن المعداد فى أعلى طبقات الفصاحة ، مما لا يقول به عاقل .

وإذا فُقرّب المخارج أو بعدها ليس سبباً كافياً للتنافر لعدم اطراده ، والمعول عليه فى ذلك هو النطق السليم ، فماعدته ثقيلاً متعسر النطق فهو متنافر ، وما عده خفيفاً سهل النطق فهو فصيح غير متنافر ، أى بصرف النظر عن تقارب مخارج حروفه أو تباعدها .

٣ - مخالفة الوضغ :

وهى أن تكون الكلمة مخالفة لما ثبت عن الواضع ، سواء خالفت القياس أم وافقته .

مثال ذلك كلمة « ضننوا » يعنى : بخلوا فى قول الشاعر .

مهلاً أماناً قد جربت من خلقي أنى أجود لأقوام وإن ضننوا

فكلمة (ضننوا) غير فصيحة ؛ لأنها مخالفة لما ورد عن الواضع ، والقياس الصرفى ، ومثلها كلمة (الأجل) فى قول الشاعر :

الحمد لله العلى الأجل أنت مليك الناس رياً فاقبل

* * *

ومثال ما خالف الثابت عن الواضع ووافق القياس ، الفعل (يَأْبَى) يكسر الباء مضارع (أبى) ، فهو غير فصيح ؛ لأنه مخالف لما ثبت عن الواضع ؛ إذ الثابت عنه (يَأْبَى) بفتح الباء لا بكسرها علماً بأن الكسر هو الموافق للقياس الصرفي ؛ لأن (فعَل) بفتح العين لا يأتى مضارعه على (يفعل) بفتح العين إلا إذا كانت عين ماضيه أو لامه حرف حلق ، كسأل يسأل ، ومنع يمنع ، وليس أبى يَأْبَى من هذا القبيل .

* * *

ومثال ما وافق الثابت عن الواضع وخالف القياس قولهم : عورت عين فلان ، واستحوذ عليه الشيطان ، فإن القياس فيهما أن يقال : عارت عينه واستحاذ ، بقلب الواو ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها ، فتصحیح الواو حينئذ مخالف للقياس ، لكنه فصيح ؛ لأنه ورد هكذا عن الواضع .

٣ - الخرابة :

وهى أن تكون الكلمة حوشية وحشية أو غير ظاهرة الدلالة على معناها فيحتاج في فهمها :

(أ) إما إلى أن يبحث عنه في الكتب اللغوية المطولة كما روى عن عيسى بن عمرو النحوى أنه سقط عن حمار له فاجتمع الناس حوله فقال :

« ما لكم تكاكنتم على كتاككنكم على ذى جنة ؟ افرنقوا ،

أى مالكم تجمعتم على كتجمعكم على مجنون ؟ تنحوا عنى .

ومثل كلام عيسى قولهم (الحقلد) للسنى الخلق و (الابتشاك) بمعنى الكذب .

(ب) وإما أن يلتبس لها وجه بعيد كما فى قول العجاج :

أيام أبدت واضحاً مفلجاً أغرُّ براقاً وطرفاً أدعجا

ومقلّة وحاجباً مزججا وفاحماً ومرسناً مسرجا

فإنه لم يعرف ما أراد بقوله : (مسرجا) .

وقد اختلف في تخريجه :

ف قيل : هو من قولهم للسيوف : سريجية ؛ نسبة إلى قين اسمه سريج .

يقصد الشاعر أن أنف محبوبته في الاستواء والدقة كالسيف السريجي .

وقيل : من السراج .

يريد أنه في البريق كالسراج ، وهذا يقرب من قولهم : سرج وجهه أى حسن ، وسرُج الله وجهه أى بهُجّه وحسنه .

وذهب الدكتور طبانة إلى أن التمثيل بكلمة (مسرجاً) في بيت العجاج أدخل في باب (المشترك) الذي يحتمل أكثر من معنى منه في باب (الغريب) ودل على ذلك بقوله : « لأن كل معنى من المعانى التى قالوها للفظ (مسرج) يصح المعنى به ، ولا يوصف اللفظ بالغرابة إلا لخباء معناه لا لتعدد معانيه » . انتهى كلام الدكتور طبانة في كتابه معجم البلاغة العربية . ج ٢ ط ٢ ص ٦٠٥ وأنا معه فيما قاله .

فصاحة الكلام

فصاحته هي أن يبرأ من العيوب الثلاثة الآتية وهي :

١ - تنافر الكلمات مجتمعة .

٢ - ضعف التأليف .

٣ - التعقيد بنوعيه اللفظي والمعنوي .

ووجه حصر براءة الكلام من العيوب في هذه الأمور الثلاثة هو أن كل كلام له مادة هي أجزاءه أى كلماته ، وله صورة هي هيئة تأليفه من هذه الكلمات ، وله دلالة على معناه .

فعيبه إما في مادته وهو التنافر ، أو في صورته وهو ضعف التأليف أو في دلالاته على المعنى وهو التعقيد .

* * *

ولنتنبه إلى أن براءة الكلام من هذه العيوب مشروطة بسلامة أجزائه - وهي كلماته المفردة - من العيوب الثلاثة المتقدمة في فصاحة الكلمة .

والآن مع كل عيب على حدة :

١- تناافر الكلمات :

وهو أن تكون الكلمات مجتمعة ثقيلة على اللسان يتعسر النطق بها وإن كانت كل كلمة على حدة لا ثقل فيها ، وهو كتنافر الكلمة نوعان : تناافر شديد ، وتناافر خفيف .

(أ) فالتناافر الشديد . مثل :

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

والشاهد فيه المصراع الثاني ، فإن كلماته متنافرة أشد التناافر حتى إن اللسان لا يكاد يلفظ بها مجتمعة .

(ب) والتناافر الخفيف = كقول أبي تمام في المدح :

كريم متى أمدحه أمدحه والورى معى وإذا ما لمته لمته وحدى

والشاهد فيه قوله : « أمدحه أمدحه » .

فإن في اجتماع هاتين الكلمتين ثقلاً في النطق بهما ، يشعر به صاحب النوق السليم .

وما قيل من أن الجمع بين الحاء والهاء إنما هو سبب الثقل مردود بقوله تعالى : « فسيحه ليلاً طويلاً » .

٢- زخرفة التأليف :

وهو أن يكون في التركيب العام للكلام خروج على قوانين النحو التي ارتضاهما جمهور النحاة ، كالإضمار قبل ذكر المرجع في قولنا : « قتل أسره الأسير » فإن الضمير في « أسره » راجع إلى الأسير ، وهو (الأسير) متأخر لفظاً ورتبة .

ومثله قول الشاعر :

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر وحسن فعل كما جوزى سنمار (١)

(١) سنمار اسم رجل بنى للنعمان بن امرئ القيس قصراً عظيماً بالكوفة سماه « الخورنق » ولما أكمل بناءه وزخرفته ألقاه النعمان من أعلاه ، لئلا يبني قصراً مثله لغيره ، فمات لوقته ، وضرب به المثل لكل من يجازى على الخير بالشر ، وفي هذا يقول شاعر آخر :

جزتنا بنو سعد بحسن فعالنا جزاء سنمار وما كان ذا ذنب

وكالإضمار قبل الذكر في الإخلال بفساحة الكلام ، الإتيان بالضمير متصلاً بعد (إلا) ،
ونصب المضارع بدون ناسب مذكور في الكلام :

فالأول مثل :

وما علينا إذا ما كنت جارتنا ألا يجاورنا إلاك ديار
الأصل : إلا إياك .

والثاني مثل :

قبيح من الإنسان ينسى عيوبه ويذكر عيباً في أخيه قد اختلفى
٣- التحقير :

وهو أن يكون الكلام خفي الدلالة على المعنى لخلل واقع في نظمه وتركيبه بحيث لا يكون
ترتيب الألفاظ على وفق ترتيب المعانى بسبب تقديم أو تأخير ، أو فصل أو حذف أو نحو ذلك
مما يترتب عليه صعوبة فهم المعنى المراد .

وهو على ضربين : شديد وخفيف .

فالشديد : كما في قول الفرزدق يمدح إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي خال
هشام بن عبد الملك أحد خلفاء بني أمية :

وما مثله في الناس إلا مملكاً أبسو أمه حتى أبوه يقاربه

يريد أن يقول : ليس مثل الممدوح في الناس حتى يقاربه في القضايل إلا مملكاً أبو أم
ذلك الملك أبو الممدوح ، أي لا يحاكيه أحد إلا ابن أخته وهو هشام .

ففيه فاصل كبير بين البديل وهو (حتى) والمبدل منه وهو (مثله) ، وفيه تقديم المستثنى
وهو « مملكاً » على المستثنى منه وهو « حتى » ، وفيه فصل بين المبتدأ والخبر وهما « أبو أمه
أبوه » بأجنبي هو « حتى » ، وبين الصفة والموصوف وهما « حتى يقاربه » بأجنبي هو « أبوه » .

وكل هذه الأمور كانت سبباً في تعقيد اللفظ حتى خفي المعنى واستلحق على الفهم .

ومثل البيت السابق في شدة تعقيده قول الآخر :

فأصبحت بعد خط بهجتها كأن قفراً رسوماً قلمها

يصف الشاعر داراً بالية ، وأصل الكلام : فأصبحت بعد بهجتها قفراً كأن قلماً خط رسوماً .

ففيه من الفصل والتقديم والتأخير ما جعله مثلاً للتعقيد اللفظي في أقبح صورته .

أما التحقيد اللفظي الخفيف : فشاهده قول المتنبي :

جفخت وهم لا يجفخون بها بهم شيم على الحسب الأغر دلائل
يصف قوماً بحسن الشمائل . جفخت أى افتخرت ، وأصل التركيب هكذا : جفخت بهم شيم دلائل على الحسب الأغر وهم لا يجفخون بها .

وقد فصل الشاعر بين الفعل والفاعل وهما « جفخت شيم » بأجنبى هو جملة « وهم لا يجفخون بها » الواقعة حالاً ، وفصل بين الصفة والموصوف وهما « شيم دلائل » بالجار والمجرور الموصوف وهما « على الحسب الأغر » .

ومثله قول الفرزدق من قصيدة في وصف الذئب :

تعال فإن عاهدتني لا تخونني نكن مثل من يا ذئب يصطحبان

يريد : نكن يا ذئب مثل من يصطحبان ، ففصل بين الموصول والصلة ، وهما « من يصطحبان » بأجنبى هو قوله « يا ذئب » . فقد اللفظ بعض تعقيد .

أما التحقيد المعنوي :

وهو أن يكون الكلام خفى الدلالة على المعنى المراد لخلل في انتقال الذهن من المعنى الأول المفهوم من اللفظ لفة ، إلى المعنى الثانى المقصود ، بحيث يكون إدراك المعنى الثانى من الأول بعيداً عن الفهم يحتاج إلى تكلف ، بسبب استعمال اللفظ فى معنى مخالف للمعنى الأول ، كقول العباس بن الأحنف :

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا وتسكب عيناي الدموع لتجمدا

الشاهد فى هذا البيت قول الشاعر « لتجمدا » فإنه لم يوفق فى أداء المعنى الذى أراد من هذا اللفظ على وجه صحيح ، ذلك أنه أراد أن يكنى عما قصده بكنائيتين ، أصاب فى إحداهما ، وأخطأ فى الأخرى .

وتوضيح ذلك هو أنه كنى بسكب الدموع عما يوجبه فراق الأحبة من الحزن والكد ، وهذا صواب ؛ لسرعة فهم الحزن من سكب الدموع ، ثم كنى عما يوجبه اجتماع شمله بأدبته من السرور والابتهاج .

نقول : كنى عن ذلك بجمود عينيه ، وهذا خطأ ؛ فجمود العينين إنما هو جفافهما من الدمع عند الدافع إليه ، أى أن جمودهما إنما هو بخلهما بالدمع وقت الحاجة إليه ، لا ما أراده من السرور .

يؤيد ذلك قول الشاعر :

ألا إن عيناً لم تجد يوم واسطاً عليك بجارى دمعها لجمود
أى لبخيلة بالدمع .

ومنه قول الخنساء ترثى أخاها صخرأ :

أعيني جوداً ولا تجمداً ألا تبكيان لصخر الندى ١١٩

والعرب تقول : « سنة جماد » أى بخيلة بالمطر ، « وناقاة جماد » أى لا تدر لبناً ، ومن هنا لا يصح أن يقال فى مقام الدعاء لشخص بالسرور : « لا زالت عينك جامدة » ، على معنى : لا أبكى الله عينك ؛ إذ هو دعاء عليه بالحزن ، وليس دعاءً له بالسرور .

والخلاصة أن المعنى الذى أراده ابن الأحنف وهو السرور لا يفهم من الجمود ؛ إذ لا يدل اللفظ عليه لا لغة ولا عرفاً ، ومن هنا جاء التعقيد المعنوى .

فصاحة المتكلم

فصاحة المتكلم ملكة يقتدر بها صاحبها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح . قلنا « ملكة » ولم نقل « صفة » ؛ إشعاراً بأن الفصاحة من الحالات المستقرة فى نفس الفصيح ، حتى إن المعبر عن مقصوده بلفظ فصيح لا يعد فصيحاً إلا إذا كانت القوة التى اقتدر بها على التعبير ملازمة له ، وراسخة فيه .

وقلنا « يقتدر » ولم نقل « يعبر » ليشمل التعريف الفصاحة بالقوة والفصاحة بالفعل .

وقلنا « بلفظ فصيح » ؛ ليعم المفرد والمركب .

وتكتسب ملكة الفصاحة عن طريق التمرس بالآثار الأدبية شعراً ونثراً ، قراءة وحفظاً وفهماً .

وبعبارة أخرى : تنوقاً ومعايشة .

البلاغة

كلمة « بلاغة » لغة تعنى الوصول والانتهاء ؛ يقال ؛ بلغ الشخص بلاغة ، إذا وصل بكلامه إلى ما يريده له من إمتاع أو إقناع .

وهى فى الاصطلاح البلاغى تختلف باختلاف موصوفها ، وموصوفها إما الكلام وإما المتكلم ، يقال : هذا كلام بليغ ؛ وهذا متكلم بليغ . ولا توصف بها الكلمة ؛ فلا يقال : هذه كلمة بليغة ، لأن الكلمة المفردة لا تكون معنى كاملاً يمكن تبليغه فلا توصف بالبلاغة .

بلاغة الكلام

بلاغة الكلام هى مطابقته لمقتضى الحال مع سلامته من العيوب المخلة بفصاحته وفصاحة أجزائه .

الحال : هو الأمر الداعى للمتكلم إلى أن يعتبر فى كلامه شيئاً خاصاً زائداً على أصل المعنى .

ومقتضى الحال : هو ذلك الأمر الزائد الذى اعتبره المتكلم فى كلامه لاقتضاء الحال إياه .

ومقتضى الحال قد يسمى الاعتبار المناسب ، كما قد يسمى الخصوصية .

أما : **مطابقة الكلام لمقتضى الحال** : فهى اشتماله على ذلك الشئ الزائد . مثال ذلك أن يقال لمن ينكر انتصار العرب على إسرائيل عام ١٩٧٣ « إن العرب قد انتصروا على إسرائيل سنة ١٩٧٣ » .

فإنكار المخاطب لهذا الانتصار « حال » . لأنه أمر يحمل المتكلم على أن يعتبر فى كلامه شيئاً خاصاً زائداً على أصل المعنى هو « التأكيد » ؛ محواً لهذا الإنكار ، فهذا التأكيد كما نرى أمر زائد على المعنى الأسمى الذى هو ثبوت النصر للعرب .

والصورة التى وردت للتأكيد فى الكلام هى « مقتضى الحال » إذ أن الحال اقتضتها ودعت إليها .

أما اشتمال الكلام على هذه الصورة ، فهو مطابقته لمقتضى الحال .

والعبارة بعد ذلك كله أو بذلك كله بليغة ؛ لأنها مطابقة لمقتضى الحال ، أى مشتملة على ما تقتضيه الحال من التأكيد .

وكالإنكار أيضاً المدح ، فهو حال يدعو المتكلم لأن يورد كلامه على صورة الإطناب ، لأن مقام المدح يقتضى إطالة القول ، والإفاضة فيه ، قضاء لحق المدوح .

وكذلك نكاه المخاطب حال يحمل المتكلم على أن يورد كلامه على صورة الإيجاز ، لأن مقام النكاه يقتضى الاختصار فى القول واستعمال العبارات ذات المعانى الدقيقة ، وكل من صورتى الإطناب والإيجاز مقتضى الحال . واشتمال الكلام على هذه الصورة أى مجيئه على صورة الإطناب أو الإيجاز مطابقة لمقتضى الحال .

بِلاغة المتكلم

هى ملكة راسخة فى نفس صاحبها يتمكن بها من تأليف كلام بليغ فى أى معنى يريد ؛ وصاحب هذه الملكة بليغ وإن لم ينطق ، أى بليغ بالقوة ، فإذا نطق أو كتب كان بليغاً بالفعل ، ولا يكون بأيغاً من يقدر على صوغ الكلام البليغ فى عرض دون آخر .

والأمر فى اكتساب ملكة البلاغة كالأمر فى اكتساب ملكة الفصاحة كلاهما رهن بتشرب الكلام البليغ لدرجة التشبع به ، ولقد كان إبراهيم المازنى يقرأ ويقرأ ويقرأ حتى إذا امتلأ فاض وفاض ، كان رحمه الله يشبه نفسه بعربة رش الشوارع بالمياه ، ويرى أنه خزان ضخم يمتلئ ليفرغ ، ويفرغ ليمتلئ ، ولندعه هو يتكلم قال : أحس الفراغ فى رأسى ، فأسرع إلى الكتب ، ألتهم ما فيها وأحشو بها دماغى ؛ هذا الذى خلقه الله لى خالقة عربات الرش كما قلت ، حتى إذا شعرت بالكظة ؛ وضايقتنى الامتلاء ، رفعت يدي عن ألوان هذا الغذاء ، وقمت متثاقلاً متثاقلاً مشفقاً من التخمة ، فلا ينجينى إلا أن أفتح الثقوب ، وأسح ، وهكذا بواليك « (١) .

* * *

مما تقدم فى الكلام على الفصاحة والبلاغة عرفنا ما يعرض للكلام من عيوب ، وما ينتابه من خلل ، وينبغى - لتكون الدراسة إيجابية - أن نعرف كيف نتقى هذه العيوب ، ونتحاشى ذلك الخلل .

(١) قبض الريح . تأليف إبراهيم عبدالقادر المازنى ، ص ٢ ، المطبعة العصرية بمصر ، سنة ١٩٢٧ م .

١- التنافر:

ملك معرفته الذوق السليم ؛ فهو الذى يقول إن لفظ « مستشزرات » متنافر الحروف وهو الذى يدرك ما بين الكلمات من تنافر أو تضافر ، والذوق نوعان : فطرى ومكتسب .

٢- المخالفة:

يمكن الاحتراز عنها بالوقوف على ما نقل عن الواضع ، وبمعرفة قواعد علم الصرف ، لأنه العلم الذى يبحث فى صيغ الكلمات وطرق استعمالها ، فمن ألم بقواعده عرف أن نحو (الأجل) مخالف لـون (الأجل) إذ من قواعده أن المثين إذا اجتمع فى كلمة واحدة ، وكان ثانيهما متحركاً ، ولم يكن زائداً لغرض وجب إدغامهما .

٣- الغرابة:

يمكن اجتنابها بالاطلاع على متن اللغة ، وبكثرة القراءة ، فمن تتبّع معاجم اللغة ، ووقف على معانى المفردات المستعملة ، علم أن ما عداها مما يفتقر إلى تنقيب أو تخريج غير سالم من الغرابة .

٤- زهوه التأليف والتحقيق اللفظي:

يمكن توقيهما بمعرفة قواعد النحو ، فهو العلم الذى يبحث طرق استعمال الكلمات على الوجه الصحيح فى تركيب الجمل . فمن تمرس بهذا العلم ووقف على أصوله ومسائله استطاع أن يصوغ الكلام على نهج قويم سليم من شوائب الضعف والتعقيد .

٥- التحقيق المعنوي:

يعرف من دراسة علم البيان ، فمن وقف على هذا العلم وأحصى مسائله ، عرف كيف يتوقى التعقيد فى معانى الكلام .

٦- الخطأ فى تأدية المعنى المراد:

أى فى تطبيق الكلام على مقتضى الحال ، وذلك يعرف من مزاوله علم المعانى ، فمن درس هذا العلم وتعمقه ، عرف كيف يتجنب الخطأ فى تأدية المعنى المراد ، وكيف يورد الكلام وفق مقتضيات الأحوال .

* * *

أما الوجوه التي تضاف على اللفظ انبهاء والرواء فتعرف من علم البديع ، لأنه العلم الموكول إليه تجميل الكلام وتحسينه .

والثلاثة الأخيرة هي المسماة بعلوم البلاغة .

وبعض المؤلفين يسمى الثلاثة « علم البيان » ، لأن البيان هو الكلام الفصيح المعرب عما فى الضمير .

* * *

قال الجاحظ : « البيان اسم جامع لكل ما كشف لك عن المعنى » .

وقال ابن المعتز : « البيان ترجمان القلوب ، وصيقل العقول » .

ومنهم من يسمى « البيان » و « المعانى » علم البلاغة ، لأنهما يبحثان فى صلب المعنى المراد ، وفى حسن عرضه ، فتأثيرهما فى الكلام ذاتى لا عرضى .

* * *

وبعضهم يسمى الجميع « علم البديع » لما فى مباحثه - بعد هذا الاتساع - من الروعة والإبداع (١) .

* * *

(١) الإيضاح المختصر لتلخيص المفتاح تأليف الخطيب الفزوينى ص ١-١٢ طبعة محمد صبيح الثانية ، وتهذيب السعد لسعد الدين التفتازانى تحقيق محمد محىى الدين عبد الحميد ١٣٥٦هـ / ١٩٣٨ م ص ٦ - ٢٦ مقدمة المحقق و ص ١ - ١٩ مقدمة المؤلف ، والمنهاج الواضح لحامد عونى ص ٥ - ٧٢ الطبعة الثانية ١٣٧٠هـ / ١٩٥١ م القاهرة ، وبغية الإيضاح لتلخيص المفتاح لعبد المتعال الصعديى ص ٢ - ٢٤ الطبعة الثانية ١٣٦٢هـ / ١٩٤٢ م القاهرة .

- ١ -

علم البياض

علم البيان هو العلم الذى يقدرنا على التعبير عن المعنى الواحد بطرق مختلفة فى وضوح الدلالة عليه ؛ فالوفاء والكرم والشجاعة والجمال ، يمكن التعبير عن كل منها بأكثر من تعبير واحد ، وعلم البيان هو الذى يجعلنا نستطيع ذلك .

ومباحث علم البيان هى التشبيه والمجاز والكناية .

التشبيه

هو إلحاق أمر بأمر آخر فى صفة أو أكثر بأداة من أدوات التشبيه ملفوظة أو ملحوظة .

وهو عند عبد القاهر : « أن تثبت لهذا معنى من معانى ذلك أو حكماً من أحكامه ، كإثباتك للرجل شجاعة الأسد ، وللحجة حكم النور فى أنك تفصل بها بين الحق والباطل ، كما يفصل بالنور بين الأشياء » (١) .

ولما ذكر الأستاذ الدكتور بدوى طبانة هذا التعريف لعبد القاهر ، علق عليه بقوله : « وهذا التعريف يبين وظيفة التشبيه وعمله أكثر مما يدل على حقيقته وحده » (٢) .

وحذا حنوه الدكتور أحمد عبد السيد الصاوى فقال : « ومن الملحوظ أن هذا التعريف يبين وظيفة التشبيه وعمله أكثر مما يدل على حقيقته وحده » (٣) .

والحق أن كلام عبد القاهر تعريف جيد للتشبيه ؛ أجل . إنه لم ينص فيه على الأداة ، لكن الأداة ركن من أركان التشبيه ، وليست طرفاً فيه ، وهى لهذا تذكر أو تقدر ، وتقديرها أفضل من نكرها بلاغة .

* * *

وقد نظر البلاغيون فى تعريف التشبيه إلى المعنى اللغوى لكلمة (شبه) وهو (مثل) تقول : فلان شبه فلان أو مثله ، وشبهته به أى مثلته به ، فالمعنيان اللغوي والاصطلاحي للتشبيه قريب من قريب (٤) .

(١) أسرار البلاغة ص ٧٨ - ٧٩ تحقيق هـ . ريتو . استانبول ١٩٥٤ م .

(٢) علم البيان ص ٤٢ طبعة الأنجلو المصرية ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٧ م .

(٣) فن الاستعارة ص ١٩٤ طبعة الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٩ م .

(٤) انظر الزمخشري فى أساس البلاغة ص ٢٢٨ بتحقيق عبد الرحيم محمود ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٣ م .

وأمثلة التشبيه أكثر من أن تحصى .

يقول المبرد « والتشبيه جار كثيراً في كلام العرب حتى لو قال قائل هو أكثر كلامهم لم يبعد » (١) .

وقد ذكر أن المرأة تشبه بالسحابة لتهاديها وسهولة مرها قال الأعشى

كأن مشيتها من بيت جارتها

مر السحابة لا ريث ولا عجل

كما ذكر أن العرب تشبه المرأة بالشمس والقمر والغصن والغزال والبقرة الوحشية والذرة والبيضة ، وإنما تقصد من كل شئ إلى شئ (٢) .

وفي مكان آخر يقول « التشبيه كما ذكرنا من أكثر كلام الناس ، وقد وقع على ألسن الناس من التشبيه المستحسن عندهم - وعن أصل أخنوخ - أن شبهوا عين المرأة والرجل بعين الظبي أو البقرة الوحشية ، والأنف بحد السيف ، والفم بالخاتم ، والشعر بالعناقيد ، والعنق بإبريق فضة ، والساق بالجمار ، فهذا كلام جار على الألسن ، وقد قال سراقبة بن مالك بن جشم ، فرأيت رسول الله ﷺ وساقاه ياديتان في غرزه كأنهما جمارتان ، فأردته فوقعت في مقنب من خيل الأنصار ، ففرعونى بالرماح وقالوا : أين تريد ؟ .

وقال كعب بن مالك الأنصاري : وكان رسول الله ﷺ إذا سرُّ تبليج وجهه فصار كأنه البدر (٣) .

(١) الكامل ج ٢ ص ٧٩ نشر مكتبة المعارف . بيروت د . ت .

(٢) الكامل ج ٢ ص ٥٥ .

(٣) الكامل ج ٢ ص ١٠٣ - ١٠٤ . والفرز : ركاب من جلد يضع فيه الراكب رجله تقول : اغترز الرجل وغرز رجله في الركاب إذا ركب ، أما المقنب فهو الجماعة من أى شئ تقول : قنبوا نحو العدو وتقنبوا أى تجمعوا وصاروا مقنبا .

(أساس البلاغة ص ٣٢٢ ، ص ٣٧٨ وانظر في الجزء الثاني من الكامل الباب ٤٧ ص ٤٠ - ١١٧) .

أركان التشبيه وطرفاه

أركان التشبيه أربعة هي : المشبه والمشبه به والأداة ووجه الشبه .

أما طرفاه فهما المشبه والمشبه به . هما طرفان ، وهما ركنان ، أما الأداة ووجه الشبه فركنان فقط .

والفرق بين الركن والطرف في التشبيه : أن الركن يمكن وجود التشبيه بدون ، بل إن حذفه أفضل من ذكره ، أما الطرف فلا يمكن وجود التشبيه بدون ، وتوضيح ذلك نقول :
كما لا يمكن تصور الميزان ذي الكفتين بدون الكفتين ، لا يمكن تصور التشبيه بدون الطرفين .

والطرفان قد يكونان :

حسيين مبصرين : مثل « كأنهن الياقوت والمرجان » .

وقد يكونان :

حسيين مسموعين : مثل : صوت فلان كنفير الحرب ، أو كقرع الطبول .

وقد يكونان :

حسيين مذوقين : مثل : عصير البرتقال كالعسل .

وقد يكونان :

حسيين مشمومين : مثل : نكهة حفيدتي كالمسك .

وقد يكونان :

حسيين ملموسين : مثل : لها بشر كالحرير .

وقد يكون الطرفان عقليين : أي لا يدرك واحد منهما بالحس ، كتشبيه العلم بالحياة ، والجهل بالموت ، والجمال بالسحر .

أو مختلفين والمشبه عقلي والمشبه به حسي ، وهذا هو الأصل في التشبيه :

مثل أن تشبه عدل الحاكم بالظل ، وظلمه بالحرور ، والموت بالسبع والسيرة الطيبة بالعطر .

ومن ذلك قوالهم : القناعة كنز لا يفنى . وقوالهم : الحكمة شجرة تنبت في القلب وتثمر في اللسان .

وقد يكونان مختلفين والمشبه هسي والمشبه به عقلى :

أى عكس السابق وهو فرع له :

قال القاضي على بن عبد العزيز الجرجاني : انصرفت عن دار الصاحب قبيل العيد ، فجعاني رسوله بعطر الفطر ومعه رقعة فيها هذان البيتان :

يأيها القاضي الذى نفسى له صبح قرب عهد لقائه مشتاقه

أهديت عطراً مثل طيب ثنائه فكأنما أهدى له أخلاقه

وكقول الصاحب قول أبى نواس في وصف الخمر :

هتكت فسي المدن حتى هسى فسي رقعة دينسى

وقول ابن بابك :

وأرض كأخلاق الكريم قعطتها

وقد كهل الليل السماك فأبصرنا

وقول ابن ملباطيا :

رب ليل كأنه أملى فيـ ك وقد رحت عنك بالحرمان

وقوله :

صحو وغيم وضياء وظلمٌ مثل سرور شابهِ عارض فم

وقوله :

كأن انتضاء البدر من تحت غيمة نجاء من البأساء بعد وقوع

وفى هذه القطعة للقاضي التنوخى تشبيهات كثيرة من هذا الضرب :

رب ليل قطعتـه كـمدود
 موحش كالثقل تقذى به العيد
 وكان النجوم بين دجاء
 مشرقـات كأنهن حجاج
 أو فراق ما كان فيه رداع
 ن وتأبى حديثه الأسماع
 سنن لاح بينهن ابتداءع
 يقطع الخصم والظلام انقطاع (١)

أداة التشبيه

أداة التشبيه هي أية لفظة تشعر بالمشابيه والمماثله .

هـن بـذلك جـرفـه الكـافـه :

وهى أم الباب لبساطتها وخفتها على اللسان والسمع ، ومن هنا كثر عقد التشبيه بها ،
 نقول :

المعلم كالأب ، والمعلمة كالأم ، والصديق كالأخ ، والصديقة كالأخت .

ويقول المعرى :

أنت كالشمس فى الضياء وإن جاوزت كبروان فى علو المكان
 ومن قصيدة (الفتيلة) لأبى نواس :

ومدت راحة كالماء منها إلى مساء معد فى إنساء
 وهن بـذلك الجـرفـه « كـافـه » .

قال الله تعالى : « وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة » .

وقال امرؤ القيس :

فيمالك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت ببذبل
 وقال :

نظرت إليها والنجوم كأنها مصابيح رهبان تُشَبُّ لِقنَال

(١) أسرار البلاغة ص ٢٠٧ - ٢١٦ .

وقالت الخنساء .

وإن صخرألتاتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار

وفى الحرف (كأن) يقول ابن جنى : « اعلم أن أصل هذا الكلام : زيد كعمرو ، ثم أرادوا توكيد الخبر فزادوا فيه (إن) فقالوا : إن زيدا كعمرو ، ثم إنهم بالغوا فى توكيد التشبيه فقدموا حرفه أول الكلام : عناية به ، وإعلاماً أن عقد الكلام عليه ، فلما تقدمت الكاف وهى جارة لم يجز أن تباشر (إن) ؛ لأنها ينقطع عنها ما قبلها من العوامل ؛ فوجب لذلك فتحها فقالوا : كأن زيدا عمرو » (١) .

* * *

ومن أدوات التشبيه كل اسم أو فعل يدل على التشبيه أو يبنى به كمثل وشبه ومحاك ومشابه ومضارع .

وكماثل وشابه وحاكى ومضارع وحسب وظن وخال ورأى ووجد وعلم ، قال ولد القاضى عياض واصفاً تتنى الزرع بفعل الرياح :

انظر إلى الزرع وخاماته
يحاكى وقد ولت أمام الرياح
كتيبة خضراء مهزومة
شقائق النعمان فيها جراح
وقال بشار :

وكانت تصت لسانها
وتخال ما جمعت عليه
هاروت ينفث فيه سحرا
ه ثيابها ذهباً وعطرا

ومن قصيدة البحتري فى وصف بركة المتوكل :

إذا النجوم تراءت فى جوانبها
محفوفة برياح لا تزال ترى
ليلاً حسبت سماء ركبت فيها
ريش الطواويس تحكيه ويحكيها

(١) الخصائص ج ١ ص ٢١٧ .

وينقسم التشبيه باعتبار الإضافة إلى :

(أ) مرسل : وهو ما ذكرت فيه الأداة مثل محمد كحاتم .

(ب) مؤكّد : وهو ما حذفت منه الأداة مثل محمد حاتم في الكرم .

والمؤكد أبلغ من المرسل ، ففيه لاتفصل أداة التشبيه بين المشبه والمشبه به ، ذهاباً إلى أنهما شئ واحد أو ادعاء لذلك على سبيل المبالغة .

وجه الشبه : وجه الشبه هو المعنى المشترك بين الطرفين كالرقة في تشبيه الفتاة بالزهرة ، والجمال في تشبيهها بالبدر ، والرشاقة في تشبيهها بالغزال .

أقسام التشبيه باعتبار وجه الشبه

(٨)

التشبيه غير التمثيلي والتشبيه التمثيلي

ينقسم التشبيه من حيث وجه الشبه إلى هذين القسمين ، فقد يكون وجه الشبه مفرداً
مثل :

خالد أسد شجاعة ، والأخ الأكبر أبو رعاية ، والأخت الكبرى أم حناناً .

وقد يكون متعدداً ، لكنه لا يكون صورة مركبة من هذا التعدد ، كقولنا : الفتاة زهرة رقة
وشذى ونضارة .

وكقول أبي بكر الخالدي :

يا شبيهه البدر حسنا	وضياعومنا لا
وشبيهه القصب لنا	وقواما واعتدالا
أنت مثل الورد لونا	ونسيم لودالا
زارنا حتى إذا ما	سرننا بالقرب زالا

وإذا كان وجه الشبه في التشبيه واحداً أو متعدداً لا يكون بتعدده صورة وهيئة ، نتج لنا ما يعرف بلاغياً بالتشبيه غير التمثيلي ، كالأمثلة السابقة .

أما إذا كان وجه الشبه صورة مركبة من أجزاء ، وهيئة حاضلة من أشياء ، فإن التشبيه حينئذ يسمى بالتشبيه التمثيلي .

وأمثلة التشبيه التمثيلي كثيرة ، من ذلك قول شوقي :

أسرى بك الله لياً إذ ملائكة
لما خطرت به التفوا بسيدهم
والرسل في المسجد الأقمى على قدم
كالشهب بالبدر أو كالجنود بالعلم

وقول ابن المعتز :

اصبر على كيد الحسرو
كالنار تأكل نفسها
د فإن صبرك قاتله
إن لم تجد ما تأكله

وقول أبي فراس :

والماء يفصل بين روض الـ
كبساطوشى جردت
زهر في الشطين فصلـ
أيدي القيون عليه | نصلا

وقول بشار :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا
وقول المتنبى :

يهز الجيش حولك جانبيه
كما نفخت جناحها العقاب

وقول السرى الرقاء :

وكان الهلال نون لجين

وقول صالح بن عبد القنوس :

وإن من أدبته في الصبا
حتى تراه مورقا ناظرا
غرقت في صحيفة زرقاء
كالعود يسقى الماء في غرسه
بعد الذي أنصرت من يبسه

وقول الله تعالى في صفة المنافقين :

﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حوله ، ذهب الله بنورهم وتركهم في
مات لا يبصرون ﴾ .

وقوله تعالى في صفة الكافرين : ﴿ والذين كفروا بربهم أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه
لما ن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده ﴾ .

وقوله جل شأنه في صفة اليهود : ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل
بمار يحمل أسفاراً ﴾ .

وقوله سبحانه فيمن اتخذوا من دون الله أولياء : ﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء
ثل العنكبوت اتخذت بيتاً ، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ﴾ .

(٢)

التشبيه الحقيقي والتشبيه التخيلي وتشبيه التظاير

وهو التقسيم الثاني للتشبيه باعتبار وجه الشبه

فالتحقيقي :

هو ما كان وجه الشبه فيه قائماً بالطرفين حقيقةً ، كتشبيه وجه الفتاة بالشمس ،
مرها بالليل .

وجه الشبه بين الطرفين إنما هو الإشراق ، والسواد على التوالي ، وهما موجودان في
رفين حقيقة .

والتخيلي :

هو ما يكون وجه الشبه قائماً بأحد الطرفين تحقيقاً ، وبالأخر تخيلاً نقول : سيرة فلان
ع الطيب ، وأخلاقه كأريج المسك .

فالشذا تحقيقي فى المسك والطيب ، وتخيلى فى الأخلاق والسيره .

* * *

وكالتشبيه التخيلى تشبيه التضاد .

ويسمى التشبيه تشبيه تضاد إذا كان وجه الشبه فى أحد الطرفين ادعائياً ، وفى الآخر حقيقياً .

نقول للجبان : أنت عنتره ، ، والبخيل : أنت حاتم ، والعيى : أنت سحبان وانل ، والغبى : أنت إياس ، والدميمة : أنت قمر .

وما راعيناه وتصرفنا بمقتضاه هو أننا أنزلنا التضاد بين الطرفين منزلة التماسك ، وأشركنا المشبه مع المشبه به فيه على سبيل التلميح أو التهكم (١) .

(٣)

التشبيه المفصل والتشبيه المجمل

وهو التقسيم الثالث للتشبيه من حيث وجه الشبه .

فالمفصل : هو ما ذكر فيه وجه الشبه مثل : محمد حاتم كرمأ .

وكقول ابن الرومى :

يا شبيه البدر فى الحسب من وفى بعد المنال
جُدْ فقد تنفجر الصخر مرة بالماء الزلال

والمجمل : هو ما حذف منه وجه الشبه مثل محمد كحاتم .

قالوا : ولا يضاد الإجمال أن يوصف المشبه أو المشبه به أو هما معاً بوصف يشعر بوجه الشبه .

فالأول : كقول الرسول ﷺ : « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » .

وجه الشبه فى الحديث هو الهداية ، و « بأيهم اقتديتم اهتديتم » مشعر به ، بل نص عليه .

(١) انظر مفتاح العلوم ص ٢٦٨ الطبعة الأولى ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٧ م القاهرة .

والثانى كقول من وصف بنى المهلب للحجاج لما سأله عنهم وعن أيهم أمجد ؟ « هم كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها » .

قد « لا يدري أين طرفاها » وصف للمشبه به وهو مشعر بوجه الشبه الذى هو التناسب .

يقول القزوينى معلقاً على هذا المثال ، ومرجحاً نسبه إلى الأنمارية : « أى لتناسب أصولهم وفروعهم فى الشرف يمتنع تعيين بعضهم فاضلاً ، وبعضهم أفضل منه ، كما أن الحلقة المفرغة لتناسب أجزائها يمتنع تعيين بعضها طرفاً وبعضها وسطاً ، هكذا نسبة الشيخ عبد القاهر إلى من وصف بنى المهلب ، ونسبه الشيخ جار الله العلامة إلى الأنمارية ، قيل هى فاطمة بنت الخرشب ، سئلت عن بنيتها : أيهم أفضل ؟ فقالت : عمارة ، لا بل فلان ، لا بل فلان ثم قالت : ثكلتهم إن كنت أعلم أيهم أفضل هم كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها » . ونحوه قول زياد الأعجم :

وإنا وما تلقى لنا إن هجوتنا لكأبهر مهما تلق فى البحر يفرق
وكذا قول النابغة :

فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب^(١)

والثالث وهو وصف كل من المشبه والمشبه به بوصف مشعر بوجه الشبه ، كقول أبى تمام يمدح :

صدفت عنه ولم تصدف مواهبه عنى ، وعواده ظن فلم يخب
كالغيث إن جنته وافاك ريقه وإن ترحلت عنه لج فى الطلب

فقد وصف الشاعر المشبه وهو المدوح بأنه يتفضل عليه حاضراً وغائباً مقبلاً ومعرضاً ، ووصف المشبه به وهو الغيث بأنه يساقط عليك طلبته أو لم تطلبه .

والوصفان مشعران بوجه الشبه ، وهو الإفاضة الجامعة بين الطرفين .

(١) بغية الإيضاح . عبد المتعال الصعدي ج ٢ ص ٥٢ - ٥٤ سنة ١٣٦٤هـ - ١٩٤٤م القاهرة .

هذا ما قرره علماء البلاغة وعلى رأسهم القزويني (١) .

والرأى عندى أن الوصف المشعر بوجه الشبه سواء كان وصفاً للمشبه أو للمشبه به أولهما معاً ، هذا الوصف فى رأى مخرج للتشبيه من (المجل) ومدخل له فى (المفصل)؛ فلا فرق بين الإشعار بوجه الشبه وذكر وجه الشبه صراحة ، والأمثلة المذكورة كلها قد دلت الصفة فيها على وجه الشبه ، بل إن هذه الصفة فى بعض الأمثلة كانت هى وجه الشبه .

وإذا كنا نرفض كلامهم وهم يقسمون الوصف إلى وصف خاص بالمشبه ، وإلى وصف خاص بالمشبه به ، فتولى أن نرفضه فى حالة شمول الوصف للمشبه والمشبه به .

ومهما يكن من أمر فإن التشبيه المجل أبلغ من التشبيه المفصل ؛ لأن السكوت عن وجه الشبه يشعر بأن المشبه مشترك مع المشبه به فى كثير من صفاته ، بل يعطى الإيحاء بادعاء أنه هو .

أما التصريح بوجه الشبه ، فإنه نص على أن المشبه لا يشترك مع المشبه به إلا فيما ذكرناه .

ولا فرق من وجهة نظرى - كما أسلفت - بين التصريح بوجه الشبه والإيحاء إليه أو ما سموه الإشعار به .

صور التشبيه

للتشبيه أربع صور هى :

- ١ - الطرفان والركنان مثل : محمد كالأسد فى الشجاعة .
- ٢ - الطرفان وركن واحد هو الأداة مثل : محمد كالأسد .
- ٣ - الطرفان وركن واحد هو وجه الشبه مثل : محمد أسد شجاعة .
- ٤ - الطرفان فقط مثل : محمد أسد ، ومن أمثله فى القرآن الكريم : ﴿ النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ جعلنا الليل لباسا ﴾ .

(١) انظر بغية الإيضاح ج ٣ ص ٥٣ - ٥٤ .

ومن أمثله كذلك قول أبي فراس الحمداني :

إذا نلت منك الود فالكل هين وكسل الذي فوق التراب قراب

مراتب التشبيه

للتشبيه ثلاث مراتب هي :

المرتبة الدنيا وهي الصورة رقم (١) .

المرتبة الوسطى ، وتتكون من الصورتين (٢) ، (٣) .

المرتبة العليا ، وهي الصورة رقم (٤) ويسمى البلاغيون (التشبيه البليغ) والتشبيه البليغ أعلى درجات التشبيه في البلاغة الاصطلاحية .

أما في الكلام البليغ ، فقد يأتي غيره قبله ، وهذا متوقف على القيمة الفنية للأداء الأدبي جملةً ، فلن يشفع التشبيه البليغ للكلام الرديء ، كما لن يحط التشبيه غير البليغ من شأن الكلام الجيد ، قال تعالى في محمد ﷺ وأصحابه ﴿ ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره ﴾ ، وقال جل شأنه : ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً ﴾ .

وسنصادف فيما يأتي تشبيهات بلغت الذروة من الفنية ، ولم يقصر بها عنها وجود أداة فيها أو وجه شبه ، أو أداة ووجه شبه معاً ، كما ستصادفنا تشبيهات بليغة وهي من الركافة والرتابة بحيث لا يؤبه بها ، بل لا يلتفت إليها ، وتأمل قول الشاعر :

العيش نوم والمنية يقظة والمرء بينهما خيال سار

فستجد نفسك وكأنك في « دلائل الخيرات » (١) .

(١) دلائل الخيرات منظومة كان المتكسبون بالإنشاد في الموالد وغيرها من المناسبات الدينية ينشدونها مجتمعين وهم سائرون في الطرقات ؛ قصداً إلى تذكير الناس بالمناسبة وتعبيراً عن فرحتهم بها . وكانت تبدأ هكذا :

مولاي صل وسلم دائماً أبداً على حبيبك خير الخلق كلهم

ومن التشبيه البليغ إضافة المشبه به إلى المشبه كقول الشاعر :

والرييح تعبت بالفصون وقد جرى

ذهب الأصيل على لجين الماء

فالأصيل مشبه بالذهب ، والماء مشبه باللجين

ومنه أن يكون المشبه به حالاً من المشبه مثل : خاض خالد المعركة أسداً.. ومثل :

بدت قمراً ومالت خوط بان وقاحت عنبراً ورنت غزالاً (١)

ومنه المصدر المبين لنوع فعله بطريق الإضافة . تقول :

نهض الموظف بأعباء وظيفته نهوض الرجال. كما تقول : مكر مكر الثعلب. وسر بلاغة التشبيه البليغ ما فيه من إيجاز ومبالغة .

التشبيه المقلوب

هناك مقولة بلاغية مسلمة هي : إن وجه الشبه يجب أن يكون أظهر وأشهر في المشبه به عنه في المشبه ، وذلك كي يصح إلحاق المشبه بالمشبه به في هذا الوجه .

قال المعري :

ظلمناك في تشبيه صدغيك بالمسك

وقاعدة التشبيه نقصان ما يحكى

من هنا جاء ما نراه من عكس بعض الشعراء الوضع في التشبيه بجعل المشبه مشبهاً به ، والمشبه به مشبهاً ، إيهاماً بأن المشبه أقوى وأكمل في وجه الشبه من المشبه به .

وقد سمي جمهور البلاغيين هذا النمط من التشبيه بالتشبيه المقلوب ، ومثلوا له بقول محمد بن وهب يمدح المؤمن :

(١) الخُوط : الفصن الناعم يقولون : « كم وراء هذه الحيطان من قنود كالخيطان » وانظر أساس البلاغة ص ١٢٢ .

وبدا الصباح كأن غرتك وجه الخليفة حين يمتدح

ويقول الآخر :

والبدر في أفق السماء كغداة

ويقول البحترى في وصف سحابة :

كأن سناها بالعشى لصبحها

ويقوله في وصف بركة المتوكل :

كأنها حين لجت في تدفقها يد الخليفة لما سال واديها

ومن لطيف التشبيه المقلوب ما نراه عند مصطفى صادق الرافعي تحت عنوان « حيلة مرأتها » قال :

سألته معجزة الهوى فأنالها	حسناء خالقها أتم جمالها
بالحسن منفرداً أجل جلالها	لما حباها الله جل جلاله
لهوى النواظر أو يدل دلالها	طلبوا لها شبيها يضمن ضيائها
والأرض قد عرضت لذاك فزالها	أما السما فجلت عليهم بدرها
وتلفتت للبدر فاستحيا لها	لكنها نظرت فأخرجت الظبا
مرأتها يجدوا هناك مثالها	هم يطلبون مثالها فليرقبوا

ولأن الأديب في التشبيه المقلوب يجعل الفرع أصلاً ، والأصل فرعاً سماه ابن جنى « غلبة الفروع على الأصول » وقرظه بقوله :

« إنه فصل من فصول العربية طريف ، نجده في معاني العرب ، كما نجده في معاني الأعراب ، ولا تكاد تجد شيئاً من ذلك إلا وانفرض فيه المبالغة » (١) .

أما ابن الأثير ، فقد سماه (الطرد والمكس) وجعل منه قول البحترى :

(١) الخصائص ج ١ ص ٢٠٨ .

فى طلعة البدر شئ من محاسنها

والمقضيى نصيب من تنبيها

وقول ابن المعتز فى تشبيه الهلال :

ولاح ضوء قمير كاد يفضحننا مثل القلامه قد قدت من الظفر (١)

والتشبيه المقلوب هو « التشبيه المنعكس » عند العلوى صاحب الطراز قال : « إن هذا النوع يرد على العكس والندور ، وباب التشبيه الواسع هو الاطراد ، وإنما لقب بالمنعكس ، لما كان جارياً على خلاف العادة والإلف فى مجارى التشبيه » (٢) .

وأخيراً فإن ثمة احترازاً يجب الأخذ به ، وهو أن التشبيه المقلوب لا يرد ولا يحسن إلا فيما كان وجه الشبه فى المشبه به أظهر وأشهر ، فهذا يعرف القلب ، وتظهر صورة الانعكاس .

التشبيه الضمنى

إذا جاء المشبه فى صورة غريبة تدعو إلى إنكاره ورفضه ، احتاج - فى قبوله وبيان إمكانه - إلى أن نقيسه بنظير له مسلم به ، وإذا تم ذلك تلميحاً لا تصريحاً ، وقفنا على ما يسمى فى الاصطلاح البلاغى بالتشبيه الضمنى .

قال المتنبى :

وإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

زعم الشاعر أن سيف الدولة قد فاق الأنام الذى هو واحد منهم وصار جنساً آخر .

ولما لم يكن ذلك مسلماً له لا عقلاً ولا عادة ، احتاج إلى أن يقويه ، فألحقه بما لا نزاع فيه وهو المسك ؛ فإنه قد خرج عن أصله ، وصار جنساً آخر حقيقة ، وقد وصل أبو الطيب بمنطق البلاغة ، أو ببلاغة المنطق إلى أن ما ادعاه لمبوحه أمر ممكن .

(١) المثل السائر ج ١ ص ١٥٨ .

(٢) الطراز ج ١ ص ٣٠٩ .

ومثل بيت المتنبي هذا البيت :

وإن تكن تغلب الغلباء عنصرها

فإن فى الخمر معنى ليس فى العنب

قال : إذا كانت محبوبتى من قبيلة تغلب التى لا تغلب ، فإن لها عن رقتها وأنوئتها ، ومن حبها لى ما يجعلها مختلفة عن أهلها ، وبرهن على صحة كلامه بما ينشأ للخمر التى أصلها العنب من خواص ليست فى العنب .

وكالبيتين السابقين قول ابن الرومى :

قد يشيب الفتى وليس عجيباً أن يرى النور فى القضيبي الرطيب

وقول أبى تمام :

لا تنكرى عطل الكريم من الفنى فالسيل حرب للمكان العالى

* * *

ولا يقتصر التشبيه الضمنى على بيان إمكان المشبه ، بل يشمل كل تشبيه يتحرك فى أعماق النص الأدبى ولا يعوم على سطحه .

وإذا كان الأديب فيما مضى قد قصده إقامة للحجة ، فإنه هنا قد سلكه رغبة فى الطرافة والجدة .

وصف ابن نباتة فرسه الأغر المحجل فقال :

وأدهم يستمد الليل منه	وتطلع بين عينيه الثريا
سرى خلف الصباح يطير مشياً	ويطوى خلفه الأفلاك طياً
فلما خاف وشك الفوت منه	تشبث بالقوائم والمحيا

لما أراد الشاعر وصف فرسه بشدة السواد قال : « يستمد الليل منه » .

هكذا بقلب التشبيه ، فالأصل تشبيه الفرس بالليل ، ولكنه بالغ فعكس ، أى جعل المشبه مشبهاً به ، والمشبه به مشبهاً ؛ ثم بالغ مرة أخرى فجعل الليل يستمد سواده من الفرس ،

وقد جاء التشبيه لذلك مطوياً يحتاج في لذه إلى وقفة ، والشطرة الثانية متضمنة تشبيه جبهة الفرس بالثريا تشبيهاً ضمنيّاً ، وإذا كان الشاعر قد قصرها على غرة الفرس ، فإنه قد حكى قصة الغرة والتحجيل معاً بعد ذلك ، وهي قصة طريفة حقاً :

تحدى فرسه الصباح ، وخاف الصباح سبق الفرس له ، فتشبث بقوائمه ومحياه ؛ وهذا سبب بياضها .

ومثل هذا في المعنى ولو أنه تشبيه صريح قوله :

فكانما لطم الصباح جبينه فاقطن منه وخاض في أحشائه

السرّاع مستمر بين الفرس والصبح ، لكنه أخذ صورة أخرى :

الصباح يلطم الفرس ، فيثور الفرس ، ويخوض في أحشاء الصباح .

والصورة هنا أكثر إيجازاً وتركيزاً ومباشرة من الصورة السابقة ، ويمكن القول لهذا بأن ابن نباتة قد تفوق على نفسه .

والتشبيه الضمني موجود في أدبنا الحديث بكثرة ، وقد يأتي في صورة حوار فيكسبه الحوار طرافة وحيوية وحركة .

من ذلك هذا الشعر لبشارة الخوري بعنوان (هند وأمها) :

فسبحان من جمع النيرين
أتانى وقبلى قبليتين
هبانى من شعره خصاتين
وألقى على مبسمى نجمتين
وكحلنى منه فى المقلتين
لأحجب نفسى عن كل عين
وهم ليفعل كالأولين
إلى الصدر يا أم مد اليدين
وشاهدت فى الصدر رمانتين
على قدمى ساجدا سجدتين
فقدم لى تينك الوردتين

أتت هند تشكو إلى أمها
فقلت لها إن هذا الضمى
وفر قلما رانى الدجى
وما خاف يا أم بل ضمى
وذوب من لونه سائلا
وجئت إلى الروض عند الصباح
فنادانى الروض يا روضتى
فخبأت وجهى ولكنى
ويا دهشتى حين فتحت عينى
وما زال بى الغصن حتى انحنى
وكان على رأسه وردتان

بأذنى أوراقه كلمتين
فحملنى ويحه موجتين
غريق وكم من فتى بين بين
فبالله يا أم ماذا تريد
وماست من العجب فى بردتين
وذقت الذى ذقته مرتين (١)

وخفت من الغصن إذ تمتمت
فرحت إلى البحر للابتعاد
هو البحر يا أم كم من فتى
فها أنا أشكو إليك الجميع
فقال وقد ضحكت أمها
عرفتهم واهداً واهداً

يقول المرحوم أنور المعداوى فى تعليقه على الأبيات السابقة :

وهو (بشارة الخورى) يستخدم الضحى والليل والروض والغصن والبحر ، يستخدمها كمجالات خلفية لصوره المرسومة .

ومن الملاحظ أنه لم يلجأ - كما هو الحال عند المدرسة الكلاسيكية - إلى التعبير المباشر فى التشبيه ، لم يلجأ إلى طريقة التجسيم التقليدى ليشبه بياض الوجه بنور الضحى : وسواد الشعر بظلام الليل ، وبريق الأسنان بضوء النجم إلى آخر السلسلة من تلك القائمة الرتيبة والمكررة (٢) .

أغراض التشبيه

من المسلم به أن المستفيد من التشبيه إنما هو المشبه حتى لو تنكر فى صورة المشبه به كما فى التشبيه المقلوب ، وهذا هو المعقول ، فالتشبيه بمثابة القياس فى إلحاق شئ بشئ ، أو حمل شئ على شئ ، ولما كان المشبه هو المنزّل منزلة المقيس عادت فائدة التشبيه عليه واختصت به .

وأغراض التشبيه كثيرة منها :

١- بياض حال المشبه :

وذلك إذا كنا نجهل حاله قبل إلحاقه بالمشبه به . نقول : (الفتاة قمر) فنعلم - بالتشبيه - أنها جميلة ، ولولا التشبيه ما علمنا ذلك ، فالتشبيه هو الذى بين حال الفتاة : لأنه أظهرها لنا فى صورة قمر أى جميلة .

(١) عن ديوان « الهوى والشباب » للأخطل الصغير « بشارة الخورى » .

(٢) كلمات فى الأدب ص ٦٨ .

ويقول النابغة مادحاً النعمان بن المنذر :

فإنك شمس والملوك كواكب
إذا ألمعت لم يجد هتمون كوكب
فنعلم حال النعمان وحال الملوك المعاصرين له ، أو حال النعمان مع الملوك المعاصرين له ،
وأنه كان إذا طلع عليهم أخفتهم وطمس معالمهم .

ويلزم - لنجاح التشبيه في تحقيق هذا الفرض - أن يكون المشبه به مشتهراً بوجه
الشبه؛ لأن الباعث على التشبيه إنما هو تعريف المخاطب بحالة المشبه المجهولة له ، فلو لم
تكن حالة المشبه به معروفة لديه من قبل ، لزم تعريف المجهول بالمجهول ، وكنا كمن يسكب
الطيب في ماعون مثقوب .

٣- بياج مقدار حال المشبه .

مثل : الفتاة جميلة كالقمر . هنا نعرف حال المشبه قبل عقد التشبيه ، وأنه جميل . لكن
إلى أي حد هو جميل ؟ لا ندري ، ويأتي التشبيه فيفيد أن الفتاة غاية في الجمال .
وبلغة المحكمين نقول : إن التشبيه قد أعطى للمشبه درجة عالية بينت مقدار جماله .
ويقول الشاعر :

إذا قامت لحاجتها تثنت
كأن نظامها من خيزران
أفادت (تثنت) الوصف المشترك بين المشبه والمشبه به وهو الليونة لكن بقي أن نعرف
مقدار هذه الليونة ودرجتها ، وقد أسعفنا التشبيه بذلك .
وكالبيت السابق هذا البيت :

فيها اثنتان وأربعون حلوبة
سوداً كخافية الغراب الأسحم (١)
٣- بياج إمركا المشبه :

ونحيل في توضيح هذا الفرض على ما سبق في التشبيه الضمني ، ومن أمثله فوق ما
هناك قول المتنبي :

من يهن يسهل الهوان عليه
ما لجرح بعيت إيلام

(١) الخافية : ريش في الطائر يختفى إذا ضم جناحيه ، والأسحم : شديد السواء .

وقول أبي فراس :

وسيدكزنى قومي إذا جد جدهم وفي الليلة الظلماء يفقد البدر

وقول البحتري :

دان إلى أيدي العفافة وشاسع عن كل ند في الندى وخريب

كالبدر أفرط في العلو وضوءه للعصبة السارين جد قريب

٤ - تقرير حال المشبه وتمكينها في نفس متلقى الأدب سامعاً كان أو قارئاً :

ويظهر ذلك بوضوح حين نشبه امرأة معنوياً بأمر حسي مثل أن نشبه من لا يجنى ثمرة من عمله بمن يكتب على الماء أو في الهواء ، وكأن نشبه التعليم في الصغر بالنقش على الحجر ، ومن ذلك قول الشاعر :

إن القلوب إذا تنافسر ودها مثل الزجاجة كسرها لا يشعب

إذ نجد فيه من تقرير المعنى وتثبيته في النفس ما لا نجده فيما لو شبهنا تنافر القلوب - وهو أمر معنوي - بأمر معنوي آخر ، كأن نقول :

إن تنافر القلوب كتنافر العقول أو كالخصام بين أولى الأرحام ؛ فمن المقطوع به أن الجزم بالأمور الحسية أقوى من الجزم بالأمور المعنوية ، إذ المدرك بالحس أقوى من المدرك بالذهن ، وتتفاوت المحسوسات في درجة وضوحها على حسب التفرد أو التعدد في الحواس المدركة بها ؛ فالمدرك بحاستين أقوى وأوضح من المدرك بحاسة واحدة ، والمدرك بثلاث حواس أقوى وأوضح من المدرك بحاستين ، وهكذا ، وعلى هذا جاء قول أبي نواس :

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر

ولا تسقني سرا إذا أمكن الجهر

قالوا : قصد - إمعاناً منه في التلذذ بالخمر - إلى أن يحسها بنوقه وشمه ولسه وبصره ، وأخيراً بسمعه .

٥ - تزيين المشبه وتحسينه ، لتتنع به العقول ، ولتعتنقه القلوب ، أو على الأقل ترضى عنه وتقبله .

ويتحقق ذلك إذا شبهنا شيئاً لا نرتاح إليه ، ولا نستشعر القبول له بشيء محبوب لنا

ومرضى عنه منا ، إننا فى هذه الحالة سنلحق ما ليس بحسن ولا محبوب بما استقر فى النفوس حسنه وحبه .

والمحصلة أن مستقبل الأدب سيتلقى المشبه بالترحاب الذى هو دأبه مع المشبه به ؛ لما هو مركز فى الطباع من أن التماثلين حكمهما واحد .

قال الشاعر :

سوداء واضحة الجبيد ن كملة الظبي الغرير

فالوجه الأسود مما لا يستحسن عادة وبخاصة فى النساء ، ولأجل الترغيب فيه شبهه بشئ مستحسن ومحبوب هو ملة الظبي الحسن الشكل .

وقال الشاعر :

تفاريق شيب فى الشباب لوامع

وما حسن ليل ليس فيه نجوم

شبه الشاعر - تشبيهاً ضمناً - الشعر الأبيض بين الشعر الأسود بالنجوم تتألق فى الليل البهيم ، والغرض من التشبيه إنما هو تزيين الشيب فى العيون وتقريبه من العقول والقلوب .

ونحن نوظف التشبيه فى هذا الغرض حين نشبه صوت مغن ناشئ بصوت مغن مشهور ، وحين تشبه أماناً من خطبتها هى لنا بأختنا الحلوة .

ومن هذا الغرض قول أبى الحسن الأنبارى فى مصلوب :

مددت يديك نحوهم احتفاء كمددهما إليهم بالصلوات

ومنه - إلى حد ما - هذا البيت:

إن النساء رياحين خلقن لنا وكلنا يشتهي شم الرياحين

٦ - تقبيح المشبه بإلحاقه بمشبه به قبيح ومكروه :

ونحن ضامنون أن المشبه به سيعدى المشبه به بدمامته وكراهيته ، فتتقزز منه النفس ويمجه حيق تقريره وهو مركز فى الطباع من أن التماثلين حكمهما واحد

ونمثل لهذا الغرض بهذا البيت الذي اشتمل على تشبيه شئ واحد بشيئين اثنين :

وإذا أشار محدثاً فكانه قرد يهقه أو عجوز تلطم
ويقول الشاعر مقبلاً زوجته :

وتفتح - لا كانت - فما لو رأيت توهمته باباً من الشر يفتح
وبهذا البيت مع التحفظ فيه بما سبق في نظيره :

إن النساء شياطين خلقن لنا نعوذ بالله من شر الشياطين

* * *

تلك كانت أغراض التشبيه ، ومازاد على ذلك مما قالوا : إن الغرض من التشبيه فيه يعود على المشبه به وهو التشبيه المقلوب فخطأ واضح ؛ لأن مرسل الأدب ومستقبله كليهما لم يقب عن بالهما أن المشبه به في الحقيقة إنما هو المشبه ، عدل به عن مكانه إلى مكان المشبه به تجوزاً وصورة ، لا حقيقة ؛ خدمة له ، ومبالغة في جعله أجمل وأكمل ، لا من المشبه به ، بل في ذاته ونفسه ، وفي ذلك اعتراف ضمني بتفوق المشبه به الحقيقي على المشبه في وجه الشبه ، وبأن المستفيد من التشبيه إنما هو المشبه دائماً ، أي مهما تقلبت الأوضاع به واختلفت طرائق التعبير عنه .

* * *

وشئ آخر هو أن بعض البلاغيين قد جعلوا من أغراض التشبيه استطراف المشبه أي جعله طريفاً بإبرازه في صورة ممتنعة الحصول في الخارج أو نادرة الحضور في الذهن .
وضربوا للأول مثلاً ، تشبيهه فحم سرت فيه النار ببحر من المسك موجه الذهب . وهو تشبيهه سخيف ولو أنه صحيح .

أما الثاني ، فقد مثلوا له بقول عدى بن الرقاع واصفاً قرن الغزال :

تزجى أنهن كأن إبرة روقه قلم أهاب من الدواة مدادها

ويقول آخر يصف أزهار البنفسج على سيقانها :

ولا زهردية تزهر وبزرققتها بين الرياض على حمر اليواقيت

كأنها ورق ذمامات ضعفن بها أوائل النار في أطراف كهبيت

ويقول الله تعالى مشبهاً الهلال بسبابة البلح اليابسة المتقوسة :

﴿والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم﴾ .

والحق أن الطرافة الموجودة في هذه التشبيهات وأمثالها ليست غرضاً من أغراض التشبيه ، بل هي وصف له ، وهو وصف يطول أى تشبيهه في أى غرض ، وذلك إذا كان طريفاً حقاً .

الحقيقة والمجاز

الحقيقة والمجاز وصفان يتعاقبان على الكلمة والجملة .

فالمستعمل منهما طبق معناه في المعجم يسمى حقيقة لغوية .

والمستعمل منهما خلاف معناه في المعجم يسمى مجازاً لغوياً .

ولابد في المجاز اللغوي من وجود علاقة بين المعنى الأصلي والمعنى الفرعى أى بين المعنى الحقيقى والمعنى المجازى ، وهذه العلاقة قد تكون المشابهة وقد تكون غير المشابهة ، فإن كانت العلاقة المشابهة فالمجاز استعارة تصريحية أو مكنية في المفرد ، وتمثيلية في المركب ،

وإن كانت العلاقة غير المشابهة فالمجاز مجاز مرسل وعلاقاته متنوعة .

وأيضاً لابد في المجاز اللغوي من وجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقى . وهذه القرينة قد تكون لفظية ، وقد تكون عقلية تفهم من السياق العام للكلام أو من ملابساته الخارجية .

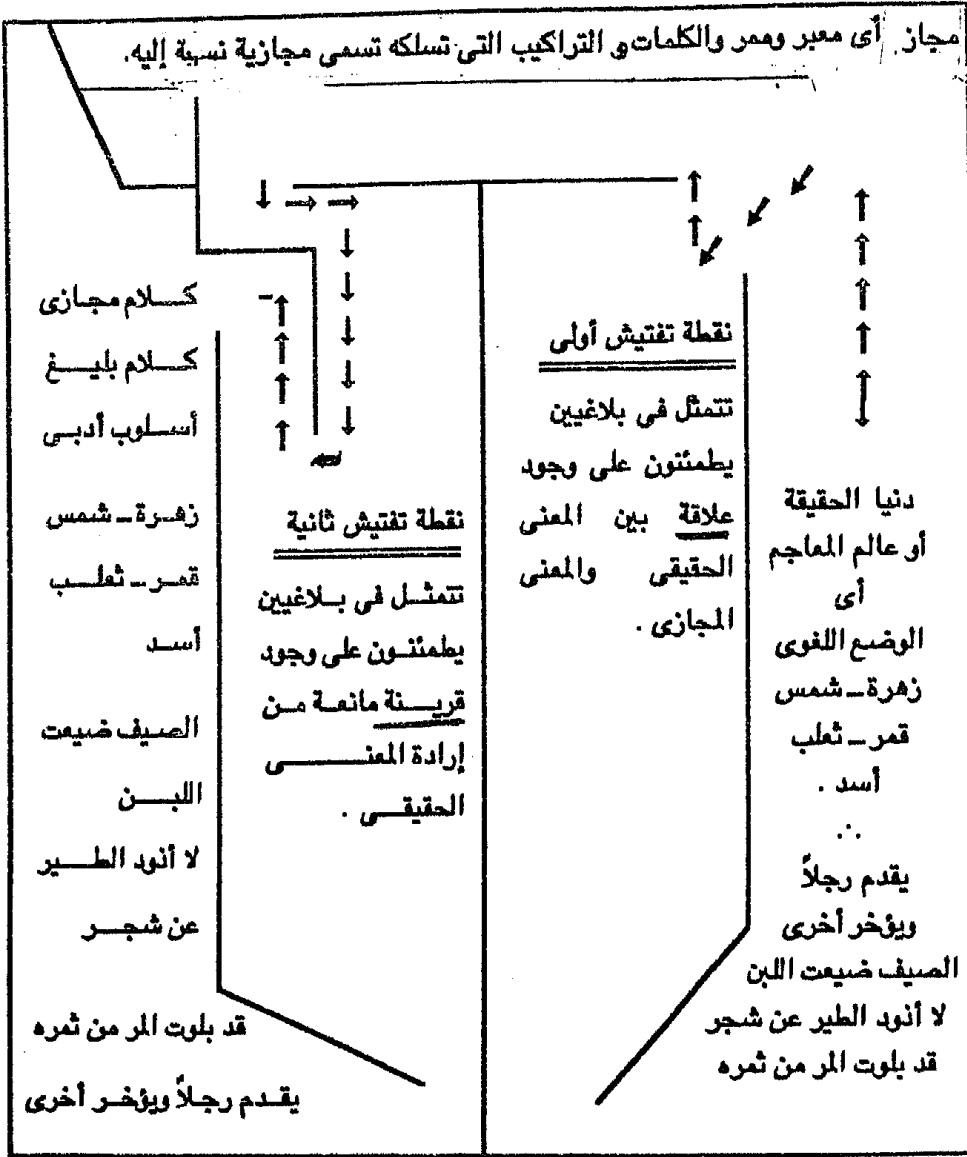
هذا كان المجاز اللغوي أى الذى يجرى في اللغة ، ويمكن تعريفه بأنه استعمال الكلمة أو الجملة في غير معناها الحقيقى لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقى .

والمجاز اللغوي قسيم هو المجاز العقلى وهو إسناد الفعل أو ما فى معناه من المشتقات إلى ما ليس حقه أن يسند إليه لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة الإسناد الحقيقى .

والسبب فى تسميته بالمجاز العقلى أنه يتم فى الإسناد لا فى اللغة ، ولما كان الإسناد يدرك بالعقل لا الوضعسمى مجازة مجازاً عقلياً .

أما المجاز اللغوي فالمعول عليه فى إدراكه إنما هو العلم بالوضع اللغوي ، والوقوف على الدلالات الحقيقية للكلمات والجمال .

مجاز أى معبر وممر والكلمات و التراكيب التى تسلكه تسمى مجازية نسبة إليه.



الإستعارة التصريحية

الاستعارة التصريحية ضرب من المجاز اللغوي .

وهي كلمة أو جملة لم نستعملها في معناها الحقيقي ، بل في معنى مجازي لعلاقة هي المشابهة بين المعنيين الحقيقي والمجازي ، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي .

تقول : قابلي صديقي خالد ومعه زهرة من زهرات المجتمع .

ف (زهرة) استعارة تصريحية . وأصل الكلام تشبيه بليغ هو (خطيبة خالد زهرة) ، طورناه فحذفنا منه طرفه الأول وهو المشبه (خطيبة خالد) وصرحنا في مكانه بالمشبه به وهو (زهرة) ، ثم شفعناه بما يدل على قصدنا منه أي بالقرينة المانعة من إرادة المعنى الحقيقي (الزهرة) وهذه القرينة هي (من زهرات المجتمع) .

وليس يلزم أن تكون القرينة لفظية كما في المثال السابق ، بل قد تكون عقلية تفهم من سياق الكلام أو من دلائل الأحوال .

فكلمة (البدر) في النشيد المدني :

(طلع البدر علينا من ثنيات الوداع)

استعارة تصريحية قرينتها عقلية أو كما يقول البلاغيون حالية .

* * *

والاستعارة التمثيلية ضرب من الاستعارة التصريحية ؛ ففيها نصرح بالمشبه به المذكور في مكان المشبه ، ولا فرق بين الاستعارتين : (التصريحية والتمثيلية) إلا أن واحدة منهما تجري في المفرد والأخرى تجري في المركب .

نقول للقائد العائد منتصراً : (عاد السيف إلى جوابه) .

ونقول للطالب الذي أجهد نفسه في المذاكرة قبيل الامتحان حتى اعتل ولم يمتحن :

« إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » .

وتنتهي الحاضرة ؛ لانتهاؤها وقتها وابتداء وقت غيرها فأقول :

« وأدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح »

وقديماً قال المتنبي لعائب شعره :

ومن يك ذا فم مريض
يجهد مواً به الماء الزلالا

ولما كانت الاستعارة التمثيلية تجرى أكثر ما تجرى فى الأمثال وبالأمثال ، لزم التنبيه على أن لكل مثل مورداً ومضرباً .

فمورد المثل هو أصله التاريخى أو الخرافى .

الأول مثل : « قطمت جهيزة قول كل خطيب » .

والثانى مثل : « كيف أعاودك وهذا أثر فأسك » .

أما مضرب المثل فهو ما نستعمله نحن فيه ونسوقه له .

وتطبيقاً على ما سبق نسوق هذا المثل : « أحشفاً وسوء كيلة » 119 مورده وهو أصله التاريخى أن رجلاً اشترى من آخر تمرأ ، ولما عاد به إلى بيته ألفاه حشفاً وناقص الكيل ، فقال ما قال متعجباً وغازباً وربما معاتباً .

ونوظف نحن مثله فنتمثل به أى نضربه لكل من يُظلم من وجهين سواء كان الظلم مادياً أو معنوياً ، وسواء كان المظلوم رجلاً أو امرأة .

والعملية البلاغية تتلخص فى أننا شبهنا حالة المظلوم من وجهين بحالة الرجل الذى اشترى تمرأ فوجده حشفاً ناقص الكيل ، ووجه الشبه بين الطرفين هو هيئة التأثر الشديد بالظلم المزدوج ، ثم حذفنا التركيب الدال على المشبه وصرحنا فى مكانه بالتركيب الدال على المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية التمثيلية ، والقرينة حالية .

ولا تكون قرينة التمثيلية إلا حالية .

لماذا؟

لأن الأمثال لا تُغير ، وبعبارة أخرى لأن نواتها مصونة لا تمس ، ولا نملك إزاعها إلا أن نقولها كما وصلت إلينا بون زيادة أو نقص ، بل بون أدنى تغيير أو تحوير فى النص .

وسر بلاغة الاستعارة التصريحية فى المفرد وفى المركب شدة الإيجاز وشدة المبالغة ، مع ما فى التمثيلية من حيوية التعبير بتوظيف التاريخ ، وبيت شئ من التراث فى الأدب الحديث .

الإستعارة المركبة أو الإستعارة بالكناية

تسميتان لمسمى واحد .

وهى أن تحذف المشبه به بعد أن تستبقى شيئاً من لوازمه تكنى عنه به ثم تسنده إلى المشبه المذكور فى الكلام .

تقول : نستيقظ فى الصباح على زئير الأب ، فتكون قد شبهت الأب بالأسد ثم حذفت المشبه به وهو الأسد ، لكن بعد أن أخذت الزئير وهو من خواصه فكنت عنه به ثم أسندته إلى المشبه وهو الأب .

وقال أبو نؤيب الهذلى :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

معنى البيت : إذا جاء الأجل تعطلت الحيل ، والصورة البيانية استعارة مكنية ، فقد شبه الشاعر المنية بالحيوان المفترس ، ثم حذف المشبه به وهو الحيوان المفترس ، لكن بعد أن استبقى وسيلته فى الفتك وهى الأظفار التى أثبتتها للمشبه المنصوص عليه فى البيت وهو المنية .

وقالت حمدونة الأندلسية تصف وادياً :

نزلنا دوحه فنحنا علينا حنو المرضعات على الفطيم

فى الشطرة الأولى شبهت حمدونة الأشجار بالأمهات ، ثم حذفت المشبه به وهو الأمهات ، لكن بعد أن رمزت إليهن وكثت عنهن بأبرز خواصهن وهو الحنو ؛ ثم نسبت هذا الحنو إلى المشبه وهو الدوح .

أما (حنو المرضعات على الفطيم) فصورة بيانية أخرى هى التشبيهه البليغ .

وقال زهير بن أبى سلمى :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله

وعري أفراس الصببا ورواحله

يخبر زهير أنه ثاب إلى رشده وأقلع عن حبه لسلمى .

وقد شبه الصبا - وهو مرحلة من مراحل العمر تغلب عليها الرعونة والطيش - بجهة من جهات المسير ، ثم حذف الجهة لكن بعد أن كنى عنها بما تستلزمه من أفراس ورواحل ، ثم أثبت هذا اللازم للمشبه وهو الصبا .

وقال تعالى على لسان زكريا :

﴿ رَبُّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ .

شبه زكريا رأسه بالحطب ، ثم حذف المشبه به وهو الحطب ، بعد أن كنى عنه بأهم لوازمه وهو الاشتعال الذي أسنده إلى المشبه وهو الرأس .

قرينة المكنية استعارة تخيلية

تتحقق القرينة في الاستعارة المكنية بإثبات لازم المشبه به المحذوف من الكلام للمشبه المذكور في الكلام .

كإثبات الزئير للأب في مثالنا .

وإثبات الأظفار للمنية في بيت أبي نؤيب .

وإثبات الحنو للدوح في بيت حمدونة .

وإثبات الأفراس والرواحل للصبا في بيت زهير .

وإثبات الاشتعال للرأس في الآية الكريمة .

وهذا الإثبات يسميه البلاغيون (الاستعارة التخيلية) .

والبلاغيون محقون في هذه التسمية .

أما أنه استعارة ، فلأن اللازم وهو الأمر المختص بالمشبه به المحذوف ، قد استعير للمشبه المذكور ، ودخل في حوزته حتى كأنه له جبلة وخلقة .

ولما كان الأمر على خلاف ذلك حقيقة ، كان إسناده إلى المشبه من قبيل التخيل ، ووصفت الاستعارة - لهذا - بأنها تخيلية .

وواقع الحال في الاستعارة التخيلية يؤكد ما قلناه ويعمقه ؛ ذلك أن طرفيها مستعملان فيما وضعا له حقيقة :

فالأب والزئير في المثال الأول .

والمنية والأظفار في المثال الثاني .

والدوح والحنوف في المثال الثالث .

والصبا ، والأفراس والرواحل في المثال الرابع .

والرأس والاشتعال في المثال الخامس .

كلها مستعملة استعمالاً حقيقياً ، أما المجازي ، فهو إثبات بعضها لبعض ، إنه بكل تأكيد إثبات الشيء لما ليس له حقيقة ، هو أقرب إلى المجاز العقلي إذن .

وبناءً على ما سبق تكون قرينة الاستعارة المكنية استعارة تخيلية دائماً ، وبوسعنا أن نقول : إنهما متلازمتان ، فلما أن التخيلية لا توجد بدون المكنية ، لا تكون قرينة المكنية إلا تخيلية .

* * *

وسر بلاغة الاستعارة المكنية ما فيها من تشخيص وهبة حياة ، ذلك أن كمية الخيال فيها أكبر من كميته في الاستعارة التصريحية ، من حيث إن المكنية صورة خيالية أصلية ملحقة بها صورة خيالية فرعية هي قرينتها التخيلية .

ويمكن القول لهذا بأن الخيال في الاستعارة المكنية مركب ، أما في الاستعارة التصريحية فبسيط ، وهذه واحدة .

والأخرى أن الاستعارة المكنية فيها الكناية عن المشبه به المحذوف بما استبقيناه منه دلالة عليه ؛ وهذا يعني أنه قد اجتمع لنا في صورة بيانية واحدة هي الاستعارة المكنية مجاز وكناية معاً .

وإذا كان جمهور البلاغيين يقررون أن الانتقال في المجاز من اللزوم إلى اللزوم ، وفي الكناية من اللزوم إلى اللزوم ، فإن الأمرين هنا يكونان قد اجتمعا ، واجتماعهما مع اختلافهما طبيعياً وطريقياً يكسب النسيج الأدبي المكون منهما جمالاً وقوة ، لأنهما يكونان فيه كاللحمة والسدى ، أو كسلوك الطريق الواحد مرتين ذهاباً وجيئة .

وإذا كانت الاستعارة المكنية تدل على اقتدار الأديب ، وعلى روعة إبداعه ، فإن على متلقى الأدب أن يكون يقظاً وهو يستقبلها ؛ ليقدر على مواكبة الأديب ، وعلى التحليق معه فى أجوائه العبقية بأريج الفنية .

الإستعارة الأصلية والإستعارة التبعية

تنقسم الاستعارة - باعتبار المشبه به - إلى أصلية وتبعية .

وتكون الاستعارة أصلية إذا جرت فى اسم جامد يصدق على كثيرين حقيقة كأسد وثعلب ، أو تأويلاً كحاتم وعترة .

ويستوى أن يكون الاسم الذى جرت فيه الاستعارة اسم ذات كما سبق أو اسم معنى كالحياة والموت .

تقول : يحضر المحاضرات معنا أسد أو حاتم ، ولأساتذتنا علينا فضل إحيائنا .

* * *

وقد صدر البلاغيون فى تسمية هذه الاستعارة بالاستعارة الأصلية عن أن الأصل فى الأشياء يعنى الكثير الغالب منها ؛ ومن المسلم به أن الاستعارة الأصلية أكثر من الاستعارة التبعية .

أو عن الأصل الذى يذكر فى مقابله الفرع ، وهذا حق ، فالاستعارة التبعية فرع عن الأصلية وتبع لها ، وسيأتى تفصيل ذلك .

* * *

أما الاستعارة التبعية فهى ما جرت فى اسم مشتق أو فى فعل أو فى حرف .

مثالها فى اسم مشتق وهو اسم فاعل : عمك ناطق بفضلك .

فـ (ناطق) استعارة تصريحية فى المشتق .

شبهنا (دلالة العمل على الفضل) بـ (دلالة النطق عليه) .

واستعرنا الثانى للأول . ثم اشتققنا من النطق بمعنى الدلالة (ناطق) بمعنى (دال) .

ومثالها فى اسم مشتق وهو أفعل تفضيل قول الشاعر :

وَأخى نطقت بشكر برك مفصحا^١ فلسان حالى بالشكاية أنطق

شبه الشاعر (دلالة الحال) بـ (النطق) واستعار النطق لدلالة الحال ثم اشتق من النطق بمعنى الدلالة (أنطق) بمعنى (أدل) استعارة تصريحية تبعية فى المشتق .

* * *

ومثالها فى اسم مشتق وهو اسم مكان قول الله تعالى : ﴿ يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴾ فالمرقد هنا هو اللير لاموضع رقاد النائم ، شبه الدفن بالرقاد ؛ واستعير الرقاد للدفن ، ثم اشتق من الرقاد بمعنى الدفن (مرقد) بمعنى (مدفن) أى مكان الدفن وهو القبر ، استعارة تصريحية تبعية فى المشتق .

* * *

والاستعارة التبعية فى الفعل تختلف فيما بينها ، لأنها إما أن تكون فى مادة الفعل الدالة على معناه ، وإما أن تكون فى صيغته الدالة على زمانه .

مثالها فى مادة الفعل قول الله تعالى : ﴿ يحيى الأرض بعد موتها ﴾ .

فالإحياء بمعنى بث الروح فى الجسد لا يناسب الأرض ، لكن يتناسبها اهتزازها بالأشجار والزهور والثمار ، شبه - جل شأنه - إخراج النبات من الأرض بالإحياء ، واستعار الإحياء لإخراج النبات ، ثم اشتق من الإحياء بمعنى إخراج النبات (يحيى) بمعنى (يخرج النبات) استعارة تصريحية تبعية فى مادة الفعل .

ومثالها فى صيغة الفعل قول الله تعالى : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ .

أمر الله لم يأت بدليل « فلا تستعجلوه » فلماذا قال الله تعالى (أتى) بصيغة الماضى ولم يقل « يأتى أو سوف يأتى » ؟

الجواب أن فى الكلام استعارة تصريحية تبعية هى :

شبه الله الإتيان فى المستقبل بالإتيان فى الماضى ، ووجه الشبه بينهما هو تحقق وقوعهما ، وأن ما سيأتى فى التأكد من وقوعه كأنه أتى فعلا ، ثم استعار الإتيان فى الماضى للإتيان فى المستقبل ، واشتق من الإتيان فى الماضى بمعنى الإتيان فى المستقبل (أتى) بمعنى (يأتى) .

وكما استعملت صيغة الماضي للمضارع : استعملت صيغة المضارع للماضي قال تعالى على لسان إبراهيم مخاطباً ولده إسماعيل عليهما السلام : ﴿ يا بني إني أرى في المنام أنى أذبحك ﴾ .

فرؤية إبراهيم قد حصلت له قبل أن يخبر بها ولده ، وكان المنتظر أن يقول ، (إني رأيت) لكنه استبدل (أرى) بـ (رأيت) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية هكذا :

شبه الرؤية في الماضي بالرؤية في الحاضر ، إشارة إلى أن ما رآه - وهو بالنسبة للأب أمر صعب - لا يزال ماثلاً له كأنه لم يفارقه ، ثم استعار الرؤية في الحاضر للرؤية في الماضي ؛ واشتق من الرؤية الحاضرة بمعنى الرؤية الماضية (أرى) بمعنى (رأيت) .

أما الاستعارة التبعية في الحرف :

فمن أمثلتها قول الله تعالى : ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ﴾ .

وبيانها أن لام العلة في الآية مستعملة استعمالاً مجازياً ، لأن ما بعدها ، وإن كان مترتباً على ما قبلها ، ليس العلة الباعثة عليه ، فال فرعون لم يلتقطوا موسى ليكون لهم عدواً وحزناً ، بل ليكون مصدر أنس وسعادة لهم . وتسجيلاً لهذه المفارقات شبه الله السعادة والأنس بالعداوة والحزن بجامع التضاد بين الطرفين تملحاً وتهكماً ، أو بجامع الترتب على الالتقاط في الطرفين ، مطلق ترتب شيء على شيء ؛ وقد سرى هذا التشبيه إلى تشبيه ترتب السعادة والأنس على الالتقاط بترتب العداوة والحزن عليه ، ثم استعار اللام الدالة - حقيقة - على ترتب الأنس والسعادة على الالتقاط .

نقول : استعارها لتدل - مجازاً هذه المرة - على ترتب الحزن والعداوة عليه ، استعارة تصريحية تبعية في الحرف .

* * *

وكالآية السابقة قول الله تعالى : ﴿ لأصليكنم في جنوع النخل ﴾ ، فالحرف (في) موطوع لتلبس الظرف بالظروف الحقيقيين ، وهذا يعنى أنه مستعمل في الآية استعمالاً مجازياً ، لأن ما بعده لا يصلح ظرفاً لما قبله على الحقيقة ، لكن لما كانت الجنوع ، متمكنة من الصلوبين تمكن الظرف من الظروف ، شبهت الجنوع بالظرف الحقيقي في هذا التمكّن ثم استعير لها الحرف (في) .

استعارة تصريحية تبعية في الحرف

وقد سميت الاستعارة التي تجرى فى المشتق أو فى الفعل أو فى الحرف استعارة
تبعية ، لأن الأديب لم يمارسها ابتداءً ، ولم يقصد إليها رأساً ، بل مارسها انتهاءً ، وكان
وصوله إليها من خلال استعارة أخرى سبقتها هى الاستعارة التصريحية الأصلية .
وأوضح ذلك أكثر فنقول :

الاستعارة التبعية إن كانت فى المشتق أو فى الفعل ، يتم التشبيه فى المصدر أولاً ، ثم
ينقل المصدر إلى غير معناه الحقيقى ثانياً ، وبعد ذلك يشتق منه ما تمت الاستعارة فيه من
وصف أو فعل ؛ وبهذا تكون الاستعارة فيهما تابعة للاستعارة فى المصدر .

وإن كانت الاستعارة التبعية فى الحرف ، فإن البلاغيين قد اختلفوا فى تحليلها وتعليلها
على الوجه الآتى :

(١) منهم من يجعل التشبيه فى المجرور بالحرف أصلاً ، وفى معنى الحرف فرعاً ، وهو
ما يسمونه التشبيه بالسراية ، ثم ينقل الحرف إلى المعنى المراد .

ففى المثال (محمد فى نعمة) نقول :

شبهوا النعمة على محمد بدار فيها محمد ، وقد جر التشبيه الأسمى إلى تشبيه فرعى -
أو كما يقولون سرى إليه - هو تشبيه الحرف (على) بالحرف (فى) .

ثم استعاروا الحرف (فى) للحرف (على) وبدلاً من أن يقولوا (محمد منعم عليه)
قالوا : (محمد فى نعمة) .

وبناءً على هذا الرأى تكون الاستعارة التبعية فى الحرف تابعة لتشبيهه هو تشبيه
السراية ، وليست تابعة لاستعارة أصلية .

(٢) ومنهم من يجعل التشبيه الأسمى فى متعلق معنى الحرف لافى المجرور بالحرف ،
ويحلل آية ﴿ فالتقطه آل فرعون ﴾ هكذا .

شبه الله تعالى مطلق ترتب علة غائية كالمحبة والسرور على الالتقاط، بمطلق ترتب علة
واقعية كالعداوة والحزن على الالتقاط بجامع ترتب شئ على شئ، وقد سرى التشبيه من
هذين الكليين إلى جزئياتهما

وانطلاقاً من التشبيه الحاصل، السراية استعيرت اللام الموضوعية لجزء من أجزاء المشبه به هو ترتب العداوة والحزن المتعلقين بموسى على التقاطه، لجزء من أجزاء المشبه هو ترتب المحبة والسرور المتعلقين بموسى على التقاطه. استعارة تصريحية تبعية فى الحرف. والاستعارة التبعية هنا مازالت - كما كانت فى رأى السابق - تابعة لتشبيه السراية وليست تابعة لاستعارة أصلية .

(٣) وفريق ثالث يجعل التشبيه فى متعلق معنى الحرف كسابقه ، ولكنه يزيد على سابقه باستعارة المشبه به الكلى للمشبه الكلى ، ثم يستغل التشبيه فى الأجزاء عن طريق السراية، فينقل الحرف المستعار من كلى المشبه به إلى كلى المشبه ، ففى أية الالتقاط لا أكثر من أن يقال بعد تقدير التشبيه فى الكليين :

ثم استعير اسم المشبه به الكلى للمشبه الكلى .

وبهذا تكون الاستعارة فى الحرف هذه المرة تابعة للاستعارة الأصلية فى كلى المشبه به وهى الاستعارة التى سبقت تشبيه السراية فى الجزئيات (١) .

* * *

والرأى عندى أن الاستعارة التبعية ولاسيما الاستعارة فى الحرف ، لا تستحق كل هذا الدوران واللف .

فالحس الأدبى لمتلقى الأدب يدرك وحده ، وبعبداً عن هذه الأكاديمية المعقدة ، ما أراد مبدع الأدب أن يقوله بدقائقه وإطائفه ، بل بدوافعه التى هدت إليه وجلبته .

أما مرسل الأدب فلا شك فى أنه لم يتكلم أولاً بالمصدر ولا بمتعلق معنى الحرف ولم يقصد إلى استعارة شئٍ منهما أصلاً ليبنى عليه استعارة شئٍ آخر تبعاً ، ولعله لم يحس بما قاله البلاغيون من سرعان التشبيه من الكليات إلى الجزئيات إلى آخر ما هنالك من تقديرات وتحليلات ، لا تمت إلى البلاغة الاصطلاحية ولا إلى البلاغة بمعنى الكلام البليغ بأية هسلة .

* * *

ومهما يكن من أمر الاستعارة التبعية تفسيراً وشرحاً ، فقد لاحظت أنها - من حيث وجودها أو عدمها - أطوع للبليغ فى الاستعارة التصريحية الجارية فى المفرد منها فى الاستعارة المكنية ؛ وهذا معقول .

(١) الإيضاح ج ٥ ص ١٠٨ - ١١٠ شرح وتعليق خفاجى ١٣٦٩ هـ / ١٩٥٠ م ، والمنهاج الواضح لحامد

عوى ج ١ ص ٢٦٠ ط ٢ سنة ١٣٧٠ هـ / ١٩٥١ م القاهرة .

فهى تأتى بالتصرف فى المشبه به المصرح به فى الكلام فى الاستعارة التصريحية وهو محذوف فى الاستعارة المكنية .

وفى حدود اطلاعى لم أجد من القدماء من أثار هذه المسألة ، ومن المحدثين : رأى المرزبان على الجارم ومصطفى أمين أن التبعية تأتى فى المكنية كما تأتى فى التصريحية قال فى الهامش رقم (١) ص ٨٤ من « البلاغة الواضحة » :

« وتقسيم الاستعارة إلى أصلية وتبعية عام فى الاستعارة سواء أكانت تصريحية أم مكنية ، ومثال الاستعارة المكنية التبعية (أعجبتنى إراقة الضارب دم الباغى) .

فقد شبه الضرب الشديد بالقتل بجامع الإيذاء فى كل ، واستعير القتل للضرب الشديد ، واشتق منه قاتل بمعنى ضارب ضرباً شديداً ، ثم حذف ورمز إليه بشئ من لوازمه ، وهو الإراقة على طريق الاستعارة المكنية التبعية « (١) .

* * *

ونلاحظ أن ما مثل به المؤلفان الفاضلان للاستعارة المكنية التبعية لم يزد على مثال واحد ، وقد جاء على هامش الموضوع لا فى صلبه ، ومع هذا فهو - كما نرى - بآدى الاصطناع والتكلف ، ونضيف أن السكاكي نفسه غير مرتاح إلى الاستعارة التبعية فى التصريحية .

فهو بعد أن يوردها ويمثل لها ، يقترح إلغائها وتحويل أمثلتها إلى الاستعارة المكنية ويزيد فيخرجها على أنها استعارات مكنية ؛ وهذا هو نص كلامه فى ختام ما جعل عنوانه :

(القسم السادس فى الاستعارة التبعية) : « وأعلم أن مدار قرينة الاستعارة التبعية فى الأفعال وما يتصل بها على نسبتها إلى الفاعل كقولك (نطقت الحال) ، أو إلى المفعول الأول كقول ابن المعتز : (قتل البخل وأحيا السماحا) أو إلى الثانى المنصوب كقول الآخر : (نقرهم لهذميات) ، أو إلى الجرور كقوله علت كلمته : (فبشرهم بعذاب أليم) ، أو إلى الجميع كقوله :

تقرى الرياح رياض الحزن مزهرة

إذا سرى النوم فى الأجنان إيقاظا

(١) الطبعة السابعة . دار المعارف بمصر ١٣٨٣هـ / ١٩٦٤ .

هذا ما أمكن من تلخيص كلام الأصحاب في هذا الفصل .

ولو أنهم جعلوا قسم الاستعارة التبعية من قسم الاستعارة بالكناية ، بأن قلبوا فجعلوا في قولهم : نطقنا الحال بكذا ، الحال التي ذكرها عندهم قرينة الاستعارة بالتصريح ، استعارة بالكناية عن المتكلم بوساطة المبالغة في التشبيه على مقتضى المقام ، وجعلوا نسبة النطق إليه قرينة الاستعارة ، كما تراه في قوله (وإذا المنية أنشبت أظفارها) يجعلون المنية استعارة بالكناية عن السبع ويجعلون الأظفار لها قرينة الاستعارة .

وهكذا لو جعلوا البخل استعارة بالكناية عن حي أبطلت حياته بسيف أو غير سيف فالتحق بالعدم ، وجعلوا نسبة القتل إليه قرينة ، ولو جعلوا أيضاً اللهذميات استعارة بالكناية عن المطعومات اللطيفة الشهية على سبيل التهكم وجعلوا نسبة لفظ القرى إليها قرينة الاستعارة ، لكان أقرب إلى الضبط فتدبره .

وفي مكان آخر قال : « وإذ قد عرفنا الحقيقة في المقرد وفي الجملة ، وعرفنا تنوع المجاز إلى استعارة مصرح بها ومكنى عنها ، وعرفنا ما يتصل بذلك من التحقيقية والتخييلية والقطعية والاحتمالية ، ومن الأصلية والتبعية على رأى الأصحاب دون رأينا » (١) .

فإذا كان السكاكى أبو البلاغة الاصطلاحية لا يريد أن يتقل كاهلها بما جعله غيره استعارة تبعية ، وجعل أمثلتها كلها من المكنية ، فما بالناسق على أنفسنا وعلى بلاغتنا بتمثل التبعية في المكنية أو من المكنية ، وهي غير متصورة فيها ولا منها نظرياً مثلما هي غير واردة فيها ولا منها عملياً ؟

ولقد وقف الشيخ ناصيف اليازجى البنائى موقفاً وسطاً بين السكاكى ومن كان السكاكى يسميهم الأصحاب قال : « اعلم أن بعض أمثلة الاستعارة التبعية يمكن اعتبارها استعارة بالكناية ، ومثل لذلك بواحد من أمثلة السكاكى هو : (نطقنا الحال بكذا) (٢) .

وموقف اليازجى هو موقف الجارم ومصطفى أمين في هذه القضية ، فهما بعد أن مثالا للتبعية بمثالين وحلالهما على أنهما من الاستعارة التبعية ، عادا فحللتهما على أنهما من الاستعارة المكنية - مثلما فعل السكاكى - وخلصا إلى أن كل استعارة تبعية يصح أن يكون في قرينتها استعارة مكنية ، غير أنه لا يجوز إجراء الاستعارة إلا في واحدة منهما لا في كليهما (٣) .

ولعل هذا أن يكون الحل الأمثل لهذه المسألة علمياً وعملياً .

(١) مفتاح العلوم ص ١٨١ ، ١٩٦ .

(٢) مجموع الأدب في فنون العرب ص ١١٨ ط ١٣ بيروت سنة ١٩٤٨ م .

(٣) البلاغة الواضحة ص ٨٤ .

الإستعارات : المرشحة والمجرطة والمطالقة

: قسم الاستعارة باعتبار ذكر الملائم لأحد طرفيها أو لكليهما إلى هذه الأقسام الثلاثة :

شذو وشجدة : هي التي نأتى فيها مع القرينة بما يلائم المشبه به .

كقواك : قابلنى صديقى ومعه زهرة من زهرات المجتمع تملأ الأفق شذأ فـ (تملأ الأفق شذأ) يلائم المشبه به وهو الزهرة .

وكقوله تعالى : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم ﴾ . استعار سبحانه وتعالى الاشتراء للاختيار ، وقفاه بالربح والتجارة اللذين هما من متعلقات الاشتراء .

وكقول الشاعر :

ينازعنى ردائى عبد عمرو رويدك يا أخا عمرو بن بكر

لى الشطر الذى ملكت يمينى ودونك فاعتجر منه بشطر

استعار الرداء للسيف ، ثم وصف الرداء بما يلائمه من الاعتجار الذى هو لف الرأس برداء ونحوه .

والمجرطة : هي التي نأتى فيها مع القرينة بما يلائم المشبه كقواك :

قابلنى صديقى ومعه زهرة من زهرات المجتمع تتحدث الإنجليزية بطلاقة فـ (تتحدث الإنجليزية بطلاقة) يلائم المشبه وهو الفتاة ولا يلائم المشبه به وهو الزهرة . وكقول كثير عزة:

غمر الرداء إذا تبسم ضاحكاً خلقت لضحكته رقاب المال (١)

استعار الرداء للمعروف ؛ لأنه يصون عرض صاحبه كما يصون الرداء ما يلقي عليه ، ووصفه بالغمر الذى هو وصف المعروف لا الرداء .

وكقول البحتري :

يؤدون التحية من بعيد إلى أسد من الإيوان باد

(١) الغمر : الماء الكثير ، والمراد به هنا كثرة العطاء ، أما غلقت : فمن غلق الرهن فى يد المرتهن إذا لم يقتر الراهن على فكه لعجزه عن أداء الدين .

ف (من الإيوان باد) تجريد ، لأنه مما يلائم المشبه وهو الإنسان الجميل .

أما الاستحارة المطلقة :

فهى مالم تقترن بشئ يلائم المشبه ، ولا بشئ يلائم المشبه به ، بل تقتصر على القرينة فتقول : قابلنى صديقى ومعه زهرة من زهرات المجتمع .

وكقوله تعالى ﴿ ينقضون عهد الله ﴾ .

* * *

ومن الاستعارة المطلقة ما جمعت بين ترشيح وتجريد معاً ؛ لأنهما باجتماعهما يتعارضان ويتعادلان .

قال الشاعر :

رمتنى بسهم ريشه الكحل لم يضر ظواهر جلدى وهو للقلب جارح
ف « فريشه » ترشيح ، لأنه من ملائمت المشبه به وهو السهم ، و (الكحل) تجريد ؛ لأنه من ملائمت المشبه وهو نظرة المرأة .

وكقول زهير بن أبى سلمى :

لدى أسد شاكى السلاح مقذف

له لبد أظفاره لم تقلم

ف (شاكى السلاح) بمعنى تامه : تجريد ؛ لأنه من ملائمت المشبه وهو الرجل الشجاع ، و (له لبد) ترشيح ؛ لأنه من ملائمت المشبه به وهو الأسد ، أما (مقذف) فيحتمل الأمرين معاً ، لأنه يمكن أن يكون وصفاً حقيقياً للأسد ، ويمكن أن يكون كناية عن نفى الضعف عن المدح .

* * *

ويحسن التنبيه إلى أن الترشيح والتجريد إنما يكونان بعد استيفاء الاستعارة قرينتها لفظية كانت هذه القرينة أو حالية .

كما يحسن التنويه بأن عبد القاهر كان يسمى الترشيح تناسى التشبيه .

أما اصطلاح الترشيح فقد كان الزمخشري أول من اهتدى إليه بقوله في الكشف ،
تدبيراً على آية البقرة ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم ﴾ : فإن
قلت : هب أن شراء الضلالة بالهدى وقع مجازاً في معنى الاستبدال ، فما معنى ذكر الربح
والتجارة ، كأن ثم مبايعة على الحقيقة ؟ قلت :

هذا من الصنعة البديعية التي تبلغ بالمجاز الذروة العليا ، وهو أن تساق كلمة مساق
المجاز ، ثم تقفى بأشكال لها وأخوات ، إذا تلاحقن لم تر كلاماً أحسن منه دبياجة وأكثر
ماء ورونقاً وهو المجاز المرشح ، وذلك نحو قول العرب في البليد : كأن أذننى قلبه خطلاوان ؛
جعلوه كالحمار ، ثم رشحوا ذلك ، روماً لتحقيق البلادة فادعوا لقلبه أذنين ، وادعوا لهما
الخطل - وهو الاسترخاء - ليمثلوا البلادة تمثيلاً يلحقها ببلادة الحمار مشاهدة معاينة ^(١) .

وكذلك كان الزمخشري هو الذى مهد لاصطلاح التجريد بكلام يدور حول معناه
الاصطلاحى وإن لم يسمه باسمه كما فعل فى الترشيح ^(٢) .

موازنة بين المرشحة والمجرحة والمطلقة

الاستعارة أساسها التشبيه ، وهى - على وجه التحديد - تطوير للتشبيه البليغ بحذف
أحد طرفيه إمعاناً من الأديب فى تناسى التشبيه ، ومبالغة منه فى ادعاء أن المشبه قد صار
هو المشبه به ، وبناء عليه يكون الترشيح الذى هو ذكر ملائم المشبه به ، تقوية للاستعارة ،
لأنه تصعيد لدعوى الاتحاد بين المشبه والمشبه به ، وكأنه ليس معنا تشبيه ولا استعارة بل
حقيقة .

انظر إلى قول أبى تمام :

ويصعد حتى يظن الجهول بأن له حاجة فى السماء

إنه قد استعار الصعود الحسى لعلو المنزلة ، ثم لم يلبث أن نسى ذلك أو تناساه ، وهما
هو ذا يشنع على من يراه يصعد ويصعد فيظن أن له مأرباً فى السماء فلولا أن الصعود
صعود حسى ما ظن الجهول هذا الظن .

ومثل بيت أبى تمام تماماً قول ابن الرومى فى مدح آل نوبخت ، وقد كانت لهم شهرة
بالفلك والحكمة :

(١) الكشف ج ١ ص ١٤٧ الطبعة الثانية ، طبعة المطبعة الأميرية ببولاق .

(٢) الكشف ج ١ ص ١٧٧ .

إن صبح علم النجوم كان لكم
كم عالم فيكم وليس بأن
أعلاكم في السماء مجدكم
شافهتكم البدر بالسؤال عن الـ
ومثله تماماً أيضاً قول بشار :

أتنتى الشمس زائرة
وقول المتنبي :

كبرت حول ديارهم لما بسدت
منها الشمس وليس فيها المشرق
وقول ابن العميد :

قامت تظللني من الشمس
قامت تظللني ومن هجسب
وقول ابن طباطبا :

لا تعجبوا من بلى خلاته
قد زر أزراره على القمر
وقول أبي المطاع ذي القرنين بن ناصر الدولة الحمداني :

ترى الثياب من الكتان ولمحها
فكيف تنكر أن تبلي معاجرها
فقد صنع هؤلاء الشعراء صنيع أبي تمام من تناسي التشبيه ، وإجراء الكلام على
المشبه به الذي هو المستعار منه ، أما المشبه وهو المستعار له فقد نجحوا إلى حد كبير في
شغل متلقي الأدب عنه بنقلهم له من بؤرة الشعور إلى هامشه مؤقتاً .
ولما كان هذا هو أثر الترشيح كانت الاستعارة المرشحة هي الاستعارة الراجعة في
ميزان المفاضلة بينها وبين المطلق والمجردة .

تليها الاستعارة المطلقه ؛ لأنها وإن خلت مما يلائم المشبه به ، قد خلت كذلك مما يلائم
المشبه ، أي أنها تقع في المنطقة الوسطى بين الترشيح والتجريد .

* * *

أما الاستعارة المجردة فتأتى ساقية للمرشحة والمطلقة . لأنها قد خلت مما يلائم المشبه به، وليس هذا فقط ، بل إنها بالإضافة إلى ذلك قد اشتملت على ما يلائم المشبه

* * *

والخلاصة أن المرشحة تمثل الإفراط فى المبالغة ، وأن المجردة تمثل التفريط فيها . أما المطلقة فتمثل الحد الوسط بين الإفراط فى المبالغة ، والتفريط فيها ، أى بين المرشحة والمجردة .

* * *

ولا يفوتنا التنبيه على أن الاستعارة التصريحية التى يتأتى معها الترشيح والتجريد إنما هى الاستعارة التى تجرى فى المفرد أما الاستعارة التصريحية التى تجرى فى المركب ، وهى ما تفرد بالدراسة فى كتب البلاغة تحت اسم الاستعارة التمثيلية ، فقد سبق القول بأن قرينتها لا تكون إلا حالية ، وهذا يعنى أنها لا تكون إلا مطلقة ؛ لأنها إما مثل ، وإما تركيب مجلوب جرى مجرى المثل ، ومعلوم أن الأمثال لا تغير ، فلا يغير ما جرى مجراها ولحق بها . قال الخطيب القزوينى وهو يتكلم عن الاستعارة التمثيلية « فتذكر بلفظها من غير تغيير بوجه من الوجوه » (١) أى من غير تغيير أى تغيير وبلا زيادة أو نقص .

* * *

وتقف الاستعارة الكنية على قدم المساواة مع الاستعارة التصريحية فى التمرس بالترشيح والتجريد والإطلاق.

نقول فى الاستعارة الكنية المطلقة - « نستيقظ فى الصباح على زئير الأب » نجعلها مرشحة فنقول : « نستيقظ فى الصباح على زئير الأب الذى يفترسنا إذا لم ننهض من فراشنا بسرعة فائقة »

ونجعلها مجردة فنقول « نستيقظ فى الصباح على زئير الأب الذى يؤمنا فى صلاة الفجر »

(١) بغية الإيضاح ج ٢ ص ١٢

المجاز المرسل

تتردد العلاقة في المجاز اللغوي بين أن تكون المشابهة ، وأن تكون غير المشابهة ، فإن كانت العلاقة المشابهة كان المجاز استعارة وقد سبق القول فيها .

وإن كانت غير المشابهة كان ما يسمى (المجاز المرسل) .

وقد عرفنا القزويني به في قوله : « الضرب الأول المرسل ، وهو ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه ، وما وضع له ملايسة غير التشبيهية ، كاليد إذا استعملت في النعمة ، لأن من شأن النعمة أن تصدر عن الجارحة ، ومنها تصل إلى المقصود بها .

ويشترط أن يكون في الكلام إشارة إلى المولى لها ، فلا يقال : اتسعت اليد في البلد ، أو اقتنيت يدا ، كما يقال : اتسعت النعمة في البلد ، أو اقتنيت نعمة ، وإنما يقال : جلّت يده عندي وكثرت أياديه لدي ، ونحو ذلك (١) .

هذا كلام القزويني ، وهو ليس على إطلاقه ؛ فقد ورد التعبير باليد والأيادي عن النعمة والنعم دون إشارة إلى المنعم كقولهم .

« إن الأيادي قروض » أي ديون لا ترتاح نفس الكريم إلا إذا سددها ، أو كما قالوا : إن عاراً ونقيصة على الكريم أن يموت وعليه دين من ديون المعروف (٢) .

ولأن العلاقة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي في المجاز المرسل ليست المشابهة ، بل علاقات أخرى متنوعة سماه البلاغيون (المجاز المرسل) أي غير المقيد بأن علاقته المشابهة.

والعلاقات في المجاز المرسل كثيرة .

ذكر الخطيب القزويني منها ثمانى علاقات (٣)

وذكر ابن الأثير عن أبي حامد الغزالي أربع عشرة علاقة (٤) .

(١) بغية الإيضاح جـ ٢ ص ٨٢ - ٨٤ .

(٢) خاص الخاص للثعالبي ص ٢٤ : بيروت ١٩٦٦ م .

(٣) بغية الإيضاح جـ ٢ ص ٨٢ وما بعدها .

(٤) المثل السائر جـ ٢ ص ٨٨ - ٩٥ .

وأوصلها الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى إلى ست وعشرين علاقة رئيسية ثم ألحق بالعلاقة الأخيرة خمس علاقات رأى أنها تشبهها ، فتصير جملة العلاقات عنده إحدى وثلاثين علاقة ^(١) ، ولعله هو ما عناه السبكي بقوله : إنها عند بعضهم تزيد على ثلاثين علاقة ^(٢) .

ولأن أكثر هذه العلاقات يدخل بعضها فى بعض كما لاحظ ابن الأثير بحق فإننا سنتنصر منها على أظهرها وأشهرها ، وهذه هى :

(١) السببية :

أى التعبير بالسبب عن المسبب ، وذلك حين يكون المعنى الحقيقى للكلمة المذكورة فى العبارة سبباً فى المعنى المجازى لها .

قالوا : رعت الماشية الغيث ، يريدون رعت النبات .

فـ (الغيث) مجاز مرسل علاقته السببية ؛ لأن المعنى الحقيقى للغيث سبب فى المعنى المجازى له وهو النبات .

والقرينة (رعت الماشية) ؛ فالماشية لا ترعى الغيث حقيقة .

وقال المتنبى :

له أياذ على سابغة أعد منها ولا أعددها

ففى (أياذ) مجاز مرسل علاقته السببية ؛ لأن الأياذى الحقيقية هى التى تمنح النعم ؛ فهى سبب فيها .

والقرينة : (على سابغة أعد منها ولا أعددها) .

وقال تعالى : ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ أى فجازوه على اعتدائه ، ففى (فاعتدوا عليه) مجاز مرسل علاقته السببية بين الاعتداء وجزائه .

(١) البرهان فى علوم القرآن ج ٢ ص ٢٥٩ - ٢٩٨ بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م القاهرة .

(٢) عروس الأفراح ج ٤ ص ١٤٣

والقرينة مفهومة من سياق الآية ؛ فهو يدل على أن الاعتداء الثاني ليس اعتداء حقيقياً ، بل مجازياً .

وكالآية الكريمة قول عمرو بن كلثوم فى معلقته :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

عبر الشاعر بقوله :

(فنجهل) عن جزاء الجهل على قومه ، لما كان الجهل الثانى مترتباً على الجهل الأول ، وبعبارة أخرى : لما كان الجهل الأول سبباً فى الجهل الثانى .

(٢) **المسببية :**

أى التعبيز بالمسبب عن السبب . (عكس العلاقة السابقة) .

وذلك حين يكون المعنى الحقيقى للكلمة المذكورة فى العبارة مسبباً عن المعنى المجازى لها ، كقولهم ، أمطرت السماء نباتاً ، يقصدون ماء ، فالنبات مجاز مرسل علاقته المسببية .

والقرينة : أمطرت السماء ؛ لأن النبات لا ينزل من السماء حقيقة .

وكقوله تعالى : ﴿ ينزل لكم من السماء رزقاً ﴾ أى مطراً يتسبب عنه الرزق . وكقوله تعالى أيضاً : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً ، إنما يأكلون فى بطونهم ناراً ﴾ .

فالذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً لا يأكلون ناراً على الحقيقة ، بل يأكلون أموال اليتامى ، ولما كان دخولهم النار مسبباً عن ذلك ، ومترتباً عليه ، عبر سبحانه وتعالى بالنار عن أموال اليتامى أى بالمسبب عن السبب ، مجازاً مرسلأ علاقته المسببية ، وقرينته لفظية هي « يأكلون فى بطونهم » .

(٣) **اللازمية :**

أى التعبير باللازم عن الملزوم ، وذلك حين يكون المعنى الحقيقى للكلمة المذكورة فى العبارة لازماً للمعنى المجازى لها ، تقول : بزغ الضوء ، تريد الشمس ، فالضوء مجاز مرسل علاقته اللازمية ، لأن الضوء لازم للشمس ، والقرينة : بزغ ، فالبزوغ ليس وصفاً حقيقياً للضوء بل للشمس .

(٤) الملزومية:

أى التعبير بالملزوم عن اللازم (عكس العلاقة السابقة) .
وذلك حين يكون المعنى الحقيقى للكلمة فى العبارة ملزوماً للمعنى المجازى لها . تقول :
دخلت الشمس من النافذة ، وملأت الحجرة . تقصد ضوء الشمس لا جرمها .
فكلمة (الشمس) مجاز مرسل علاقته الملزومية ، لأن المعنى الحقيقى للشمس وهو
جرمها ملزوم للمعنى المجازى لها وهو الضوء .
والقرينة (دخلت) و (ملأت) فجرم الشمس لا يدخل من النافذة ولا يملأ الحجرة حقيقة .

(٥) المحلية:

أى التعبير بالمحل عن الحاليين فيه ، وذلك إذا كان المعنى الحقيقى للكلمة المذكورة فى
العبارة محلاً للمعنى المجازى لها .
قال تعالى : ﴿ فليدع ناديه ﴾ أى الموجودين فى النادى .
فكلمة (ناديه) مجاز مرسل علاقته المحلية ، والقرينة (فليدع) ، لأن النادى لا يدعى
حقيقة .

وقال تعالى : ﴿ وأسأل القرية التى كنا فيها والعرير التى أقبلنا فيها ﴾ أى أهل القرية
وأصحاب العير ، والقرينة هى (وأسأل) ؛ إذ القرية لا تسأل حقيقة ، وكذلك العير .
وتقول : خرجت الكلية عن بكرة أبيها ، تقصد خرج طلابها كلهم ، عبرت بالكلية عن
طلابها ، ففى الكلية مجاز مرسل علاقته المحلية والقرينة (خرجت) ؛ فالكلية بمعنى المحل
لا تخرج حقيقة .

(٦) الجالية:

أى التعبير بالحاليين فى المكان عن المكان نفسه (عكس العلاقة السابقة) وذلك حين يكون
المعنى الحقيقى للكلمة المذكورة فى العبارة حالاً فى المعنى المجازى لها .
أقول : جئت الرياض ونزلت فيها بصديقى ناصر الرشيد ، أقصد بدار صديقى ناصر
الرشيد فـ (بصديقى ناصر) مجاز مرسل علاقته الحالية لأن صديقى ناصر حال بداره ،
وقد حلت فيها معه .

والقرينة كلمة (نزلت) ؛ لأن حقيقة النزول لا تتصور بالصديق بل بالدار .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون ﴾
أى ففى جنة الله .

وقوله تعالى : ﴿ إن الأبرار لفى نعيم ﴾ أى لفى المكان الذى فيه النعيم وهو الجنة .

وقوله تعالى : ﴿ خنوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ أى خنوا ثيابكم الجميلة ، فـ (زينتكم)
مجاز مرسل علاقته الحالية، لأن الزينة حالة فى الثياب وبادية من خلالها ، والقرينة (خنوا) ؛
فالزينة وهى أمر معنوى لا تؤخذ حقيقة .

وقول حمدونة الأندلسية :

نزلنا دوحه فحننا علينا حنو المرضعات على الفطيم

فـ (الدوح) مجاز مرسل علاقته الحالية ألقنا الحال وهو الدوح وأردنا المحل وهو
الوادى الذى يتخلله الدوح فيظلمه ويرطبه .

(٧) الركابية :

أى التعبير بالكل عن الجزء ، وذلك حين يكون المعنى الحقيقى للكلمة المذكورة فى العبارة
كلا مشتقاً على المعنى المجازى لها كقوله تعالى : ﴿ يجعلون أصابعهم فى آذانهم ﴾ يعنى
أناملهم ، بل أطراف أناملهم فأصابعهم مجاز مرسل علاقته الكلية ، والقرينة استحالة وضع
الأصابع كاملة فى الأذان ؛ وعليه قولهم « قطعت السارق » وإنما قطعت يده .

وقولهم : « انتشر الجيش فى شوارع المدينة للحفاظ على الأمن » فالمنتشرون بعض
الجيش لا كله .

وقولهم : « تمكنت الشرطة من ضبط المسروقات » يقصدون بعض رجال الشرطة .

وقولى : أكلت خبز الرياض وشربت مائها .

فأنا لم أكل كل خبز الرياض بل شيئاً منه ، كما لم أشرب كل ماء الرياض بل بعضه .

(٨) الجزئية :

أى التعبير بالجزء عن الكل (عكس العلاقة السابقة) وذلك حين يكون المعنى الحقيقي للكلمة المذكورة فى العبارة جزءاً من المعنى المجازى لها ، قال الشاعر :

كم بعثنا الجيش جراً رأ وأرسلنا العيوناً

أى وأرسلنا الجواسيس ، فد (العيون) مجاز مرسل علاقته الجزئية والقرينة (أرسلنا) ؛ إذ العيون وحدها لا ترسل .

وقال تعالى : ﴿ فتحرير رقبة مؤمنة ﴾ أى عبد مؤمن ، والقرينة (فتحرير) ؛ لأن التحرير لا يتصور فى الرقبة وحدها بل فى الذات كاملة .

ومن هذا قول معبد بن أوس المزنى فى ابن أخته :

أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رمانى

وكم علمته نظم القوافى فلما قال قافية هجائى

(القوافى) مجاز مرسل علاقته الجزئية ، وأيضاً (قافية) ، والقرينة (علمته نظم) فى الشطرة الأولى ، و (قال) فى الشطرة الثانية ، لأن معبد بن أوس إنما علم ابن أخته نظم القصائد كلها لا القوافى وحدها ، ولأن ابن أخته قال على الأقل قصيدة كاملة لا قافية واحدة .

ذكر الشاعر الجزء وأراد الكل مجازاً مرسلأ علاقته الجزئية .

(٩) البدلية :

أى التعبير بالبدل عن المبدل منه ، وذلك حين يكون المعنى الحقيقى للكلمة المذكورة فى العبارة بدلاً من المعنى المجازى لها .

كإطلاق القضاء على الأداء فى قوله تعالى : ﴿ فإذا قضيتم الصلاة ﴾ يريد فإذا أدبتم الصلاة لكنه سبحانه وتعالى عبر بالقضاء عن الأداء ، أى عبر بالبدل عن المبدل منه ففى (قضيتم) مجاز مرسل علاقته البدلية .

والقرينة عقلية ، إذ الخطاب موجه إلى محمد ﷺ وأصحابه ، وكانوا رضوان الله أجمعين يؤدون الصلوات فى أوقاتها .

ومن ذلك قولك : قضيت الدين في وقته المحدد ، أى أديته ، ففي (قضيت) مجاز مرسل علاقته البدلية ، والقرينة (في وقته المحدد) .

وقولك لمن تزوج امرأة دميمة غنية : لقد تزوجت ثروة .

فـ (ثروة) مجاز مرسل علاقته البدلية ، والقرينة (تزوجت) لأن الإنسان لا يتزوج الثروة حقيقة .

(١٠) المبدلية :

أى التعبير بالمبدل منه عن البديل (عكس العلاقة السابقة) .

وذلك حين يكون المعنى الحقيقي للكلمة المذكورة في العبارة مبدلاً منه للمعنى المجازي لها كالتعبير بالدم عن الدية في قول الشاعر :

أكلت دماً إن لم أرعك بضره بعيدة مهوى القرط طيبة النشر

يقصد (أكلت دية) ، ففي (دماً) مجاز مرسل علاقته المبدلية لأن الدم مبدل منه الدية ، والدية بدل من الدم ، والقرينة (أكلت) ؛ فالدم بمعناه الحقيقي لا يؤكل .

(١١) اعتبار ما كان :

أى التعبير بما كان عما هو كائن .

وذلك حين يكون المعنى الحقيقي للكلمة المذكورة في العبارة ماضياً بالنسبة للمعنى المجازي لها كقوله تعالى : ﴿ وأتوا اليتامى أموالهم ﴾ يعنى الذين كانوا يتامى من قبل ، أما الآن فهم بالغون ، ففي (اليتامى) مجاز مرسل علاقته اعتبار ما كان .

والقرينة : أمر الله تعالى بتسليمهم أموالهم ؛ إذ لا يكون ذلك إلا بعد بلوغهم .

ومن ذلك قولنا : نلبس في الشتاء صوفاً وفي الصيف قطناً .

ففي (صوفاً) و (قطناً) مجاز مرسل علاقته اعتبار ما كان .

والقرينة (نلبس) فالصوف الخام والقطن الخام لا يلبسان حقيقة .

(١٧) اعتبار ما سيكوف أو التعبير بما سيكوف عما هو كائن :

وذلك إذا كان المعنى الحقيقي للكلمة المذكورة في العبارة أنياً أي حاضراً : وكان المعنى المجازي لها هو المستقبل ، كقوله تعالى : ﴿ إني أراي أعصر خمراً ﴾ ، أي عنياً ، فـ (خمراً) مجاز مرسل علاقته اعتبار ما سيكوف .

والقرينة (أعصر) ، فالخمر لا تعصر ، لأنها معصورة فعلاً .

وقوله تعالى : ﴿ ولا يلنوا إلا فاجراً كفاراً ﴾ أي أطلاقاً يؤول أمرهم إلى أن يكونوا فاجرين كافرين .

والقرينة (ولا يلنوا) ، فالطفل حين يولد يكون طاهراً لا فاجراً ولا كافراً .

وقوله تعالى : ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ يعني إنك ستموت وإنهم سيموتون ، فكل من (ميت) و (ميتون) مجاز مرسل علاقته اعتبار ما سيكوف ، والقرينة ماثلة في خطاب الله تعالى لمن يخاطبهم ، إذ الميتون لا يخاطبون .

(١٨) الآلية :

أي التعبير بالآلة عن أثرها وما مورس بها .

وذلك حين يكون المعنى الحقيقي للكلمة المذكورة في العبارة وسيلة وآلة للمعنى المجازي لها .

قال تعالى : ﴿ واجعل لي لسان صدق في الآخرين ﴾ أي ذكراً جميلاً وثناء حسناً ، ففي (لسان صدق) مجاز مرسل علاقته الآلية ، لأن اللسان بمعناه الحقيقي آلة ووسيلة للذكر الحسن الذي هو المعنى المجازي للسان في الآية الكريمة .

هذا ما قاله البلاغيون .

وأرى أنه يمكن الاستغناء عن علاقة الآلية بعلاقة السببية ، فالآلية والسببية قريب من قريب حتى إنه يمكن دمجها في بعضهما والاستغناء بواحدة منهما عن الأخرى .

(١٩) المجاورة :

في التعبير بالمجاور عما جاوره ، وذلك حين يكون المعنى الحقيقي للكلمة المذكورة في العبارة مجاوراً للمعنى المجازي لها .

وقد مثلوا لعلاقة المجاورة بقول عنتره :

فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم
أى فشككت بالرمح الأصم جسمه .
ففى (ثيابه) مجاز مرسل علاقته المجاورة .

والقريئة (فشككت) ، لأن الشك - وهو هنا الطعن - لا يكون فى الثياب بل فى الأجسام .
وأيضاً مثلوا لعلاقة المجاورة بالتعبير باللفظ عن المعنى ، وبالتعبير بالمعنى عن اللفظ :
تقول : قرأت المعنى تريد اللفظ ، وفهمت اللفظ تريد المعنى .

وأرى أن علاقة المجاورة يمكن الاستغناء عنها إما بعلاقة المحلية ، وما أسهل القول بأن
الثياب محل لجسم لابسها ، ذكر الشاعر المحل وهو الثياب وأراد الحال فيه وهو صاحبها .
وإما باللازمة والملزومية وهما واضحتان فى لازمية المعنى للفظ ، وفى ملزومية اللفظ
للمعنى ، والله أعلم .

المجاز المرسل المركب

ما سبق من المجاز المرسل كان كلمة استعملت فى غير ما وضعت له لعلاقة غير المشابهة
مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقى لهذه الكلمة .

* * *

وقد ذهب بعض البلاغيين إلى أن المجاز المرسل يأتى أيضاً فى المركب ومثلوا له بالجمل
الخبرية التى تخرج عن معناها الحقيقى إلى معان بلاغية كقول الله تعالى على لسان أم
مريم :

﴿ رب إنى وضعتها أنثى ﴾ ، وقوله تعالى على لسان زكريا : ﴿ رب إنى وهن العظم منى
واشتعل الرأس شيباً ﴾ .

فأم مريم لم ترد إخبار الله تعالى بأنها وضعت أنثى ، فالله أعلم بما وضعت ، وإنما
أرادت إبداء حسرتها وإظهار حزنها لعدم تحقق ما كانت ترجوه وهو أن تلد ولداً .

وكذلك زكريا ، لم يرد إخبار ربه بأنه شاخ وضعف ، بل أراد إظهار ضعفه ، وأنه لم يعد
قوياً جلدأ .

والعلاقة فى الآيتين اللزوم ، إذ يلزم من إخبار أم مريم بأنها وضعت أنثى إظهار
حسرتها وحزنها .

ويلزم من إخبار زكريا بأنه قد وهن عظمه وشاب شعره ، إظهار ضعفه ، وأنه قد صار مدعاة للشفقة والرحمة ، وقرينة هذا المجاز المرسل المركب في الآيتين الكريمتين إنما هي مقام الخطاب ، فهو خطاب لله تعالى ، والله تعالى يعلم السر وأخفى .

ومن المجاز المرسل المركب الخبر المستعمل استعمالاً بلاغياً في إيداء السرور وإظهار الفرح ، كقولك لمن عنده علم بنجاحك وأنت تعلم ذلك (أنا نجحت) تريد التعبير له عن فرحك بنجاحك ، لا إخباره به .

والعلاقة هي اللزوم ، أما القرينة فهي خطابك من عنده علم بنجاحك .

وأيضاً من المجاز المرسل المركب قول الشاعر :

خلقت من الحديد أشد قلباً

وقد بلى الحديد وما بليت

لأنه لم يستعمل فيما وضع له وهو الإخبار ، وإنما استعمل في مقام العجب والفخر .

والعلاقة - للمرة الرابعة - هي اللزوم ، إذ إخبار الإنسان عن نفسه باتصافه بالقوة والجرأة يلزمه الفخر ، والقرينة هي الموقف الذي قيل فيه الكلام ، فهو موقف فخر لا موقف إخبار .

يقول الأستاذ حامد عوني بعد صفحتين من الكلام على المجاز المرسل المركب :

« غير أن العلماء أهملوا هذا القسم ولم يبحثوه ، ولم يظهر لإهمالهم له وجه ، واعتذر بعضهم عن هذا بقلة وروده ، وهو عذر واه لا يقره الواقع إذ هو كثير شائع » (١) .

والحق مع العلماء الذين أهملوا المجاز المرسل المركب لأمرين هما :

(١) أن ما مثلوا به محصور في أن علاقته اللزوم ، وهي علاقة فضفاضة ، تتسع له ولغيره فلا تميزه عن غيره ، ولعل هذا هو السبب في عدم ظهور سمات المجاز المرسل في المفرد على أمثلة المجاز المرسل في المركب .

وقف في منطقة المجاز المرسل ثم تأمل قول أم مريم وقول زكريا السابقين تشعر بأنهما غريبان هنا ، وأن هذا الوطن ليس موطنهما ، ثم أمر على لسانك أو استشعر بقلبك قول نوح عليه السلام :

(١) المنهاج الواضح ج ١ ص ٢١٥

﴿ وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم ﴾ ، وقوله : ﴿ إنك إن ترهم يضلوا عبادك ولا يلبوا إلا فاجراً كفاراً ﴾ .

تجد أن المجاز المرسل يتواكب إلى ذهنك بقوة دفع قوية هي علاقة الكلية في الآية الأولى ، وعلاقة ما سيكون في الآية الثانية ، وتحس أن الآيتين متمكنتان تمكناً أمكن في المجاز المرسل :

(٢) خروج الخبر عن المعنى الحقيقي له إلى أغراض بلاغية مدروس بلاغياً في علم المعانى تحت عنوان (أغراض الخبر) ، والانتقال بالخبر ثمة من مجرد الإخبار إلى دقائق فنية تسمى « الأغراض البلاغية » هذا الانتقال انتقال سهل وطبيعي ، وهو بعد منتظر ومتوقع ، ثم هو مقنع ومشبع ، ولا عجب ، فهو يبسط رقعة التعبير - والتعبير محدود - على أكبر مساحة ممكنة من المعنى ، والمعنى غير محدود .

وإذا استعلمنا حاستنا السادسة ، فإننا نجد الأساليب الخبرية ذات الأغراض البلاغية تركض وتتواكب في مرح ونشوة في بيئتها الطبيعية بيئة أغراض الخبر ، أما هنا تحت ما سموه المجاز المرسل المركب فهي حزينة كثيبة لا تبين بل لا تنطق .

وما قلناه في الرد على فضيلة الشيخ عوني نقوله للعالمين الفاضلين مصطفى أمين وعلى الجارم ، فقد قال في كتابهما البلاغة الواضحة ص ١١٠ هامش رقم ٢ مايلي :

« ومن المجاز المرسل نوع يقال له المجاز المرسل المركب ، وهو كل تركيب استعمل في غير ما وضع له لعلاقة غير المشابهة ، وذلك كالجمل الخبرية المستعملة في الإنشاء للتحسر وإظهار الحزن كما في قول ابن الرومي :

بان شبابي فعز مطلبه واثبت بيني وبينه نسبه

فهذا البيت مجاز مركب علاقته السببية ، والقرينة حالية ، فابن الرومي لا يريد الإخبار ، ولكنه يشير إلى ما استحوذ عليه من الهم والحزن بسبب فراق الشباب .

انتهى كلام الشيخين ، وهو قد أثرى المجاز المرسل المركب بعلاقة ثانية هي السببية .

أما أن الجملة الخبرية هنا استعملت في الإنشاء ، فإنني أختلف معها في ذلك وأقول : إن الغرض البلاغي للخبر لا يخرج به عن الخبرية إلى الإنشائية بأي حال .

وابن الرومى على حد قولهما « يشير إلى ما استحوذ عليه من الهم والحزن بسبب فراق الشباب » أى يخبر عن ذلك ، ولو كان فضيلة الشيخ حامد عونى مكانهما لقال : بأن شباب ابن الرومى ، ولزم عن ذلك استحواذ الهم والحزن عليه ، أى لرد علاقة السببية إلى ما تعبد به من علاقة اللزوم . وهذا يعنى أن من قال بالمجاز المرسل المركب يتحرك فيه وبه فى حيز ضيق جداً .

فلنطلق سراحه من هنا ليعود وحده إلى مكانه الطبيعي فى الدرس البلاغى وهو علم المعانى .

* * *

وتتميماً للفائدة نقول : (المجاز المركب) أو (المجاز فى الجملة) قد جاء فى تراثنا البلاغى بمعنى واحد هو المجاز العقلى ، وعلى سبيل التمثيل لا الحصر هذه النقول :
قال السكاكى : « اعلم أن المجاز عند السلف من علماء هذا الفن قسمان : لغوى ، ويسمى مجازاً فى المفرد ، وعقلى ، ويسمى مجازاً فى الجملة » (١) .

وقال النويرى : « فمجاز المفرد لغوى : ويسمى مجازاً فى المثبت ، ومجاز الجملة عقلى ويسمى مجازاً فى الإثبات وحده ، وهو أن تضيف الفعل إلى غير الفاعل الحقيقى » (٢) .

وقال الزركشى تحت عنوان (نوعا المجاز) :

« وله سببان ، أحدهما الشبه ويسمى المجاز اللغوى وهو الذى يتكلم فيه الأصولى ، والثانى الملابس وهو الذى يتكلم فيه أهل اللسان ويسمى المجاز العقلى ، وهو أن تسند الكلمة إلى غير ما هى له أصالة بضرب من التأويل كسب زيد أباه ، إذا كان سبباً فيه ، والأول مجاز فى المفرد ، وهذا مجاز فى المركب » (٣) .

ونلتقط الخيط من أيدى هؤلاء العلماء ، لنقول : إذا أضفنا إلى (المجاز المركب) أو (المجاز فى الجملة) وهما رديان للمجاز العقلى ، (الاستعارة التصريحية فى المركب) وهى المعروفة فى المصطلح البلاغى باسم (الاستعارة التمثيلية) كان عندنا فى بلاغتنا العربية مجازان فى المركب ليس غير .

(١) مفتاح العلوم ص ١٧٢

(٢) نهاية الأرب فى فنون الأدب ج ٢ ص ٢٧ الطبعة الأولى ١٣٤٧هـ / ١٩٢٩م القاهرة

(٣) البرهان فى علوم القرآن ج ٢ ص ٢٥٦

المجاز العقلي

سبق التعريف به تسيماً للمجاز اللغوي ؛ وهو ينحصر في الإسناد ، أما المسند ،
والمسند إليه ، فإن كلا منهما مستعمل استعمالاً حقيقياً .

ففي المثال : (بنى الملك المدينة) .

نجد أن المسند وهو الفعل (بنى) مستعمل استعمالاً حقيقياً وهو مزاولة البناء ، وأن
المسند إليه وهو (الملك) مستعمل كذلك استعمالاً حقيقياً ، فنحن نعني به هنا ذات الملك .

لكن إثبات البناء لذات الملك ، والحكم بأنه هو الذي بنى ، وبعبارة أخرى إسناد البناء إلى
الملك ، هذا الإسناد هو الذي ليس بحقيقي بل مجازي فالملك لم يبن حقيقة ، وإنما
المهندسون والعمال هم الذين خططوا وبنوا .

لكن لما كان الملك هو الذي أمر بالبناء ، وكان أمره هذا هو السبب المباشر في قيام
المهندسين والعمال به ، سوغ لنا ذلك أن نسند الفعل (بنى) إليه فنقول : (بنى الملك
المدينة) .

ولأن المعول عليه في فهم هذا الإسناد ومعرفة طبيعته الحقيقي هو أم مجازي ، نقول :
لأن المعول عليه في ذلك إنما هو العقل ، سمي البلاغيون هذا النوع من الإسناد بالمجاز
العقلي ، وهم محقون في ذلك ، فالعقل ، والعقل وحده ، أي بلا توقف على معرفة مسبقة
بالمعجم كما هو الحال في المجاز اللغوي ، هذا العقل هو الذي امتدى إلى أن الملك شخصياً
لا يمكن أن يبني المدينة ، لكن يمكن أن يفكر فيها ويأمر ببنائها .

وإذن فقد فهم العقل الموقف على حقيقته ، وفسر الكلام تفسيراً صحيحاً هكذا :

الملك لم يبن بل فكر وأمر .

ونفذ المهندسون والعمال أمره فبنوا .

وجاء البليغ فتجاوز وأسند الفعل (بنى) إلى من لم يبن مجازاً عقلياً علاقتة السببية .

ولا يقتصر الأمر في الإسناد المجازي ، أي في المجاز العقلي على إسناد الفعل أو ما
في معناه إلى من كان سببياً فيه ، بل ثمة علاقات أخرى هي :

الظرفية : زمانية كانت أو مكانية .

المصدرية : أى كون المسند إليه المجازى مصدراً للمسند ، وذلك طبعاً إذا كان المسند فعلاً .

ثم تلبس الفعل أو ما فى معناه بكل من الفاعل والمفعول به فى إسناد الفعل المبني للفاعل إلى المفعول به ، وإسناد اسم الفاعل إلى ضمير المفعول به .

وفى إسناد الفعل المبني للمفعول إلى الفاعل ، وإسناد اسم المفعول إلى ضمير الفاعل .

* * *

مثال الإسناد إلى الظرفية الزمانية قولنا : صام نهار المسلم ، وذاكر ليل الطالب . هنا أسندنا الصيام إلى النهار ، والمذاكرة إلى الليل ، إسناداً مجازياً ، ولو أسندنا إسناداً حقيقياً لقلنا : صام المسلم نهاراً ، وذاكر الطالب ليلاً . والذي سوغ لنا الإسناد المجازى إنما هو اشتراك المسند إليه الحقيقى (المسلم والطالب) والمسند إليه المجازى . النهار والليل) فى تعلق المسند (صام وذاكر) بهما .

أما تعلقه بالمسند إليه الحقيقى فمن حيث حصوله منه ، وأما تعلقه بالمسند إليه المجازى فمن حيث وقوعه فيه زماناً .

* * *

ومثال الإسناد إلى الظرفية المكانية : أضاعت الحجرة ، وازدحمت الشوارع ، فعلنا هنا ما فعلناه فى الظرفية الزمانية ، فأسندنا الفعلين :

(أضاعت) و (ازدحمت) إلى الحجرة والشوارع على التوالى ، وهو إسناد مجازى .

ولو أسندنا إسناداً حقيقياً لقلنا : أضاء محمد الحجرة ، وازدحم الناس فى الشوارع .

والذى سوغ الإسناد المجازى ، إنما هو اشتراك المسند إليه الحقيقى (محمد والناس) والمسند إليه المجازى (الحجرة والشوارع) فى تعلق المسند (أضاعت وازدحمت) بكل منهما .

أما تعلقه بالمسند إليه الحقيقى فمن حيث وقوعه منه ، وأما تعلقه بالمسند إليه المجازى فمن حيث وقوعه فيه مكاناً .

* * *

ومثال إسناد الفعل إلى مصدره :

اجتهد اجتهد الطالب ، ونجح نجاح المجتهد .

هنا أسندنا المسند وهو الفعل (اجتهد) والفعل (نجح) إلى مصدريهما إسناداً مجازياً .

ولو أسندنا إسناداً حقيقياً لقلنا : اجتهد الطالب اجتهداً ونجح المجتهد نجاحاً .

والذى سوغ إسناد المسند (اجتهد ونجح) إلى مصدره (اجتهد ونجاح) اشتراك هذا المصدر مع المسند إليه الحقيقي (الطالب) و (المجتهد) فى تعلق الفعل بكل منهما .

أما تعلقه بالمسند إليه الحقيقي فلحصوله منه .

وأما تعلقه بالمسند إليه المجازى وهو المصدر ؛ فلكون هذا المصدر جزءاً من مفهومه ؛ فالمصدر - كما نعلم - لا يدل إلا على الحدث ، أما الفعل فإنه يدل على الحدث وعلى زمنه معاً .

* * *

وعن إسناد الفعل المبنى للفاعل إلى المفعول به ، وإسناد اسم الفاعل إلى ضمير المفعول به .

ثم عن إسناد الفعل المبنى للمفعول إلى الفاعل ، وإسناد اسم المفعول إلى ضمير الفاعل .

نقول : اعلم أن إسناد الفعل المبنى للفاعل إلى الفاعل مثل نجاح المجتهد إسناد حقيقى .

كما أن إسناد الفعل المبنى للمفعول إلى المفعول مثل : أكرم الضيف ، إسناد حقيقى .

لكن إسناد الفعل المبنى للفاعل إلى المفعول به ، وإسناد اسم الفاعل إلى ضمير المفعول به . وأيضاً إسناد الفعل المبنى للمفعول إلى الفاعل ، وإسناد اسم المفعول إلى ضمير الفاعل .

هذا الإسناد المزيج فى المرتين إسناد مجازى أى مجاز عقلى .

مثال الأول : رضيت عيشة الغريب .

بإسناد الفعل (رضى) إلى (عيشة) إسناداً مجازياً .

وإسناد الحقيقى : (رضى الغريب عيشته) .

حذفنا الفاعل وهو (الغريب) وأسندنا الفعل (رضى) - وهو مبنى للفاعل أى مبنى للمعلوم - إلى المفعول به وهو (عيشة) إسناداً مجازياً فقلنا [رضيت عيشة الغريب] .
والذى سوغ لنا هذا الإسناد إنما هو اشتراك المسند إليه الحقيقى وهو [الغريب] والمسند إليه المجازى وهو [عيشة] فى تعلق الفعل [رضى] بكل منهما .
أما تعلقه بالمسند إليه الحقيقى وهو (الغريب) فلوقوعه منه .
وأما تعلقه بالمسند إليه المجازى وهو عيشة فلوقوعه عليه .

* * *

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فهو فى عيشة راضية ﴾ .

أسند سبحانه وتعالى اسم الفاعل من الفعل (رضى) - بفتح الراء - إلى الضمير المستتر العائد على المفعول به وهو (عيشة) .
من إسناد اسم الفاعل إلى غير ما هو له وهو ضمير المفعول به .
ولو جاء الإسناد على حقيقته لقال : فهو فى عيشة مرضية . فأصل الكلام (رضى الرجل العيشة) .

حذف الفاعل وأقيم المفعول به مقامه ، وأسند الفعل (رضى) بضم الراء إليه ، فصار الكلام رضيت العيشة وهو إسناد حقيقى .

لكننا بعد ذلك تجوزنا فاشتقنا من الفعل رضى المبنى للمعلوم اسم فاعل هو راض وأسندناه إلى ضمير المفعول به وهو العيشة ، ومن هنا جاء قول الله تعالى : ﴿ فهو فى عيشة راضية ﴾ بدلاً من مرضية .

ومثال إسناد الفعل المبنى للمفعول إلى الفاعل ، وإسناد اسم المفعول إلى ضمير الفاعل (عكس السابق) .

أفعم السيل ، بدلاً من أفعم الوادى .

فأصل الكلام . (أفعم السيل الوادى) .

بنى الفعل (أفعم) للمفعول ، فضم أوله ، وكسر ما قبل آخره ، وكان المنتظر أن يسند حينئذ إلى المفعول به وهو الوادى إسناداً حقيقياً ، لكنه - وهو مبنى للمفعول - أسند إلى الفاعل الحقيقى وهو السيل إسناداً مجازياً .

والذى سوغ ذلك اشتراك كل من المسند إليه الحقيقي (الوادى) والمسند إليه المجازى (السييل) فى تعلق الفعل بهما ، أما تعلقه بالسييل فليصوره منه وأما تعلقه بالوادى فلوقوعه عليه .

ومن ذلك قول الله تعالى : ﴿ إنه كان وعده مأتيا .. ﴾ أى أتياً ، وقوله تعالى : ﴿ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً ﴾ أى ساتراً .
جاء اسم المفعول فى الآيتين مكان اسم الفاعل ، وبعبارة أخرى : أسند اسم المفعول إلى ضمير الفاعل .

* * *

وتجدر الإشارة إلى أن بعض البلاغيين يسمون العلاقة فى المجاز العقلى الملايسة .
يعنون : المناسبة التى سوغت إسناد الفعل أو مافى معناه إلى غير ما هو له حقيقة .
والملايسة - كما رأينا - متنوعة ، فهى السببية أو الظرفية أو المصدرية أو اشتراك الفاعل والمفعول به فى تعلق الفعل بهما اشتراكاً جعل إحلال أحدهما محل الآخر أمراً مقبولاً ، بل أمراً مرغوباً فيه بلاغة .

* * *

أما القرينة فهى إما لفظية وإما معنوية .
وتكون القرينة لفظية إذا جاء فى الكلام ما يدل بمنطوقه على أن الإسناد الذى نحن بصددده إسناد مجازى ، وذلك كقول أبى النجم :

قد أصبحت أم الخيار تدعى

على ذنبا كله لم أصنع

من أن رأت رأسى كراس الأصلع

میز منه قنزعاً عن قنزع

جذب الليالى أبطئ أو أسرعى

يقول : ذهب توالى الليالى بشعر رأسى خصلة بعد خصلة .

وهو إسناد مجازى علاقته الزمنية أو السببية .

أما قرينته لفظية هى قوله بعد ذلك :

أفناه قيل الله للشمس اطلعى حتى إذا وارك أفق فارجمى

فهو نص على أن أبا النجم من المؤمنين الذين يسندون الأمور إلى فاعلها الحقيقي وهو الله . سبحانه وتعالى ، وهو لذلك قرينة على أن ما سبق من إسناده (ميز) إلى (جذب الليال) إسناد مجازي .

وتكون القرينة معنوية إذا خلا النص الذي معنا من كلمة أو عبارة تدل على أن الإسناد الذي فيه إسناد مجازي : اتكلاً من الأديب على ذكائنا الذي يلقي في روعنا أن صدور المسند عن المسند إليه أو قيامه به مستحيل عقلاً مثل : محبتك جاءت مني إليك . أو عادة مثل : بنى الملك المدينة .

* * *

وينبغي الإلمام بما قاله البلاغيون وهم يبحثون عن أصل المجاز العقلي وينقبون عن جنوره ، في محاولة مخصصة للإجابة عن السؤال الآتي :

هل يلزم أن يكون لكل إسناد مجازي إسناد حقيقي في مقابلته ؟
وقد اختلفت إجاباتهم :

أما الخطيب القزويني فقد قال : نعم ، وهذا هو نص كلامه :

« وأعلم أن الفعل المبني للفاعل في المجاز العقلي واجب أن يكون له فاعل في التقدير إذا أسند إليه صار الإسناد حقيقة لما يشعر بذلك تعريفه ، وذلك قد يكون ظاهراً كما في قوله تعالى : « فما ربحت تجارتهم » أي فما ربحوا في تجارتهم ، وقد يكون خفياً لا يظهر إلا بعد نظر وتأمل كما في قولك « سرتني رؤيتك » أي سرتني الله وقت رؤيتك ، وكما في قولك « أقدمنى بلدك حق لى على فلان » أي أقدمتنى نفسى بلدك لأجل حق لى على فلان ، وكما في قول أبي نواس :

يزيدك وجهه حسنا إذا ما زدته نظرا

أي يزيدك الله حسنا في وجهه لما أودعه من دقائق الجمال متى تأملت (١) .

وأما عبد القاهر فقد نسب إليه الشيخان حامد عوني وعبد المتعال الصعيدي رأياً فحواه أنه ليس بواجب في المجاز العقلي أن يكون للمسند فاعل حقيقي أسند إليه أولاً إسناداً معتاداً ، في العرف والاستعمال إليه قبل إسناده إلى الفاعل المجازي ، بل تارة يكون له

(١) بغية الإيضاح ج ١ ص ٥٧ - ٥٨ .

مسند إليه حقيقي أسند إليه أولاً إسناداً معتداً به عرفاً واستعمالاً ، ثم نقل إلى المسند إليه المجازي مثل شفى الطبيب المريض ، وقول الله تعالى : ﴿ فما ربحت تجارتهم ﴾ ، وتارة لا يكون له مسند إليه حقيقي جرى العرف والاستعمال بإسناده إليه ، فيسند من أول الأمر إلى الفاعل المجازي كقولهم « سرتنى رؤيتك » ، و« يزيدك وجهه حسناً إذا ما زدته نظراً » و« أقدمنى بلدك حق لى عليك » .

فهذه الأسانيد ونحوها بمثابة المجاز الذى لا حقيقة له (١) .

وما نسبه الشيخان الفاضلان إلى عبد القاهر مستنبط من كلامه عما دخل المجاز فى مثبتته دون إثباته ، وفى إثباته دون مثبتته ، وفيهما معاً (٢) .

والحق أن كلام عبد القاهر لا يعطى ما استنبطه الشيخان بل يعطى ما قاله القزوينى الذى لم يزد على أن وضع كلام عبد القاهر .

وإذا كان لى أن أبدى رأى ، فإنى أقول : إن الإسناد المجازى فرع عن الإسناد الحقيقى ، وهذا يعنى أن الإسناد المجازى لا بد أن يسبقه إسناد حقيقى ، ولو لم يكن الأمر كذلك ما أوجبوا العلاقة والقرينة فى كل مجاز .

فالعلاقة إنما تكون بين المعنيين الحقيقى والمجازى .

والقرينة واجبة احتراماً من أن يسبق المعنى الحقيقى أخاه المجازى إلى ذهن متلقى الأدب .

والدراسة التطبيقية تؤيد وجهة نظرنا ، فقد عدلنا فى كل أمثلة المجاز العقلى عن الإسناد الحقيقى إلى الإسناد المجازى .

* * *

وقبل أن نغادر المجاز العقلى ننبه إلى أن السكاكى له منه موقف شبيه بموقفه من الاستعارة التبعية ، بل إن الموقف واحد هناك وهنا ، وهو موقف يدل على ذكائه ، وقوة لحيه ، وعلى حبه للتجميع البلاغى ما أمكن ذلك .

ها هو ذا يعقد فصلاً له هو (الفصل الخامس فى المجاز العقلى ص ١٨٢ وما بعدها) يوفيه فيه حقه من البحث والدراسة ، ومن التقرير والشرح ، ولكننا - وبإلهامنا وتقديرنا - نجده يختتمه بقوله :

(١) انظر بغية الإيضاح للشيخ عبد المتعال الصعیدی ج ١ ص ٥٧ هامش رقم ٣ والمنهاج الواضح للشيخ

حامد عونى ج ٢ ص ٥٩ .

(٢) انظر أسرار البلاغة ص ٣٤٢ - ٣٤٤ .

« هذا كله تقرير للكلام فى هذا الفصل بحسب رأى الأصحاب من تقسيم المجاز إلى لغوى وعقلى ، وإلا فالذى عندى هو نظم هذا النوع (المجاز العقلى) فى سلك الاستعارة بالكناية ، بجعل الربيع استعارة بالكناية عن الفاعل الحقيقى بوساطة المبالغة فى التشبيه على ما عليه مبنى الاستعارة كما عرفت ، وجعل نسبة الإنبات إليه قرينة الاستعارة ، ويجعل الأمير المدبر لأسباب هزيمة العدو استعارة بالكناية عن الجند الهازم ، وجعل نسبة الهزم إليه قرينة للاستعارة .

وإننى بناءً على قولى هذا ما هنا ، وقولى ذلك فى فصل الاستعارة التبعية ، وقولى فى المجاز الراجع عند الأصحاب إلى حكم للكلمة – على ما سبق – أجعل المجاز كله لغوياً وإذ قد عرفت ما ذكرت وما ذكروا فاختر أيهما شئت » (١) .

انتهى كلام السكاكى ، وهو واضح لا يحتاج إلى شرح ، باستثناء عبارة : « قولى فى المجاز الراجع عند الأصحاب إلى حكم للكلمة على ما سبق » .

فهو يشير بها إلى المجاز اللغوى الراجع إلى الحكم الإعرابى للكلمة فى الكلام قال : « هو عند السلف رحمهم الله أن تكون الكلمة منقولة عن حكم لها أصلى إلى غيره كما فى قوله تعالى : (وجاء ريك) ، فالأصل : وجاء أمر ريك ، فالحكم الأصلى فى الكلام لقوله « ريك » هو الجر ، وأما الرفع فمجاز ، وفى قوله :

« وأسأل القرية » ، والأصل : وأسأل أهل القرية ، فالحكم الأصلى للقرية فى الكلام هو الجر ، والنصب مجاز ... » إلى آخر ما مثل به (٢) .

ومن الأصحاب أو من السلف الذين ترحم عليهم السكاكى عبد القاهر الجرجانى ، فقد جاء على لسانه فى الموضوع نفسه قوله :

« وأعلم أن الكلمة كما توصف بالمجاز لنقلك لها عن معناها ، فقد توصف به لنقلها عن حكم كان لها إلى حكم ليس هو بحقيقة فيها ، ومثال ذلك أن المضاف إليه يكتسى إعراب المضاف فى نحو « وأسأل القرية » والأصل : وأسأل أهل القرية ، فالحكم الذى يجب للقرية فى الأصل وعلى الحقيقة هو الجر والنصب فيها مجاز ، وهكذا قولهم « بنو فلان تطوهم الطريق » يريدون أهل الطريق ، الرفع فى الطريق مجاز : لأنه منقول إليه عن المضاف المحنوف الذى هو الأهل ، والذى يستحقه فى أصله هو الجر » (٣) .

(١) مفتاح العلوم ص ١٨٩ .

(٢) « مفتاح العلوم ص ١٨٥ .

(٣) أسرار البلاغة ص ٢٨٢ . تحقيق هـ . ريتز .

وبعد هذا التوضيح لفقرة من كلام السكاكي نقول :

إنه بإدخاله كلاً من الاستعارة التبعية ، ومن المجاز العقلي في الاستعارة المكنية ، وجعل ثلاثتها شيئاً واحداً .

السكاكي بموقفه هذا مع البلاغة العربية لا عليها .

إنه يرى تسهيلها وتيسيرها على طلابها بتقليل أقسامها ، وخلخلة تفريعاتها ، وما كان أحبُّ إلى من أن تسود رؤيته الساحة البلاغية كلها في مختلف عصورها ، لكنه - للأسف - خوفاً فيما دعا إليه ، بل أخذ ذلك عليه . وانظر حلية اللب المصون بشرح الجوهر المكنون للشيخ أحمد الدمنهوري ص ٤٥ الطبعة الثانية ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م القاهرة ، وشرح عقود الجمان في علمي المعاني والبيان للسيوطي ص ١٤ طبعة دار إحياء الكتب العربية بمصر د.ت.

الكناية

الكناية - كما عرفها القزويني - لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ ، كقولك طويل النجاد أى طويل القامة ، وفلانة نثوم الضحا أى مرفهة مخدومة غير محتاجة إلى السعى بنفسها فى إصلاح المهمات ، وذلك أن وقت الضحا وقت سعى النساء العرب فى أمر المعاش ، وكفاية أسبابه ، فلا تنام فيه من نسائهم إلا من تكون لها خدم ينوبون عنها فى السعى لذلك .

ولا يمتنع أن يراد مع ذلك طول النجاد ، والنوم فى الضحا من غير تأويل (من غير صرف اللفظ عن معناه الأسمى) ، فالفرق بينها وبين المجاز من هذا الوجه ، أى من جهة إرادة المعنى مع إرادة لازمه ، فإن المجاز ينافى ذلك ، فلا يصح فى نحو قولك (فى الحمام أسد) أن تريد معنى الأسد من غير تأويل (يقصد القزويني امتناع أن تقصد أسداً حقيقياً بل لابد أن يكون المقصود أن فى الحمام رجلاً شجاعاً استعرت له كلمة أسد) « (١) .

* * *

وتوضيح كلام القزويني فى الفرق بين الكناية والمجاز نقول :

إنهما يشتركان فى ضرورة وجود قرينة تدل على المعنى المقصود من كل منهما ، أى على المعنى الكنائى فى الكناية ، وعلى المعنى المجازى فى المجاز ، لكن ثمة فرقاً جوهرياً بين القرينتين ، وفى هذا الفرق الجوهرى بين القرينتين يكمن الفرق بين الكناية والمجاز .

فالقرينة فى الكناية لا تمنع من إرادة المعنى الأسمى وهو المعنى المباشر للعبارتين (طويل النجاد) و (نثوم الضحا) ولأمثالهما من الأساليب الكنائية .

أجل إن مراد المتكلم ابتداءً إنما هو المعنى الكنائى للعبارة ، أى المعنى الثانى لها وهو المعنى اللازم عن معناها الأسمى ، لكن ليس ما يمنع من إرادة المعنى الأسمى مع المعنى الكنائى .

وبعبارة أخرى نقول : إن قرينة الكناية سهلة ومتسامحة ومرنة ، وهى لذلك توافق على ازواجية الأداء وثنائية المعنى .

فى المثال : هند نثوم الضحا .

(١) : بنية الإيضاح ج ٢ ص ١٥٥ .

المعنى المباشر أنها تنام وقت الضحا أى إلى الساعة العاشرة أو الحادية عشرة ، وهذا
المعنى المباشر وهو المعنى الأصلي للعبارة غير مقصود لذاته بل لما يلزمه ويترتب عليه من
معنى كئائى هو أنها مترفة ومخدومة ، وهذا المعنى الكئائى هو المقصود لذاته من أول
الأمر ، لكن لا بأس مع قصد المعنى الكئائى ابتداء من قصد المعنى المباشر معه .

وتجدر الإشارة إلى أن الكناية تصح ولو لم يكن المعنى الأصلي للفظ المكنى به ذا وجود
خارجى .

نتحدث عن المضيف الذى لا يطبخ لضيفه ، وإنما يشتري لهم الطعام من المطابخ
الخارجية فنقول : (فلان كثير الرماد) كناية عن كرمه ، ولارماد هناك كما نقول لطويل
القامة الذى لا نجاد له ؛ لأنه لا سيف عنده (طويل النجاد) .

وكذلك تصح الكناية فى حالة استحالة المعنى الأصلي ، وكل أمثلة الكناية عن نسبة من
هذا النوع ، نقول : المجد ملء ثيابه ، كناية عن نسبة المجد إليه ، والمعنى الأصلي هنا
مستحيل ، لاستحالة حلول المجد وهو أمر معنوى فى الثياب بمعناها الحقيقى .

أما القرينة فى المجاز - أى مجاز - فإنها تمنع منعاً باتاً إرادة المعنى الحقيقى وإلا
اختلف الكلام وتداخل وانبههم مقصود قائله منه فلم نتبينه ، ويكون التعبير قد فقد خاصية
التواصل وهى وظيفته .

تقول : (معنا فى العمل عين وثلعب) ؛ وفى قولك هذا مجازان : علاقة الأول الجزئية ،
أطلقت العين وأردت الجاسوس ، مجازاً مرسلاً .

وعلاقة الثانى المشابهة ، صرحت بالثلعب فى مكان زميلك المكار . استعارة تصريحية
أصلية مطلقة .

والقرينة فى هذين المجازين هى (معنا فى العمل) ، وهى مانعة منعاً قاطعاً من إرادة
المعنى الحقيقى للعين ، ومن إرادة المعنى الحقيقى للثلعب .

أقسام الكناية

والكناية ثلاثة أقسام :

- ١ - كناية عن صفة أى عن معنى .
- ٢ - كناية عن موصوف أى عن ذات .
- ٣ - كناية عن نسبة الصفة إلى الموصوف أى عن نسبة المعنى إلى الذات .

الكناية عن صفة

وفيها نصح بالوصوف وبالنسبة إليه ، لكن لا نصح بالصفة المكنى عنها ؛ بل بصفة أو بصفات أخرى تستلزمها .

عاد نو الرمة من سفره ، ونزل بدار صاحبت ، فصدم بخلوها منها ، ولم يجد من يده عليها ، وقد عبر عن اكتتابه وخيبة أمله بقوله :

عشية مالى حيلة غير أننى بلقط الحمى والخط فى التوب موع
أخط وأمحو الخط ثم أعيده بكفى والغربان فى الدار وقع

فى هذين البيتين ترى الشاعر زاهلاً عن نفسه ، ها هو ذا منهمك فى لقط الحمى والكتابة فى التراب ، ومحو ما كتب ، ثم كتابة ما معا ثانية ، وهو لم يعطنا هذه الصورة الخارجية له لنقف عندها ، بل لننفذ من خلالها إلى ما وراءها من قلقه ويأسه ، ومن غلبة الهم على نفسه .

وكبيتى نى الرمة فى الكناية عن الغم والهم وعن الحزن والألم قول امرئ القيس :

ظللت ردائى فوق رأسى قاعداً أعد الحمى ما تنقضى عبراتى

وفى ضوء قول الله تعالى فى سورة الكهف « وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها » .

ترى صاحب الحديقة وهو يقلب كفيه ، وتقلب الكفين صورة خارجية كنى بها الله سبحانه وتعالى عن حالة نفسية هى شدة الألم . وعظم الشعور بالندم .

وقول عمر بن أبي ربيعة :

بعيدة مهوى القرط إما لنوفل

أبوها ، وإما عيد شمس وهاشم

فيه الموصوف وهو صاحبة القرط ، وفيه نسبة بعد مهوى القرط إليها ، وليس بعد مهوى القرط مقصوداً لذاته ، بل لما يلزمه من طول عنقها وهو مظهر من مظاهر الجمال في النساء ، كنى عنه ببعد مهوى القرط ، وقول امرئ القيس :

وقد أعتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

فيه كناية عن التبكير بالجملة الحالية في الشطرة الأولى .
وكناية عن سرعة الفرس بأنه قيد الأوابد في الشطرة الثانية .

* * *

ومن الكنايات عن صفات :

الطلاب يتأبون ، كناية عن الكسل .

السامعون يديمون النظر إلى ساعاتهم ، كناية عن الملل .

الناس كأن على رؤوسهم الطير ، كناية عن الهدوء وعمق الإصغاء .

فلان لا يدخل من هذا الباب ، كناية عن ضخامته .

صارت نهلة عروساً ، كناية عن أنها كبرت .

ومن الكنايات المستطرفة قول الله تعالى :

« وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم » .

كناية عن عنادهم وكفرهم .

وقوله تعالى : « وقالت اليهود يد الله مغلولة ، غلت أيديهم ، ولعنوا بما قالوا ، بل يدها مبسوطتان » .

كناية عن البخل في مقولة اليهود : « يد الله مغلولة » وعن الكرم في « يدها مبسوطتان » .

* * *

والكناية عن صفة ضربان : قريبة وبعيدة .

فالقريبة : هي التي ينتقل فيها الذهن من المعنى الأصلي إلى المعنى الكنائى بلا واسطة بين المعنيين ، كخرساء الأساور ، كناية عن السمنة ، فليس بين صمت الأساور والسمنة واسطة ما . وهذه الكناية القريبة نوعان : واضحة وخفية .

فالواضحة هي ما يفهم المعنى الكنائى من المعنى الأصلي فيها بدهاء لوضوح اللزوم بينهما كقول امرئ القيس :

وتضحى فتيت المسك فوق فراشها نفوم الضحا لم تنتطق عن تفضل
كناية عن ترفها وغناها في الشطرة الأولى ، وعن أنها مدللة مخدومة في الشطرة الثانية .
وكقول الحماسي :

أبت الروادف والتدئ لقمصها مس البطون وأن تمس ظهورا

فقد كنى عن ضخامة عجيبة المرأة ، وعن نهود ثديها بارتفاع قمصها عن ظهرها ويطننها حتى أنها لا تمسها .

والكنايات في بيتي امرئ القيس والحماسي واضحة لا تحتاج إلى جهد ذهني في إدراكها .

أما الخفية فهي التي تموج في فهم المقصود منها إلى شيء من الأناة والتأمل لخفاء اللزوم فيها - نوعاً ما - بين المعنى الأصلي والمعنى الكنائى كقول الفرزدق :

إذا مالك ألقى العمامة فاحذروا بسواد كفى مالك حين يفضيب

فقد كنى بإلقاء مالك عمامته عن ضيق صدره ، ونفاد صبره ، وحدة غضبه ، وأيضاً عن جسارته وشجاعته ، بدليل أنه لم يبال ما يتعرض له المحارب الذي يعرى رأسه من رشقة رمح ، أو من ضربة سيف ، ثقةً بقدرته على حماية نفسه .

وفهم هذا كله من عبارة (ألقى العمامة) محتاج إلى بصيرة نيرة ، وعقل فطن .

* * *

ومن الكناية القريبة الخفية قول الشاعر :

عريض القفا ميزانه في شماله قد انحص من حسب القواريط شاربيه

ففي هذا البيت ثلاث كنايات هي :

(عريض القفا) كناية عن غبائه وبلهه .

و (ميزانه في شماله) كناية عن امتزاز شخصيته ، وقلة كفاءته .

و (قد انحص من حسب القواريط شاربيه) كناية عن إشغاله نفسه بالتوافه ، وانصرافه عن الأمور العظيمة .

وأحسب أن في الكنايات الثلاث شيئاً من الخفاء ، لكن بدرجة متفاوتة ، ولعل في الكناية الأولى أقل منه في الكنايتين الثانية والثالثة ، وانحص شاربيه أي نحل وسقط .

* * *

ونصل إلى الكناية البعيدة ، وهي ما كثرت فيها الوسائط بين المعنيين الأصلي والكناي ككثير الرماد ، كناية عن الكرم .

فبين كثرة الرماد والكرم وسائط جمّة ؛ إذ ينتقل الذهن من كثرة الرماد إلى كثرة الحرق ، ومن كثرة الحرق إلى كثرة الطبخ ، ومن كثرة الطبخ إلى كثرة الأكلة ومن كثرة الأكلة إلى كثرة الضيوف ، ومن كثرة الضيوف إلى عظم الكرم .

ومن الكناية البعيدة قول الشاعر :

وما يك هي من عيب فإني جبان الكلب مهزول الفصيل

ففي الشطرة الثانية كنايتان بعيدتان :

«جبان الكلب» كناية عن الرئاسة وعظم الجاه

و «مهزول الفصيل» كناية عن الكرم.

الكناية عن موصوف

وانبها نصح بالصفة ، ونصح بالنسبة ، لكن لا نصح بالموصوف صاحب النسبة ، بل نكنى عنه بما يدل عليه ويستلزمه .

هذا امرؤ القيس يكنى عن صاحبه التي كان من أمره معها ما ذكره في قوله :

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهو بها غير معجل

ف (بيضة خدر) كناية عن موصوف هو المرأة صاحبة الخدر .

وهذا الشنفرى يكنى عن الحرب بأقسطل في قوله :

فإن تبتئس بالشنفرى أم قسطل لما اغتبطت بالشنفرى قبل أطول

القسطل : الغبار ، وأم قسطل هي الحرب . يقول :

إن لم ترض الحرب عنى شيخاً ، فلطالما رضيت عنى شاباً .

ولقد كانت العرب تكنى بالقلائنص - وهي النوق الفتية - عن النساء .

كتب أبو المنهال بقبيلة الأكبر الأشجعي إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه في شأن النساء اللاتي كان الجاهلون يخلونهن وراءهم وهم يفزون :

ألا أبلغ أبا حفص رسولا فدى لك من أذى ثقة إزارى

قلائنصنا هداك الله إنا شغلنا عنكم زمن الحصار (١)

ولما حظر بعض الخلفاء على الشعراء ذكر النساء قال حميد بن ثور :

تجرم أهلها لأن كنت مشعرا جنوناً بها يا طول هذا التجرم

ومالى من ذنب إليهم علمته سوى أننى قد قلت يا سزحة اسلمى

بلى اسلمى ثم اسلمى ثم اسلمى ثلاث تحيات وإن لم تكلم

فكنى عن تغزل فيها بالسرحمة ، وقد كانوا يقولون لزوجة الرجل سرحته . وكما كنوا عن

(١) التصوير البياني د. محمد أبو موسى ص ٤١٠ .

المرأة بالسرحة كنوا عنها بالنخلة ، قال شاعرهم :

ألا يا نخلة من ذات عرق عليك ورجمة الله السلام

وكنوا عنها بالنعجة قال تعالى : « إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ، ولى نعجة واحدة » .

وكنوا عنها بالوديعه فى رسالة كتبها أبو الحسين جعفر بن محمد بن ثوبان على لسان المعتضد بالله العباسى إلى أبى الجيش خمارويه بن أحمد بن طراون ، يطمئنه فيها على كريمته قطر الندى قال :

« وأما الوديعه فهى بمنزلة ما انتقل من شمالك إلى يمينك عناية لها وحياطة بها » .

وكان ابن ثوبان فرحاً بوقوعه على هذه الكناية حتى لقد قال للوزير أبى القاسم عبيد الله ابن سليمان بن وهب « والله إن تسميتى إياها بالوديعه نصف البلاغة » .
وقد استحسنت هذه الكناية حتى صار الكتاب يعتمدونها (١) .

* * *

والكناية عن موصوف هى أيضاً نوعان :

نوع يكنى فيه عن الموصوف بمعنى واحد كما فى الأمثلة السابقة . وكما فى قول الشاعر :

الضاريين بكل أبيض مخدم والطاعنين مجامع الأضغان

فقد كنى بمعنى واحد هو (مجامع الأضغان) عن موصوف هو القلوب .

والمقصود بوحدة المعنى هنا إنما هى وحدة النوع أو الجنس . وإن كان مثنى أو جمعاً ، فمجامع الأضغان ، وإن كان جمعاً إلا أنه معنى واحد من حيث إنه جنس واحد هو القلوب ، وليس أجناساً متعددة ، وسيوضح ذلك أكثر بذكر :

النوع الثانى : وهو ما يكنى فيه عن الموصوف بمجموعة معان تتضافر مع بعضها حتى تشكل الموصوف المكنى عنه بها وتحضره فى ذهن القارئ أو السامع .

(١) سر الفصاحة ١٥٦ .

مثال ذلك قوله تعالى كناية عن البنات : « أو من يُنشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبین » .

لم يعبر الله سبحانه وتعالى عن البنات بمعنى واحد بل بمعنيين اثنين هما التنشئة في الحلية ، والعجز عن الإبانة في اللدد والخصومة .

وهذان المعنيان مختلفان ، لكنهما متكاملان وهما لذلك يؤديان إلى المكنى عنه بهما في الآية الكريمة ، وهو الإناث في مقابلة الذكور .

ومثاله أيضاً قوله تعالى في قصة نوح عليه السلام : « وحملناه على ذات ألواح ودسر » .

فقد كنى - سبحانه - بمعنيين من جنسين مختلفين عن الموصوف وهو السفينة المكونة من الألواح والدسر ، والدسر : جمع دسار وهو المسار ، وقيل خيط من الليف تشد به الألواح (١) .

ومن الأمثلة التي اصطنعها البلاغيون ليوضحوا بها ما نحن بصدده ، وهو الكناية عن الموصوف بأكثر من معنى قولهم فيما يشبه الإلفاظ :
« حى مستوى القامة عريض الأظفار »

ووكدهم أن تتأزر الصفات الثلاث لتنهض مجتمعة كناية عن موصوف هو الإنسان ، قالوا :

« لأن الحياة وحدها لا تكفى في الدلالة عليه ، وكذلك الحياة واستواء القامة ، لأن التمساح يشارك الإنسان في ذلك ، فإنه حى مستوى القامة ، ولو قيل : حى عريض الأظفار - بإسقاط مستوى القامة - لساواه الجمل » (٢) .

ذكر القزويني هذا المثال ، وهو يشبه أن يكون حداً للإنسان لا كناية عنه ، ولو حجبنا كلمة الإنسان عنه لكان - كما قلنا قبلاً - لغزاً ، وقد رده السبكي لأنه من وجهة نظره حد ، والحد تصريح لا كناية (٣) .

(١) أساس البلاغة ص ١٣٠ .

(٢) التصوير البياني ص ٤١٩ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٣٠ .

الكناية عن نسبة الصفة إلى الموصوف

وفيها نصرح بالصفة ونصرح بالموصوف ، لكننا لا نصرح بنسبة الصفة إلى الموصوف بل نكتفى عن هذه النسبة بنسبة أخرى تستلزمها .

نقول : يحل الأدب حيث يحل محمد .

وننظر فنجد أننا قد صرحنا بالصفة وهى الأدب ، وبالموصوف وهو محمد ، لكننا لم نصرح بنسبة الصفة إلى الموصوف أى بنسبة الأدب إلى محمد ، وإنما كنيينا عن ذلك بأن نسبنا الأدب إلى حيث يحل محمد أى إلى المكان الذى يحل فيه محمد ، ونسبة الأدب إلى المكان الذى يحل فيه محمد تستلزم ، أو هى كناية عن نسبة الأدب إلى محمد ؛ لاستحالة قيام الأدب بمكان وضرورة قيامه بإنسان هو فى مثالنا محمد .

ويقول زياد الأعجم :

إن السماحة والمروءة والندى فى قبة ضربت على ابن الحشر

فيسوقه القزوينى مثلاً للكناية عن نسبة ويعلق عليه بقوله :

« إنه حين أراد ألا يصرح بإثبات هذه الصفات لابن الحشر جمعها فى قبة تنبيهها بذلك على أن محلها (ابن الحشر) ذو قبة ، وجعلها مضروبة عليه لوجود نوى قباب فى الدنيا كثيرين ، فأفاد إثبات الصفات المذكورة له بطريق الكناية .

ونظيره قولهم : « المجد بين ثوبيه والكرم بين برديه » (١) .

وكبيت زياد قول حسان يفتخر :

فنحن الذرا من نسل آدم والعرا

تربع فينا المجد حتى تأثلا

بنى المجد بيتاً فاستقرت عماده

علينا فأعيا الناس أن يتحولا

(١) بغية الإيضاح ج ٢ ص ١٦٢ .

وقول زهير بن أبى سلمى يمدح هرم بن سنان :

هناك ربك ما أعطاك من حسن

وحيثما يك أمر صالح تكن

وقول الكميت يمدح أبان بن الوليد :

يصير أبان قرين السما ح والمكرمات معاً حيث صاروا

وقول يزيد بن الحكم يمدح يزيد بن المهلب لما كان فى حبس الحجاج :

أصبح فى قيدك السماحة والمجد كد وفضل الصلاح والحسب

وقول أبى نواس فى مدح الخصيب :

فما جازه جود ولا حلُّ دونه ولكن يصير الجود حيث يصير

وقد جمع الشنفرى بين سالبة وموجبة من الكناية عن نسبة فى بيته المشهور :

يبيت بمنجاة من اللوم بيتها إذا ما بيوت بالملامة حلت

فى الشطرة الأولى ، نسب إلى بيتها النجاة من اللوم (نَقَى اللوم عنه) وقصده نسبة النجاة من اللوم إليها (نَقَى اللوم عنها) .

كنى بالنسبة الأولى عن النسبة الثانية .

والشئ نفسه فعلة فى الشطرة الثانية ، لكن بطريقة موجبة .

(نَسَبَ اللوم إلى البيوت الأخرى) وقصده (نسبة اللوم إلى سكان هذه البيوت) .

ومرة أخرى نقول : كنى بالنسبة الأولى عن النسبة الثانية .

وهذا هو مفهوم الكناية عن نسبة .

* * *

ويحسن التنبيه إلى أننى قد امتعت أمثلة الكناية عن نسبة من كتاب (دلائل الإعجاز)

لعبد القاهر الجرجانى طبعة دار المعرفة فى بيروت ١٣٩٨هـ / ١٩٢٨ م بتحقيق محمد رشيد

رضا ص ٢٣٦ وما بعدها .

أقول ذلك لأدفع به ما ذهب إليه الأستاذ الدكتور شوقي ضيف من أن عبد القاهر قد جعل فن الكناية نوعاً يدخل في المجاز العقلي وهو الذي يأتي من إسناد شئ لشئ والمراد إسناده لغيره كقول زياد الأعجم : إن السماحة والمروءة والندى ..

وكقول الشنفرى : يبيت بمنجاة من اللوم بيتها (١) .

وما ذهب إليه الأستاذ الدكتور شوقي ضيف اجتهاد غير صائب .

فكلام عبد القاهر صريح في أن هذين المثالين وأمثالهما كناية عن نسبة بالمعنى المصطلح عليه قديماً وحديثاً في كناية النسبة .

ولنستأنس لما نحن فيه بفقرات من كلام عبد القاهر عن هذا النوع من الكناية ، قال تعليقاً على بيت زياد :

« أراد - كما لا يخفى - أن يثبت هذه المعانى خلالاً للممدوح وضرائب فيه فترك أن يصرح ويقول : إن السماحة والمروءة والندى لمجموعة في ابن الحشرج ، أو مقصورة عليه أو مختصة به وما شاكل ذلك مما هو صريح في إثبات الأوصاف للمذكورين بها ، وعدل إلى ما ترى من الكناية والتلويع فجعل كونها في القبة المضروبة عليه عبارة عن كونها فيه وإشارة إليه فخرج كلامه بذلك إلى ما خرج إليه من الجزالة ، وظهر فيه ما أنت ترى من الفخامة .

وقال تعليقاً على بيت يزيد بن الحكم في مدح يزيد بن المهلب :

تنظر فتراه نظيراً لبيت زياد وتعلم أن مكان القيد هنا هو مكان القبة هناك ؛ ثم يضيف : ومما هو إثبات للصفة على طريق الكناية والتعريض قولهم : المجد بين ثوبيه والكرم في برديه ؛ وذلك أن قائل هذا يتوصل إلى إثبات المجد والكرم للممدوح بأن يجعلهما في ثوبه الذي يلبسه كما يتوصل زياد إلى إثبات السماحة والمروءة والندى لابن الحشرج بأن جعلها في القبة التي هو جالس فيها ، ومن ذلك قول زهير (وحيثما يك أمر صالح تكن) وما جاء في معناه من قول الكميت : يصير أبان ..

وقول أبي نواس : فما جازه جود ..

في كل ذلك تمّ التوصل إلى إثبات الصفة في الممدوح بإثباتها في المكان الذي يكون فيه

(١) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص ١٨٥ و ص ٣٥٧ .

وإلى لزومها له بلزومها الموضع الذى يحله ، وهكذا إن اعتبرت بيت الشنفرى : يبيت بمنجاة من اللوم بيته .

وجدته يدخل فى معنى بيت زياد ، وذلك أنه توصل إلى نفي اللوم عنها وإبعادها عنه بأن نفاه عن بيته ، وباعد بينه وبينه ، وكان مذهبه فى ذلك مذهب زياد فى التوصل إلى جعل السماحة والمروة والندى فى ابن الحشرج بأن جعلها فى القبة المضروبة عليه ، وإنما الفرق أن هذا ينفى وذاك يثبت (١) .

* * *

بقى أن السكاكى أعطي بعض أمثلة الكناية على إطلاقها أى بأقسامها الثلاثة أسماء جديدة قال :

« الكناية تتفاوت إلى تعريض وتلويح ورمز وإيماء وإشارة ، فإن كانت عرضية فالمناسب أن تسمى تعريضاً ، وإلا فإن كان بينها وبين المكنى عنه مسافة متباعدة ... إلى آخر ما ذكره ، وسنذكره بل سنفصله . »

لكن أبادر فأقرر - بعد أن قرأت ما قاله وما مثل به لما قاله - (٢) أنه لم يأت بجديد يستحق أسماء جديدة .

فالتلويح : عنده : كناية كثرت وسائطها ككثير الرماد وجبان الكلب ومهزول الفصيل .

والرمز عنده : كناية عدت فيها الوسائط أو قلت مع خفاء اللزوم . كمفتول الذراعين وعريض الوسادة .

والإيماء : ويسميه أيضاً الإشارة - كناية عدت فيها الوسائط أو قلت لكن مع وضوح اللزوم كقول أبى تمام يصف إبلا :

أبين فما يزرن سوى كريم وحسبك أن يزرن أبا سعيد

فإنه فى إفادة أن أبا سعيد كريم غير خاف .

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٢٧ - ٢٤٠ .

مفتاح العلوم ص ١٩٤ وبغية الإيضاح ص ١٦٧ - ١٦٨ .

وكقول البحتري :

أوما رأيت المجد ألقى رحله في آل طلحة ثم لم يتحول
فإنه في إفادة أن آل طلحة أماجد ظاهر .

وكقول الآخر :

متى تخلو تميم من كريم ومسلمة بن عمرو من تميم
والأمثلة السابقة كلها كناية : ومن السهل توزيعها على ما سبق من أقسامها .

* * *

أما التحريض :

فإنى أرى أن ما مثل به السكاكى له ليس كناية ، واندعه هو يتكلم قال :

« والتعريض كما يكون كناية يكون مجازاً كقولك : أذيتنى فستعرف ، وأنت لا تريد
المخاطب ، بل تريد إنساناً معه ، وإن أردتهما جميعاً كان كناية » .

وأقول : أما كونه مجازاً فنعم ، وهو مجاز مرسل علاقته اللزوم ، لأنه يلزم من تهديد
المخاطب الذى اتخذته المتكلم ذريعة لتهديد المؤذى ، تهديد المؤذى نفسه من باب (إياك أعنى
وانهمى يا جارة) .

لكن لا بد في هذه الحالة من قرينة مانعة من فهم أن التهديد موجه حقيقة إلى المخاطب .
والعبارة بعد تعريض « وأنت لا تريد المخاطب بل تريد إنساناً معه » فهذا هو التعريض
نصاً . وأما كونه كناية إذا أرادهما جميعاً .

فإنى أسأل : على أى أساس يريد هما المتكلم جميعاً ؟ علماً بأن المقصود بالتهديد إنما
هو المؤذى فعلاً لا المخاطب .

وإنفرض - جدلاً - أن المتكلم أرادهما معاً بتهديده .

إن الكلام في هذه الحالة يكون حقيقة لا مجازاً ولا كناية .

بقي احتمال أخير هو أن يكون المتكلم قد استعمل العبارة المذكورة استعمالين مختلفين ،
حقيقياً ومجازياً معاً أى بنطق واحد فقط .

وهذا مستحيل عقلاً فضلاً عن أنه مرفوض بلاغة ، لأنه لا ترد عليه ولا يمكن أن ترد عليه في هذا الاستعمال المزدوج علاقة جامعة ولا قرينة مانعة .

* * *

ونصل في إقناع القارئ إلى أبعد من ذلك نقرر أن التعريض دلالة بالمفهوم لا بالمنطوق ، لأنه - لغة - خلاف التصريح ، واصطلاحاً : إمالة الكلام إلى عرض يدل على المعنى المقصود ، أى إلى جانب نفهم منه ما يريده المعرض ، تقول عرضت بفلان إذا قلت قولاً لغيره ، وأنت تعنيه به (١) .

ويقول القاضي لأحد المتهمين : أنت بريء . ويسكت عن الآخر ، وسكوته عنه تعريض به ، ومن حقه أن يفهم أنه وحده المتهم ، ولو لم يقل القاضي ذلك صراحة .

ويدق بابي زائر في منتصف الليل فافتح له وأبادره قائلاً :

كم الساعة الآن ؟

وسؤالي هذا تعريض بأنه زارنى في وقت غير مناسب .

ومن طريف التعريض ما حكاه الرواة - وأنا أشك في صحته - قالوا : دخل الفرزدق البصرة ودلف إلى سوق باديتها المعروف باسم المربد فألقى غلاماً ينشد شعراً جزلاً يشبه شعره ، فسأله : هل كانت أمك تأتي إلى دمشق ، وفهم الغلام تعريض الفرزدق بأمه فرد معرضاً بأم الفرزدق : بل أبى .

فهل هذا الحوار كناية ؟ بل هل فيما سبق من أمثلة التعريض كناية ؟ ! ونجيب - مطمئنين - : لا ومعدرة لشيخنا السكاكي .

لكن ما إذا الكناية ؟

والإجابة مجموعة اعتبارات منها :

١ - أن الكناية أبلغ من التصريح؛ لأنها في كثير من صورها تعطي الدعوى ودليلاً، والقضية وبرهانها ، والكلام المقرون بدليله أقوى من الكلام العارى عن الدليل والبرهان . يقول عبد القاهر :

(١) انظر البرهان في علوم القرآن للزركشى ج ٢ ص ٣١١ .

« أما الكناية فإن السبب في أن كان للإثبات بها مزية لا تكون للتصريح أن كل عاقل يعلم
- إذا رجع إلى نفسه - أن إثبات الصفة بإثبات دليلها وإيجابها بما هو شاهد في وجودها ،
أكد وأبلغ في الدعوى من أن تجيء إليها فتثبتها هكذا ساذجاً غفلاً ، وذلك أنك لا تدعى
شاهد الصفة ودليلها إلا والأمر ظاهر معروف ، ويحيث لا يشك فيه ، ولا يظن بالمخبر التجوز
والغلط» (١) .

أوقع سيف النولة ببني كلاب فقال المتنبي :

فمساهم وبسطهم حرير وصبحهم وبسطهم تراب
وفي بيته هذا كنايةتان :

الأولى (فمساهم وبسطهم حرير) كناية عن أنهم سادة أعزة منعمون بدليل أن بسطهم
حرير .

والثانية « وصبحهم وبسطهم تراب » كناية عن أنه أذلهم وأفقرهم بدليل ما هم عليه الآن
من افتراش التراب .

وقال آخر :

تجول خلاخيل النساء ولا أرى لرملة خلاخالاً يجول ولا قلباً
فكنى عن سمرة رملة ، وامتلائها بتوقف خلاخيلها وأساورها عن الجولان ، لكأنه قال :
إنها ممثلة الأطراف بدليل ثبات خلاخيلها وأساورها في أماكنها من ساقها ومعصمها .

٢ - أن الكناية أسلوب حضارى مهذب .

تقول لوالد فتاتك جنئك طالباً القرب منك ، فتكون أكثر رقة وحشمة مما لو صرحت
فقلت: جنئك طالباً الزواج من ابنتك أو نحو ذلك .

وقريب من هذا قول الفتاة التي سئلت عن أمها ؟

فكنت بقولها : ذمبت تشق النفس نفسين . فهو أجمل وأدخل في باب الأديب بمعناه

(١) دلائل الإعجاز ص ٥٧ - ٥٨ .

الاجتماعى والفنى مما لو قالت : ذهبت تولد فلانة زوجة فلان ، بل أكثر من ذلك تمكن الكناية صاحبها من أن يقول المستهجن من المعانى بالمهذب من الألفاظ .

يقول ابن سنان : ومما يستحسن من الكناية قول امرئ القيس :

فصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا ورضت فذلت صعبه أى إذلال

لأنه كنى عن المباضعة بأحسن ما يكون من العبارة (١) .

* * *

والقرآن الكريم فيما نحن بصدده وفى غيره المثل الأعلى ، فمن كناياته المعجبة قول الله تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط » .

فهو كناية بل دعوة إلى الوسط الذهبى فى الاقتصاد والمال وهو الاعتدال .

وقوله تعالى : « ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام » (٢) .

كناية عما لا بد منه لمن يأكل ويشرب

هذا هو المشهور فى تفسير الآية الكريمة . لكن نقل ابن سنان وبدر الدين الزركشى عن الجاحظ إنكاره ذلك وقوله : بل الكلام على ظاهره ، ويكفى فى الدلالة على عدم الأثرية نفس أكل الطعام ؛ لأن الإله هو الذى لا يحتاج إلى شئ يأكله ، ولأنه كما لا يجوز أن يكون المعبود محدثاً كذلك لا يجوز أن يكون طاعماً .

أما ابن سنان فقد وافق الجاحظ بقوله تطبيقاً على رأيه : « وهذا صحيح » وأما الزركشى فقد خالفهما بقوله :

« ويقال لهما : الكناية عن الغائط فيه تشنيع وبشاعة على من اتخذهما آلهة » (٣) .

أما قوله تعالى : « وقد أفضى بعضكم إلى بعض » .

(١) سر الفصاحة ص ١٥٦

(٢) سورة المائدة ٧٥

(٣) انظر سر الفصاحة ص ١٥٨ والبرهان فى علوم القرآن ج ٢ ص ٤٠٤ - ٤٠٥

وقوله تعالى « أو لامستم النساء »

وقوله تعالى : « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » .

وقوله تعالى : « نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم » .

فهذه كلها كنايات بارزة تطرح مضامينها طرْحاً فذا فيه الفنية والجمالية ، وفيه الطرافة والحشمة .

وتستشرف الآية الأخيرة التداعى الطبيعي بين الحرث والإنبات فى التربة الطبيعية ، والحرث والإنباب فى التربة الإنسانية مع الإشارة اللطيفة إلى ما يستتبعه هذا ، ويستتبعه ذلك من زينة الحياة التى هى المال والبنون .

والحق أن الكنايات القرآنية تاتى في المقدمة إذا عدنا الدقائق الفنية التى أهلت القرآن الكريم لأن يكون معجزاً بنظمه .

فمن الفصاحة والبلاغة أن تضع الألفاظ موضعها الذى لا يحسن فيه غيرها . ومن وضع الألفاظ موضعها الذى لا يحسن فيه غيرها أن تكنى بها عما لا ينبغى التصريح به من قول أو فعل .

٣ - فى الكناية وبالكناية يقول الإنسان ما يريد أن يقول ، دون أن يكون لأحد عليه سبيل .

يقول مدير المدرسة للمدرس الذى يضرب تلاميذه : « يدك طويلة يا فلان » . وهى كناية عن أشياء :

منها ما قصده مدير المدرسة .

ومنها ما هو أفضح وأوجع .

ثم منها ما هو مدح يعتصم به مدير المدرسة لو انفتح عليه الباب لعتاب أو عقاب .

ومن الطرائف التى سمعتها ما عقب به سائق حافلة على قول أم لصغيرتها « اطلعى يا

روحى » .

قال : « اطلعى يا أختى وبعد طلوعك تطلع روحك » .

والتحليل البلاغى لمقولاته يقف بكلمة (روحك) فيها عند الكناية أو التورية .

وبين قوسين أقول : إنهما قريب من قريب ، فنحن فى الكناية نورى بالمعنى الأصلى عن المعنى الكنائى ، وفى التورية نكنى بالمعنى القريب عن المعنى البعيد .

ولست فى هذا وحدى بل معى ابن رشيق والعلوى والسكاكى يقول الأول : « وأما التورية فى أشعار العرب فإنما هى كناية بشجرة أو شاة أو بيضة أو ناقة أو مهرة أو ما شاكل ذلك » (١) .

ويقول الثانى : « وريت عن كذا إذا سترته ، وفى الحديث : كان ﷺ إذا أراد سفراً ورى عنه بغيره أى ستره وأوهم أنه يريد غيره ، وهذا نحو الكناية والتعريض والمغالطة والأحاجى والألغاز ، فهذه الألوان والصور كلها مشتركة فى كونها دالة على أمور بظاهاها ، ويفهم عند ذكرها أمور أخرى غير ما تعطيه بظواهاها (٢) ..

وقال السكاكى : « أكثر متشابهات القرآن من التورية » (٣) .

وسواء كانت كلمة (روحك) فى مقولة السائق كناية أو تورية أو حتى استعارة تصريحية فقد أدت جملة (وبعد طلوعك تطلع روحك) - وهى خبرية لفظاً إنشائية معنى - ما أرادته قائلها منها وهو التشاؤم للآم بل الدعاء عليها بطلوع روحها أى بموتها ، ولولا كلامها قبلاً لساعت عاقبته فعلاً ، لكنه تحصن بما قالت فقال ما قال .

٤ - فى الكناية تقوية للجانب الإدراكى فى الأدب .

بالربط بين المعنوى والحسى ، قصداً إلى شد أزر المعنوى بالحسى .
أو بتكبير الصغير والتخفيف من مغبته .

قال المتنبى يكذب صاحبه :

تشتكى ما اشتكيت من ألم الشوق إليها والشوق حيث النحول

(١) العمدة ج ١ ج ٢١٣٢ .

(٢) الطراز ج ٢ ص ٦٢ .

(٣) مفتاح العلوم ص ٢٠٢ والإيضاح ج ٦ ص ٤٢ .

وقد علق ابن سنان على هذا البيت بقوله :

« كنى عن كذبها فيما ادعته من شوقها بأحسن كناية » (١) .

وإنما كانت أحسن كناية ، لأنها أثبتت بالدليل المادى كذب المرأة .

وهو ليس دليلاً مادياً فقط ، بل منطقياً أيضاً ، هو دليل مزيج إذن ، وقد أفادت هذه الازواجية الجانب الإدراكي فى الأدب ، بل أفادت الأداء الأدبي جملة .

وقال نصر بن سيار محنراً ومنثراً :

أرى خسل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرام

وفى قول نصر كناية بوميض النار التى يوشك أن يكون لها ضرام عما رآه واستشعره من ثورات فردية جسمية ونفسية توشك أن تتجمع وتستعلن فى ثورة عامة عارمة تقتلع الأمويين وتديل منهم .

(١) بئر الفصاحة ص ١٥٧ .

- ٢ -

علم المجازي

علم المعانى

عرف السكاكى علم المعانى بأنه « يتبع خواص تراكيب الكلام فى الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ فى تطبيق الكلام على ما يقتضى الحال ذكره » (١) .

وهو يعنى بتراكيب الكلام التراكيب الصادرة عن له فضل تمييز ومعرفة ، وهى تراكيب البلاغ لا الصادرة عن سواهم .

* * *

ولم يرتض القزوينى تعريف السكاكى فعرفه بقوله : « هو علم يعرف به أحوال اللفظ العربى التى يطابق بها مقتضى الحال » (٢) .

وأحوال اللفظ فى تعريف القزوينى تشمل أحوال الجملة كالقصر والفصل والوصل والمساواة والإيجاز والإطناب ، كما تشمل أحوال أجزائها كأحوال الإسناد وأحوال المسند إليه وأحوال المسند وأحوال متعلقات الفعل .

وتقييد أحوال اللفظ بما يطابق مقتضى الحال للاحتراز عن الأحوال التى ليست كذلك مما يدرس فى علمى النحو والصرف بل مما يدرس فى العلمين الآخرين للبلاغة وهما علم البيان وعلم البديع ؛ لأن مباحثهما لا ينظر فيها إلى ناحية المطابقة أو عدمهما .

وإذا كان لنا أن نفاضل بين تعريفى السكاكى والقزوينى ، فإننا نفضل تعريف القزوينى لأنه موجز وواضح .

ومع هذا فإن تعريف السعد فى المختصر لعلم المعانى أوجز وأوضح ثم إنه أدق . قال : « هو علم يعرف به كيفية تطبيق الكلام العربى لمقتضى الحال » (٣) .

ووجه الدقة فى تعريف السعد أنه قال (تطبيق الكلام) ولم يقل (أحوال اللفظ) فلم يضطرنا إلى ما اضطرنا إليه تعريف القزوينى من توضيح المراد بأحوال اللفظ .

(١) مفتاح العلوم ص ٧٧ .

(٢) بغية الإيضاح ج ١ ص ٢٧ .

(٣) مختصر سعد الدين التفتازانى على تلخيص المفتاح ج ١ ص ٤٧ الطبعة الأولى - القاهرة سنة

١٣٤٠هـ . وانظر هامش رقم ٦ فى الإيضاح ج ١ ص ٧٥ - ٧٦ بتحقيق محمد عبد المنعم خفاجى .

فلنقتنع بتعريف السعد ولنشرع في تحديد مباحث علم المعاني .

وقد حصرها القزويني في ثمانية أبواب . أولها أحوال الإسناد الخبري ، وثانيها أحوال المسند إليه ، وثالثها أحوال المسند ، ورابعها أحوال متعلقات الفعل ، وخامسها القصر ، وسادسها الإنشاء ، وسابعها الفصل والوصل ، وثامنها الإيجاز والإطناب والمساواة^(١) .

وأبادر فأنبه إلى أنني لن ألتزم في دراسة مباحث علم المعاني بترتيب القزويني لكن مخالفتي له لن تكون كبيرة .

كل ما هنالك أنني سأدرس الباب السادس وهو الإنشاء بعد الباب الأول وهو الإسناد الخبري ؛ حيث إن الكلام – كما قال القزويني نفسه – إما خبر أو إنشاء ، لأنه إما أن يكون لنسبته خارج تطابقه أو لا تطابقه ، أو لا يكون لها خارج .

الأول الخبر والثاني الإنشاء^(٢) .

الإسناد الخبري

مدخل :

الجملة هي النواة الأولى للكلام مهما كان طوله ونوعه ؛ ومهما كانت لغته ، ولا تُصوّر الجملة . بغير نسبة شيء لشيء أي بغير الحكم على شيء بشيء ، وبعبارة بلاغية بغير إسناد شيء إلى شيء .

وهذان الشيطان متلازمان وهما ينحلان في العربية إلى فعل وفاعل أو مبتدأ وخبر نحوياً ، وإلى موضوع ومحمول منطقياً ، أما في البلاغة – ولنتخلص بسرعة من النحو والمنطق – فيسمى أحدهما المسند إليه ويسمى الآخر المسند ، والمسند والمسند إليه هما الركنان الرئيسيان في الجملة ، وهما عنصرها الأساسيان وجمل كثيرة تكتفي بهما وتقتصر عليهما .

نقول في الجملة الفعلية : نجح الطلاب ، وتفوق المجتهدون : نجح : مسند والطلاب : مسند إليه ، وتفوق مسند ، والمجتهدون مسند إليه .

(١) بغية الإيضاح ج ١ ص ٢٨ – ٢٩ .

(٢) بغية الإيضاح ج ١ ص ٢٩ .

ونقول فى الجملة الاسمية : الطالب ناجحون والاجتهدون متفوقون .

فلا يختلف الأمر فى شئ عما سبق فى الجملة الفعلية سوى أننا بدأنا فى الفعلية بالمسند وفى الاسمية بالمسند إليه .

كما أن جملاً كثيرة تنداح فتطول بما سماه البلاغيون (متعلقات المسند) وذلك إذا كان المسند فعلاً أو مافى معنى الفعل من الاسم المشتق والمصدر نقول : نجاح الطالب فى الامتحان هذه السنة راجع إلى اجتهادهم ، ونجاح الطالبات فى المقررات هذا الفصل مشرف لهن والقائمت والقائمتين على شئونهن .

وبتحليل الجمل السابقة نجد أنها تتكون من المسند إليه والمسند أصلاً ؛ ومن متعلقات المسند فرعاً .

ومع أن هذه المتعلقات تؤدي وظائف شعورية وفكرية ، وتقوم بدور كبير فى تمديد الجملة ، وإقدارها على تصديق مضمونها ، إلا أن البلاغيين - وهم محقون - لم يجعلوها عناصر أساسية فى تكوين الجملة لا عن عدم تقدير منوم لها بل عن فهم صحيح لطبيعتها ، فهى توجد فى جملة دون جملة وتختلف فى جملة عنها فى جملة ، والبلاغيون مشكورون لأنهم أفرسوها بمبحث خاص من مباحث علم المعانى نحو فيه وبه دلالاتها ، ثابتة ومتحركة فى أماكنها الأصلية ومتقدمة أو متأخرة عن أماكنها الأصلية .

* * *

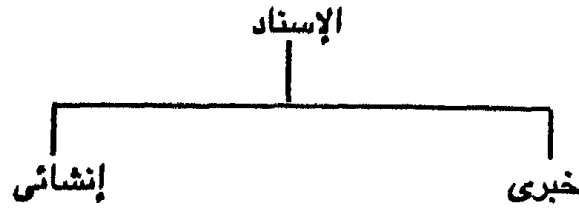
ونعوه، إلهي عنصرى الجملة لتقول : إن ما بينهما من إسناد أمر مطوّد فى كل جملة لا من حيث إنها اسمية أو فعلية بل من حيث إنها خبرية أو إنشائية .

نفس المثال : ذاك الطالب دروسه نجد المسند هو (ذاك) والمسند إليه هو (الطالب) ، ونجد متعلقاً واحداً هو (دروسه) .

ولم صرفنا الجملة عن الخبرية إلى الإنشائية فقلنا للطالب (ذاك دروسك) لما اختلف الأمر من حيث الإسناد فى شئ عن الجملة الخبرية ، فالمسند هو فعل الأمر (ذاك) والمسند إليه هو الضمير المستتر (أنت) والمتعلق هو (دروسك) .

الإسناد إذاً قاسم مشترك بين الجملتين : الخبرية والإنشائية ، وما سماه البلاغيون بالإسناد الخبرى وجعلوه مفتتح مباحث علم المعانى ، إنما هو وصف تقريرى لما هم بإزاء

دراسته ، قالوا (أحوال الإسناد الخبرى) وذكروا أضرب الخبر ومقاصده الحقيقية والبلاغية ، ثم استطرودا من الإسناد الخبرى إلى مكوناته الأصلية والفرعية وحين وصلوا إلى الإسناد الإنشائى سموه (الإنشاء) فقط ولم يسموه - كسابقه - الإسناد الإنشائى ، وهو كذلك نظرياً وعملياً ؛ لأنه القسيم الوحيد للإسناد الخبرى هكذا :



وإذا كانوا قد درسوا بمناسبة الإسناد الخبرى أحوال المسند إليه وأحوال المسند ومتعلقات الفعل ، بل زادوا فقالوا « والإسناد إما بقصر أو بغير قصر » .
فإنهم قد شغلوا فى الإسناد الإنشائى لا بأجزائه كما فعلوا فى الإسناد الخبرى بل بأنواعه وأساليبه المختلفة من أمر ونهى واستفهام وتمن ونداء .

* * *

كفتا الميزان متعادلتان إذن ، والدراسة فى علم المعانى موزعة على الإسنادين الخبرى والإنشائى ، ثم تأتى الجملة - خبرية أو إنشائية - بعد جملة - خبرية كانت أو إنشائية معطوفة على الأولى بالواو فيعطون لذلك مصطلح (الوصل) أو تأتى الجملة الثانية بعد الأولى غير معطوفة بالواو فيعطون لذلك مصطلح (الفصل) وتتوالى الجمل مكونة كلاً قلاً أو كثر فيصطلحون على أن الكلام إذا كان بحجم معانيه سمي (مساواة) ، وإذا زاد علم معانيه سمي (إطناًباً) وإذا قل عن معانيه سمي (إيجازاً) ، بهذا ينتهى علم المعانى بشطريه المتعادلين ، ويمكن أن نقول المتساويين .

الجملة الخبرية

الجملة الخبرية هى الجملة التى تحتل الصدق والكذب لذاتها أى بصرف النظر عن قائلها ، وأيضاً بصرف النظر عن الواقع الذى يقابلها ، إذ لو نظرنا إلى قائلها أو إلى النسبة الخارجية التى قد توافقت أو تخالفها ، لوجدنا جملاً خبرية كثيرة لا تحتل صدق ولا كذباً إما لأن قائلها منزهون عن الكذب وأخبارهم - لهذا - صادقة هتماً كأخبار الكتبة المقدسة والأحاديث النبوية الشريفة ، وإما لأن قائلها كانوا كاذبون أصلاً كأخبار مدعى النبوة

فيما يحدثون به من نزول الوحي عليهم من أنبياء ورسول ، وأيضاً لوجدنا أخباراً كثيرة لا تحتل صدقاً ولا كذباً لأنها توافق أو تخالف الحقائق الثابتة وهي لذلك بديهيات مسلمة كقولنا مما لا يحتمل - باعتبار الواقع - الكذب : الأب أكبر من الابن والشمس تطلع نهاراً والقمر يطلع ليلاً والسماء فوق والأرض تحت ، وكقولنا مما لا يحتمل - باعتبار الواقع - الصدق : الابن أكبر من الأب والشمس تطلع ليلاً والقمر يطلع نهاراً والسماء تحت والأرض فوق ، لكن الأخبار السابقة كلها وما هو على شاكلتها تحتل الصدق والكذب لذاتها أي بالنظر إلى مضامينها المجردة وبصرف النظر عن قائلها وعن الواقع الخارجي الذي يسامتها .

ويكون الخبر صادقاً إذا وافقت النسبة الكلامية النسبة الخارجية ، وكاذباً إذا خالفت النسبة الكلامية النسبة الخارجية .

أقول : نجح محمد ، هذه نسبة كلامية ، فإذا كان محمد قد نجح فعلاً تكون النسبة الكلامية قد طبقت النسبة الخارجية ويكون إخباري بنجاح محمد صدقاً وإذا كان لم ينجح بل رسب يكون إخباري بنجاحه كذباً .

وأقول : رسب فلان ، فإذا كان قد رسب فعلاً يكون إخباري برسوبه صدقاً وإذا كان لم يرسب بل نجح يكون إخباري برسوبه كذباً .

هذا فقط هو المقياس الصحيح والوحيد لصدق الخبر أو كذبه : « صدقه هو مطابقة حكمه للواقع ، وكذبه هو عدم مطابقة حكمه له » .

يقول القزويني وهو صاحب الجملتين الأخيرتين « هذا هو المشهور وعليه التعويل » ، لكن ذهب إبراهيم بن سيار المعروف بالنظام وهو أستاذ الجاحظ إلى أن صدق الخبر إنما هو مطابقة حكمه لاعتقاد المخبر صواباً كان أو خطأ ، وكذبه إنما هو عدم مطابقة حكمه لاعتقاد المخبر صواباً كان أو خطأ .

وبناءً على هذا الرأي للنظام يكون قول القائل : السماء تحتنا معتقداً ذلك صدقاً وقول القائل : الأرض تحتنا غير معتقد ذلك كذباً .

وقد بهت النظام على تلميذه الجاحظ فأنكر انحصار الخبر في الصدق والكذب ، وزعم أنه ثلاثة أقسام : صادق وكانب وغير صادق ولا كانب .

فالخبر الصادق عند الجاحظ هو المطابق للواقع مع الاعتقاد بأنه مطابق للواقع والخبر الكاذب عنده هو الذي لا يطابق الواقع مع الاعتقاد بأنه غير مطابق للواقع أما الخبر الذي ليس بصادق ولا كاذب فله أربع صور هي :

(أ) الخبر المطابق للواقع مع اعتقاد قائله بأنه غير مطابق للواقع .

(ب) الخبر المطابق للواقع دون اعتقاد ما .

(ج) الخبر غير المطابق للواقع مع اعتقاد قائله بأنه مطابق للواقع .

(د) الخبر غير المطابق للواقع دون اعتقاد (١) .

وإنى ليأخذنى العجب من تعكير صفو البلاغة العربية بهذا الكلام للنظام والجاحظ وهو من علم الكلام فى الصميم ، وليس من علم البلاغة فى شئ قل أو كثر ، لكنها الغفلة الغليظة ممن تعبد به من البلاغيين قداماء ومحدثين وهم والحمد لله قلة ، ومع أنهم قلة فإنى أسأل : أين كانت هذه القلة من قيد (لذاته) فى تعريف الخبر ؟ !!!

وإذا كان هذا القيد قد قطع الصلة بين الخبر وقائله كائناً من كان هذا القائل كما قطع الصلة بين الخبر والواقع القاطع بصداقه أو كذبه ، أفلا يقطع الصلة بين الخبر ومعتقد قائله ولو كانوا إلى الكفر أقرب منهم إلى الإيمان ، وإلى الجنون أقرب منهم إلى العقل ، وإلى الغباء المطبق أقرب منهم إلى الذكاء الكاشف !!!

لكنه الخبط العشوائى فى التاليف البلاغى ، ولكنه الترييد البيغائى لبعض ما يقال أو يكتب .

أضرب الخبر

أضرب الخبر إما أن تنسى على حسب ما يقتضيه ظاهر حال المخاطب ، وإما أن تنسى على خلاف ما يقتضيه ظاهر حال المخاطب . هى قسمان إذن ، والقسمان متعاقبان حتماً أى يأتى أولهما قبل ثانيهما ضرورة ، ومن البلاغيين من فضل القسم الثانى على القسم الأول .

(١) انظر بنية الإيضاح ج ١ ص ٣٠ - ٣٢ وعلم المعانى لعبد العزيز عتيق ص ٤٤ طبعة دار النهضة العربية بيروت سنة ١٩٧٤ م .

قالوا : لدقة مسلكه وحسن موقعه في النفس ، وقد بلغ من حماس بعضهم له أن جعله من باب الكناية مرة ، ومن باب الاستعارة مرة (١) .

والحق أنه من مستتبعات الكلام ، ومستتبعات الكلام لا تأخذ تسمية أصلية بل فرعية كما فعل من قبك ، كما سنفعل نحن هنا . والله الموفق .

القسم الأول : الخبر الجارى على مقتضى ظاهر حال المخاطب :

للخبر الجارى على مقتضى ظاهر حال المخاطب ثلاثة أضرب هي :

الابتدائي والطلبى والإنكارى ، وأساس هذا التقسيم إنما هو الحالة الذهنية للمخاطب .

فإن كان خالي الذهن مما سنقوله له ألقينا عليه الخبر غير مؤكد ، وهذا هو الضرب الابتدائي ومن أمثلته قول أبي تمام :

ينال الفتى من عيشه وهو جاهل ويكدي الفتى في دهره وهو عالم
ولو كانت الأرزاق تجرى على الحجا هلكن إذن من جهلهم البهائم
وقول أبي بكر الأرجاني :

ذهب التكرم والوفاء عن الورى وتصرماً إلا من الأشعار
وفشت خيانات الثقات وغيرهم حتى اتهمنا رؤية الأبصار
وقول المتنبي :

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى وأسمنت كلماتى من به صمم
أنام ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جرأها ويختصموا
وقوله :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم (٢) وتأتى على قدر الكرام المكارم
وتكبر فى عين الصغير صغارها وتصغر فى عين العظيم العظائم

(١) انظر هامش رقم ٢ ص ٢٩ ج ١ بغية الإيضاح .

(٢) هذه الشطرة ضربها طلبى ؛ لأنها أسلوب قصر .

وإن كان المخاطب متصوراً طرفى الخبر ولكنه شك فى ثبوت أحدهما للأخر ، حسن تقويته له بمؤكد واحد ؛ فمن بلاغة الكلام الاقتصار منه على قدر الحاجة فقط وهذا هو الضرب الطلبى ، وقد سمي طلبياً لأن المخاطب به متردد فى تصديق مضمونه ومطالب بلسان حاله معرفة حقيقته ، ومن أمثله قول لبيد :

إن المنايا لا تطيش سهامها

وقول النابغة :

ولست بمستبق أحداً لا تلمه على شعث أى الرجال المهذب

وقول الشريف الرضى :

قد يبلغ الرجل الجبان بماله ما ليس يبلغه الشجاع المعدم

وقول أبى العلاء فى الرثاء :

إن الذى الوحشة فى داره تؤنسه الرحمة فى لحيده

وقوله فى الحكمة :

إذا ما الأصل ألفى غير ذاك فلا تزكو مدى الدهر الفروع

وقول أبى نواس :

عليك باليأس من الناس إن غنى نفسك فى اليأس

وإن كان المخاطب منكراً مضمون الخبر ومعتقداً خلافه ، يجب توكيده بمؤكدين أو أكثر ليزايله إنكاره ويصح اعتقاده وهذا هو الضرب الإنكارى وواضح أن هذا الضرب قد سمي إنكارياً لأن المخاطب به منكر له ومعتقد خلافه .

مثاله من القرآن الكريم قول الله تعالى : « قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون » .

ومن الشعر قول حسان بن ثابت رضى الله عنه :

وإني لعلو تعتريني مرارة وإني لتراك لما لم أعود
وقول المعري :

ألا إن أخلاق الفتى كزمانه فمنهن بيض فى العيون وسود
وقوله :

لقد نفق الردى ورب مر من الأقوات يجعل فى الصحاف
وقول الأرجاني :

إننا لفى زمن ملآن من فتن فلا يُعاب به ملآن من فرق
وقول الآخر :

والله إنى لأخو همة تسمو إلى المجد ولا تفتري
القسم الثانى :

الخبر الجارى على خلاف مقتضى ظاهر حال المخاطب

والصور الممكنة لخروج الخبر على خلاف مقتضى ظاهر حال المخاطب كثيرة منها:

١ - تنزيل العالم بمخموؤ الخبر منزلة الجاهل به لعدم عمله بعلمه :

كقولنا للمسلم الذى لا يصوم رمضان وهو قادر على صومه « صوم رمضان أرجبه
الإسلام » الأجل ألا نقول له ذلك ؛ لأنه يعلمه ، لكنه لما لم يعمل بما يعلم نُزِّل منزلة
الجاهل بما قلناه له .

٢ - تنزيل خالى الظهر منزلة المتروك :

وذلك إذا قدم له ما يلوح بحكم الخبر فيستشرف له استشراف السائل عنه ومن أمثلة ذلك
الآيات والآيات الآتية :

- قول الله تعالى لنوح عليه السلام : « ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مفرقون » .
 قول الله تعالى للناس كافة : « يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم » .
 قول الله تعالى لمحمد ﷺ : « وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم » .
 وقول بشار :

بكرا صاحبى قبل الهجير إن ذاك النجاح في التكبير

والمتنبى :

ترفق أيها المولى عليهم فإن الرفق بالجاني عتاب

وابعض العرب :

فغنها وهي لك الفداء إن غناء الإبل الحداء

٣ - تنزيل خالي الذهن منزلة المنكر:

وذلك إذا كان مضمون الخبر شيئاً معنوياً يحتاج في إدراكه والاعتقاد به إلى تأمل وتدبر
 مثل : إن الاستغراق في أحلام اليقظة لمضيفة للوقت ، وإن الفراغ لمفسدة .

أو كان بشارة عظيمة تكاد من عظمتها لا تصدق كقول الله تعالى :

« ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

أو كان رداً على تصرف خاطئ من خالي الذهن ، كقول حجة بن نضلة القيسي (١) .

جاء شقيق عارضاً رمحه إن بني عمك فيهم رماح

فمجنى شقيق هكذا مدلاً بشجاعته ، قد وضع رمحه عرضاً دليلاً على اعتداده شديداً منه
 بنفسه واعتقاد أنه لا يقوم له من بني عمه أحد كأنهم كلهم عزل ليس مع أحد منهم رمح وقد
 اقتضى حاله هذا تأكيد الخبر له بمؤكدتين اثنتين هما « إن » والجملة الاسمية المؤداة بطريق
 القصر « فيهم رماح » .

(١) حجة - بفتح الحاء والجيم - لقبه ، ونضلة : أمه ، واسمه أحمد بن عمرو بن عبد القيس .

وعلى هذا جاء قول الله تعالى : « ثم إنكم بعد ذلك لميئون » فالمخاطبون بالآية الكريمة لا ينكرون أنهم سيموتون لكنهم برغم ذلك يتصرفون وكأنهم مخلدون .

٤ - تنزيل المتردد منزلة جالي الظاهر :

وذلك إذا لم يكن هناك داع لتردده ، فلا نؤكد له الخبر بأي مؤكد .

نقول للطالب المتفوق دائماً لكنه برغم تفوقه الدائم متخوف من نتيجة الامتحان نقول له : أنت من الناجحين أى ستكون من الناجحين ، هكذا بون تأكيد .

٥ - تنزيل المتردد منزلة المنكر :

وذلك إذا كانت درجة تردده عالية فنؤكد له الخبر بأكثر من مؤكد .

نقول للطالب الذى لم يرض عن إجابته وتصور أنها لا تنجحه ، نقول له وقد نجح « إنك قد نجحت » .

٦ - تنزيل المنكر منزلة جالي الظاهر :

وذلك إذا كان لديه ما إن تأمله ارتدع عن إنكاره ، فإننا والحالة هذه لا نؤكد له الخبر بأي مؤكد كقولنا لنكر الإسلام «الإسلام من عند الله» ولنكر فضل العلم «العلم ينفع العباد والبلاد»، ومن ذلك قول الله تعالى لنكرى وحدانيته: «والهكم إله واحد».

٧ - تنزيل المنكر منزلة المتردد إذا كانت درجة إنكاره غير عالية :

وفائدة تنزيل المنكر منزلة المتردد تقليل التوكيد له كقولنا للمنكرة حب زوجها لها « إن زوجك يحبك » وقولنا للمنكر فضل الاجتهاد «إن الاجتهاد يحقق للمرء ذاته»

هكذا بمؤكد واحد مع أن المخاطب منكر .

ومن ذلك قول الله تعالى : « ثم إنكم يوم القيامة تبعثون » .

أدوات توكيد الخبر

اللغة العربية غنية بالأدوات التي تزيد من فاعلية الجملة وتؤكدها ، وهذه إلمامة موجزة ببعض هذه الأدوات وبيان وجه كونها مؤكدة .

١ - اسمية الجملة :

وهي لا تكون مؤكدة على سبيل الاستقلال بل بالتبعية ، فإن كان هناك مؤكد آخر جعلت اسمية الجملة من المؤكدات وإلا فلا .

هذا ما قالوه ، ولا أقرهم عليه بل هي عندي تفيد التوكيد وحدها مثلما تفيد ومعها غيرها ؛ فاسمية الجملة أمر متحقق لها في ذاتها وما يترتب على هذه الاسمية من التوكيد إنما هو لاسميتها هي نفسها وليس لمساعدة غيرها لها ، وإذا كان ذلك فلا يستقيم أن تكون مؤكدة مرة وغير مؤكدة أخرى .

حكى الله تعالى عن رسل عيسى عليه السلام حين أرسلهم إلى أهل أنطاكية قال : « واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ، إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون ، قالوا : ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء ، إن أنتم إلا تكذبون قالوا : ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون » .

حين كذب الرسل في المرة الأولى قالوا : « إنا إليكم مرسلون » وفي قولهم هذا ثلاثة مؤكدات هي « إن » و « اسمية الجملة » والقصر بتقديم (إليكم) على (مرسلون) .

وحين كذبوا في المرة الثانية قالوا : « ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون » وفي قولهم هذا توكيد بالقسم وإن واللام واسمية الجملة والقصر .

وإنما كانت الجملة الاسمية مؤكدة لأنها تفيد بأصل وضعها ثبوت شيء لشيء وتفيد بالقرائن الدوام والاستمرار ، وهاتان الإفادتان مشروطتان بأن يكون خبرها مفرداً أو جملة اسمية ، فإذا كان خبرها جملة فعلية أو شبه جملة أفادت التجدد ، وهذا يعني أن الجملة الاسمية في جميع حالاتها أفضل من الجملة الفعلية التي تقتصر بأصل وضعها على إفادة حدوث شيء ما في زمن معين .

ويحسن التنبيه إلى أن الجملة الاسمية لا تخرج بالضرب الطلبى إلى الضرب الإنكارى إذا صاحبها مؤكد آخر كما فى رقم (٢) من الخبر الجارى على خلاف مقتضى ظاهر حال المخاطب ١٣١، ١٣٢.

لكن إذا اقتصررت الجملة على الاسمية جاز التمثيل بها للضرب الطلبى مثل العلم نور والزواج عصمة والقناعة كنز لا يفنى.

وجاز التمثيل بها للضرب الابتدائى؛ فاسمية الجملة- لإفادتها الثبوت- لاتضارع أدوات التوكيد المتمحضة لذلك كقد وإن والقسم ولام القسم ونونى التوكيد... إلى آخره.

٢ - إِمَّا :

فهى فضلاً عن أنها تنصب المبتدأ وترفع الخبر تؤكد مضمون الجملة ، تقول : إن النجاح مفرح ، فكانك كررت الجملة ، والتكرار توكيد لفظى كما نعلم .

٣ - أما الشرطية :

فهى حرف شرط وتفصيل وتوكيد قال تعالى : « إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون : ماذا أراد الله بهذا مثلاً » .

وقال الشاعر :

ولم أر كالمعروف أما مذاقه فحلسو وأما وجهه فجميل

وجه إقادة « أما » التوكيد أنها تفيد الخبر قوة ، تقول : محمد ناجح . فإذا أردت توكيده قلت : أما محمد فناجح .

٤ - لام الإبتداء :

فهى تؤكد مضمون الخبر ، ومن يتتبعها يجد أنها تدخل على المبتدأ مثل لأنت أول الناجحين ، وعلي خبر إن اسماً كان مثل « إن ربي لسميع الدعاء » .

وفعللاً مضارعاً مثل « إن ربك ليحكم بينهم » كما تدخل على شبه الجملة قال تعالى . « وإنك لعلى خلق عظيم » .

٥ - السين :

فهى إذا دخلت على فعل محبوب أو فعل مكروه أفادت أنه واقع حتماً .
وسبب ذلك أنها تفيد الوعد أو الوعيد بما دخلت عليه ودخولها عليه مفيد توكيده . ومن
مجيئها فى الوعد قول الله تعالى : « أولئك سيرحمهم الله » . ومن مجيئها فى الوعيد قوله
عز وجل : « تبت يدا أبى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى ناراً ذات لهب » .

٦ - القسم :

وأحرف القسم هى الباء والواو والتاء .

ولأن الباء هى الأصل فى حروف القسم نجد ما تدخل على كل مقسم به اسماً ظاهراً
مثل : أقسم بالله ما نسيتك ، وضميراً مثل : أقسم به فى علاه إنى لبرئ .
أما الواو فلا تدخل إلا على الاسم الظاهر مثل : والله إنى لصادق ، ولعمري إنى لأحب
عملى .

والتاء كالواو فى أنها لا تدخل إلا على الاسم الظاهر ، لكن هذا الاسم الظاهر يجب أن
يكون لفظ الجلالة (الله) مثل « تالله لاكيدن أصنامكم » .

وإنما كان القسم توكيداً لدلالته على شدة ثقة المقسم بأن ما أقسم عليه حق ، وفى هذا
إقناع للمخاطب بأن الملقى عليه لا ريب فيه .

٧ - قد التى تفيد التحقيق :

مثل : « قد أفلح المؤمنون » ، « قد أفلح من تزكى » ، « قد أفلح من زكاهما . وقد خاب من
دساها » ، « قد جاءكم الحق من ربكم » ، « يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر
ربك » ، « قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل » .

رواضح أن « قد » فى الآيات السابقة قد قوت مضامينها وأكدتها .

٨ - نوناً التوكيد :

وقد اجتمعتا فى قوله تعالى على لسان امرأة العزيز « ولقد راودته عن نفسه فاستعصم
ولئن لم يفعل ما أمره لیسجنن وليكوناً من الصاغرين » .

٩ - ضمير الفاعل (هو) :

وهو ضمير يؤتى به لتمييز الخبر عن الصفة في مثل « محمد هو الرسول » فلو حذفت (هو) وقلت « محمد الرسول » لوقع متلقي خبرك في حيرة ولم يعرف : هل الرسول صفة لمحمد أو خبر له ، فإذا أعدت الضمير إلى مكانه تعين أن الرسول خبر لا صفة .

ولأن ضمير الفصل يزيل إبهام الجملة التي يتخللها وفي هذا تقوية لها ، كان من أدوات توكيد الخبر .

١٠ - جروهف التنبيه :

وأشهرها (أما) و (إلا) بتخفيف (ما) ، و (لا) وفتح الهمزة فيهما .

ويكثر مجيء (أما) قبل القسم لتنبيه المخاطب على الإصغاء للقسم وعلي أن المقسم عليه أمر مؤكد ؛ قال أبو صخر الهذلي :

أما والذي أبكى وأضحك والذي . . . أمات وأحيا والذي أمره الأمر
لقد تركتني أحسد الوحش أن أرى . . . أليفين منها لا يروعهما النفر

و (إلا) مثل (أما) في إفادة التنبيه وفي الدلالة على تحقق ما بعدها قال تعالى : « ألا إلى الله تصير الأمور » وقال سبحانه « ألا له الخلق والأمر » .

١١ - الجروهف الزائدة وهي بكثيرة منها :

(أ) «أن» المفتوحة الهمزة الساكنة النون ، وهي تزداد بعد ما لتأكيد الخبر الذي وردت فيه مثل « فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا » .

(ب) «إن» المكسورة الهمزة الساكنة النون مثل : ما إن ذاكرت ، أصلها ما ذاكرت ، وقد اكدتها «إن» .

(ج) « ما » وهي لا تزداد إلا للتوكيد .

من سينية البحترى :

وإذا ما جفيت كنت حـريا أن أرى غير مصبح حيث أمسى

ومن وصف البارودي لبعض مظاهر شيخوخته :

لا أرى الشئ حين يسبح إلا كخيال كأننى فى ضباب

وإذا ما دعيت حرت كأنى أسمع الصوت من وراء حجاب

وتقول ، جئتك من غير ما ضغط ؛ أى من غير ضغط أى ضغط .

(د) « لا » :

كقوله تعالى « لئلا يعلم أهل الكتاب » ، « فلا أقسم بمواقع النجوم » .

(لا) زائدة فى الأيتين لتأكيد المعنيين ، والأصل ، ليعلم أهل الكتاب فى الأولى ، وأقسم

بمواقع النجوم فى الثانية .

(هـ) - « من » وهى تزداد تأكيداً لعموم ما دخلت عليه إذا سبقها نفي مثل « ما جاعنا من

بشير ولا نذير » ، « وما تسقط من ورقة إلا يعلمها » ، « ما ترى فى خلق الرحمن من

تفاوت » .

(و) « الباء » فمن استعملاتها أنها تزداد لتأكيد ما بعدها وهى تزداد كثيراً فى الخبر

المنفى بليس وبما .

قال معن بن أوس :

ولسست بمأش ما حييت لمنكر من الأمر لا يمشى إلى مثله منى

وقال تعالى : « لست عليهم بمسيطر » .

وقال سبحانه : « وما الله بغافل عما يعمل الظالمون » صدق الله العظيم (١) .

(١٢) - أسلوب القصر ، لأن جملة القصر بمثابة جملتين ولأنها كذلك تفيد التوكيد وانظر

باب القصر .

(١) انظر (علم المعانى) للدكتور درويش الجندى ص ٢٧ - ٢٨ ، الطبعة الثانية ١٣٨١هـ - ١٩٦٢م -

القاهرة . و (علم المعانى) للدكتور عبد العزيز عتيق ص ٥٨ - ٦٤ .

أغراض الخبر

للخبر غرضان رئيسيان حقيقيان هما :

١ - فائدة الخبر : وهو غرض مباشر ، وذلك إذا كان المخاطب به يجهل مضمونه قبل أن نقوله له أو قبل أن يقرأه ؛ كأن أقول أو أكتب لمن يجهل ما سأقول أو أكتب : جامعة القاهرة كان اسمها جامعة الملك فؤاد ، وجامعة عين شمس كان اسمها جامعة إبراهيم وجامعة الإسكندرية كان اسمها جامعة فاروق .

وكان أقول في التعريف بنفسى ، اسمى كذا وسنى كذا وجنسيتى كذا وحصلت من الشهادات على كذا وكذا وكذا .

٢ - لازم فائدة الخبر وهو غرض غير مباشر ، وذلك إذا كان المخاطب بالخبر يعلم مضمونه ، ولكنه يجهل أن المتكلم يعلمه ، فقد استفاد المخاطب حينئذ لا الخبر بل ما اقتضاه ولزمه وترتب عليه وهو علم المتكلم به ، كأن أقول لمن رأيت يسقى حديقته ولم يرنى : كنت تسقى حديقتك أمس . ولن سمعت حديثه الإذاعى : سمعتك وأنت تتحدث فى الإذاعة ، ولن رأيت فى المطار ولم يرنى : كنت فى المطار صباح اليوم .

هنا لم أقد المخاطبين مضامين الأخبار التى قلتها لهم فهم لاشك يعلمونها لأنهم أصحابها ، وإنما أفدتهم ما ترتب عليها وهو رؤيتى لهم ومعرفتى بما كان منهم .

* * *

هذان هما الغرضان الحقيقيان للخبر ..

ولا تقتصر وظيفة الخبر على هذين الغرضين الحقيقيين . بل تتجاوزهما إلى أغراض أخرى تسمى الأغراض البلاغية ، وأغراض الخبر البلاغية كثيرة منها :

١ - الإسترجاع والإستحطاف :

كان يقول الطالب المحروم من الامتحان بسبب الغياب لعميد كليته :

هذا آخر فصل لى ، وأبى ينتظر تخرجى لأنه فقير وساكون عائل الأسرة بعد التخرج ، كان تغييبى لظروف قاهرة . وكقول المؤمن : إنى فقير إلى عفو الله .

ومن ذلك قول الشاعر يناجى ربه :

فمالى حيلة إلا رجائى لعفوك إن عفوت وحسن ظنى
يظن الناس بى خيراً وإنى لشر الناس إن لم تعف عنى

وقول المتنبي مستعظماً من حبسه :

دعوتك عند انقطاع الرجا ء والموت منى كحبل الوريد
دعوتك لما يرانى البلاء وأومن رجلى ثقل الحديد

وقول إبراهيم بن المهدي يستعطف الخليفة المأمون ويسترحمه :

أتيت جرماً شنيعاً وأنت للعفو أهل
فإن عفوه فمن وإن قتلت فعدل

وقول يحيى البرمكي مستعظماً هارون الرشيد :

إن البرامكة الذي ن رُموا لديك بداهيه
صفر الوجوه عليهم خلع المذلة باديه

٢ - إظهار الرضوخ :

كقول الأب المسن لابنه الذي يساعده على ركوب فرسه : لقد كبرت ، وكقول الله تعالى
على لسان زكريا عليه السلام « إني ومن العظم منى واشتعل الرأس شيباً » وكقول الشاعر :

إن الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

وكقول أبي نواس :

دبُّ في السقام سفلاً وعلوا وأراني أموت عضوا فعضوا

٣ - التجسر على شيء محبوب :

كقول الله تعالى حكاية عن أم مريم : « إني وضعتها أنثى » وكقول الأب الثاكل : « مات
وحيدى وتركنى أصحاب الدنيا بلا أمل » .

وكقول ابن العم : « رفضتني ابنة عمى وارتضت غيرى » .

وكقول من لم يوفق في الامتحان : رسبت .

ومن ذلك قول المتنبي :

أقمت بأرض مصر فلا ورائي تخب بي الركاب ولا أمامي

٤ - تحريك الهممة والحث على العمل :

كقول الله تعالى « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » .

وقوله سبحانه « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » .

وقوله عز وجل « والذين آمنوا وعملوا الصالحات ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شئ كل امرئ بما كسب رهين » .

ومن ذلك قول شوقي :

وما نيل المطالب بالتمنى ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

وما استعصى على قوم منال إذا الإقدام كان لهم ركابا

وقول الآخر :

وليس أخو الحاجات من بات نائماً ولكن أخوها من يبيت على وجل

وهذه الأقوال الحكيمة :

فليس سواء عالم وجهول .

ومن طلب العلاسه الليالى .

من عرف قدر ما يطلب ، هان عليه ما يبذل .

٥ - التهديد :

كقول بشار :

إذا ما غضبنا غضبة مخرية هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

وكقول على بن المقرب :

لاقيمى لأبناء الوغى سوق إقدام وطعن وجلاد

إن يكن عز وإلا فردى لست من دون شبيب ومعاذ

وقوله :

سأطلب حق أبائى وحقى ولو من بين أنياب الأفاع

٦ - التحذير:

كقولى على مسمع ممن ضرب ابنى : سأرد الصاع صاعين لمن يعتدى على ولى بعد اليوم ؛ وكقول النبى ﷺ « أبيض الحلال إلى الله الطلاق » وكهذين القولين الحكيمين : أصحاب البيوت الزجاجية لا يقذفون بيوت الآخرين بالحجارة . من نخل الناس غربلوه .

وكقول على بن المقرب :

إن ترى شخصى لأمر ساكناً فلعمرى إن قلبى فى طراد
ربُّ ذى هم تراه مطرقاً وهو فى إطراقه حية واد
٧ - النرجح :

مثل : التاجر الأمين يقبل الناس على الشراء منه .

وكقول الشاعر :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس
وكهذه الأقوال الحكيمة :

« ما أكلته وأنت تشتهييه فقد أكلته ، وما أكلته وأنت لا تشتهييه فقد أكلك ، » ، « من نصحك أمام الناس فقد شتمك » ، « الماقل من لا يؤخر عمل اليوم إلى الغد » « أن ترد الماء بماء أرفق » .

٨ - التوبيخ المحض :

كقوك لمسلم مكلف لا يصلى « الصلاة فريضة على كل مسلم ومسلمة » وأشخص لا يهتم بنظافة جسمه وملابسه : « النظافة من الإيمان » ، ولن يصطدم بك نهراً : « الشمس طالعة » ومن ذلك قول الحماسية :

وأنت الذى أخلفتنى ما وعدتنى وأشمت بى من كان ذك يلموم

وكالتوبيخ المحض ، التوبيخ المبطن بالتهكم كقولى لمن خان عهدى :

« أنت وفى جداً يا صديقى » ، ولابنى الذى لا يرأسنى : « رساتلك كالطر » .

٩ - الفخر:

كقول عمرو بن كلثوم :

ونشرب إن وردنا الماء صفوا
وإشرب غيرنا كدرا وطينا
إذا بلغ الفطام لنا رضيع
تخر له الجبابر ساجدينا

وقول الفرزدق :

نرى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا
وإن نحن أوماننا إلى الناس وقفوا

وقول جرير :

إذا غضبت عليك بنو تميم
رأيت الناس كلهم غضابا
وقول أبي فراس الحمداني :

إننا إذا اشتد الزما
ألفيت حول بيوتنا
للقا العدا بيض السيو
هذا وهذا دأبنا
ن وناب خطب وادلهم
عُدَّة الشجاعة والكرم
ف وللندي حمر النعم
يسودي دم ويبراق دم

وقول حافظ إبراهيم على لسان مصر :

أنا إن قدر الإله مماتى
لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدى
وعلى لسان اللغة العربية :

وسعت كتاب الله لفظاً وغاية
وما ضقت عن أي به وعظات
١٠ - المرحح :

كقول النابغة :

فإنك شمس والملوك كواكب
إذا طلعت لم يبد منها كوكب
وقول زهير بن أبي سلمى :

وأبيض فياض يداه غمامة
على معتقيه ما تغب فواضله
تراه إذا ما جننته متهللاً
كأنك تعطيه الذي أنت سائله

وقول المتنبي :

أرى كل ذي ملك إليك مصيره
إذا مطرت منهم ومنك سحائب
كأنك بحر والملوك جداول
فوابلهم ظل وملك وابل

١١ - الهجاء:

كقولنا : فلان انحط في سلوكه إلى درجة يخجل منها نوره .

وكقول الشاعر :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى
وصوت إنسان فكدت أظير

وقول علي بن المقرب في هجاء بظانة الحكام العيونيين :

وما منهم إلا مهين رميت به
أبوة سوء من إماء جلائب
أخو مومس أو صنوها أو حليلها
فقد حُفَّ بالسوءات من كل جانب
وما زال نتن الخيم والأصل مولعاً
ببغضاء أرباب العسلا والمناقب

١٢ - الرثاء:

كقول ابن المقرب أيضاً :

رزئت ملوكاً لو بكيت لفقدهم دماً ما كفانى عمر نوح ولقمان
بهم كنت أرمى من رمانى وأتقى بهم نائبات الدهر من حيث تلقانى

وكقولنا : كان فلان رحمه الله براً بأهله وأقاربه عطوفاً على الفقراء والمساكين .

١٣ - التحسين:

وهو ضرب من المدح كقولك لحائك ثيابك :

من يرى الثيات التي تخطبها يخالها مستوردة ، أو من أرقى بيوت الأزياء .

١٤ - التقبيح:

وهو ضرب من الهجاء كقول الشاعر :

وإذا أشار محدثاً فكأنه قرد يقهقه أو عجوز تلطم
وكقولي لجارى الذى لامنى لأن رأيت زوجته : لقد رأيت خنفساءك عرضاً لا قصداً .

١٥ - إظهار الفرع:

كقول الشاعر:

هناء مما ذاك العزاء المقدما

فما عيب المحزون حتى تبسما

وكقول الطالب الناجح: نجحتُ.

* * *

انتهت أغراض الخبر بنوعيهما الحقيقي والبلاغي.

ويحسن التنبيه إلى أن الغرض الأول من النوع الأول وهو فائدة الخبر يستفاد من ذات الخبر.

أما الغرض الثاني من النوع الأول، وأغراض النوع الثاني كلها فإن دلالة الخبر عليها تبعية لا أصلية.

* * *

كما يحسن التنبيه إلى أن الجملة من وجهة نظر علم المعاني تنقسم إلى جملة رئيسية وهي الجملة المستقلة التي لا تكون قيداً في غيرها، وإلى جملة غير رئيسية (فرعية) وهي التي تكون قيداً في غيرها وليست مستقلة بنفسها.

ففي المثال: جاء محمد يضحك أو وهو يضحك.

جملة جاء محمد هي الجملة الرئيسية؛ لأنها مقصودة لذاتها، وهي لهذا ليست قيداً في غيرها، أما جملة (يضحك) أو (وهو يضحك) فهي الجملة غير الرئيسية، لأنها ليست مقصودة لذاتها، بل لتبين حال محمد وقت مجيئه وهي بهذا أو لهذا قيد في الجملة الرئيسية.

وفي المثال: إمام المسجد شيخ تقدمت به السن.

(جملة «إمام المسجد شيخ» هي الجملة الرئيسية؛ لأنها مقصودة لذاتها وليست قيداً في غيرها، وجملة «تقدمت به السن» هي الجملة غير الرئيسية لأنها غير مقصودة لذاتها بل لتبين صفة الشيخ، وهي بهذا أو لهذا قيد في الجملة الرئيسية).

* * *

والأهمية أو عدم الأهمية، هذه أو تلك غير مرتبطة بكون الجملة أصلية أو فرعية، فقد تكون الجملة فرعية وهي في غاية الأهمية وقد تكون الجملة أصلية وهي أقل أهمية.

* * *

الإسناد الإنشائي

مبدأ

سبق القول بأن الكلام إما خبر وإما إنشاء ، وقد فرغنا من الكلام على القسم الأول وهو الخبر ، ونحن الآن مع القسم الثاني ، وقد سماه السكاكي الطلب أما القزويني فسماه الإنشاء ، ولا خلاف بين التسميتين ، فالسكاكي يقول : « والطلب إذا تأملت نوعان : نوع لا يستدعي في مطلوبه إمكان الحصول ، ونوع يستدعي فيه إمكان الحصول » (١) .

والقزويني يقول : « الإنشاء ضربان : طلب وغير طلب ، والطلب يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب لامتناع تحصيل الحاصل ، وهو المقصود بالنظر هنا » (٢) .

ونفهم من عبارة « وهو المقصود بالنظر هنا » أن غير الطلب غير مقصود بالنظر في علم المعاني ، ولأنه كذلك أهمله القزويني فلم يعرف به ولم يمثل له ، قالوا : لقلّة المباحث البلاغية المتعلقة به ، ولأن أكثر أنواعه في الأصل أخبار نقلت إلى معنى الإنشاء (٣) .

وإذا كان القزويني لم يتطرق إلى غير الطلب فإن أكثر البلاغيين بعده قد تطرقوا إليه ولعلمهم فعلوا ذلك تمييزاً له عن الإنشاء الطلبي ، أو تمييزاً للإنشاء الطلبي عنه وسنسلك هنا مسلكهم . والله الموفق .

الإنشاء :

الإنشاء - طلباً أو غير طلب - هو الكلام الذي لا يحتمل صدقاً ولا كذباً ، لأنه لا يخبر بحصول شيء أو عدم حصوله فيكون له واقع خارجي يطابقه أو لا يطابقه وإنما هو طلب على سبيل الإيجاب مثل : اجتهد ، أو على سبيل السلب مثل : لا تؤخر عمل اليوم إلى الغد .

وعدم احتمال الجملة الإنشائية للصدق والكذب إنما هو بالنظر إلى ذات الجملة الإنشائية ، وليس بالنظر إلى ما تستلزمه من خبر ، ذلك أن كل أنواع الإنشاء تستلزم أخباراً تحتمل الصدق والكذب ، فقولي لابني (ذاكر) يستلزم خبراً هو (إنني أطلب منك أن تذاكر) وقولي لابني (لا تصاحب الأشرار) يستلزم خبراً هو (إنني أنهارك عن مصاحبة

(١) مفتاح العلوم ص ١٤٥ .

(٢) بغية الإيضاح ج ٢ ص ٥٢ .

(٣) بغية الإيضاح ج ٢ هامش رقم / ٢ .

الأشرار) وقولى لابنى (هل أنجزت واجباتك المدرسية ؟) يستلزم خبراً هو (إنى أسألك عن موقفك من واجباتك المدرسية) .

وقولى لابنى (لعلك تنجح وإيتك تتفوق) يستلزم خبرين اثنين هما (إنى أرجو نجاحك وأتمنى تفوقك) .

وندائى ابنى بقولى (يا محمد) يستلزم خبراً هو (أطلب مجيئك) .

وقولى (ما أجمل الحديقة) يستلزم خبراً هو (إنى معجب بجمال الحديقة) .

وقولى (نعم الابن محمد) يستلزم خبراً هو (أنا أمدح ابنى محمداً) الخ .

والأخبار المنبثقة عن أنواع الإنشاء السابقة تحتل الصدق والكذب ، لكن هذه الأخبار غير مقصودة للمتكلم ، ومقصود المتكلم إنما هو أنواع الإنشاء مجردة عما تستلزمه من أخبار ، وهذا هو معنى (لذاته) فى قولنا : « إن الإنشاء هو الكلام الذى لا يحتمل الصدق والكذب لذاته » أى : لذات الكلام الإنشائى نفسه بصرف النظر عما يستتبعه من جمل خبرية لا يصح - ونحن ندرس الإنشاء - أن نلتفت إليها .

* * *

والإنشاء - كما سبق القول - نوعان طلبى وغير طلبى .

فالطلبى هو ما يطلب به حصول شئ لم يكن موجوداً عند الطلب وهو الأمر والنهى والاستفهام والرجاء والتمنى والتداء .

وإذا استعمل الإنشاء الطلبى فى طلب شئ حاصل قبل طلبه وجب تأويله وجعله غير حقيقى ؛ لامتناع تحصيل الحاصل كما قال القزوينى :

ففى قوله تعالى : « يأيها النبى اتق الله » وقوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله » يؤول الأمر فى الآيتين الكريمتين إلى طلب نوام التقوى حتى يصل النبى ﷺ إلى الدرجة القصوى من التقوى ، وإلى طلب نوام الإيمان حتى يصل المؤمنون إلى درجة عالية من الإيمان .

أما غير الطلبى فهو ما لا يطلب به حصول شئ أو عدم حصوله .

وأساليب الإنشاء غير الطلبى كثيرة منها :

١ - صيغ المدح والذم :

وهي نعم وبئس وحبذا ولا حبذا ، قال زهير بن أبي سلمى :

نعم امرؤ هرم لم تعر نائبة إلا وكان لمرتاح لها وزراً

وقال تعالى : « بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان » ، وقال الشاعر :

ألا حبذا عاذرى في الهوى ولا حبذا العاذل الجاهل

وقد قيل إن صيغ المدح والذم أخبار تحتمل الصدق والكذب بدليل ما رواه من أن أعرابياً بشر ببنت فقيل له : « نعمت المولودة » فقال : « والله ما هي بنعمت المولودة » .

وأجدني ميالاً إلى هذا الرأي ولا عجب ؛ فالحسن الأدبي يشهد له .

٢ - القسم :

وقد سبق حصر حروفه في الباء والواو والتاء .

فالباء مثل : أقسم بالله إنى مخلص لك .

والواو مثل « والتين والزيتون ، وطور سينين ، وهذا البلد الأمين ، لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » .

والتاء مثل : « تالله لقد أثرك الله علينا » .

ومن القسم صيغة (لعمر) مضافة إلى الاسم الظاهر أو إلى الضمير .

مثل : لعمر الله أو لعمرك إنى أحبك .

٣ - التحجب :

بصيغتيه القياسيتين (ما أفعله وأفعل به) أو بصيغه السماعية .

مثال الصيغة القياسية الأولى قول شقران الهزيمي :

أولئك قوم بارك الله فيهم على كل حال ما أعف وأكرما

ومثال الصيغة القياسية الثانية قول الله تعالى : « أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا » .

ومن الصيغ التعجبية السماعية : ليت شعري ، والله أدرك ، والله أكبر وسبحان الله .

٤ - صيغ المحقور :

مثل : أجزرت وأستأجرت وبعثت واشتريت ووهبت ورهنت .

ه - الجمل المصدرية برُبُّ أو بكم الخبرية :

لدلالة (رُبُّ) و (كم) الخبرية على إنشاء التقليل أو التكثر . قالت العرب : « رب عجلة تهب ريثاً ، ورب ضارة نافعة ، ورب أخ لك لم تلده أمك » ، وتقول أنت لزميلك : كم زرتك ولم تزرنى

ويقول المتنبي :

كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم ويكره الله ما تأتون والكرم

وقد قيل في هذه الجمل ما قيل في صيغ المدح والذم من أنها أخبار تحتل الصدق والكذب وأقول هنا ما قلته هناك من أنني ميال إلى هذا الرأي بل متحمس له، ولا عجب فالخبرية فيه واضحة كالشمس.

والفرق بين الإنشاءين الطلبي وغير الطلبي : أن الإنشاء الطلبي يتأخر وجود معناه قليلاً أو كثيراً عن وجود لفظه ، وبعبارة مختصرة : يسبق التلغظ به الامتثال له .

فقولى لابنى (ذاكر) منفصل زماناً عن تنفيذ هذا الأمر .

فالأمر الآن ، والمذاكرة في الزمن الذي يلي ذلك قريباً أو بعيداً .

أما الإنشاء غير الطلبي فيتحقق مدلوله بمجرد النطق به ، فإذا قلت : بعث .

يتحقق البيع بلا فارق زمني بين التلغظ ووقوع البيع ، وإذا قلت لشخص : زوجتك ابنتى أكون قد زوجتها له ولم يبق إلا أن يقول هو « قبلت » فإذا قالها تكون ابنتى قد صارت زوجته .

* * *

وأنبه إلى أنني قد ذكرت الترجي في الإنشاء الطلبي ، ولم أذكره في الإنشاء غير الطلبي وهذا هو رأيي ، فلا فرق عندي بين التمني والترجي من حيث أن كلا منهما إنشاء طلبي ، وإذا كان ثمة فرق فهو لمصلحة الترجي ؛ ذلك أن التمني : طلب المستحيل أو الممكن البعيد .

الأول مثل : ليت الشباب يعود ، والثاني مثل « يا ليت لنا مثلما أوتى قارون » .

أما الترجي : فطلب الممكن القريب مثل : لعلى أنجح .

وإذا كان التمني والترجي يشتركان في أنهما طلب فلا وجه لفصل أحدهما عن الآخر

بجعل التمنى إنشَاءً طلبياً والترجى إنشَاءً غير طلبى ، علماً بأن مفهوم كل منهما يجعل
الترجى أدخل فى الإنشاء الطلبى من التمنى ، لأنه أقرب إلى التحقق من التمنى ، وبناء عليه
يكون الطلب به طلباً للمأمول لا طلباً لمستحيل أو لممكن غير مأمول .
ولست فى هذا رأى وحدى بل معى كثير من البلاغيين قداماء ومحدثين .

* * *

ومن طريف ما قرأت فى تبرير جعل الترجى من الإنشاء غير الطلبى قول الشيخ عبد
المتعال الصعيدي : « ومن الإنشاء غير الطلبى الترجى ، ويرى كثير من العلماء أنه من
الإنشاء الطلبى ، والحق أنه لا طلب فيه بدليل أنه يأتى فى المكروه نحو لعل الحبيب مريض
ولا طلب فى المكروه » (١) .

أما أنه لا طلب فيه ، فالمعنى اللغوى للرجاء ينفيه ، جاء فى أساس البلاغة مادة (رجو) :
« أرجو من الله المغفرة ، ورجوت فى ولدى الرشد ، وأتيت رجاء أن يحسن إلى » .

ومن الدليل على أن الرجاء كالتمنى فى أن كلاهما طلبى قول الزمخشري عاطفاً على
ما سبق : « ورجيتنى حتى ترجيت كقولك : منيتنى حتى تمنيت » .

أما (لعل الحبيب مريض) .

فالرجاء هنا بلاغى بمعنى الخشية والخوف ، لكأنه قال : أخشى أو أخاف أن يكون
الحبيب مريضاً ، وما هو ذا الزمخشري يعطف ثانياً بقوله :
« ومن المجاز استعمال الرجاء فى معنى الخوف » (٢) .

* * *

والآن مع دراسة مفصلة لأنواع الإنشاء الطلبى .

١ - الأمر

الأمر : هو طلب حصول الفعل .

لا أقول : على جهة الاستعلاء كما قال السكاكى والقزوينى وسائر البلاغيين قداماء
ومحدثين (٣) بل أقتصر على قولى إن الأمر هو طلب حصول الفعل ، ذلك أننا ندرسه من

(١) بغية الإيضاح ج ٢ ص ٥٣ هامش رقم / ٢ .

(٢) أساس البلاغة ص ١٧٥ .

(٣) المفتاح ص ١٥٢ وبغية الإيضاح ج ٢ ص ٧٤ .

وجهة نظر البلاغة والأمر البلاغي أكثر من الأمر الحقيقي كما سنرى ، ثم إننى لن أقصر فى حق الأمر على سبيل الاستعلاء بل سأبدأ به ؛ لأنه الأمر الحقيقى ، وإن يكون على سبيل الاستعلاء فقط ، بل على سبيل الاستعلاء والإلزام ، فإذا تحقق هذان الشرطان كان الأمر حقيقياً ، أما إذا تخلفا كلاهما أو أحدهما فإن الأمر حينئذ يخرج عن معناه الحقيقى ويكون أمراً بلاغياً .

وقبل أن نشرح ذلك نذكر :

صيغ الأمر وهى

١ - فعل الأمر :

كقولى لابنى : ذاكر دروسك وحافظ على تفوقك ، وكقول الله تعالى لمريم : « فكلى واشربى وقرى عيناً فإما ترين من البشر أحداً فقولى : إنى نذرت للرحمن صوماً » .

٢ - المضارع المقترن بلام الأمر :

كقول الله تعالى : « فليعبدوا رب هذا البيت . الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » ، وقوله تعالى : « لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله » .

٣ - المضارع النائب عن فعل الأمر :

كقول الله تعالى : « وبالوالدين إحساناً » وقوله تعالى : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب » وكقول قطرى بن الفجاءة :

فصبراً فى مجال الموت صبراً فما نيل الضلود بمستطاع

٤ - اسم فعل الأمر :

كقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم » فـ (عليكم) اسم فعل أمر بمعنى (الزموا) وكقولك لزميك (صه) بمعنى اسكت و (مه) بمعنى اكفف ، و (بله) بمعنى دع و (دونك) بمعنى خذ ، و (رويد) بمعنى أمهل . قال الشاعر :

رويد الذى محضته الود صافياً إذا ما هفا حتى يظل أخالكا

الأمر الحقيقي

سبقت الإشارة إلى أن الأمر الحقيقي هو طلب الفعل على سبيل الاستعلاء والإلزام .
كقول الضابط لجنوده فى ساحة القتال : تقدموا واضربوا .

وكقول الله تعالى مخاطباً محمداً ﷺ « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم » وقوله تعالى مخاطباً المؤمنين « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » ، فقد جاءت أفعال الأمر فى الأمثلة السابقة على سبيل الاستعلاء أولاً ، وعلى سبيل الإلزام ثانياً ، وهى لذلك من نوع الأمر الحقيقى الذى يمكن أن نعرفه بأنه طلب الفعل على وجه الاستعلاء وعلى وجه الإلزام .

الأمر البلاغى

فإذا اختل الشرطان السابقان كلاهما أو أحدهما لم تدل صيغ الأمر على معانيها الحقيقية وإنما تدل على معان بلاغية نهتدى إليها بنوقنا وبسياق الكلام وقرائن الأحوال . والمعانى البلاغية للأمر كثيرة منها :

١ - الدعاء :

وهو يتحقق إذا كان الأمر من أدنى إلى أعلى كقول العبد مخاطباً ربه : افتح لى أبواب الرزق واجعلنى من المقبولين ، ومنه : « اهدنا الصراط المستقيم » ، « ربّ اشرح لى صدرى ، ويسر لى أمرى ، وإحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى » .

وقول المتنبى مخاطباً سيف الدولة :

أزل حسد الحساد عنى بكبتهم فأنست الذى صيرتهم لى حسدا
ودع كل صوت غير صوتى فإنما أنا الطائر المحكى والآخر الصدى

٢ - النصيح :

وهو يتحقق إذا كان الأمر من أعلى إلى أدنى لكن لا على سبيل الإلزام ، أو كان من كلام الحكماء .

الأول : كقولى لابنى « نم مبكراً لتستيقظ مبكراً » وكقول خالد بن صفوان لابنه : « دع أعمال السر ما لا يصلح لك فى العلانية » .

والثانى ، كهذا البيت :

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم
فطالما استعبد الإنسان إحسان
وكهذين البيتين :

شاور سواك إذا نابتك نائبة
يوماً وإن كنت من أهل المشورات
واخفض جناحك إن منحت إمارة
وارغب بنفسك عن ردى اللذات
٣ - الإلتماس :

وذلك إذا كان الأمر موجهاً إلى مساوٍ كقول امرئ القيس :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل
وكقول محمود سامى البارودى :

يا نديمى من سرنديب كفا
عن ملامى وخليانى وما بى
وكقول شاعر لصاحبه :

شجعينى على الجهاد ترينى
علمينى معنى الطلاقة والخلد
طهرينى بفيض قدسك ما اسطعد
وارفعينى إلى سمائك أنشد
وأفيضى على بالوحى أبدع
أنطق الصخر أرتقى للسماء
د مقيماً يا ربة الإحشاء
ت وألقى على ثوب الرضاء
لك شعراً يموج موج الضياء
كل لحن معبر عن وفائى

٤ - التمنى :

وهو يتحقق إذا كان الأمر موجهاً إلى ما لا يعقل ، كقول امرئ القيس :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى
بصبح وما الإصباح منك بأمثل
وكقول عنتره :

يا دار عبلة بالجواء تكلمى
وعمى صباحاً دار عبلة واسلمى

وكقول أبي العلاء :

فياموت زر إن الحياة ذميمة ويا نفس جدى إن دهرك هازل

وكقول ابن زيدون :

ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا من لو على البعد حى كان يحيينا

وكقول البهاء زهير :

يا ليل طل يا شوق دم إنسى على الصالحين صابر

٥ - التهجيز:

وهو أمر المخاطب بما يعجز عنه إظهاراً لضعفه عن القيام به كقولك لمن يدعى أمراً
تعتقد أنه ليس فى وسعه (افعله) ، وكقول الله تعالى : « فاتوا بسورة من مثله » وقوله
تعالى : « يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض
فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان » .

وكقول الشاعر :

أرونى بخيلاً طال عمراً ببخله وهاتوا كريماً مات من كثرة البذل

٦ - التهجيز:

وذلك إذا كان الأمر قد أمر بما هو غير راض عنه كقولى لابنى : تزوجها وسأحرمك من
الميراث ، أو : سافر واست ابنى ، وكقول الله تعالى : « اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون
بصير » وقوله تعالى « فتمتعوا فسوف تعلمون » وقوله تعالى : « قل تمتعوا فإن مصيركم
إلى النار » .

٧ - الإباحة:

وهى تتحقق إذا كان المخاطب يتوهم أن المأمور به محظور عليه فيكون الأمر إذناً له
بفعله ولا حرج عليه فى تركه ، وقد استحسن القزوينى فى التمثيل لها قول كثير :

أسيئى بنا أو أحسنى لا ملومة لدينا ولا مقلية إن تقلت (١)

(١) تقلت : فعل ماضى مسند إلى ضمير الموث من القلى وهو البفض ، وفيه التذات من الخطاب إلى الغيبة.

ثم مضى فعلق عليه بقوله : أى لا أنت ملومة ولا مقلية ، ووجه حسنه إظهار الرضا بوقوع
الداخل تحت لفظ الأمر حتى كأنه مطلوب ، أى مهما اخترت فى حقى من الإساءة والإحسان
فإننا راض به غاية الرضا ، فعاملينى بهما وانظرى : هل تتفاوت حالى معك فى
الحالين ؟ « (١) .

ولعل أبا فراس قد نظر إلى بيت كثير وهو يقول فى الغرض نفسه معاتباً سيف الدولة :

فقل ما شئت فى فلى لسان ملئ بالثناء عليك رطب
وعاملنى بإنصاف وظلم تجدنى فى الجميع كما تحب

٨ - التسوية :

وهى تتحقق إذا كان المخاطب بصيغة الأمر يتوهم رجحان أحد الشئيين على الآخر كقول
الله تعالى : « أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم » وقوله تعالى : « اصبروا أو لا تصبروا »
وكقول المتنبي :

عش عزيزاً أو مت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود

٩ - الإهانة :

وهى تتحقق باستعمال صيغة الأمر فى مقام عدم الاعتداد بشأن المأمور وبدون قصد من
الأمر إلى فعل ما أمر به .

والمأمور به فى الإهانة يكون خسيساً أولاً ، وغير مقدر عليه ثانياً كقوله تعالى : « كونوا
حجارة أو حديداً » وقوله تعالى : « ذق إنك أنت العزيز الكريم » .

١٠ - التحقير :

قيل هو قريب من الإهانة ، وقيل هما بمعنى واحد ؛ ومثاله قول الله تعالى على لسان
موسى لسحرة فرعون « ألقوا ما أنتم ملقون » وقول جرير فى تحقير قوم الفرزدق :

خذوا كحلا ومجمره وعطراً فلستم يا فرزدق بالرجال
وشموا ريح عيبتكم فلستم بأصحاب العناق ولا النزال

(١) بغية الإيضاح ج ٣ ص ٧٤ - ٧٥ .

١١ - التسخير:

أى جعل الشيء مسخراً ومنقاداً لما أمر به .

وهو يتحقق إذا وجد المأمور نفسه قد تحول دون إرادة منه إلى ما أمر به كقول الله تعالى: « كونوا قردة خاسئين » .

فما أمر الله تعالى به قد وقع للمأمورين ، إذ تحالوا من آدميين إلى قردة دون أن يكون لهم دخل فى هذا التحول بالإيجاب أو السلب ، والفرق بين الإهانة والتسخير أن الإهانة لا يحصل فيها المأمور به أما التسخير فيحصل معه المأمور به .

١٢ - الخبر:

وهو يتحقق إذا كان اللفظ أمراً والمعنى خبراً كقوله تعالى : « فليضحكوا قليلاً ، وليبكوا كثيراً » ، إذ المعنى أنهم سيضحكون قليلاً وسيبكون كثيراً .

١٣ - التسلية:

وهو يتحقق إذا جاءت صيغة الأمر بمعنى التفويض كقول الله تعالى : « فاقض ما أنت قاض » أى افعَل ما تشاء ، وقوله تعالى : « ثم امضوا إلى ولا تنظرون » أى اعملوا ما أنتم بصدده .

١٤ - التحسير:

كقول الله تعالى : « قل موتوا بغيظكم » ، وكقول جرير :

موتوا من الغيظ غمًّا فى جزيرتكم لن تقطعوا بطن واد دونه مضر
١٥ - التخخير:

وهو يتحقق إذا كان الأمر مقصوداً به تخيير المخاطب بين شيئين أو أكثر مع عدم السماح له بالجمع بين هذين الأمرين أو بين هذه الأمور ، كقولى لابنى : تزوج عائشة أو أختها ، وكقولى له بمناسبة نجاحه : اختر هدية أو رحلة أو مبلغاً من المال ، ومن التخخير قول بشار :

فعمش واحداً أو صل أخاك فإنه مقارف ذنوب مرة ومجانبه
وقول مهباز :

وعش إما قرين أخ وفى أمين الغيب أو عيش الواحد

٢ - النهي

النهي هو طلب الكف عن الفعل .

والفرق بينه وبين الأمر ، أن الأمر طلب فعل ، أما النهي فطلب ترك ، ويمكن القول بأن الأمر إيجاب والنهي سلب .

والنهي صيغة واحدة هي المضارع المقرون بلا الناهية مثل : لا تلق التبعة فيما أصابك على غيرك .

والنهي نهيان : نهى حقيقى ، ونهى بلاغى .

فالنهى الحقيقى : هو ما كان من الأعلى إلى الأدنى على سبيل الاستعلاء والإلزام كقول القائد لجنوده : لا تتركوا أماكنكم ولا تغفلوا عن عدوكم ولا تطلقوا النار إلا إذا أمرتكم ، وكقول الله تعالى : « ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب » . وقوله تعالى : « ولا تكتموا الشهادة » وقوله تعالى : « ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً » وقوله تعالى : « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن » وقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم » وقوله تعالى : « ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى ... » .

ولا يكون النهى بلاغياً إلا إذا تخلف الشرطان السابقان وهما الاستعلاء والإلزام كلاهما أو أحدهما ، ومن الأغراض البلاغية للنهى ما يأتى :

١ - الدعاء :

وذلك إذا كان من أدنى إلى أعلى ، كقول الله تعالى : « ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به » ، وقوله تعالى : « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا » .

وقول النابغة للنعمان بن المنذر :

فلا تتركنى بالوعيد كأننى إلى الناس مطلى به القار أجرب

وقول كعب بن زهير للنبي ﷺ :

لا تأخذنى بأقوال الوشاة ولم أذنب وقد كثرت فى الأقاويل

٢ - النصيح :

وذلك إذا كان النهى صادراً من أعلى إلى أدنى لكن ليس على سبيل الإلزام أو كان نهياً من ذى خبرة .

الأول : كقولى لابنى لا تتدخل فيما لا يعنك ، ولا تتبع عورات الناس

والثانى : كقول بشار

ولا تحسب الشورى عليك غضاضة فإن الخوافى قوة للقوادم

وقول المتنبى :

إذا غامرت فى شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم

وقولى أبى العلاء :

ولا تجلس إلى أهل الدنيا فإن خلائق السفهاء تعدى

وقول الطغرائى :

لا تطمحن إلى المراتب قبل أن تتكامل الأدوات والأسباب

وقول على بن المقرب :

ولا تفند كريماً عن سجيته حسن السجيات من رب العلائ نحل

وقوله :

ولا ترهب الخطب الجليل لهوله فطعم المنايا كيفما ذقت واحد

وقول شوقى :

لا تسمعوا للمرجفين وجهلهم فمصيبة الإسلام من جهاله

وقول آخر :

عيونك لا تنظر بها عورة امرئ فكلك عورات وللناس أعين

ومن التوجيه العام قول خالد بن صفوان : « لا تطلبوا الحاجات فى غير حينها ، ولا تطلبوها من غير أهلها » .

٣ - الإلتماس :

وذلك إذا كان النهى موجهاً إلى مساور ، كقول هارون لأخيه موسى : « يا بن ام لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى » وكقول المتنبى :

فلا تبلغاه ما أقول فإنه شجاع متى يذكر له الطعن يشتق

وقول أبي العلاء :

لا تطويا السر عنى يوم نائبة فإن ذلك ذنب غير مغتفر

وقول الغزى :

ولا تثقلا جيدي بمنة جاهل أروح بها مثل الحمام مطوقا

وقول على بن المقرب على لسان من جرده من نفسه :

ولا تثن عطفاً للديار وكن فتى يهم فيمضى فى المهمات مقدما

٤ - التمنى :

وذلك إذا كان النهى موجهاً إلى غير العاقل كقولك : لا تهبى يا رياح ولا تغربى

يا شمس . وكقول الخنساء :

أعيني جودا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندى

وقول أبي نواس :

يا ناق لا تسأى أو تبلغى ملكاً تقبيل راحته والركن سيان

وهذه الأبيات :

إيه يا طير لا تفسن بلحن ينقذ النفس من هموم كثيرة

.....

يا قلب لا تنثر أساك ولا تطف بالذكريات وجوهن المحرق

لا تنهض الأوجاع من أوكارها سوداء تنهش كالمغيظ المحنق

.....

يا ليل طل يا نوم زل يا صبح قف لا تطلع

٥ - التوبيخ :

وذلك إذا كان المنهى عنه شيئاً يحط من شأن صاحبه ويستوجب لومه وتوبيخه كقول الله

تعالى : « لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم » وكقول أبي الأسود الدؤلى :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

٦ - التحقير :

وذلك إذا كان النهى مقصوداً به إهانة المخاطب وتحقيره كقول الحطيئة الزبيرقان بن بدر:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

وقول الشاعر :

لا تعرضن لجعفر متشبهها بندى يديه فلسست من أذناه

وقول الشاعر :

لا تطلب المجد إن المجد سلمه صعب وعش مستريحاً فاعم اليال
٧ - التحجيز، وقرئ يسمى التبييس :

كقولك لمن يحاول حل مسألة صعبة : لا تحاول فقد عجز عن حلها كل الطلبة ، وكقول الله تعالى : « لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم » .

وكقول المتنبي في سيف الدولة :

لا تطلبن كريماً بعد رؤيته إن الكرام بأسخاهم يداً ختموا

وقول الآخر :

لا تطلب المجد واقنع فمطلب المجد صعب

٨ - التهديد :

وهو يتحقق إذا قصد المتكلم تخويف المخاطب وتحذيره من مغبة تصرفه الخاطي ، كقولك لمن بونك : لا تمتثل أمرى وسترى . وكقول قاطع الطريق لضحيته : « إن كنت تريد الحياة فلا تستغث ولا تحرك ساكناً » وقول الزوج لزوجته : لا يطمعك سكوتى عنك .

٣- الاستفهام

الاستفهام بمعناه الاشتقاقى المباشر هو طلب الفهم قالوا : « من جزع من الاستفهام فزع إلى الاستفهام » .

أما البلاغيون فقد عرفوه بأنه طلب حصول صورة الشئ في الذهن بأدوات مخصوصة .
وبعبارة عصرية واضحة : هو طلب العلم بشئ لم يكن معلوماً من قبل .

والمعنى المستكن فيما سبق أو لما سبق إنما هو الاستفهام الحقيقى ، وهو سؤال الإنسان عما يجهله ليعلمه ، وإذا كان كذلك فإنه ينتظر ممن يسأله جواباً عن سؤاله .

ولعل تلك الحالة أن تكون أسهل شئ وأيسره فى كلامى السكاكى والقزوينى ومن أبهم إبهامهما .

ومما يثير الشجن أن بعضاً ممن لم تدركهم حرفة البلاغة قد دلجوا ليلها فأصابهم ما توعدهم به الزمخشري في قوله : « من أراد الفلج فعليه بالدلج » (١)

ومصيبتنا أن فلجهم قد أصاب كتبهم فجاءت خرساء بكماء غلقة تلج فيها فتخرج منها كما دخلتها يصدق عليك المثل « رجع بخفى حنين » .

ولا عجب ، فقد قل مَنْ أوتى أن يفهم ويفهم ، ومن لم يؤت من سوء الفهم أتى من سوء الإفهام .

ومعذرة عن هذه النفثة فلا بد للمصدر أن ينفث ، وقد كان ما سبق نفثة مصدر معنور في نفثه .

أدوات الاستفهام

بمناسبة أدوات الاستفهام أقول : إن من تداخل المنطق في البلاغة ما سموه التصديق وهو تصور النسبة وما سموه التصور وهو إدراك المفرد .

والغريب أن النسبة تعنى الإسناد وأن المفرد يعنى واحداً من طرفى الإسناد أو متعلقات المسند ، ووجه الغرابة أن الإسناد هو المصطلح البلاغى لثبوت شئ لشيء أو نفيه عنه ، كما أن المسند إليه والمسند ومتعلقات المسند - إن وجدت - كلها مصطلحات بلاغية ، فلماذا - وهم يتكلمون في البلاغة - لا يسمون الأشياء بأسمائها البلاغية ؟

لا جواب لذلك إلا أن نقول : إنه الغزو التتري من العلوم الأخرى للبلاغة ، وإنه وقوع البلاغيين تحت تأثير العلوم الأخرى ، ولو لم يكن الأمر كذلك لسموا التصديق إسناداً وسموا التصور مسنداً أو مسنداً إليه .

ولما كنت بصدد البلاغة الاصطلاحية أولاً ، وأريد أن يفهم عنى ثانياً ، فإنى سأبذل جهدي في تنقية البلاغة مما علق بها ليطابق اسم الكتاب مسماه ، أو ليطابق الكتاب اسمه .

(١). أساس البلاغة ص ١١٣ .

وأجوات الإستفهام هي :

١ - الهمزة

ولها ثلاثة استعمالات هي :

(١) السؤال بها عن جزء الجملة لا عن كل الجملة ، وبعبارة أخرى : السؤال بها عن جزء من أجزاء الإسناد وليس عن الإسناد كله .

وهذا الجزء المسئول عنه بالهمزة في استعمالها الأول :

إما أن يكون المسند إليه مثل : أمحمد الناجح أم أحمد ؟

وإما أن يكون المسند مثل : أنجح محمد أم رسب ؟

وإما أن يكون المفعول به مثل : أتفاحاً أكلت أم يرتقلاً ؟

وإما أن يكون الحال مثل : أراكباً جئت أم ماشياً ؟

وإما أن يكون ظرف الزمان مثل : أيوم الخميس تسافر أم يوم الجمعة ؟

وإما أن يكون ظرف المكان مثل : أعند فيصل أم عند علاء نلتقى ؟

وإما أن يكون الجار والمجرور مثل : أفى المسجد أم فى المنزل والدك ؟

ويلزم فى هذا الاستعمال أن يأتى المسئول عنه بعد الهمزة مباشرة كما فى الأمثلة السابقة وهو لزوم مطرد ، فإذا تخلف كان تخلفه خطأ .

ثم غالباً ما يذكر للمسئول عنه بالهمزة فى هذا الاستعمال معادل بعد (أم) كالأمثلة السابقة ومن غير الغالب قول الله تعالى : « أنت فعلت هذا بالكهتنا يا إبراهيم ؟ » أى أم غيرك ؟

وكقول أبى نؤيب الهذلى :

دعانى إليها القلب إنى لأمره سميع فما أدرى أرشد طلابها

أى أم غى .

ويجاب عن السؤال فى هذا الاستعمال بالتعيين .

تقول فى جواب السؤال الأول : محمد ، وفى جواب السؤال الثانى : نجح ، وفى جواب السؤال الثالث : تفاحاً ، وفى جواب السؤال الرابع : ركبياً وهكذا .

(ب) السؤال بالهمزة عن كل الجملة أى عن الإسناد الموجود بين المسند والمسند إليه فى الجملة يقول الوالد لولده : أنجحت فى الامتحان يا بنى ؟ .

هنا لا يسأل الأب عن النجاح فى مقابلة الرسوب ، ولا عن ابنة فى مقابلة غيره ، وإنما يسأل عن تحقق النجاح لابنه أو عدم تحققه ، أى عن إسناد النجاح لابنه أو عدم إسناده إليه .

ونقول فى الجواب عن السؤال فى هذا الاستعمال (نعم) فى الإيجاب ، و (لا) فى النفى أى : نعم نجحت ، أو لا ، لم أنجح .

(ج) السؤال بالهمزة المقرونة بالنفى عن مضمون الجملة أى عن الإسناد الموجود فى الجملة كقول الله تعالى : « أأست بربكم ؟ قالوا : بلى » وقوله تعالى : « أليس الله بكاف عبده » .

وقوله تعالى : « ألم نريك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين » .

وقوله تعالى : « ألم نشرح لك صدرك » .

ونقول فى الجواب عن السؤال فى هذا الاستعمال (بلى) فى الإيجاب و (نعم) فى النفى . يقول القاضى للمتهم بجريمة قتل : أأست القاتل ؟ فإن أجاب (بلى) اقتصر منه ، لأن معنى الإجابة بلى أنا القاتل ، وإن أجاب (نعم) برأه ؛ لأن معنى الإجابة : نعم لستُ القاتل ، ومن عجب أن (نعم) هنا تعنى (لا) ولا توجد فى لغتنا (نعم) بمعنى (لا) سوى هذه .

٢ - هل

وهى لا يسأل بها إلا عن مضمون الجملة أى عن الإسناد الحاصل فى الجملة ، يسأل الأب ابنة : هل نجحت فى الامتحان ؟ فيجيب الابن : نعم : أى نجحت أو لا : أى لم أنجح .

ومن النقص الذى لا لزوم له بل لا أساس له جعل بعض البلاغيين (هل) نوعين :

هل البسيطة : وهى التى يسأل بها عن وجود شئ أو عدمه مثل : هل الإنسان الكامل موجود ؟ وهل الحركة موجودة ؟ .

وهل المركبة : وهي التي يسأل بها عن وجود شيءٍ لشيءٍ مثل : هل النبات حساس ؟
وهل الحركة دائمة ؟؟ هذا ما قالوه (١)

وبإمعان النظر فيه نجد أن لا فرق بين هل البسيطة وهل المركبة لا في تعريفيهما ولا في
أدلتيهما ، فنحن في الحالتين نسأل بـ (هل) عن ثبوت شيءٍ لشيءٍ .

في هل التي سموها بسيطة نسأل عن ثبوت الوجود للإنسان الكامل .

أمتحقق هذا الوجود أم لا ، وعن ثبوت الوجود للحركة ، أمتحقق هذا الوجود أم لا ؟

الإنسان الكامل : مسند إليه . وموجود : مسند .

والحركة : مسند إليه . وموجودة : مسند .

وفي هل التي سموها مركبة نسأل عن ثبوت الاحساس للنبات ، أمتحقق هذا الإحساس أم

لا ؟ وعن ثبوت الدوام للحركة ، أمتحقق هذا الدوام أم لا ؟

النبات مسند إليه وحساس مسند والحركة مسند إليه ودائمة مسند .

لا فرق بين نوعي (هل) إذا ، وام تخرج المسألة عن كونها دغدغة كلام ، ويعجبني فيها

هذا المقام تعليق عبد المتعال الصعيدي على هذا التقسيم لـ (هل) من قبل القزويني قاله

الشيخ عبد المتعال « الحق أن هذا التقسيم لا يختص بهل ، لأن الهمزة مثلها فيه ، على أن:

البحث فيه لا شأن لعلم المعانى به » (٢).

٣ - هل

ويسأل بها عن العاقل أو العقلاء ، فيجاب بذكر أسمائهم أو صفاتهم ، تقول : من هذا ؟

فيقال : محمد عبده ، وتقول : من هؤلاء ؟ فيجاب : فيصل وعلاء وكارم ومحمد وناصر .

أو تقول في الإجابة عن السؤال الأول : هذا صديقي أو ضيفي أو صهرى ، وعن السؤال

الثاني : هؤلاء أطباء ومهندسون وأساتذة في الجامعات .

وقد أضاف السكاكي إلى (مَنْ) استعمالاً آخر هو السؤال بها عن الجنس من نوعي

العلم .

تقول : من جبريل ؟ بمعنى أبشر هو أم ملك أم جني ؟ وكذا : من إبليس ؟ ومن فلان ؟

ومنه قوله تعالى حكاية عن فرعون : « فمن ربكما يا موسى ؟ » أراد من مالركما ومدبر

أمركما ؟ أم لك هو أم جني أم بشر ، منكرأ أن يكون لهما رب سواه ، لادعائه الربوبية

لنفسه (٣) .

(١) انظر بغية الإيضاح جـ ٢ ص ٥٩ والبلاغة الواضحة ص ١٩٤ هامش رقم / ٢

(٢) بغية الإيضاح جـ ٢ ص ٥٩ هامش رقم ٢ (٣) مفتاح العلوم ص ١٤٩ - ١٥٠

٤ - ما

ويسأل بها عن غير العقلاء ، وهى :

إما أن يطلب بها شرح الاسم أى بيان معناه اللغوى أو الاصطلاحى مثل : ما البرُّ ؟
والجواب هو القمح ، وما العسجد ؟ والجواب : هو الذهب ، وما الديباج ؟ والجواب : هو
الحرير ، ومثل : ما الجمع وما الطرح ؟؟ والجواب : هما إضافة عدد إلى عدد ، أو إنقاص
عدد من عدد . وإما أن يطلب بها حقيقة المسمى أى شرح ماهيته مثل : ما الإنسان ؟
والجواب : حيوان ناطق . وما الاعتدال ؟ والجواب : هو الوسط بين الإفراط والتقريط .

وقد جعلها السكاكى مثل (مَنْ) من حيث السؤال بها عن الجنس أو الوصف قال :

« أما ما فليسؤال عن الجنس تقول : ما عندك ؟ بمعنى أى أجناس الأشياء عندك ؟
وجوابه : إنسان أو فرس أو كتاب أو طعام ، أو عن الوصف تقول : ما زيد وما عمرو ؟؟
وجوابه : الكريم والفاضل » (١) .

والخلاصة أن (ما) يُسأل بها عن :

(أ) المفهوم الإجمالى للاسم مثل : ما الضيغم ؟ والجواب : هو الأسد .

(ب) حقيقة الاسم مثل : ما الحركة ؟ والجواب : هى حصول الجسم حصولاً أولاً فى
الحيز الثانى .

(ج) الجنس : مثل : ما خطبكم ؟ والجواب : موت أو هزيمة أو أسر .

(د) الوصف مثل : ما فيصل وما رشا ؟؟ والجواب : ابنى الأكبر وزوجته .

٥ - كم

ويسأل بها عن العدد كقول الله تعالى : « وكذلك بعثناهم لیتسألوا بينهم قال قائل منهم
كم لبثتم ؟ قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم » وقوله تعالى : « كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ؟
قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين » وكقولى : كم طالباً سجل فى مقرر كذا ؟
والجواب : خمسون أو ستون وهكذا .

٦ - كيف

ويسأل بها عن الحال مثل : كيف جئت ؟ والجواب : ماشياً أو ركباً ، وكيف سكنك ؟
والجواب : واسع أو ضيق ، وكيف محمد ؟ والجواب : بخير أو مجتهد وتاجع فى عمله .

(١) مفتاح العلوم ص ١٥٠ .

٧ - أين

ويسأل بها عن المكان مثل أين والدك ؟ والجواب : فى المنزل أو فى المسجد أو فى السدى، وأين نلتقى ؟ والجواب : فى المكتبة أو فى الحديقة أو فى الملعب .

٨ - أنى

وتأتى مرةً بمعنى كيف كقول الله تعالى : « أنى يحيى هذه الله بعد موتها » ؟ أى كيف يحيى هذه الله بعد موتها ، وما مثل به السكاكى والقزوينى وغيرهما من سائر البلاغيين قديماً ومحدثين لذلك وهو قول الله تعالى : « نسأؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم » (١) .

فعندى أن (أنى) هنا ليست استفهامية أى ليست للسؤال أصلاً ، إذ معناها الذى يهدى إليه سياقها : فأتوا حرثكم فى أى وقت شئتم وبأية كيفية أردتم . كما تأتى بمعنى (من أين) كقول الله تعالى على لسان زكريا عليه السلام : « يا مريم أنى لك هذا ؟ » أى من أين لك هذا الرزق ؟ ولهذا قالت : « هو من عند الله » .

وتأتى بمعنى (متى) تقول : أنى تظهر نتيجة الامتحان ؟ وأنى تسافر ؟ أى متى تظهر نتيجة الامتحان ؟ ومتى تسافر ؟

متى

ويسأل بها عن الزمان ماضياً أو مستقبلاً مثل : متى جئت ؟ ومتى تسافر ؟

١٠ - أياؤ

ويسأل بها عن الزمان المستقبل فقط ، وتستعمل فى مواضع التفخيم والتهويل خاصة كقول الله تعالى : « يسألون أياؤ يوم الدين » وقوله تعالى : « يسألونك عن الساعة أياؤ مرساها » وقوله تعالى : « يسأل أياؤ يوم القيامة » ونقول نحن : أياؤ يوم التخرج ؟ وأياؤ تتوقف الحرب بين الفصائل اللبنانية ؟

١١ - أى

ويسأل بها عما يميز أحد المشتركين فى أمر يعمهما أو عما يميز أحد المشتركين فى أمر يعمهم مثل : أى الطالبين أنكى ؟ وأى الطلاب أنكى ؟

(١) « فتاح العلوم ص ١٥٠ وبغية الإيضاح ج ٢ ص ٦٤ .

ويمكن السؤال بها عن الزمان مثل : فى أى وقت تحضر لزيارتي ؟

وعن المكان مثل : فى أى مكان تلتقى ؟

وعن الحال مثل : على أى حال جاء ضيفكم ؟

وعن العاقل مثل : أى الزملاء زارك ؟

وعن غير العاقل مثل : أى كتاب تنصح بقراءته ؟

وعن العدد مثل : أى مبلغ تستطيع أن تدفع ؟

فأى شائعة ، وهى بحسب ما تضاف إليه أى أن معناها يتحدد بما تضاف إليه .

* * *

وتجدر الإشارة إلى أن المسئول عنه بالأدوات التسع الأخيرة جزئى لا كلى ، وأجوبتها لذلك تكون بتعيين المسئول عنه بها ، وتتشترك الهمزة فى استعمالها الأول مع هذه الأدوات فى أن المسئول بها جزئى ، وعلى الجانب الآخر وهو السؤال عن الإسناد نفسه أى عن المضمون الكلى للجملة تقف (هل) و (الهمزة) فى استعمالها الثانى والثالث .

الإغراض البلاغية للاستفهام

سبق القول بأن الاستفهام الحقيقى هو السؤال عما يجهله السائل ، وهو فى هذه الحالة ينتظر جواباً لكن أدوات الاستفهام قد تؤدي معانى أخرى غير السؤال ، وهذه المعانى تفهم من سياق الكلام ومن قرائن الأحوال ، ومن ذلك ما يلى :

١ - التعجب :

كقول الله تعالى على لسان سليمان « مالى لا أرى الهدى ! » .

وقوله تعالى على لسان كفار مكة « ما لهذا الرسول يأكل الطعام ، ويمشى فى الأسواق »

وكقول أبى تمام :

ما للخطوب طغت على كأنها جهلت بأن ندادك بالمرصاد

وقول المتنبي للحمى :

أبنت الدهر عندي كل بنت فكيف وصلت أنت من الزحام

وقوله لسيف الدولة وقد اعتل :

وكيف تعلق الدنيا بشئى وأنت لعة الدنيا طبيب
وكيف تنوبك الشكوى بداء وأنت المستفان لما ينوب

وقول شوقى :

ما أنت يا دنيا ؟ أرؤيا نائم أم ليل عرس ، أم بساط سلاف ؟

٢ - النفس :

كقولنا : هل الامتحان إلا لتمييز المجتهد من المهمل : أى ما الامتحان إلا لتمييز المجتهد
من المهمل ، وكقول الله تعالى : « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » أى ما جزاء الإحسان
إلا الإحسان ، وكقول أبى تمام :

هل اجتمعت أهياء عدنان كلها بملتصم إلا وأنت أميرها

وقول البحترى :

هل الدهر إلا غمرة وانجلاؤها وشيكا وإلا ضيقة وانفراجها

وقول المتنبى :

ومن لم يمشق الدنيا قديماً ولكن لا سبيل إلى الوصال

وقوله :

يفنى الكلام ولا يحيط بفضلكم أحيى ما يفنى بما لا ينفد

٣ - التقرير :

وهو حمل المخاطب على الإقرار بأمر يعرفه كقولى لطلابى :

أستم طلاباً جامعيين ؟ وألم أشرح لكم هذا الدرس من قبل .

وكقول الله تعالى : « ألم نريك فينا وإيداً ؟ » وقوله تعالى : « ألم نشرح لك صدرك » .
وقوله تعالى : « ألم يجدك يتيماً فأوى » . وقوله تعالى « أليس الله بكاف عبده » . وكقول
جرير :

أستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

وقد جعل القزوينى الاستفهام فى بيت جرير وفى قول الله تعالى « أليس الله بكاف عبده »
للإنكار قال :

« ومن مجئ الهمزة للإنكار قوله تعالى : « أليس الله بكاف عبده ؟ » وقول جرير : أستم خير من ركب المطايا ؟ أى الله كاف عبده ، وأنتم خير من ركب المطايا ، لأن نفي النفى إثبات ، وهذا مراد من قال : إن الهمزة فيه للتقرير ، أى للتقرير بما دخله النفى لا للتقرير بالانتفاء » (١) .

وترد عليه بأمرين :

أحدهما : أن النصين بعد إخضاعهما للقاعدة النحوية القائلة « إن نفي النفى إثبات » قد صارا من قبيل الخبر لا من قبيل الإنشاء ، ويكون كل منهما فى شكله الذى وصل إلينا به إنشائياً لفظاً خبرياً معنى .

والآخر : أن الذوق البلاغى يأبى ما ارتأه القزوينى ، فكيف يكون منكراً أن الله كاف عبده ، وأن الممدوح خير من ركب المطايا !!؟

ولقد كان من قال : إن الهمزة للتقرير على صواب ، فالتقرير كما قال القزوينى نفسه تقرير بما دخل عليه النفى وهو الله كاف عبده ، وأنتم خير من ركب المطايا .

وأست أدرى لماذا خالفه القزوينى وقال : إن الاستفهام للإنكار ، ولا يشفع له أنه عقب على نفسه بأن التقرير هو المراد ، وإذا كان هو المراد ، فلم لم يقله من أول الأمر ، ويربأ بنفسه عن مواطن الزلل !!؟

لكن القزوينى يلوى ذراع الآية ، ويلوى ذراع البيت بقوله : « ومن مجئ الهمزة للإنكار قوله تعالى وقول جرير ... » ولا عجب فهو القزوينى صاحب الإيضاح ، ويظهر أنه إيضاح بإيهام المعنى لا بكشفه وبإبخال طالب البلاغة فى المتاهات .

* * *

ولم يحلق الشيخ الصعدي كعادته وهو يعلق على عبارة القزوينى « وهذا هو مراد من قال : إن الهمزة فيه للتقرير أى للتقرير بما دخله النفى لا للتقرير بالانتفاء » .

قال الشيخ عبد المتعال مبرراً ذلك « لأن التقرير فى مثل هذا لا يجب أن يكون بالحكم الذى أدخلت الهمزة عليه ، وإنما يكون بما يعرفه المخاطب فيه من إثبات أو نفي كقوله تعالى : « أنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله » .

(١) بغية الإيضاح ج ٢ ص ٦٨ - ٦٩ .

فأولا ليست آية « أنت قلت للناس ... » كآية « أليس الله بكاف عبده » فهمزة الاستفهام في الأولى غير مقرونة بنفى ، وفي الثانية مقرونة بنفى ، والتنظير بينهما لهذا غير مسلم به لأنه في ذاته غير سليم .

وثانياً : أدار الشيخ ظهره للنصين الأصل ، وذهب فجلب نصاً ثالثاً مختلفاً .

وثالثاً : أحال في الكلام - أى كلام - على علم المخاطب وعلى معرفته السابقة بحقيقة الموضوع من إثبات أو نفي ، وهو بهذا قد أعفى المتكلم من عناء مطابقة كلامه لمقتضى الحال ، ليقول ما يقول على أية صورة وبأى شكل وليطمئن ، فعلى المتلقى أن يصحح الخطأ وأن يعدل المعوج ، وليس هذا صواباً ؛ لأننا إذا كنا سنحيل في التواصل الفكرى والوجدانى والعقائدى على علم المخاطب وعلى معرفته السابقة بحقيقة الموضوع من إثبات أو نفي ، فلم البلاغة إذاً بل لم الكلام أصلاً ، وأكد أقول : لم المتكلم نفسه ؟

ع - التمنى :

كقول الله تعالى : « فهل لنا من شفاء فيشفعوا لنا ؟ » ، وكقول أبي العتاهية مخاطباً الأمين :

تذكر أمين الله حقى وحرمتى وما كنت تولينى لعلك تذكر
فمن لى بالعين التى كنت مرة إلى بها فى سالف الدهر تنظر
وقول الآخر :

هل بالطول لسائل رد أم هل لها يتكلم عهد

وقول الآخر :

يا طيور السماء هل من سبيل تصل النفس بالليالى السعيدة
ه - التهويل :

كقول المتنبي :

من للمحافل والجحافل والسرى فقدت بفقدك نيراً لا يطلع
ومن اتخذت على الضيوف خليفة ضاعوا ومثلك لا يكاد يضيع

وقول أبي فراس :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا أيوم كريمة وسداد ثغر

وقول ابن هاني :

من فيكم الملك المطاع كأنه تحت السوايق تبع في حمير

وقول الشاعر :

إذا القوم قالوا : من فتى؟ خلعت أننى دعيت فلم أكسل ولم أتبلد

٦ - التهويل :

كقولنا لمن برئ من تهمة القتل العمد : لقد أنقذت من المقصلة ، وما أدراك ما المقصلة ؟
ولن أنقذ من الغرق في البحر : لقد نجاك الله من البحر وما أدراك ما البحر ؟ وكقول الله
تعالى : « الحاقة ما الحاقة ، وما أدراك ما الحاقة ؟ » .

وقد جعل البلاغيون منه قوله تعالى : « ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين. مَنْ
فرعون » بفتح ميم (مَنْ) على أنها اسم استفهام خبر مقدم و (فرعون) بالرفع مبتدأ
مؤخر ، وهي قراءة ابن عباس .

يقول القزويني : « ولما وصف الله العذاب بأنه مهين لشدة وفضاعة شأنه أراد أن يصور
كنهه فقال : « مَنْ فرعون » أى أتعرفون من هو فى فرط عتوه وتجبره؟ ما ظنكم بعذاب يكون
هو المعذب به ؟ ثم عرف حاله بقوله : « إنه كان عالياً من المسرفين » (١) .

والتهويل أخو التعظيم ، وإذا كان بينهما فرق فهو فرق دقيق فحواء أن التعظيم يأتى مع
الأمر المرغوب فيه ، أما التهويل فيأتى مع الأمر المخوف منه .

٧ - الاستبطاء :

كقولك لمن ناديته لكنه أبطأ فى الإقبال عليك : كم دعوتك ، وكقولنا : متى يعود السلام
إلى لبنان ، وأيان تقوم دولة فلسطين ، ومنه قوله تعالى : « حتى يقول الرسول والذين آمنوا
معه : متى نصر الله » وقول المتنبي :

حتام نحن نسارى النجم في الظلم وما سراه على خف ولا قدم

٨ - الاستبصار :

حسياً كان كقول شوقي وهو في منفاه بالأندلس :

أين شرق الأرض من أندلس

(١) بغية الإيضاح ج ٢ ص ٦٨ - ٦٩ .

أو معنوياً كقولك لأستاذك : أين علمى من علمك.
ومن الاستبعاد مطلقاً قول الله تعالى : « أتئى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين * ثم
تولوا عنه وقالوا معلم مجنون » وقول أبى تمام :

من لى برئسان إذا أغضبتة وجهلت كان الحلم رد جوابه

وقول المتنبي :

وما قتل الأحرار كالعفو عنهم ومن لك بالحر الذى يحفظ اليدا

والصلة بين الاستبطاء والاستبعاد كالصلة بين التعظيم والتهويل أى قرينة ، كل ما بينهما
من فرق أن الاستبطاء يتوقع المستبطى ما يتعلق به أما الاستبعاد فلا يتوقع المستبعد ما
يتعلق به .

٩ - التثويق :

كقولى لطلابى : أأحكى لكم طرفة لطيفة تنسيكم عناء الدرس وتجدد نشاطكم ، وكقول
الله تعالى : « يا أيها الذين امنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم » وقوله تعالى
على لسان إبليس « يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى » .

١٠ - التنبية على الضلال :

تقول للإخوة المتحاربين « أين يذهب بكم ، لا تعنفوا قبل أن تعرفوا إلى أين تساقون » ،
ويقول الله تعالى : « فأين تذهبون » .

١١ - الوكيد :

كقولك لمن يسئ إليك : ألم أؤدب فلانا . إذا كان عالماً بذلك ، فعلمه بتأديك غيره سيجعله
يفهم عبارتك على أنها تهديد ووعيد ، وعليه قوله تعالى « ألم نهلك الأولين » وقوله تعالى :
« ألم تر كيف فعل ربك بعاد » .

١٢ - التحقير :

كقولك : ما هذا ؟ تحقيراً للشئ المشار إليه مادياً كان هذا الشئ أو معنوياً ، ومن هذا ؟
لشخص تعرفه ، تحقيراً له واستخفافاً به ، وكقول الله تعالى على لسان الكفار « أهذا الذى
بعث الله رسولاً » وقول المتنبي :

من أية الطرق يأتى مثلك الكرم أين المحاجم يا كافور والجلم

وقول الآخر :

فدع الوعيد فما الوعيد بضائرى أطنين أجنحة الذباب يضير

١٣ - التهكم :

وهو عدم المبالاة بالتهكم منه ، ويستوى أن يكون المتهم منه جديراً بالمبالاة أو غير جدير بها .

فمن الأول قوله تعالى حكاية عن الكافرين بشعيب من قومه : « قالوا أصلانك تأمرك أن تترك ما يعبد آبائنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء » .

كان شعيب كثير الصلاة ، وكان الكافرون به إذا رأوه يصلون تضاحكوا عليه وسخروا منه ومن صلواته فقصوا بسؤالهم مخرقته هو وصلاته .

ومنه أيضاً قوله تعالى : « أهذا الذي يذكر آلهتكم » .

ومن الثاني قول إبراهيم عليه السلام : « ألا تأكلون . مالكم لا تنطقون » .

وقول المتنبي متهماً بالدمستق :

أهى كل يوم ذا الدمستق مقدم قفاه على الإقدام للوجه لائم

ويفرق الشيخ عبد المتعال الصعيدي بين التحقير والتهكم بأن التهكم قد يكون بمن هو عظيم في نفسه بخلاف التحقير (١) .

وأمثلة التحقير تنقض رأيه ، إذ ماذا يعمل في قول الله تعالى على لسان الكفار تحقيراً لحمد ﷺ : « أهذا الذي بعث الله رسولاً » .

فالأولى أن نقول : إن الفرق بين التحقير والتهكم يأتي من قبل المتكلم ، فهو في التحقير يعبر عما يراه ويعتقده ، أما في التهكم فإنه يعوم على سطح الكلام ويتهم بما لا يعتقد أكثر مما يتهم بما يعتقد .

في أساس البلاغة : تهكم عليه من شدة الغضب ، وتهكم علينا : تعدى . وتهكم به : تهزأ به ، وقال ذلك على سبيل التهكم ، قال حسان رضى الله عنه :

بنى أم البنين ألم يركم وأنتم من ذوائب أهل نجد

تهكم عامر بأبى براء ليحقره وما خطأ كعمد

وعن الأصمعي أنه قال في قول زهير : « فتغلل لكم » هذا منه تهكم (٢) .

(١) بغية الوعاة ج ٢ ص ٧١ هامش / ٤ .

(٢) أساس البلاغة ص ٤٨٦ ، والبيت بتمامه هو :

فتغلل لكم ما لا تغل لأهلها قرى بالعراق من قفيز ودرهم

ويمكن القول استناداً إلى البيت الثانى من بيتى حسان بأن التهكم وسيلة والتحقير
غاية ، والله أعلم .

١٤ - التسوية :

مصرحاً بها كقول الله تعالى : « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم
لا يؤمنون » ، وغير مصرح بها كقوله تعالى : « وإن أدرى أقرب أم بعيد ما توعدون » وكقول
المتنبى :

ولست أبالى بعد إدراكى العلا أكان تراثاً ما تناولت أم كسبا
١٥ - الأهر :

كقول الله تعالى : « فهل أنتم مسلمون » أى أسلموا ، وقوله تعالى : « فهل أنتم
ممتنون » أى انتهوا .

ومن خروج الاستفهام إلى الأمر قولك لزميلك : أرأيت ؟ بمعنى أخبرنى ، وقد جاء هذا
الأسلوب كثيراً فى القرآن الكريم قال تعالى : « أفرأيت الذى تولى * وأعطى قليلاً وأكدى »
أى أخبرنى عن هذا الذى تولى وأعطى قليلاً ثم منع . وقال تعالى « أفرأيتم اللات والعزى *
ومناة الثالثة الأخرى » أى أخبرونى عن هذه الأصنام .

١٦ - النهى :

كقوله تعالى : « أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه » أى لا تخشوهم فالله أحق أن تخشوه ،
وكقول الشاعر :

أتخالنى أرضى الهوان فحاذر واسلم بنفسك من أبى قادر

إذ معناه : لا تخلى أرضى الهوان فحاذر .

١٧ - الإنكار :

وذلك أنه إذا وجد الإنسان نفسه أمام أمر لا يرضى عنه فإنه والحالة هذه يورد كلامه
على سبيل الإنكار لهذا الأمر كقولى لأحد الإخوة : أتصلى منفرداً والجماعة قائمة ، ولأحد
طلابى : أنتكلم وأنا أشرح .

والإنكار إما للتوبيخ ، وإما للتكذيب ، والتوبيخ إما أن يكون على أمر حصل فى الماضى

كقولك لا بينك أو لأخيك أو لصديقك : أخطبت دون علمي ، أي ما كان ينبغي أن يحصل ذلك ،
وإما أن يكون على أمر حاصل الآن أو يخشى حصوله في المستقبل كقولك لزميلك : أتأطرو
في رمضان ، وذلك إذا كان فاطراً فعلاً أو ناوياً أن يفطر ، وقولك للرجل يضيع حقوق
الإخوان : أتتسى قديم إحسان فلان ، والرجل يركب الخطر : أتخرج في هذا الوقت ، أو
أتذهب في غير طريق ، قاصداً توبيخه كي يراجع نفسه فيخجل ويرتدع عن فعل ما هم به .
والتكذيب كالتوبيخ في توزعه على الأزمنة .

فهو إما أن يكون لأمر ادعى حصوله في الماضي بمعنى لم يكن كقوله تعالى :
« أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً » .
وقوله تعالى : « أصطفى البنات على البنين » .

فالإنكار في الآيتين الكريمتين معناه التكذيب لما ادعى المخاطبون أنه حصل فعلاً ، أي لم
يكن مازعتموه ، وإما أن يكون لأمر كائن الآن أو سيكون في المستقبل كقوله تعالى على
لسان نوح لقومه « يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت
عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون » أي لا يكون ذلك الآن ولا في المستقبل .

والأصل في الإنكار – توبيخاً كان أم تكذيباً – أن يتوجه إلى الإسناد أي إلى مضمون
الجملة ، لكنه قد يخصص بأن يوجه إلى المسند إليه أو إلى المسند أو إلى متعلق من متعلقات
المسند .

فمن الأولى قوله تعالى : « أهم يقسمون رحمة ربك » وقوله تعالى : « أفأنت تكره الناس
حتى يكونوا مؤمنين » وقوله تعالى « أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمى » ومن الثاني قول
إبراهيم لأبيه : « أتخذ أصناماً آلهة » وقوله لقومه « أتعبون ما تحتون » وقول امرئ
القيس :

أبقتلني والمشرقي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال
وقول عمارة بن عقيل في خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني :

أتوك إن قلت دراهم خالد زيارته إنسى إذا للنيم

ومن الثالث قوله الله تعالى : « أغير الله تدعون » ، « أغير الله أتخذ ولياً » ، « أبشراً منا
واحداً تتبعه » ، « أنفكاً آلهة دون الله تريدون » .

وإذا تخصص الإنكار فلا بد أن يلي المنكر الهزمة كما لا بد أن يليها المقر به في التقرير .

* * *

وقبل أن نغادر الأغراض البلاغية للاستفهام ننبه إلى أنها غير متناهية بل متجددة وليس الاستفهام في هذا وحده ، بل معه الأغراض البلاغية للأساليب الإنشائية الأخرى . هذه واحدة .

والأخرى : أن المثال الواحد قد يؤدي غرضين أو ثلاثة أو أكثر برجحان غرض على غرض أو بغير رجحان ، يقول السكاكي : « أي رجل هو . للتعجب ، وكم أحلم ، للتهديد ، وكيف تؤذي أباك ، للإنكار والتعجب والتوبيخ » (١) .

وصح عنده أن يكون قول الله تعالى : « كيف تكفرون » تعجباً وتعجبياً وإنكاراً وتوبيخاً (٢) .

وقد اختصر القزويني أربعة الأغراض السابقة في غرضين اثنين قال : ومنها – ومن الأغراض البلاغية للاستفهام – التوبيخ والتعجب جميعاً كقوله تعالى : « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون » أي كيف تكفرون والحال أنكم عالمون بهذه القصة .

أما التوبيخ فلأن الكفر مع هذه الحال ينبيء عن الانهماك في الغفلة أو الجهل .

وأما التعجب فلأن هذه الحال تأتي ألا يكون للعاقل علم بالصانع وعلمه به يأبى أن يكفر ، وصدور الفعل مع الصارف القوي مظنة تعجب ، ونظيره قوله تعالى : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب » (٣) .

٤ - التمني

عرفه سعد الدين التفتازاني بأنه طلب حصول شيء على سبيل المحبة (٤) وهو تعريف غير مانع ، وعرفه ابن يعقوب المغربي بأنه طلب حصول الشيء بشرط المحبة ونفي الطماعية في ذلك الشيء (٥) وهو تعريف غير جامع وغير مانع .

(١) المفتاح ص ١٥١ .

(٢) المفتاح ص ١٥١ .

(٣) بغية الإيضاح ج ٢ ص ٧٢ .

(٤) مختصره على تلخيص المفتاح ج ٢ ص ٢٣٩ .

(٥) مواهب المفتاح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي على هامش مختصر سعد الدين التفتازاني ج ٢ ص ٢٣٩ .

وأحسن من هذين التعريفين تعريف صاحبى البلاغة الواضحة قالاً : « التمنى هو طلب أمر محبوب لا يتوقع حصوله » (١).

والسبب فى أنه لا يتوقع حصوله أحد أمرين هما :

(أ) أنه بطبيعته مستحيل التحقق .

(ب) أنه برغم إمكان تحققه بعيد الوقوع وغير مطموع فى نيله ، فالأول وهو المستحيل كقول المعاج : يا ليت أيام الصبا رواجماً (٢) .

وقول ابن الرومى فى رمضان :

فليت الليل فيه كان شهراً ومرُّ نهاره مرُّ السحاب

وقول المتنبى :

ليت الحوادث باعتنى الذى أخذت منى بطلمى الذى أعطت وتجريبى

وقول الشاعر :

ليت الكواكب تدنو لى فأنظمها عقود مدح فما أرضى لكم كلى

وقول الآخر :

ألا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيب

والثانى وهو الممكن الذى لا يرجى حصوله كقول الله تعالى : « يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون » وقوله تعالى : « يا ليت بينى وبينك بعد المشرقين » ، وقول مالك بن الريب متشوقاً إلى وطنه وهو فى مرض موته :

فيا صاحبى رحلى دنا الموت فاحفرا
ورداً على عينى فضلل ردائيا
بجنب الغضا أزجى القلاص النواجيا
وليت الغضالم يقطع الركب عرضه

(١) البلاغة الواضحة ص ٢٠٧ .

(٢) رواجماً بالنصب على مذهب الكوفيين . والبصريون على أن خبرها محذوف تقديره أقبلن رواجماً ، وانظر بغية الإيضاح ج ٢ ص ٥٤ هامش رقم (١) .

والأداة التي وضعها العرب للتمنى هي (ليت) وهذا يعنى أن التمنى بها هو التمنى الحقيقى كالأمثلة السابقة .

التمنى البلاغى

لكن التمنى يأتى بلاغياً بأدوات أخرى غير ليت ، وهذه الأدوات هي : هل - لعل - لو - هلا - ألا - لولا - لوما .

مثال هل ولعل معاً قول الشاعر :

أسرب القطا هل من يعير جناحه لعلى إلى من قد هويت أطيير

ومثال هل وحدها قول الله تعالى : « فهل إلى خروج من سبيل » وقوله تعالى : « فهل لنا من شفاء فيشفعوا لنا » وقول ابن الدمينه :

هل ترجعن نوى للحي جامعة فيهم أميمة قد فاءت قواصيها

وقول الآخر :

أيا منزلى سلمى سلام عليكما هل الأزمن اللأى مضين رواجع

ومثال لعل وحدها قول الله تعالى على لسان فرعون : « يا هامان ابن لى صرحاً لعلى أبلغ الأسباب » وقول الشاعر :

عل الليالى التى أضنت بفرقتنا جسمى ستجمعنى يوماً وتجمعه

والمعنى البلاغى المستفاد من التمنى بكل من (هل) و (لعل) إنما هو إبراز التمنى - وهو مستحيل أو ممكن بعيد - فى صورة الممكن القريب الوقوع إظهاراً من المتكلم لحرصه عليه وشغفه به ، لكأنه فى زحمة حبه له ورغبته فيه قد نسى أنه مستحيل أو فى حكم المستحيل .

تتمنى الشفاء لمن يحتضر أمامك بقولك : هل يشفى أو لعله يشفى ، طمعاً منك فى شفاؤه ، لأنك تحبه ولا تطيق موته .

أما (لو) فإن سر التمنى بها مضاد لسر التمنى بـ (هل) و (لعل) .

إن (هل) و (لعل) تقربان التمنى ، أما (لو) فتبعده ربما أكثر مما تبعده (ليت) حقيقة أو ادعاء ، وفي التمنى بها الإشعار بعزة التمنى وندرته ، والتأكيد على استحالة أو

صعوبته ، لأنها بأصل وضعها تدل على امتناع الجواب لامتناع الشرط وهو امتناع مطبق لدورانه في حلقة مغلقة .

نحن مع (لو) أمام أمر لا نقول :

(لا يتحقق) كما نقول مع (ليت) بل نقول (لن يتحقق) .

قال تعالى: « فمألنا من شافعين . ولا صديق حميم . فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين » .
وقال تعالى : « إذ تبرا الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤوا منا » وقوله تعالى : « أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين » .

لا نقول إن مطلوبهم مستحيل ونسكت ، فهذا شيء بدهى و (لو) تدل عليه بوضعها اللغوي ، أما إيقاظها ومدلولها البلاغي فهو اليأس الموبق ، إنهم في أشد العذاب ولا عجب ؛ فقد اجتمع عليهم ألم الجسم بالعذاب الذي أمامهم ، وألم النفس باليأس الذي زلزلهم ، والنجاة مستحيلة هنا أكثر من استحالتها مع (ليت) فالبعد بليت بعد واحد وهو خارج أقطار المتمنى ؛ أما البعد بلو فيعدان : بعد خارجي كالسابق وبعد داخلي لاذع ومؤلم .

قال الشاعر :

ولى الشباب حميدة أيامه لو كان ذلك يشتري أو يرجع

فلم يترك وسيلة من وسائل عودة الشباب إلا طرقها دون جدوى .

وقال مسلم :

واهاً لأيام الصبا وزمانه لو كان أسعف بالمقام قليلاً

وهو لم يقل ذلك إلا بعد أن تفلتت أيام الصبا منه وغادرته إلى غير رجعة ، ولهذا قال لو كان أسعف - بالماضي - إنه كمن وجد نفسه مودعاً ولا أقلعت الطائفة بمن ودعه تنهد قائلاً: أه لو عدل عن سفره .

* * *

بقيت الحروف الأربعة المركبة وهي : هلاً - ألا - لولا - لوما وأصلها (هل) ، (لو) .

ألحقنا (لا) بـ (هل) فصارت (هلاً) وإذا قلبنا الهاء همزة صارت (ألا) أما (لو) فإذا ألحقنا بها (لا) صارت (لولا) ، وإذا ألحقنا بها (ما) صارت (لوما) ، وإنما كانت

من أدوات التمني البلاغى ، لأنه يتولد منها مع الفعل الماضى التنديم ومع الفعل المضارع الحث والحض .

تقول فى التنديم :

هلا أكرمت ضيفك ؛ ألا نهضت من نومك مبكراً

لولا أجبت إجابة صحيحة ، لوما سكت

وتقول فى الحث والحض :

هلاً تجتهد ، ألا تشترك معنا فى رحلتنا

لوما تحضر حفلنا ، لولا تزرونا

ه - الترجى

الترجى هو طلب أمر محبوب يتوقع حصوله ، لأنه ممكن قريب لا بعيد .

والترجى - كالتمنى - نوعان : حقيقى وبلاغى :

والترجى الحقيقى أداتان هما (لعل) و (عسى) .

تقول فى الترجى بـ (لعل) : لعلى أنجح ، ومن أمثله قول الله تعالى : « لعل الله يحدث

بعد ذلك أمراً » وقول الشاعر :

لعل خيال العامرية زائر فيسعد مهجور ويسعد هاجر

وتقول فى الترجى بـ (عسى) : عسى أن أنجح ، ومن أمثله قول الله تعالى : « عسى

ربنا أن يبدلنا خيراً منها » . وقوله تعالى : « عسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده » .

وقول الشاعر :

عسى فرج يأتي به الله إنه لك كل يوم فى خالقتك أمر

الترجى البلاغى

ويكون الترجى بلاغياً إذا استعملنا فيه الأداة الأصلية للتمنى (ليت) . يقول الطالب

الذى لم يجب إجابة تتجج : ليتنى أنجح ، ويقول المتنبى :

إن كان يجمعنا حب لطلعتك فليت أنا بقدر الحب نقتسم

وسر الترجى بـ (ليت) إظهار للممكن للتقريب فى سورة المعن الجيد أو فى صورة

المستحيل تعبيراً عن ضعف الأمل فيه ، ودلالة على اليأس منه .

٦ - النداء

النداء هو طلب الإقبال حقيقة ، مثل يا بنى ويا صديقى ، أو حكماً مثل « يا جبال أوبى معه » .

يا ناق سيرى عنقا. فسيحا إلى سليمان فنستريحا

وطلب الإقبال بشقيه يتم بحرف من حروف النداء نائب عن فعل هو (أدعو) أو (أنادى) أو (أطلب) ونحوها .

وحروف النداء قسمان :

(أ) قسم ينادى به القريب وهو (الهمزة) و (أى) مثل : أبنى إنى حريص على مصلحتك .

أبنى إن أباك كارب يومه فإذا دعيت إلى المكارم فاعجل
أى زوجتى تفضلى بأخذ هديتك .

أى صديقى إنى قصدتك لما لم أجد فى الحياة غيرك شهما
(ب) وقسم ينادى به البعيد وهو (يا) (أيا) (هيا) (آ) (آى) (وا) .

وأمثله على التوالى هى :

يا سارى البرق غاد القصر واسق به من كان صرف الهوى والنود يسقينا
أيا أحبائى فى أمريكا كيف أنتم .

هيا غائباً عنى وفى القلب عرشه أما أن أن يحظى بوجهك ناظرى
أ فيصل العزيز اكتب لى .

أى أحبائى فى مصر راسلوتى .

وا طلابى فى قسنطينة إنى مشوق إليكم .

ما مضى كان النداء الحقيقى ، ومداره نداء القريب بالهمزة وأى ونداء البعيد بالأنوات الأخرى .

أما النداء البلاغى فله صورتان :

(١) الصورة الأولى :

وهى تتحقق إذا نادينا القريب بأداة البعيد أو العكس ، فهذا التبادل بلاغى وهو لا يتم إلا لدقائق لطيفة .

ومن الدقائق اللطيفة لمناداة القريب بأداة البعيد الدلالة على علو شأن المنادى أو على انحطاطه ، أو على غفلته .

فمن مناداة القريب بأداة البعيد للدلالة على علو شأنه قول أبى نواس :

يا رب إن عظمت ذنوبى كثرة فلقد علمت بأن عفوك أعظم
وقول الشاعر :

يا من يرجى للشدائد كلها يا من إليه المشتكى والمفزع
ومن مناداة القريب بأداة البعيد للدلالة على انحطاطه قول الفرزدق لجريز :

أولئك أبائى فجئنى بمثلهم إذ جمعتنا يا جرير الجامع
وقول الشاعر :

أيا هذا أتطمع فى المعالى وما يحظى بها إلا الرجال
ومن مناداة القريب بأداة البعيد للدلالة على غفلته قول أبى العتاهية :

أيا من عاش فى الدنيا غريباً وأمضى العمر فى قيل وقال
وقول الآخر :

أيا من يؤمل طول الحياة وطول الحياة عليه خطر

* * *

أما مناداة البعيد بأداة القريب فلما فيه من الدلالة على أن ذلك البعيد شاخص أمامنا وحاضر فى قلوبنا على حد قول الشاعر :

إن كنت لست معى فالذكر منك معى يراك قلبى وإن غيبت عنى
وعلى حد قولى فى رسالة لى كتبتها بالرياض ساعة وصولى إليها من القاهرة : أرى زوجتى وأبنائى ، عجيباً لى ، إننى حين أغيب عنكم أحس بألف حبة نور لكم فى داخلى ، وقد

رأيت - لهذا - أن ألقى من قاموسى كلمتى الوداع والاستقبال وإن تعددت الرحلات وطالت المسافات زماناً ومكاناً .

ومن مناداة البعيد بأداة القريب هذه الأبيات :

أعلى إن تك بالعراق نسيتهنى فأنا بمصر على هواك مقيم

* * * .

أسكان نعمان الأراك تيقننورا بأنكم فى ربع قلبى سكان

* * *

أى بلادى فى القلب مثواك مهما طال منفاى عن ثراك الحبيب

* * *

تلك كانت الصورة الأولى من صور النداء البلاغى ، وهى وإن كانت صورة بلاغية إلا أن فيها من النداء الحقيقى معنى الإقبال ، والفرق بينها وبين النداء الحقيقى أن أدوات النداء مستعملة فى النداء الحقيقى استعمالاً عادياً أصلياً ، أى طبق معانيها الأصلية ودلالاتها اللغوية.

أما هنا فهى مستعملة استعمالاً غير عادى وغير أصلى بل عكسى :

ما للقريب ننادى به البعيد ، وما للبعيد ننادى به القريب ، ولولا هذا العكس فى استعمال الأدوات بدقائقه اللطيفة ما كان النداء بلاغياً بل حقيقياً .

الصورة الثانية للنداء البلاغى :

وفيهما يخرج أسلوب النداء عن معنى الإقبال كلية ، وينسى القريب والبعيد جملة ، النداء هنا صورة مفرغة من معناها الحقيقى ومن مضمونها الأصلى ، ثم هى تختلف عن الصورة البلاغية الأولى ، فالصورة البلاغية الأولى فيها روح النداء ونكهته ولها هويته ، أما هذه الصورة فلها أغراض جديدة مخالفة لطلب الإقبال ، ومن هذه الأغراض :

١ - التحسس : كقول ابن الرومى :

يا أبا القاسم الذى كنت أرجو لدهرى قطعت متن الرجاء

وقوله :

يا شبابى وأين منى شبابى أذنتنى حباله بانقضاب

وقول الآخر :

فيا قبر معن كيف وأريت جوده وقد كان منه البير والبحر مفرحا
٢ - الإغراء :

كقول المتنبي لسيف الدولة :

يا أعدل الناس إلا فى معاملتى فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
وقول الشاعر :

يا بلادى اليوم فاستقبلى النو ر وعيشى طليقة يا بلادى
٣ - الزجر :

كقول الشاعر :

يا قلب ويحك ما سمعت لناصح لما ارتميت ولا اتقيت ملاما
وقول الآخر :

يا قلب حسبك ما قد ذقت من حرق يا قلب حسبك ما قد نلت من تعيب
٤ - التحجب :

كقولنا : يا لجمال الطبيعة ، ويا لطيبة الرجل ويا لعظمة سلوكه .

وكقول طرفة :

يا لك من قنبرة بمعمر خلاك الجو فيبضى واصفرى
وقول الشاعر :

أيا شجر الخابور مالك مورقا كاذك لم تجزع على ابن طريف
٥ - النجابة :

كقول الزوجة فى تشييع زوجها أولدها (وازوجى) ، (واولدى) .

٦ - الاستخائنة :

تقول : يا لأهل الحى ، لمن التهمت النار بيوتهم وشردت أطفالهم ونساءهم ، وتقول :
للمظلومين . ويقول الشاعر :

يا لقومى ويا لأمثال قومى لأناس عتوهم فى ازدياد

٧ - الإختصاص :

والمراد هنا تخصيص حكم منصب على تسمير سابق باسم ظاهر لاحق ، سورة : - زينة المنادي ، وليس مفادى حقيقة مثل : على أيها الشجاع يتوقف النصر ، نحن الأساتذة نصب الطلبة ، نحن أعضاء هيئة التدريس نرعى مصالح أبنائنا ، منا : فيصلاً وعلاوكارماً ومحمداً وناصرأ يتكون بيت الملائكة . فليس الغرض من النداء الملحوظ فى الأمثلة السابقة طلب الإقبال ، لأن المراد بالاسم الظاهر فيها ليس المخاطب - فلا يوجد مخاطب - وإنما المراد به المتكلم نفسه ، والمرء لا يطلب إقبال نفسه ، ولهذا حملت صورة النداء على معنى الاختصاص ، وامتنع إظهار حروف النداء معها ، فقد تمحض الكلام للاختصاص كلية ، وانفصل عن النداء جملة (١) .

تفسير

وقبل أن نغادر الإسناد الإنشائى ننبه إلى أنه قد يتبادل الموقف مع الإسناد الخبرى كما أن الإسناد الخبرى قد يتبادل الموقف معه ، أريد أن أقول : إن الإسناد الخبرى قد يكون معناه إنشائياً والعكس صحيح ، لكن ذلك - إن تم - يتم تحت ضوابط معينة وبقرائن خاصة ولأغراض محددة ، وتكون الجملة خبرية لفظاً وهى إنشائية معنى ، أو خبرية معنى وهى إنشائية لفظاً ، وقد جعل السكاكى ذلك إجراءً للإنشاء لا على مقتضى الظاهر ؛ مساوياً فى ذلك بينه وبين الخبر .

فكما خرج الخبر على خلاف مقتضى ظاهر الحال ، ها هو ذا الإنشاء يخرج على خلاف مقتضى ظاهر الحال ، ولندعه هو يتكلم قال : « وأعلم أن الطلب كثيراً ما يخرج لا على مقتضى الظاهر ، وكذلك الخبر ، فيذكر أحدهما في موضع الآخر ، ولا يصار إلى ذلك إلا لتوخى نكت قلما يتقطن لها من لا يرجع إلى دربة في نوعنا هذا » (٢) .

فمن النكت التى يؤديها الإنشاء الواقع موقع الخبر :

١ - العناية بالشئ :

كقول الله تعالى : « قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد » لم يقل سبحانه وتعالى : أمر ربي بالقسط وإقامة وجوهكم عند كل مسجد ، إظهاراً لعناية الله بالصلاة .

(١) انظر المنهاج الواضح ص ١١٩ .

(٢) مفتاح العلوم ص ١٥٤ .

٢ - الإحتراز عن مساواة المتأخر للمتقدم :

كقول الله تعالى : « قال إني أشهد الله وأشهدوا أنى برئ مما تشركون من دونه » ، لم يقل سبحانه وتعالى « وأشهدكم » تحاشياً من مساواة شهادتهم بشهادة الله سبحانه وتعالى .

٣ - الرضا بالواقع حتى لكأنه مطلوب للمتكلم :

كقول الرسول ﷺ : « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » ، لم يقل (تبوأ) أو (فقد تبوأ) ، إشعاراً بأنه ﷺ راض بأن يتبوأ الكاذب عليه مقعده من النار حتى لكأنه يطلب له ذلك من الله ، بل يأمر بأن يصلاه (١) .

ومن النكت التي يؤيد بها الخبر الواقع موقع الإنشاء :

١ - التفاؤل للمخاطب بحصول الشيء :

كقولى لولدى : نجحك الله يا بنى ، بدلاً من : اللهم نجحك يا بنى .
يقول السكاكى : « ليتفاعل بلفظ الماضى » والأمر كما قال ، لكن ابنى قد نجح فعلاً ، وهانذا أخبره بنجاحه .

٢ - إظهار الحرص على حصول الشيء :

مثل أن أختتم رسالتى لولدى بقولى : ردك الله إلينا سالماً غانماً ، وأسعدنا بلقائك دائماً ، يقول السكاكى : « فالطالب متى تبالغ حرصه فيما يطلب ربما انتقشت فى الخيال صورته لكثرة ما ينجى به نفسه فيخيل إليه غير الحاصل حاصلأ » (٢) .

٣ - الإحتراز عن صيغة الأمر تأديباً مع المخاطب واحتراماً له :

كقولك فى حضرة رئيسك : « ينظر سيدى فى ملتسى ويقضى فيه بما يراه » . تخرجاً من (انظر) و (اقض) .

٤ - جمل المخاطب على المطلوب أبلغ جمل باللفظ وجهه :

كما إذا سمعت من لا تحب أن يُنسب إلى الكذب يقول لك : « تاتينى غداً » أو « لا تاتينى »

(١) بنية الإيضاح ج ٢ ص ٨٠ هامش رقم / ٥ .

(٢) المفتاح ص ١٥٥ .

فإنك إن لم تفعل ما تحدث به إليك تكون قد كذبت بحسب الظاهر ، لأنه أجرى كلامه مجازياً
الخبر وأنت لا ترضى له ذلك ، أما بحسب الواقع فلا تكذيب هناك ، لأن الكلام فى المعنى
إنشاء .

هـ - تنبيه المخاطب إلى الإمتثال على وجه السرعة :

كقول الله تعالى : « وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله » فى موضع
« لا تعبدوا » كأنهم نهوا فامتلوا فأخبر عن امتثالهم ، وكقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا
هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله »
فى موضع (آمنوا) و (جاهدوا) (١) .

طرفا الإسناد

للإسناد - خبريا كان أو إنشائياً - طرفان اثنان هما : المسند إليه والمسند .

ولا يخرج المسند إليه عن أن يكون :

- ١ - الفاعل مثل (محمد) فى : نجح محمد .
- ٢ - نائب الفاعل مثل (الضيف) فى أكرم الضيف .
- ٣ - المبتدأ الذى له خبر مثل (الطالب) فى (الطالب ناجح) .
- ٤ - ما أصله المبتدأ : وهو اسم كان وأخواتها مثل (فيصل) فى « كان فيصل
مسافراً » واسم إن وأخواتها مثل « محمداً » فى : « لعل محمداً مسافر » والمفعول الأول
للأفعال التى تنصب مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر مثل « ناصراً » فى : ظننت ناصراً
مسافراً .

٥ - مرفوع المبتدأ المكتفى به عن الخبر مثل (والدك) فى : أمسافر والدك ؟

ولا يخرج المسند عن أن يكون :

- ١ - الفعل التام مثل (تفوق) فى : تفوق محمد .
- ٢ - اسم الفعل مثل (هيهات) بمعنى (بعد) .
- (وى) بمعنى (أتعجب) .
- (بله) بمعنى (دع) .

(١) مفتاح العلوم ص ١٥٥ .

٣ - المبتدأ المكتفى بمرفوعه عن الخبر مثل (مخلص) فى : أمخلص أنت لى ؟

٤ - خبر المبتدأ مثل (ناجح) فى : علاء ناجح .

٥ - ما أصله خبر المبتدأ وهو خبر كان وأخواتها وخبر إن وأخواتها ، والمفعول الثانى للأفعال التى تنصب مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر مثل (ناجحاً) فى : كان محمد ناجحاً ، و (ناجح) فى : إن محمداً ناجح ، و (متزوجاً) فى حسبت إبراهيم متزوجاً .

٦ - المصدر النائب عن فعل الأمر مثل : اجتهاداً وتفوقاً يا طلاب ، وكقول الله تعالى : « وبالوالدين إحسانا » .

وما زاد على المسند إليه والمسند غير المضاف إليه وصلة الموصول فهو فى المصطلح البلاغى قيد .

والقيود التى تعرض للإسناد أو لطرفيه أو لأحدهما هى :

الجار والمجرور ، وأدوات النفى ، وأدوات الشرط: والمفاعيل ، والتوابع ، والحال والتمييز.

أحوال الطرفين

ونقصد بأحوال الطرفين ما يعرض لهما من الذكر والحذف والتقديم والتأخير والتعريف والتنكير والتقييد والإطلاق ، يقول السكاكى عن المسند إليه : « يجب عليك أيها الحريص على ازدياد فضلك أن ترجع إلى فكرك الصائب ، وذهنك الثاقب ؛ ناظراً بنور عقلك وعين بصيرتك فى إيراد المسند إليه على كفيات مختلفة ، وصور متنافية حتى يتأتى بروزه عندك لكل منزلة فى معرضها ، فتعرف أيما حال يقتضى طى ذكره ، وأيما حال يقتضى خلاف ذلك ، وأيما حال يقتضى تعرفه مضمراً أو علماً أو موصولاً أو اسم إشارة أو معرفاً باللام أو بإضافة ، وأيما حال يقتضى تعقيبه بشئ من التوابع الخمسة والفصل (ضمير الفصل) وأيما حال يقتضى تنكيره وأيما حال يقتضى تقديمه على المسند ، وأيما حال يقتضى تأخير عنه ، وأيما حال يقتضى تخصيصه أو إطلاقه حال التنكير ، وأيما حال يقتضى قصره على الخبر»^(١).

ويقول عن المسند : « لا بد من التصفح عن الأحوال المقتضية لأنواع التفاوت فى المسند من كونه متروكاً تارة ، وغير متروك أخرى ؛ ومن كونه مفرداً أو جملة ، وفي إفراده من كونه

(١) المفتاح ص ٨٤ .

نحو قام زيد ويقوم وسيقوم أو اسماً منكرأ أو معرفاً من جملة المعارف مقيداً كل ذلك بنوع قيد نحو ضربت يوم الجمعة ، وزيد رجل عالم ، وعمرو أخوك الطويل ، أو غير مقيد ، وفي كونه جملة من كونها اسمية أو فعلية أو شرطية أو ظرفية ، ومن كونه مقدماً أو مؤخراً ، (١)

والسكاكي هنا وهناك يجعل مدار حسن الكلام وقبحه على انطباقه وتركيبه على مقتضى الحال وعلى لا انطباقه .

وأولاً عجمته التي تبين من (وعلى لا انطباقه) لقال بعبارة فصيحة : إن مدار حسن الكلام وقبحه فيما نحن بصدد من الكلام عن أحوال المسند إليه والمسند إنما هو التوفيق أو عدم التوفيق في إيراد كل منهما بالشكل المعين ، وفي المكان المحدد .

وإذا كان ما سبق من كلام السكاكي وكلامي إجمالاً لأحوال الطرفين في الإسناد ، فإن تفصيله هو :

(١) الذكر

أولاً : ذكر المسند إليه :

يذكر المسند إليه لراحد أو أكثر من الأمور الآتية :

١ - أن يكون المسند هما يرجح إسناده إلى أي مسند إليه لكننا نريد إسناده إلى مسند إليه معين ، أقول : محمد جاء وعلاء ذهب وكارم في العيادة . فالجنى يمكن إسناده إلى علاء وإلى كارم وإلى محمد ، والذهب يمكن إسناده إلى محمد وإلى كارم لكننا لا نريد إسناده إلا إلى علاء ، والتواجد في العيادة يمكن إسناده إلى محمد وإلى علاء لكننا لا نريد إسناده إلا إلى كارم .

وهنا هو معنى قول السكاكي : « وأما الحالة التي تقتضي إثباته فهي أن يكون الخبر عاماً بالنسبة إلى كل مسند إليه ، والمراد تخصيصه بمعين كقولك زيد جاء وعمرو ذهب وخالد في الدار ، وقوله :

الله أتج ما طلبت به والبر خير حقيبة الرجل

(١) الفتح ص ٩٨ .

وقوله :

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع (١)

زيخالف القزويني السكاكي فيما ذكره من ربط ذكر المسند إليه بعموم الخبر وإرادة تخصيصه بمعين ، معولا في ذكره أو عدم ذكره على القرينة فإن وجدت جاز حذفه ولو كان الخبر عاماً وأريد تخصيصه بمعين ؛ وإن لم توجد وجب ذكره بصرف النظر عن أى شئ آخر (٢) .

٢ - يذكر المسند إليه احتياطاً لضعف التحويل على القرينة في إحصائه في ذهن السامع كأن يسألك صديقك الذي طلب منك معرفة رأى والدك في تقدمه لخطبة شقيقتك قائلاً : ما رد والدك ؟ أو ماذا قال والدك ؟ فتتشغل عنه ثم تجيب : قال والدي كذا وكذا وكذا .

وهذا المثال يصح التمثيل به لما قاله السكاكي من أن :

٣ - الأصل في المسند إليه أن يكون مذكوراً : وهو ما عبر عنه القزويني بقوله :

إن الذكر هو الأصل ولا مقتضى الحذف .

كما يصح التمثيل به لما قاله من :

٤ - زيادة الإيضاح والتقرير :

ومن ذكر المسند إليه لزيادة الإيضاح والتقرير قول عمرو بن كلثوم :

ونحن التاركون لما أردنا ونحن الآخذون لما رضينا

٥ - التنبيه على غباوة السامع :

كأن نقول لسامع القرآن : القرآن كلام الله . وكأن يذكر الأستاذ رأياً في مسألة فيسأله طالب : من صاحب هذا الرأي ؟ فيجيب الأستاذ في تواضع : من قاله هو صاحبه : فيقول الطالب : ومن قاله ؟ فيرد الأستاذ : أنا قلته وأنا صاحبه .

٦ - إظهار تعظيمه :

كقولك لمن سألك : هل حضر الدكتور علاء ؟ حضر الدكتور النابه ، وكقولك لمن سألك : هل عاد الزعيم إلى أرض الوطن ؟ عاد السيف إلى جرابه وحل الليث منيع غابه .

وتقول دون سؤال : سمو ولي العهد ونائب جلالة الملك صلى مع المسلمين صلاة الاستسقاء .

(١) المفتاح ص ٨٥ .

(٢) بغية الإيضاح ج ١ ص ٧١ .

٧ - إظهار تحقيره :

كقولك : حضر الثعبان . لمن سألك : هل حضر فلان ؟ وكقولك : مثل المجرم أمام القاضي . لمن سألك : هل مثل المتهم أمام القاضي ؟ وتقول دون سؤال : السارق بين الطلاب . تريد طالباً معيناً .

٨ - إظهار التعجب منه :

مثل : خالد أنجب ، رداً على من سأل : هل أنجب خالد ؟ وذلك إذا كان معلوماً أن الأطباء قد قرروا أن مثل خالد لا ينجب .

٩ - التبرهك بذكره :

كقولك لمن سألك : هل قال الرسول ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات ؟ » الرسول ﷺ قال : « إنما الأعمال بالنيات » .

١٠ - التلذذ بذكره :

أقول لمن سألني : هل كلمك أولادك في أمريكا ؟ أولادى فى أمريكا كلمونى ، فيصل كلمنى . رشا كلمتنى . نهى كلمتنى ، نهلة كلمتنى . نيرة كلمتنى .
وكقول عباس العقاد :

الحب أن نصعد فوق الذرى الحب أن نهبط تحت الثرى
والحب أن نؤثر لذاتنا وأن نرى آلامنا آثرا
وقول الشاعر :

بالله يا ظبيات القاع قلن لنا ليلاى منكن أم ليلى من البشر
١١ - التهويل والتخويل :

تقول : جلالة الملك أمر بمنع التدخين فى المكاتب الحكومية . تهول المخاطب بذكر المسند إليه طلباً لامتناله ورغبة فى استجابته .

١٢ - التسجيل على المسند إليه حتى لا يتنهل مما شُهر به عليه .

يقول القاضى للشاهد . هل أقر هذا بأن عليه لناصر مبلغ كذا ؟

فيجيب الشاهد : نعم محمد هذا أقر بأن عليه لناصر مبلغ كذا .

ذكر الشاهد اسم المسند إليه وهو محمد حتى لا يتيح له فرصة التنصل من شهادته عليه .
كأن يقول للقاضى : لقد فهم الشاهد أنك أشرت إلى جارى لا إلى فهو قد شهد على جارى
لا على .

١٣ - بسط الكلام افتراضاً :

أى انتهازاً للفرصة . وذلك إذا كان إصغاء السامع مطلوباً للمتكلم كقول موسى عليه
السلام : « هى عصاى » وكان يتم الجواب بمجرد أن يقول (عصا) لكنه ذكر المسند إليه
وزاد فقال : « هى عصاى أتوكأ عليها وأمش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى » (١) .

ثانياً : ذكر المسند

يذكر المسند لواحد أو أكثر من الأمور الآتية :

١ - ألا يكون المسند إليه دالاً على المسند ولا موحياً به ، كما إذا قلت ابتداءً : زيد
عالم (٢) .

٢ - كون الذكر هو الأصل ولا مقتضى للعدول عنه كقولك : النايفة أول ناقد عربى
محكم (٣) .

٣ - زيادة التقرير كقول الله تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن
خلقهن العزيز العليم » أعاد سبحانه وتعالى ذكر المسند وهو (خلقهن) لزيادة الإيضاح
والتقرير .

٤ - التعريض بغباوة سامعك كقولك : محمد نبينا ، جواباً لمن سالك : من نبيكم ؟ فقد
ذكرت المسند وهو (نبينا) برغم دلالة السؤال عليه .

(١) مفتاح العلوم ص ٨٥ .

(٢) المفتاح ص ٩٩ .

(٣) المرجع السابق نفسه .

ومن ذكر المسند للتعريض بغيباء السامعين قول الله تعالى : « أأنت فعلت هذا بالكهنتنا يا إبراهيم ؟ قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون » .

ذكر الله سبحانه وتعالى المسند (فعله) على الرغم من دلالة السؤال عليه دمجاً لقوم إبراهيم بالغباء .

٥ - الاحتراز من فهم ما ليس مراداً للمتكلم كقولهم « عقل في السماء وحظ مع الجوزاء » فلو حذفنا « مع الجوزاء » وهو المسند في الجملة الثانية لاحتمل أن يكون الحظ عائثراً كما هو حال الكثيرين من رجال الفكر والأدب فمن المعروف المؤلف أن الأرزاق لا تجرى على الحجا ، وقد ذاع هذا وشاع حتى صار من الحقائق العرفية .

٦ - التلذذ بذكر المسند مثل : هي نهلة . جواباً لمن سأل : هل هذه نهلة ؟ ومثل : هي أم كلثوم . جواباً لمن سأل : هل هذه أم كلثوم ؟

٧ - التعجب من المسند إليه بذكر المسند إذا دلت قرائن الأحوال على ذلك كقولك : خالد يقاوم الأسد .

٨ - تعظيمه أو تحقيره . تقول : أحمد ذرة إخوته وإبراهيم أقلهم قيمة ، فنكون قد عظمت أحمد وجحرت إبراهيم ، تحديداً وتعييناً لا تعميماً وتهويماً .

٩ - بسط الكلام والمقام مقام بسط ، كقولك لمن سالك : من زاركم ؟ زارنا ناهسر وزارنا محمد وزارنا كارم وزارنا علاء وزارنا فيصل . وكقولك لمن سالك . من يدرس لنا البلاغة ؟ يدرس لنا البلاغة الدكتور عبده قلبية .

(١٠) تعيين كون المسند اسماً نحو زيد عالم فيستفاد الثبوت صريحاً أو كونه فعلاً نحو زيد علم فيستفاد التجدد ، أو ظرفاً نحو زيد في الدار فيورث احتمال الثبوت والتجدد بحسب التقديرين وهما حاصل أو حصل^(١) .

ومن ذلك قول الله تعالى : « يخادعون الله وهو خادعهم » فالفعل (يخادعون) يفيد التجدد ، أما الاسم (خادعهم) فيفيد الثبوت .

وقد ختم السكاكي بواعي ذكر المسند بقوله : « ويصلح لشمول هذه الاعتبارات قولك عند

(١) المرجع السابق نفسه .

المخالف : الله إلهنا ومحمد نبيينا وإسلام ديننا والتوحيد والعدل مذهبنا والخلفاء الراشدون
أئمتنا ، والناصر لدين الله خليفتنا ، والدعاء له والثناء عليه وظيفتنا « (١) .

٢ - الحذف

أولاً : حذف المسند إليه :

المسند إليه الذى يمكن حذفه هو المبتدأ فى الجملة الاسمية ، والفاعل فى الجملة الفعلية .

حذف المسند إليه المبتدأ :

نواعى حذف المسند إليه المبتدأ كثيرة منها :

(١) الإحتراز عن العبث :

ونكر المسند إليه يكون عبثاً إذا انكشف للمخاطب بقريظة من القرائن ، وعلى حد قول
السكاكى : « إذا كان السامع مستحضراً له عارفاً منك القصد إليه عند ذكر المسند » ، ولأن
البلاغة ضد العبث فإنها ترجح حذف المسند إليه المبتدأ فى المواطن الآتية :

(أ) إذا وقع فى جواب الاستفهام :

كقول الله تعالى : « وما أدراك ما هية ، نار حامية » فالتقدير هى نار ، وقوله تعالى :
« وما أدراك ما الحطمة ، نار الله الموقدة » فالتقدير : هى نار الله الموقدة ، وقوله تعالى :
« وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ، فى سدر مخضود » أى هم فى سدر مخضود .

(ب) إذا وقع بحرف القول :

كقول الله تعالى : « وقالوا : أساطير الأولين اكتتبها » أصل الكلام وقالوا : القرآن
أساطير الأولين ، وقوله تعالى : « سيقولون : ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون : خمسة سادسهم
كلبهم رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم » .

التقدير : يقولون : هم ثلاثة ويقولون هم خمسة ويقولون هم سبعة .

وقوله تعالى : « فصكت وجهها وقالت : عجوز عقيم » أى أنا عجوز عقيم .

(١) المفتاح ص ٨٤ .

(جا) إذا جاء بعد الفاء المقترنة بالجملة الاسمية الواقعة جواباً للشرط :

كقول الله تعالى « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها » أى فعله لنفسه ، وإساعته عليها ، وقوله تعالى : « لا يسأم الإنسان من دعاء الخير ، وإن مسه الشر فينوس قنوط » أى فهو ينوس قنوط ، وقوله تعالى : « وإن تخالطوهم فإخوانكم » أى فهم إخوانكم .

(ك) إذا استطرقت المتكلم إلى غير ما يتحدث عنه ثم عاود إلى ما كان فيه :

كقول عبد الله بن الزبير الأسدي فى مدح عمرو بن عثمان بن عفان :
سأشكر عمراً إن تراخت منيتي أياذى لم تُمنن وإن مى جلت
فتى غير محبوب الفنى عن صديقه ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت
إذ لم يقل هو فتى ، وقول أبى الطحان القينى :

أضاعت لهم أحسابهم ووجوههم دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه
نجوم سماء كلما انقض كوكب بدا كوكب تلوى إليه كواكبه

حين لم يقل : هم نجوم سماء .

وقول آخر :

قالت سمية قد غويت بأن رأت حقاً تناوب ما لنا ووقودا
فى لعمرك لا أزال أعوده ما دام مال عندنا موجودا
أى : هو غى .

(ها) إذا كان المسند لا يصلح إلا له حقيقة :

كقولنا : خالق لما يشاء فاعل لما يريد . وكقول الله تعالى : « عالم الغيب والشهادة » أو ادعاء كقولك : وهاب الألف . تريد كريماً شهر بين الناس بسخائه وعظم عطائه ، وكما كانوا يقولون : (فاتنة المعادى) يعنون الفنانة : ليلى فوزى ، وكما لا يزالون يقولون : كوكب الشرق ، يعنون أم كلثوم ، وسيدة الشاشة العربية ، يعنون : الفنانة فاتن حمامة .

٢ - تخييل أن فى حذافه تحويلاً على شهادة العقل ، وفى ذكره تعويلاً

على شهادة اللفظ من حيث الظاهر ، وكم بين الشهادتين ^(١) كأن نكون في انتظار زائر كبير
فيأتي من يقول : (حضر ..) .

٣ - **خيق المقام عن ذكره بسبب شعر أو نجر أو خوف فوات
فرصة :**

فالأول كقول الشاعر :

على أنني راض بأن أحمل الهوى وأخرج منه لا على ولا ليا
أى لا على شئ ولا لى شئ ، وإنما حذف الشاعر المسند إليه وهو شئ لئلا يختل وزن
البيت .

والثاني كقول الآخر :

قال لى : كيف أنت قلت عليل سهر دائم وحزن طويل
فالتقدير : أنا عليل ، حالى سهر دائم وحزن طويل .

والثالث كقول لرفيقك الصياد : غزال ، أى هذا غزال ، وكقولك مستغنياً : حريق ، أو
غريق أى هذا حريق أو هذا غريق .

٤ - **تهجيل المسرة بالمسند :**

مثل : دينار . أى هذا دينار ، ونحو : جائزتى أى هذه جائزتى ، وكأن يتفحص الأبناء
شخصاً قادماً ويهتف أحدهم مبشراً إخوته بقوله : أبونا ، أى هو أبونا أو هذا أبونا .

٥ - **جهل التراجع عما قلناه هو كذا بتفسيره تفسيراً مهيناً :**

مثل أن يأتى ذكر شخص فى معرض الكلام فيقول أحد الحاضرين : منافق جبان كذاب
ثم تدعوه الضرورة إلى سحب كلامه فيسحبه ذاهباً إلى أنه لم يقصده بهذه الأوصاف ، ولو
أنه كان قد صرح بذكر المسند إليه لما أتحت له فرصة الخروج من هذا المأزق .

٦ - **إنشاء المرح أو الرخم أو الترجم :**

فالمرح كقولنا : الحمد لله أهل الحمد ، أى هو أهل الحمد ، وكتعليقك على بر شخص
للناس بقولك : أهل الخير أى هو أهل الخير .

(١) المفتاح ص ٨٤ .

والذم مثل أعوذ بالله من الشيطان الرجيمُ برفع الرجيم أى هو الرجيم .

وكقول الأقيشر فى ذم ابن عم له كان قد منعه وطمه :

سريع إلى ابن العم يلطم خده وليس إلى داعى الندى بسريع
حريص على الدنيا مضيع لدينه وليس لما فى بيته بمضيع

والترحم كقولك : اللهم ارحم عبدك المسكينُ برفع المسكين أى هو المسكين ، وكقول الأم :

اللهم اشف ابني المريضُ برفع المريض أى هو المريض .

٧ - إجراء الكلام على الاستخمال الوارد بتوجيه المسند إليه :

يقول السكاكى كقولهم « نعم الرجل زيد ، على قول من يرى أن أصل الكلام نعم الرجل هو زيد » ونعطف على كلام السكاكى قائلين : وكالأمثال محذوفة المبتدأ قال أبو عبيد قال الأصمعى : من أمثالهم قولهم « فتى ولا كمالك » أى هو فتى ، قال الأصمعى : ولا أدري من مالك ، وقال محمد بن يزيد هو مالك بن نويرة ، وقال غيره هو مالك بن قيس بن زهير (١) .

وكالمثل السابق قولهم : رمية من غير رام . وشنشنة أعرفا من أخزم (٢) .

حذف المسند إليه الفاعل

وداعى حذف المسند إليه الفاعل كواعى حذف المسند إليه المبتدأ كثيرة منها :

١ - محذوف الإفادة من ذكره :

كقول الله تعالى : « يأبها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا » لم يقل إذا قال لكم قائل لعدم جدوى ذلك .

وقوله تعالى : « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً » ببناء (ذكر) و (تلى) للمجهول ؛ لعدم تعلق غرض ما بشخص الذاكر وبشخص التالى .

ومن ذلك قول الفرزدق فى مدح على بن الحسين رضى الله عنهما :

(١) فصل المقال فى شرح كتاب الأمثال لأبى عبيد البكرى تحقيق إحسان عباس وعبد المجيد عابدين بيروت ١٣٩١هـ / ١٩٧١م ص ٢٠٢ .

(٢) انظر هامش رقم ٤ ص ٨٥ وهامش رقم (١) ص ٨٦ من المنهاج الواضح ج ٣ .

يفضي حياءً ويُفضي من مهابته فلا يكلم إلا حين يبتسم
٢ - العلم بالفاعل :

كقول الله تعالى : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض » أى فإذا قضيت
الصلاة، وقوله تعالى : « وعرضوا على ربك صفا » أى عرضهم الله عليه صفا .

٣ - الجهل بالفاعل :

كقول القائل : كُسر باب دارى ، وسرق مالى ، وخُطف ولى . بالبناء للمجهول فى
الأفعال الثلاثة لعدم معرفة من فعل ذلك .

٤ - الخوف من الفاعل :

كقولنا : قُتل فلان إذا كنا نعرف القاتل لكننا نخاف على أنفسنا منه أو من أحد أعوانه .

٥ - الخوف على الفاعل :

كان تقول الام لزوجها : كُسر زجاج المكتبة ؛ خوفاً على ابنها الذى كسره من عقاب
والده .

٦ - الإيهام بصوت اللسان عن ذكره :

كقولك عن زميك الذى زين له الشيطان خطيئته : زين له فعلته الشنيعة ؛ صوتنا للسانك
عن ذكر كلمة (الشيطان) وكقولك : من علامات الساعة أن يظهر ، ولا تقول : المسيح
الذجال .

٧ - الإيهام بصوته عن اللسان :

وما أكثر ما نقول : قال تعالى ، وقال ﷺ ، الأصل قال الله تعالى ، وقال رسول الله
ﷺ ، لكننا نجل اسميهما عن ألسنتنا التى تتحرك بالشر أكثر مما تتحرك بالخير .

* * *

انتهى ما أردنا إثباته من نواعى حذف المسند إليه مبتدأ كان أو فاعلاً .

وقد أحسن السكاكى صنعاً حين ترك باب حذف المسند إليه مفتوحاً وراءه لمن يأتى
بعده ، عليه يستنبط عللاً أخرى لحذفه بقوله : « وإما لأغراض سوى ما ذكرنا مناسبة فى
باب الاعتبار بحسب المقامات لا يهتدي إلى أمثالها إلا العقل السليم والطبع المستقيم ، وقلما

ملك الحكم هناك شئ غيرهما فراجعهما (١) .

وأنا مع السكاكي فيما قاله ، وهأنذا أترك مثله باب الاجتهاد مفتوحاً ، واللهم سدد على هذا الدرب كل من جاء بعدُ . آمين .

ثانياً : حذف المسند

المسند المحذوف كالمسند إليه المحذوف يكثر أن يكون خبراً لمبتدأ أو فعلاً لفاعل .

حذف المسند الخبر

ودواعي حذف المسند الخبر كثيرة منها :

١ - الإحتراز عن الجبث :

ويترجح حذف المسند الخبر لهذا السبب في ثلاث حالات هي :

(أ) إذا جاءت جملته بعد إذا الفجائية وكان الخبر دالاً على معنى عام مفهوم من الكلام .

تقول : دخلت المكتبة فإذا صديق قديم . أى فيها أو بها أو أمامي .

وخرجت من البيت فإذا المطر . أى منهمر .

ونزلنا من الطائرة فإذا المستقبلون أى منتظرون .

(ب) إذا كانت جملته جواباً على استفهام دال على الخبر .

كأن يسألني سائل : من معك ؟ فأجيب : زوجتي . وكأن أسأل طالباً : من ذلك على

مراجع بحثك ؟ فيجيب : أبى . وكأن أقول لابنى : من قال لك ذلك ؟ فيجيب أمى .

(ج) كذلك يترجح حذف الخبر إذا كانت جملته معطوفة على جملة اسمية أو معطوفاً

عليها جملة اسمية والمبتدآن مشتركان فى الحكم .

فمن الأول قولى لأحد الصديقين : (عبد العزيز مشعل وعبد الحميد ناصر) : أنت ناجح

وصديقك ، أى وصديقك ناجح .

وقول الله تعالى : « أكلها دائم وظلها » أى وظلها دائم .

(١) مفتاح العلوم ص ٨٤ .

وقول ضابئ بن الحارث البرجمي :

ومن يك أمسى بالمدينة رحله فإنى وقيار بها لغريب

أى فإنى لغريب وقيار غريب .

وقول الفرزدق :

وليس قولك من هذا بضائره العرب تعرف من أنكرت والعجم

ومن الثانى قول عمرو بن امرئ القيس الأنصارى الخزرجى :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راخى والرأى مختلف

٢ - العجول إلى أقوى الطيلين وهو العقل فى مقابلة النقل :

أو كما قال السكاكى : « تخيل أن العقل عند الترك هو معرفه ، وأن اللفظ عند الذكر معرفه من حيث الظاهر ، وبين المعرفتين بون ، ولك أن تأخذ من هذا القليل قوله عزّ وعلا : «والله ورسوله أحق أن يرضوه» أى والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك .

٣ - رقيق المقام مع قرص الإختصار كقول المتنبي :

تألت وقد رأيت اصفرارى من به وتنهدت فأجبتها : المتنهد

(من به) تعنى : من المطالب به ، أى بتعويض هذا الاصفرار وتحويله إلى لون الصحة والسعادة ، ولا يكون الحنوف هنا خيراً إلا إذا جعلنا التقدير (المتنهد هو المطالب به) . أما إذا جعلنا التقدير (هو المتنهد) فإن البيت يكون مثلاً لحذف المسند إليه لا المسند .

* * *

حذف المسند الفاعل

دواعى حذف المسند الفاعل كدواعى حذف المسند الخبر كثيرة منها :

١ - الإجتياز عن الحبث :

وأكثر ما يكون ذلك إذا وقعت الجملة الفعلية المحنوفة الفعل جواباً عن سؤال منصوح عليه فى الكلام كقول الله تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » التقدير : خلقهن الله ، وقوله تعالى : « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماءً فأهيا به الأرض بعد موتها ليقولن الله » التقدير ليقولن نزل الله من السماء ماء .

أو غير منصوح عليه فى الكلام بل مقدر كقول الحارث بن خرار النهشلى فى رثاء أخيه يزيد :

لَيْبِكَ يَزِيدٌ ضَارِعٌ لَخِصُومَةٍ وَمَحْتَبِطٌ مِمَّا تَطْيِیحُ الطَّوَائِحِ

الضارع : الضعيف عن الخصومة ، والمحتبب : طالب العطاء دون معرفة ولا قرابة كأن سائلاً سأل : من يبكيه ؟ فأجيب : ضارع ومحتبب أى لبيكه ضارع ولبيكه محتبب ، وكالبيت فراءة من قرأ : « يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ » وقراءة : « كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

بناء الفعلين (يُسَبِّحُ) و (يُوحَى) للمفعول ، يقول القزوينى :

« وفضل هذا التركيب على خلافه أعنى نحو « لَيْبِكَ يَزِيدٌ ضَارِعٌ ... »

– بناء الفعل للفاعل ونصب (يزيد) من وجوه :

أحدها : أن هذا التركيب يفيد إسناد الفعل إلى الفاعل مرتين : إجمالاً ثم تفصيلاً .

الثانى : أن نحو (يزيد) فيه ركن الجملة لا فضلة ، وكونه ركناً فى الجملة يفيد الاعتناء به ويناسب مقام رثائه .

الثالث : أن أوله غير مطمع للسامع فى ذكر الفاعل ، فيكون عند ورود ذكره كمن تيسرت له غنيمة من حيث لا يحتسب ، وخلافه بخلاف ذلك (!)

(١) بنية الإيضاح ج ١ ص ١٦٨ .

كما أن الارتباط قائم بين الثانى فى التقديم وهو تقديم المسند والأول فى التأخير .
تأخير المسند إليه ، فإن دواعى تقديم المسند هى التى أخرت المسند إليه ، ولهذا قلنا ما
قلناه من أن تعليل العمل المزوج تعليل واحد .

وما هو ذا القزوينى يفيض فى دواعى تقديم المسند إليه من ص ١٠٧ إلى ص ١٣٤
حتى إذا جاء إلى دواعى تأخيره اكتفى بقوله : « أما تأخيره فلاقتضاء المقام تقديم
المسند » ص ١٣٤ ويفيض فى دواعى تقديم المسند ص ١٩٩ - ٢٠١ حتى إذا جاء إلى
دواعى تأخيره اكتفى بقوله : « وأما تأخيره فلأن ذكر المسند إليه - أى أولاً - أهم »^(١).

ولا عجب ، فأغراض تأخير المسند هى هى أغراض تقديم المسند إليه ، وأغراض تأخير
المسند إليه هى هى أغراض تقديم المسند ، والله أعلم .

التقديم

أولاً : تقديم المسند إليه

لا يفوتنى التعجب من كثرة ما أورده البلاغيون تبريراً لتقديم المسند إليه مع أن تقديمه هو
الأصل بل هو الأمر الحتم إذا كانت الجملة اسمية لم يتقدم فيها الخبر على المبتدأ لأسباب
نحوية .

لكنها البلاغة وجمالياتها ، ولكنهم البلاغيون وفنيتهم ، ولا أبرئهم من أنهم كانوا نحويين
أكثر منهم بلاغيين فى بعض تبريراتهم كقولهم : « وأما الحالة التى تقتضى تقديمه على
المسند فهى متى كان ذكره أهم ؛ ثم إن كونه أهم يقع باعتبارات مختلفة ، إما لأنه الأصل
ولا مقتضى للعدول عنه »^(٢) ، وهذا الاعتبار رهن بكون المسند إليه مبتدأ غير مؤخر وإن
فهو اعتبار نحوى بحت ، وكقولهم : « وإما لأنه ضمير الشأن والقصة ، نحو هو زيد
منطلق »^(٣) ، فهذا الاعتبار نحوى أكثر منه بلاغى إن لم يكن نحوياً صرفاً ، لأنه تطبيق
للقاعدة النحوية القائلة « إن ضمير الشأن ملتزم التقديم » .

* * *

(١) أراد أن يقول : « فلأن تقديم المسند إليه أهم » لكن فاتته الدقة .

(٢) المفتاح ص ٩٣ وبغية الإيضاح ج ١ ص ١٠٧ .

(٣) المفتاح ص ٩٣ .

ولا أقف عندما زحموا به أسباب تقديم المسند إليه على المسند من أصول علم المنطق وقضاياها وقواعده ، وصدورهم عن هذا كله فيما هم بصدده ، وإلا خرجت بما أوردت من ذلك عما جعلته شرط كتابي بل اسمه .

فلاقتصر على التعليقات البلاغية لتقديم المسند إليه على المسند عملاً بالمثل القائل « ما لله وما لقيصر لقيصر » ومن ذلك ما يأتي :

١ - تمكن الخبر في ذهن السامع ، لأن في المبتدأ تشويقاً إليه كقول المعري :

والذى حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد

تقدم المسند إليه هنا وهو اسم الموصول ؛ لأن صلته تشوق النفس وتثير فضولها إلى معرفة المسند ، والحاصل في النفس بعد التشويق إليه أوقع فيها وأمكن منها .

٢ - تعجيل المسرة أو المساءة بالمسند إليه المتقدم نحو : السعد في دارك أو النحس في دارك ونحو : النجاح نلته أو الرسوب أصابك .

(٣) تعجيل التبرك به نحو اسم الله عليك ، ونحو المصطفى ﷺ يفرح بزواره في روضته .

(٤) تعجيل الأمان به مثل : السلام عيكم ورحمة الله وبركاته .

(٥) تعجيل التلذذ به كقول جميل :

بثينة ما فيها إذ ما تبصرتُ معاب ولا فيها إذا نسبت أشب

وكقول قيس :

بالله يا ظبيات القاع قلن لنا ليلى منكن أم ليلى من البشر

(٦) التعجيل بتعظيمه أو بتحقيقه :

فالأول كقول الله تعالى : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » .

والثاني كقول الرسول ﷺ مامعناه « الدنيا لا تساوى عند الله جناح بعوضة » .

(٧) الإشعار بأن اتصافه بالخبر هو المطلوب لا نفس الخبر ، كما إذا سـ ٣ -

عن الشيخ الحاج فلان : ما باله ؟ وكيف حاله ؟ فأجبت الشيخ الحاج فلان يشرب ويطلب ويلهو ويلعب .

(٨) إفادة تخصيص المسند إليه بالخبر الذي هو جملة فعلية ، وذلك إذا ولى إليه المتقدم حرف النفى ، يقول عبد القاهر « وقد يقدم المسند إليه ليقيد تخصيصه بالخبر الفعلى إن ولى حرف النفى كقولك : ماأنا قلت هذا ، أى لم أقله مع أنه مقول ، فأفاد نفى الفعل عنك وثبوتته لغيرك ، فلا تقول ذلك إلا فى شئ ثبت أنه مقول ، وأنت تريد نفى كونك قائلاً له ، ومنه قول الشاعر :

وما أنا أسقمت جسمى به ولا أنا أضرمت فى القلب نارا

إذ المعنى أن هذا السقم الموجود ، والضرم الثابت ما أنا جالبا لهما ، فالقصد إلى نفى كونه فاعلاً لهما لا إلى نفيهما ، ولهذا لا يقال ماأنا قلت ولا أحد غيرى ، لمناقضة منطوق الثانى (ولا أحد غيرى) مفهوم الأول (ما أنا قلت) ، لأن مفهومه أن غيره قاله ، بل يقال ما قلت أنا ولا أحد غيرى (١) .

(٩) إفادة زيادة تخصيص المسند إليه المتقدم بالمسند المتأخر .

كقول الشاعر :

متى تهز بنى قطن تجدهم سيوفاً فى عواتقهم سيوف
جلوس فى مجالسهم رزان وإن ضيف ألم فهم خفوف

يقول السكاكى « والمراد هم خفوف يقصد أن الشاهد (هم خفوف) فقد زاد الضمير (فهم) من اختصاص بنى قطن بالكرم ، ربما ، لأنه هنا ملفوظ ، أما فى صدر البيت فملحوظ ، وقد قيل إن زيادة المبنى تستلزم زيادة المعنى . والله أعلم .

(١٠) تقوية الحكم :

تقول : محمد نجح فتكون قد قويت الحكم بإسناد النجاح إلى محمد مرتين مرة إلى اسمه ومرة إلى ضميره ، ولهذا كان محمد نجح أبلغ من نجح محمد .

وبسبيل من تقوية الحكم بتقديم المسند إليه الفاعل الكلمتان (غير) و (مثل) وذلك إذا استعملناهما فى إثبات الحكم بطريق الكناية ، تقول : مثلك لا يكذب ، وغيرك لا يفى ، دون أن تقصد التعريض بشخص معين فى المثالين ، وإنما تريد نفى الكذب عن مخاطبك فى

(١) بغية الإيضاح ج ١ ص ١١١ .

المثال الأول ، وإثبات الوفاء له بطريق الكناية ، لأنك إذا أردت العموم فى (مثل) و (غير) فقد نفيت الكذب عن كل من كان مثل المخاطب ، ولزم من ذلك نفى الكذب عنه ، ونفيت الوفاء عن كل ما سواه ، ولزم من ذلك إثبات الوفاء له ، لأن الوفاء حينئذ لا يكون له محل يحل به غيره .

ومن ذلك قول المتنبي يعزى سيف الدولة :

متلك يثنى الحزن عن صوبه ويسترد الدمع من غربه

وقوله عن نفسه :

غيرى بأكثر هذا الناس ينخدع إن قاتلوا جهنوا أو حدثوا شجعوا

* * *

وجه إفادة الكناية للتقوية أن الكناية بأصل وضعها البلاغى تفيد تقوية الإسناد ، لأننا ننتقل فيها من الملزوم إلى اللازم ، وقد قلنا فى فضلها إنها القضية وبرهانها والدعوى ودليلها ، فإذا انضاف إلى ذلك أن التقديم ولو لم يكن عن طريق الكناية يفيد تقوية الحكم ، يكون قد اجتمع لنا هنا سببان لتقوية الحكم هما :

تقديم المسند إليه أولاً ، ومجئ هذا التقديم على سبيل الكناية ثانياً .

وهذا التعليل المزوج هو السبب فى مجئ المسند إليه (مثل) والمسند إليه (غير) مقدمين دائماً .

(١١) إفادة شمول النفى أى عموم السلب ، وإفادة نفى الشمول أى سلب العموم .

ويتحقق الأول إذا كان المسند إليه المقدم دالاً على العموم وأعقبته أداة نفى لا تطوله أى لا يقع المسند إليه فى حيزها ، وذلك كقولك : كل مهمل لا ينجح .

هنا المسند إليه كلمة (كل) الدالة على العموم ، وهى ليست داخلة فى حيز النفى الذى أفادته (لا) بل خارجه عنه ، وقد صار الكلام بهذا يفيد شمول النفى لكل فرد من أفراد المسند إليه ، لكأننا قلنا « لا ينجح أحد من المهملين » ، والسبب فى ذلك أن كلمة (كل) قد تسلطت على النفى فأكسبته العموم .

ولو أردنا العكس وهو نفى الشمول فما علينا إلا أن نقدم النفى على المسند إليه الدال على العموم كقول المتنبي :

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تأتى الرياح بما لا تشتهي السفن

وقول أبي العتاهية :

ما كل رأى الفتى يدعو إلى رشد إذا بدا لك رأى مشكل فق .
والفرق بين هذا والذي قبله أن النفى هنا لا يشمل جميع أفراد المسند إليه بل بعضهم فقط ، فالمعنى فى بيتى المتنبي وأبى العتاهية ، أن الإنسان لا يحقق كل أمانيه بل بعضها ، وأن آراءه موزعة على الصواب والخطأ ، أما النفى فيما سبق فيشمل كل أفراد المسند إليه لتسلط (كل) على النفى لا العكس .

ثانياً : تقديم المسند

علل السكاكى تقديم المسند على المسند إليه بثمان علل ، أولها نحوى هو « أن يكون المسند متضمناً للاستفهام كنحو كيف زيد ؟ وأين عمرو ؟ ومتى الجواب ؟ » .

وأخرها كذلك نحوى هو « أن يكون المراد بالجملة إفادة التجدد دون الثبوت فيجعل المسند فعلاً ويقدم ألبتة على ما يسند إليه » (١) .

ونرد الأول بأن لزوم الاستفهام صدر الكاتم لزوم نحوى لا بلاغى ، ونرد الثانى بأن ما قاله إنما هو الأصل فى الجملة الفعلية معنى ومبنى .

وسواء ووقفنا على رأينا هذا أو خولفنا فيه فقد ذكرنا السببين الأول والأخير من أسباب تقديم المسند على المسند إليه من وجهة نظر السكاكى ، ولم يكن بوسعنا أن نرفضهما لو أنه قرن كلامهما بوجه بلاغى .

أما الجمل الست الأخرى فهى :

١ - تخصيص المسند المتقدم بالمسند إليه المتأخر كقول الله تعالى : « لكم دينكم وفى دين » وقوله تعالى : « لله ملك السموات والأرض » وقوله تعالى : « لا فيها غول » ، وقولك لمن يقول : زيد إما قائم وإما قاعد فيرده بين القيام والقعود من غير أن يخصصه بأحدهما - : قائم هو ، وقول بعضهم « تسمى أنا » وقول الشاعر :

رضينا قسمة الجبار فينا لنا علم وللأعداء مال

وقول الآخر :

لك القلم الأعلى الذى يشبته يُصاب من الأمر الكلى والمفاصل

(١) مفتاح العلوم ص ١٥٠ .

٢ - التنبيه ابتداء على أوج المسند المقدم خبر للمسند إليه المؤخر
لأنهت له :

كقول الله تعالى : « ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين » وكقولك : تحت رأسى
وسادة وعلى جسمى عباءة ، وكقول حسان بن ثابت في مدح النبي ﷺ :

له همم لا منتهى لكبارها وهمته الصغرى أجل من الدهر
له راحة لو أن معشار جودها على البر كان البر أندى من البحر
وقول الخنساء فى أخيها صخر :

أغر أبلج ياتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار

وقول الشاعر :

لكل جديد لذة غير أننى وجدت جديد الموت غير لذيد
٣ - الإشعار بأوج قلب السامع معقود به :

كقولك : قد هلك خصمك ، وقد ظهرت نتيجة امتحانك ، وقد تحددت إجازة الصيف ،
وحجزنا لك ذهاباً وإياباً .

٤ - الدلالة على أنه أهم من المسند إليه عند التكلم :

كقولك : عليه من الرحمن ما يستحقه .

وكقول الشاعر :

سلام الله يا مطر عليها وليس عليك يا مطر السلام
والفرق بين هذه العلة ، والعلة السابقة :

أن هذه منظور فيها إلى الأديب ، أما السابقة فمنظور فيها إلى متلقى الأدب .
٥ - التفاؤل به إذا كان صالحاً لذلك :

كقول ابن الرومى :

يمُنُّ الله طلعة المهرجان كلُّ يمن على الأمير الهجان

وقول الآخر :

سعدت بغرة وجهك الأيام وتزينت ببقائك الأعوام .

٦ - التشويق إلى المسند إليه المتأخر :

وذلك إذا كان فى المسند المتقدم ما يشوق إلى المسند إليه ويجعل السامع مستعجلاً

معرفة ، كقول محمد بن وهيب في مدح أبي إسحق المعتصم :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها شمس الضحى وأبو إسحق والقمر (١)
وقول المعري :

وكالنار الحياة فمن رماه أو اخرها وأولها دخان

وقول الشاعر :

ثلاثة ليس لها إياب الوقت والجمال والشباب

وقول القائل :

ثلاثة يذهبن عن المرء الحزن الماء والخضرة والوجه الحسن

يقول السكاكي : « وحق هذا الاعتبار تطويل الكلام في المسند وإلا لم يحسن ذلك الحسن » (٢).

انتهت العلة التي ذكرها السكاكي لتقديم المسند .

ويمكن تلمس علة أخرى من نصوص أخرى . كالقصد إلى علم المتعجب منه وفرط الإنكار له ، يقول الله تعالى : « أرأيت أنت عن آلهتي يا إبراهيم » ؟ ويقول الشريف لمن اتهمه بالسرقة : ألس أنا ؟

وكإبداء التائم والتأزم

يقول المتنبي :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له ما من صداقته بد

ويقول صديقي : من سوء حظي أني تزوجت امرأة لاذعة .

التأخير

أولاً : تأخير المسند إليه :

يقول السكاكي : « وأما الحالة التي تقتضى تأخيره عن المسند فهي إذا اشتمل المسند

(١) جعل بعضهم هذا البيت وأمثاله من تقديم المسند إليه على المسند وهو خطأ إذ لا يخبر بالمعرفة عن النكرة .

(٢) مفتاح العلوم ص ١٠٦ .

على وجه من وجوه التقديم « (١) .

ووجوه تقديم المسند على المسند إليه هي وجوه تأخير المسند إليه عن المسند، وهي ما قد فرغنا منه توّاً .

ثانياً: تأخير المسند:

يقول السكاكي: « وأما الحالة المقتضية لتأخير المسند فهي إذا كان ذكر المسند إليه أهم كما مضى في المسند إليه ، وإياك أن تظن بكون الحكم على المسند إليه مطلوباً استيجاب صدر الكلام له ، فليس هو هناك فلا تغفل » (٢) .

والسكاكي في هذه العبارة المختصرة ينهي إلينا أن ثمة عللاً بلاغية لتقديم المسند إليه على المسند ، أي لتأخير المسند ، ويمضي فيحذر من الظن بأن كون المسند إليه مطلوباً للحكم عليه مستوجب وحده تقديمه .

التعريف والتنكير

التعريف

أولاً: تعريف المسند إليه:

أشار محمد بن علي الجرجاني إلى فائدة تعريف المسند إليه بقوله:

« فائدة تعريفه إجمالاً أن المعرفة أخص من النكرة ، وكلما كانت أخص كانت أتم دلالة على المراد ، لكونه أقل احتمالاً لغير المراد من النكرة » (٣) وهي فائدة عامة وملحوظة في أي مسند إليه معرفة ، ولو أن عبارة الجرجاني قد غمضت بجعله ضمير المسند إليه مؤنثاً مرة في (كانت) - يقصد المعرفة - ومذكراً مرة في (لكونه) - يقصد المسند إليه - ولا عجب: فهو أعجمي فارسي ليست العربية لغته الأصلية .

والسكاكي أغمض من الجرجاني في هذا الصدد ، لكنه وضح كلامه بأخرة في قوله:

(٢) مفتاح العلوم ص ٩٤ .

(١) مفتاح العلوم ص ١٠٥ .

(٢) الإشارات والتبهيّات ص ٣٦ .

« وإن شئت فاعتبر حال الحكم فى قواك : شئ ما موجود ، وفى قواك : فلان ابن فلان :
حافظ للتوراة والإنجيل ، يتضح لك ما ذكرت » (١) .

ولم يكن الأستاذ أحمد مصطفى المراغى موفقاً فى قوله : « والتعيين فى المعرفة إما أن
يكون بنفس اللفظ كما فى الأعلام . وإما بقريئة خارجية كما فى غيره من بقية
المعارف » (٢) ، فجميع المعارف يتم التعيين فيها بنفس اللفظ لا فرق فى ذلك بين علم وضمير
واسم إشارة واسم موصول . . . ، والقريئة الخارجية قاسم مشترك بينها كلها ، فمحمد علم
على الشخص المسمى بمحمد ، ونهلة علم على الفتاة المسماة بهذا الاسم .

كما أن الضمير دال على صاحبه متكلماً كان أو مخاطباً أو غائباً ، واسم الإشارة دال
على المشار إليه ذكراً كان أو أنثى ، ومفرداً كان أو مثنى أو جمعاً .

ولأن الضمير أعرف المعارف فإننا سنبدأ به .

والحق أن اللغة تسبق البلاغة فى جعل المسند إليه ضميراً أولاً ، وفى جعله ضمير تكلم أو
خطاب أو غيبة ثانياً ، ولو كان الأمر بيدي ما جعلت للبلاغة هنا مدخلاً ؛ فلا مندوحة - متى
كان المقام مقام تكلم - من أن أقول (أنا) أو من أن نقول (نحن) .

قال النبى ﷺ : « أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » .

وقال عمرو بن كلثوم :

ونحن التاركون لما سخطنا ونحن الآخذون لما رضينا

ولا مندوحة - متى كان المقام مقام غيبة - من أن نقول بلا أى جهد بلاغى :

هو نجح وهى نجحت وهما نجحا أو نجحتا وهم نجحوا وهن نجحن ، ولقد جمع القاسم
ابن حنبل المرى فى بيتيه الآتين بين أربعة ضمائر للغيبة قال :

من البيض الوجوه بنى سنان لو انك تستضى بهم أضاعوا

وهم حلوا من الشرف المعلى ومن حسب العشيرة حيث شاعوا

وقال الله تعالى : « اعدلوا هو أقرب للتقوى » أى العدل ، وقال تعالى : « ولأبويه لكل

(١) مفتاح العلوم ص ٨٥ .

(٢) علوم البلاغة ص ١٢٣ دار الباز للنشر والتوزيع - المروة - مكة المكرمة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

واحد منهما السدس « يقصد أبوى الميت ، وقال « حتى توارت بالحجاب » يعنى الشمس ؟
كذلك لا مندوحة - متى كان المقام مقام خطاب - من أن أقول : أنت نجحت وأنت نجحت
وأنتما نجحتما وأنتم نجحتم وأنتن نجحتن .

وما قالوه عن تمثل البعيد من أن استحضاره ومخاطبته بعد حضوره الاعتبارى مفيد
عموم المخاطب ، فإنما هى فائدة لغوية تقع من البلاغة على حافتها لا فى صميمها فلا
ضرورة بل لا حاجة إلى أن يقول القزوينى بعد السكاكى : « وأصل الخطاب أن يكون لمعين ،
وقد يترك إلى غير معين كما تقول : فلان لنيم إن أكرمته أهائك ، وإن أحسنت إليه أساء
إليك ، فلا تريد مخاطباً بعينه بل تريد : إن أكرم أو أحسن إليه فتخرجه فى صورة الخطاب
ليفيد العموم ، أى سوء معاملته غير مختص بواحد دون واحد ، وهو فى القرآن كثير كقوله
تعالى : « ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم » أخرج فى صورة الخطاب
لما أريد العموم للقصد إلى تفضيع حالهم ، وأنها تناهت فى الظهور حتى امتنع خفاؤها فلا
تختص بها رؤية راء ، بل كل من تتأتى منه الرؤية داخل فى هذا الخطاب « (١) .

وبسبيل مما مثل به القزوينى قول الشاعر :

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها هواناً بها كانت على الناس أهونا
وقول الآخر :

إذا ما كنت ذا قلب قنوع فأنت ومالك الدنيا سواء

* * *

وكالتعريف بالإضمار التعريف بالعلمية فى أن فوائده البلاغية هامشية
ومصطنعة ومنوعة وهذه نماذج منها :

(١) إحصار المسمى فى ذهن المخاطب بأسمه الخاص به تمييزاً له

عن تحييره كقول الله تعالى : « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل » .

وفى رأى أن العلم هنا مستعمل استعمالاً لغوياً لا بلاغياً .

(١) بغية الإيضاح ج ١ ص ٧٤ وانظر المفتاح ص ٨٦ .

(٢) التعظيم أو الإهانة :

يتأتى ذلك إذا تمت التسمية بكنى أو ألقاب محمودة أو مذمومة ، تقول : أبو المعالى
حضر وأنف الناقة ذهب .

ومثل الكنى والألقاب فى ذلك الأعلام المنقولة عن معان مشعرة بمدح أو ذم تقول فى
التعظيم : جمال الدين مصلح ، وسيف الدولة بطل ، وصلاح الدين رفع رأس المسلمين .
وتقول فى الإهانة : ضرار أضر بنا ومتعب أتعبنا وعمشاء لا تعرف طريقها .

وعندى أن لا إهانة بل مناسبة ، وحتى لو سميينا شخصاً بـ (عدس) أو (شحات) أو
(بطة) أو (قطة) كما يفعل بعض الناس فى ريف مصر ليعيش صاحب هذا الاسم ، فلا
إهانة بل علمية مجردة عن أى معنى سوى الدلالة على المسمى باسمه الذى أطلق عليه
ابتداء ، وقل مثل ذلك فى التعظيم ، وكان على البلاغيين ألا يتكلفوا هذا المبحث .

(٣) التبرؤك :

وذلك إذا كان من أفراد هذا العلم من يتبرك بهم لتقواهم وصلاحهم ، أقول : الحسن
ابنى والحسين أذى وعائشة زوجتى وفاطمة ابنتى .

وذلك إذا كان فى الإمكان التحدث عنهم بغير العلمية لكننى أثرتها تبركاً بهذه الأسماء
التي تشبه أن تكون دينية .

(٤) التفاؤل أو التشاؤم :

مثل : سعد فى دارى ، وسعيد صهرى ، السفاح فى حيكم ، والشيطان فى بيتكم .
وما قلناه فى التعظيم والإهانة نقوله فى التفاؤل والتشاؤم ، إنما هى المناسبة أو الصدفة .

(٥) التلذذ :

كقول قيس :

بالله يا ظبيات القاع قلن لنا ليلى منكن أم ليلى من البشر

كان المنتظر أن يقول : « أم هى من البشر » لكنه أظهر فى مقام الإضمار تلذذاً باسم
حبيته .

ويوزحم (وزن الشعر) (التلذذ) فى التبرير لإحلال (ليلى) محل (هى) بل إن وزن الشعر يسبق التلذذ .

(٦) التسجيل على السامع لقطع طريق الإنكار عليه :

يقول القاضي للشاهد : هل اقترض إبراهيم المكي من أحمد المدنى ألف ريال أمامك ؟
فيجيب : نعم اقترض إبراهيم المكي من أحمد المدنى ألف ريال أمامى ، وذلك بدلاً من أن يقول : نعم ، ويسكت ، أو يقول : نعم هو اقترض المبلغ منه .

(٧) الكناية عن معنى يصلح العلم للكناية عنه :

بأن يكون العلم منقولاً عن أصل هذا المعنى ، فلا تُنسى فيه - وهو علم - دلالاته ولا تزايله نكهته . تقول : الجبالى ذو حصاة كناية عن رزاقته ، وبدوى له من اسمه نصيب كناية عن خشونته وغلظته وتقول : كان أبو لهب شديد العداوة لرسول الله ﷺ ، فأبو لهب باعتبار أصل وضعه مشعر بملايسة اللهب ، وفى التسمية به كناية عن جهنميته ، وقل مثل ذلك فى: أبو الشر أشعل الحرب ، ولو قلت : أبو الفضل أنجب خالد الذكر ، وأبو الخير كبح جماح الشر ، فإن استعمال (أبو الفضل) و (أبو الخير) استعمالاً علمياً يسمح بأن نلمح المعنى الأصيل لهما وأن نكنى عنه بهما .

التحريف بالموصولية

وعله بلاغية لا نستثنى منها إلا أولها وهو :

(١) كراهة معرفة شئ عن المسند إليه سوى الصلة :

كقوله تعالى : « فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه » ، وكقولك لنفسك أو لغيرك : الذى حل المسألة طالب كفاء ، وكقولك لشقيقك : ما عثرنا عليه ونحن نحرت الأرض شئ شمين ؛ إذ لا سبيل لك إلى غير ذلك ، فهو متعين عليك ولا يمكنك أن تعرفه إلا بهذه الصلة .
لا بلاغة إذن ، لأن البلاغة تكون حيث يكون بوسعك أن تعبر بهذا أو بذاك أو بذلك ، فتفاضل بينها وتختار أحدها .

(١) استهجان التصريح بالإسم الدال على المسند إليه كقول الفقهاء : ما يخرج

من السبيلين ينقض الوضوء .

(٣) زيادة تقرير الخروض من الكلام :

كقول الله تعالى : « وراودته التي هو في بيتها عن نفسه » ، فالغرض من الكلام إنما هو تنزيه يوسف عن الفحشاء ، والتعبير بالموصولية أدل على هذا الغرض من التعبير بامرأة العزيز أو زليخا ، لأنه إذا كان في بيتها سهل عليه تلبية طلبها ، فإذا لم يستجب لها كان ذلك أدل على عفته ونزاهته ، وكقول أبي العلاء :

أعباد المسيح يخاف نصحبي ونحن عبيد من خلق المسيها

فـ (عبيد من خلق المسيح) أدل على غرض المعرى ، وهو نفي الخوف عن المسلمين مما لو قال « ونحن عبيد الله »

(٤) التفخيم:

كقول الله تعالى : « فغشاهم من اليم ما غشاهم »

وقوله تعالى : « فغشاها ما غشى » .

وقول عبد الله الربيعي يصف الخمر وأثرها :

مضى بها ما مضى من عقل شاربها وفي الزجاجة باق يطلب الباقي

(٥) تحليل المسند مع الإيجاء به قبل مجيئه ثواباً كما أمر عقاباً :

فالأول كقول الله : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً » ، والثاني كقول الله تعالى : « إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين » .

ألححت الصلة في الآيتين إلى المسند ، وعلقت استحقاق المسند إليه له ، أو نقول : إنها في الآية الأولى بكرت فبشرت ، وفي الآية الثانية بكرت فأنذرت .

(٦) التنبيه على الخطأ:

سواء كان خطأ المخاطب أم خطأ غيره .

فمثال الأول قول الله تعالى : « إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم » فقد نبهت صلة المسند إليه على خطأ المخاطبين وهو أنهم يدعون من دون الله عباداً لا يفعلونهم بل

هم مثلهم ، وقول عبدة بن الطبيب لبنيه :

إن الذين ترونهم إخوانكم يشفى غليل صدورهم أن تصرعوا

ومثال الثانى قول الشاعر :

إن التى زعمت فؤادك ملها خلقت هواك كما خلقت هوى لها

هنا أفادت الموصولية التنبيه على خطأ المحبوبة فى زعمها أن قلب الشاعر ملها ولناحظ أن الشاعر لا يخاطب محبوبته بل يخاطب نفسه .

(٧) اتخاذا الموصولية وسيلة إلى تعظيم الخبر أو تحقيره .

فمن تعظيم الخبر قول الفرزدق :

إن الذى سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعز وأطول

فى (الذى سمك السماء) إحياء بأن الخبر المحكوم به من جنس الصلة السابقة ؛ ولم يقصد الشاعر هذا الإحياء لذاته ، بل ليتخذها وسيلة إلى تعظيم شأن بيته ولا عجب ، فبانيه هو الذى رفع السماء .

ومن تحقير الخبر قول القائل :

إن الذى لا يحسن التأليف قد ألف كتابا .

فى المسند إليه الموصول إيماء إلى أن الخبر المترتب عليه من نوعه ، وقد جعل القائل هذا الإيماء وسيلة إلى تحقير الكتاب المؤلف ، ولا عجب ، فهو صادر عن لا يحسن التأليف .

(٨) اتخاذا الموصولية وسيلة إلى تعظيم غير الخبر أو تحقيره :

فمن تعظيم شأن غير الخبر قول الله تعالى : « إن الذين كذبوا شعبياً كانوا هم الخاسرين » . المقصود هو تعظيم شأن شعيب ، لأن تكذيبه جعل الكذابين خاسرين ، وشعيب قد أتى فى الكلام قبل الخبر .

ومن تحقير غير الخبر قول الأستاذ لطلابه : الذى يصادق المهملين يفقد احترامى له . غرض الأستاذ إنما هو تحقير شأن المهملين ، لأن من يصادقهم يفقد احترام أستاذه ، لكن كلمة (المهملين) قد جاءت فى صلة الموصول لا فى الخبر ، وهى التى استقطبت التحقير لا الخبر .

(٩) جعل الموصولية وسيلة إلى الإشعار بأج الخبر أمر ثابت ومحقق:

نجد ذلك في قول عبدة بن الطبيب :

إن التي ضربت بيتاً مهاجرة بكوفة الجند غالت ودها غول

إذ في ضرب البيت بكوفة الجند ، والانتقال إليه للإقامة به دليل أكيد على انقضاء الود وانتهاء الحب ، بل على البغض ، فالإنسان لا يهجر وطنه إلا وقد قلاه وقلان كان فيه معه .

(١٠) تشويق السامع إلى الخبر ليتمكن في نفسه :

كقول المعري :

والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد

(١١) إخفاء الأمر على غير المخاطب : كقولك لوالد عروسك : ما أعطيته لك

بالأمس من مال هو مهر ابنتك ، والذي اتفقنا عليه سأنفذه .

* * *

(١٢) ونختم بنكتة سكاكية مزبوجة هي التعريض - عن طريق الموصولية - بتعظيم المسند إليه نفسه أو بإهانتة .

تقول في التعظيم : الذي يرافقتك يستحق الإجلال والرفع ، والذي يفارقتك يستحق الإذلال والصفع .

وإن أردت أن تهين المسند إليه الموصول بدلاً من أن تعظمه قلبت الخبر في جملتي التعظيم فقلت : الذي يرافقتك يستحق الإذلال والصفع ، والذي يفارقتك يستحق الإجلال والرفع (١) .

يقول السكاكي مفلساً العدول عن التصريح بعامة ، وواصفاً له بأنه باب من البلاغة يصار إليه كثيراً وإن أوردت تطويلاً . أجل . إنه قد خرج من الموصولية ودخل فيما يشبه الإلغاز وهو يحكى هاتين الطريقتين :

أقر رجل عند شريح ثم رجع ينكر فقال له شريح : « شهد عليك ابن أخت خالتك » ابن أخت خالته هو المخاطب نفسه ؛ لأن ابن أخت خالتك هو أنت .

(١) مفتاح العلوم ص ٨٧ .

أثر شريح التطويل ليعدل عن التصريح بنسبة الحماسة إلى المنكر .

وسأل أحد المتخاصمين شريحاً قائلاً له : على من قضيت ؟ فأجاب : « على ابن أمك »
عدل شريح عن لفظ (عليك) لئلا يجبهه بما يشق على المخاصم من القضاء عليه .

التحريف بالإشارة

ولطائفه البلاغية لا تكاد تنضبط على حد قول السكاكي ، وهو يقصد أنها من الكثرة بحيث لا تكاد تحصى ، لكنها - كغيرها مما سبقها ومما سيلحقها من أصناف التعريف - مزيج مما هو لغوي لا فضل فيه لقائله ، لأنه لا غنى له عن أن يقوله ، ومما هو بلاغي يقوله قائله ، لأنه يفضل غيره مما يمكن أن يحل محله ويؤدي أداءه لكن بدرجة أقل وبجمالية أخفت .

فمن الأول قولهم ترديداً لما قاله السكاكي قبلهم :

(١) ألا يكون لك إلى إحضار المسند إليه في ذهن قارئك أو سامعك سوى اسم الإشارة ، بأن يكون حاضراً محسوساً ، والمتكلم والسامع لا يعرفان اسمه ولا شيئاً آخر يعينه .

وتصور مثل هذا الموقف سهل ، والتمثيل له أسهل ، تقول لجارك في الحفل : هذا الرجل من يكون ؟ وهذه المرأة زوجة من ؟

لكن أيكون مالا مندوحة لك عنه ، وما ليس في وسعك سواء ضرباً من البلاغة ١١٩ وإذا تصادف مع ذلك أو برغم ذلك أن جاء بليفاً ربما بأصل وضعه ، وربما للظروف التي قلته فيها ، أو لاعتبار آخر لم ترده بل لم تلحظه ، أ تكون بمنزلة هذا القول ونحوه بليفاً ؟ طبعاً لا ، وهأنذا أسقطه من حساب البلاغة .

(٢) أن تقصد بيان حاله في القرب والتوسط والبعد كقولك هذا وذاك وذلك . وأسأل : ماذا فيما قلت من البلاغة ؟ إن هذا القول وأمثاله مشتمل على المتكلم لا حيلة له فيه ، ولا اختيار له معه .

وهن الثاني ما يأتي :

(١) تمييز المسند إليه أكمل تمييز للبالغة على أنه في بؤرة الوجود
هناك وينبغي أن يكون كذلك من قارئك أو سامعك ، كقول الفرزدق في زين
العابدين على بن الحسين بن علي بن أبي طالب لما ادعى هشام بن عبد الملك أنه لا يعرفه :

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته
هذا ابن خير عباد الله كلهم
والبيست يعرفه والحل والهرم
هذا التقى النقى الطاهر العلم
بجده أنبياء الله قد ختموا
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله

وقول ابن الرومى فى مدح أبى الصقر الشيبانى :

هذا أبو الصقر فرداً فى محاسنه
عن نسل شيبان بين الضال والسلم
وقول الحطيئة :

أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنا
وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا
وقول واصف حاتم :

وإذا تأمل شخص ضيف مقبل
أوما إلى الكدماء هذا طارق
متسريل سربال ليلى أغبر
نحرتنى الأعداء إن لم تنحوى
وقول المتلمس :

ولا يقيم على ضميم يراد به
هذا على الخسف مربوط برمته
إلا الأذلان عير الحي والوتد
وذا يشج فلا يرثى له أحد
وقول الراوندى :

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه
هذا الذى ترك الأوهام حائرة
وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا
وصير العالم الفحرير زنديقا

وبسبيل من تمييز المسند إليه أكمل تمييز تنزيل المعقول منزلة المحسوس طلباً لإيضاحه ،
ورغبة فى إحاطة المخاطب علماً به عن طريق حواسه ، قال تعالى : « ذلكما مما علمنى
ربى » وقال تعالى : « وذلك ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم » وقال تعالى : « ذلك تأويل ما لم
تستطع عليه صبرا » وتقول لحدثك : هذا ما يفهم من كلامك .

وغير بعيد عن تنزيل المعقول منزلة المحسوس ، تنزيل الغائب منزلة الحاضر كقول الله
تعالى : « تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار » .

(٢) القصد إلى أن السامع غيبى لا يتميز الشئ عنده إلا بالحس كقول الفرزدق:
أولئك أبائى فجئنى بمثلهم إذا جمعنا يا جرير الجامع

(٣) التحقير بالقرب:

كقول الله تعالى : « أهذا الذى بعث الله رسولا » وقوله تعالى : « أهذا الذى يذكر ألهتكم » .

وقول الهذلول بن كعب العنبرى واصفاً حال امرأته وقد رأته يطحن :

تقول : ودقت صدرها بيمينها أبعلى هذا بالرحى المتقاعس ١٩ .

(٤) التحزيم بالقرب:

كقوله تعالى : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » .

وكقول جرير :

هذا ابن عمى فى دمشق خليفة لو شئت ساقكم إلى قطينا

(٥) التحقير بالبعث:

كقول الله تعالى : « فذلك الذى يدع اليتيم » .

وكقولك : ذلك اللص سرقنى ، وأولئك المجان يجب ردهم .

(٦) التحزيم بالبعث:

كقول الله تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » .

وقوله تعالى : « وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون » ، وقوله تعالى على لسان زليخا : « فذلكن الذى لمتننى فيه » .

لم تقل (فهذا) - وهو حاضر - رفعاً لمنزلته فى الحسن ، وتمهيداً للعدر فى الافتتان به .

(٧) التنبيه على استحقاق اسم الإشارة لما جاء بعده بسبب ما جاء

قبلك :

كقول الله تعالى : « فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وهم بالآخرة هم يوقنون * أوئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

جاء المسند إليه فى الآية اسم إشارة مع أن المقام للضمير لتقدم مرجعه ، تنويهاً بالمتقين

المشار إليهم بأولئك ، وتنبئها على استحقاقهم من أجل أوصافهم التي سبقت اسم الإشارة
ما جاء بعد اسم الإشارة .

وكقول حاتم الطائي :

والله صععلوك يساورهمه	ويمضي على الأحداث والدهر مقدماً
فتى طلبات لا يرى الخمص ترحة	ولا شبيعة إن نالها عدُ مغنماً
إذا ما رأى يوماً مكارم أعرضت	تيمم كبراً من ثمت صمماً
فذلك إن يهلك فحسبى ثناؤه	وإن عاش لم يقعد ضعيفاً مذمماً

فقد عدد حاتم للصعلوك خصالاً فاضلة من المضاء على الأحداث مقدماً ، والصبر على
ألم الجوع ، والأنفة من أن يعد الشبيعة مغنماً ، وتيمم كبرى المكرمات ثم عقب على ما عدد
بقوله : (فذلك) فأفاد أنه جدير بما بعد (فذلك) .

تحريره المسند إليه بأداة التحريف (أل)

وهو يتم في الحالات الآتية :

(١) إذا أريد بالمسند إليه الحقيقة نفسها :

أى بصرف النظر عما ينطوى تحتها من أفراد .

كقولك : الماء مبدأ كل حي ، والرجل أفضل من المرأة ، والكل أعظم من الجزء ، والحرير
أفضل من القطن ، وكقول المعري :

والخل كالماء يهدى لى ضمائره مع الصفاء ويخفيها مع الكدر

وقول الآخر :

الناس أرض بكل أرض وأنت من فوقهم سماء

وتسمى اللام في هذا الاستعمال لام الحقيقة أو لام الجنس .

(٢) إذا أريد بالمسند إليه بعض مبهم من أفراد الحقيقة :

كقول الله تعالى : « وأخاف أن يأكل الذئب وأنتم عنه غافلون » ، فال في الذئب تدل على
أن يعقوب عليه السلام كان يخشى أن يأكل يوسف ذئب ما من أفراد حقيقة الذئب .

ومثل لام (الذئب) لام (الغراب) في قول الشاعر :

ومن طلب العلوم بغير كد سيدركها متى شاب الغراب

وتسمى اللام في هذا الاستعمال لام العهد الذهني .

(٣) **إِذَا أُرِيدَ بِالْمَسْنَدِ إِلَيْهِ حِجَّةٌ مَعِينَةٌ مِنَ الْحَقِيقَةِ :**

كقول الله تعالى : « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة ، الزجاج كائنها كوكب دري » ، وكما إذا قال لك قائل : جاعني رجل من قبيلة كذا ورجلان من قبيلة كذا ، ورجال من قبيلة كذا فقلت له : الرجل أعرفه والرجلان أعرفهما والرجال أعرفهم ، وكقول الله تعالى ، « وليس الذكر كالأنثى » أي ليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي ولدت ، وتسمى اللام في هذا الاستعمال لام العهد الخارجي .

(٤) **إِذَا أُرِيدَ بِالْمَسْنَدِ إِلَيْهِ الْعَهْمُ وَالِاسْتِغْرَاقُ بِحَسَبِ الْحَقِيقَةِ أَوْ بِحَسَبِ الْخَرَفِ :**

فالأول كقولك : الغيب يعلمه الله ، وكقول الله تعالى : « والعصر * إن الإنسان لفي خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » وقوله تعالى : « ولا يفلق الساحر حيث أتى » .

والثاني : مثل : قابل العمال وزير العمل ، وقابل القضاة وزير العدل . فالاستغراق هنا ليس استغراقاً على الحقيقة ، وإنما هم عمال البلد الذي منه الوزير ، وقل مثل ذلك في القضاة الذين قابلوا وزير العدل (١) .

* * *

وقبل أن نمضي عن المسند إليه المعرف بـ (أل) نقول مع محمد بن علي محمد الجرجاني : «إن (أل) موضوعة للدلالة على تعيين المسمى كما أن التثوين موضوع للدلالة على عدم تعيينه ، وإفادتها الجنس أو استغراق الجنس أو العهد ، لا تكون إلا بقريئة لفظية أو معنوية فإذا لم توجد القريئة لم تخرج (أل) عن دلالتها على تعيين المسمى » (٢) .

وعندي أن هذه الإفادات أمور زائدة على تعريف المحلى بال وتعيينه : وكان مقتضى ذلك أن تكون لطائف بلاغية أو سبباً في لطائف بلاغية لولا أنها صارت مسلمات علمية : نحوية أو منطقية أو أصولية ، ومن هنا بطل فحواها البلاغى أو نقول في عبارة معتدلة بهت لونها البلاغى . والله أعلم .

(١) انظر السكاكي ص ٨٨ - ٨٩ والقزويني ج ١ ص ٨٤ - ٨٩ .

(٢) الإشارات والتنبيهات ص ٤٠ .

تعريف المسند إليه بالإضافة

لواعى تعريف المسند إليه بالإضافة كثيرة منها :

١ - ألا يكون لدى المتكلم طريق سواها لإجذاره فى ذهن السامع كقولك : غلام زيد مسافر (١) .

هذا كلام السكاكى ، وتقول له : إن تعريف المسند إليه بالإضافة فيما قلته ومثلت له مفروض علينا ، وليس أمامنا طريق آخر نسلكه ، والبلاغة تكون حيث يكون الاختيار ، ولا يكون الاختيار إذا كان إجبار .

٢ - ألا يكون للمتكلم إلى إجذاره فى ذهن السامع طريق أخصر من الإضافة ، وكان الموقف يستدعى الاختصار كقول جعفر بن عتبة الحارثى :

هواى مع الركب اليمانيين مصعد جنيب وجثمانى بمكة موثق
فهواى أخصر من الذى أهواه ونحوه ، وهو لهذا أنسب لجعفر الذى كان سجيناً بمكة عندما غادرتها حبيته .

٣ - إغناء الإضافة عن تفصيل متعذر كقول مروان بن أبى حفصة من قصيدة ، يمدح بها معن بن زائدة :

بنو مطر يوم اللقواء كأنهم أسود لها فى غيل خفان أشبل
(بنو مطر) : قوم معن ، وهم بطن من شيبان ، الغيل : الشجر المجتمع ، خفان : مأسدة قرب الكوفة ، والأشبل : أولاد الأسود .

والشاهد فى قوله (بنو مطر) فقد أغنت الإضافة فيه عن تفصيل متعذر وقد يكون التفصيل متعسراً إما بسبب الكثرة نحو: تظاهر سكان القاهرة وإما بسبب الحرج من تقديم بعض على بعض دون مبرر مقنع نحو : أفتى علماء المذهب بكذا .

وقد يكون التفصيل مرجوحاً كقول الحارث بن ولة الذهلى :

قومى هم قتلوا أميم أخى فإذا رميت يصيبنى سهمى

(١) المفتاح ص ٨٩ .

فقد أغنت الإضافة في (قومي) عن تفصيل تركه أرجح من ذكره اجتماعياً وعملياً .
٤ - أوج تفييد الإضافة تحظير شائج المضاف كقول الله تعالى : « إن عبادي ليس لك عليهم سلطان » وكقولك : رسول الخليفة في البلدة .
أو تعظيم شأن المضاف إليه كقولك : جاء خادمي ، فتعظم شأنك بأن لك خادماً . وقولك :
عمارتي ضخمة فخمة ؛ فتعظم نفسك بأن لك عمارة ضخمة فخمة .
أو تعظيم غير المضاف وغير المضاف إليه ، كقولك : مندوب الملك استقبلني ومحافظ
العاصمة زارني .

٥ - أوج تفييد الإضافة تحقير شائج المضاف كقولك : أبو الخائن حضر ، أو
تحقير المضاف إليه كقولك : أخو إبراهيم لص .

أو تحقير غير المضاف وغير المضاف إليه مثل : أم الخائن خالتك .

٦ - أوج تؤذي الإضافة نكتة لطيفة كقول الشاعر:

إذا كوكب الخرقاء لاح بسحرة سهيل أذاعت غزلها في القرائب

أضاف الكوكب إلى المرأة الخرقاء هزأً بها وسخرية منها لكانه كوكبها الخاص بها
والذي لا يطلع إلا لها ، وذكر أنها - لخرقتها - لا تتذكر كسوة الشتاء إلا إذا طلع سحراً وهو
لا يطلع سحراً إلا في الشتاء ، يشنع عليها بغفلتها وكسلها ويقعوها عن تدبير أمرها في
الوقت المناسب .

ولا تبعد دلالة الإضافة في البيت السابق عن دلالتها في قول الله تعالى على لسان
فرعون : « إن رسوالم الذي أرسل إليكم لمجنون » فهو لم يضيف المسند إليه (رسول) إلى
ضمير المخاطبين (كم) على سبيل الإقرار برسالة موسى ، لكن على سبيل المخرفة والتهكم
بموسى وبمن صدقه وأمن به (١) .

ثانياً : تعريف المسند

في أسلوب حوارى شيق عالج السكاكى تعريف المسند بقوله : « وأما الحالة المقتضية
لكونه اسماً معرفاً فهي إذا كان عند السامع متشخصاً بإحدى طرق التعريف معلوماً له .

(١) السكاكى ص ٨٩ وبغية الإيضاح ج ١ ص ٩٠ - ٩١ وعلوم البلاغة للمراعى ص ١٤٤ .

وكأني بك أسمعك تقول : فالمسند إذا كان متشخصاً عند السامع معلوماً له استلزم لا م
كون المسند إليه معلوماً له أيضاً ، وإذا كانا معلومين عنده فماذا يستفيد ؟ .

ويجيب : يستفيد إما :

لازم الحكم (لازم فائدة الخبر) كما ترى في قولك لمن أثنى عليك بالغيب : « الذي
أثنى على بالغيب أنت » معرفاً أنك عالم بذلك .

أو الحكم (فائدة الخبر) كقولك لمن تعرف أن له أخاً ويعرف إنساناً يسمى زيداً أو
يعرفه بحفظ التوراة أو تراه بين يديه لكن لا يعرف أن ذلك الإنسان هو أخوه إذا قلت له :
أخوك زيد ، أو أخوك الذي يحفظ التوراة أو أخوك هذا ، فقدمت الأخ ، أو إذا قلت : زيد
أخوك ، أو الذي يحفظ التوراة أخوك أو هذا أخوك فأخرت الأخ ، معرفاً له في جميع ذلك أن
أحدهما أخو الآخر ^(١) .

وكلام الـ كاكى واضح كائنه من كلام أهل العصر ، ونستخلص منه ما يأتي :

(أ) تعريف المسند يستلزم تعريف المسند إليه ، فليس في كلام العرب مسند معرفة
لمسند إليه نكرة .

اب) أغراض تعريف المسند إما :

١ - إفادة المخاطب الحكم به على مسند إليه معرفة :

وذلك إذا كان يجهل هذا الحكم قبل أن نقوله له كما في المثال الثاني من كلام السكاكي .

وقد سبق أن البلاغيين يسمون هذا الغرض فائدة الخبر .

**٢ - وإما إفادة المخاطب أن المتكلم يعلم حقيقة الحكم بالمسند
المعرفة على المسند إليه المعرفة :**

وذلك إذا كان المخاطب يعلم هذه الحقيقة ، ولكنه يجهل أن المتكلم أيضاً يعرفها كما في
المثال الأول من كلام السكاكي ، وقد سبق أن هذا الغرض هو ما اصطلح البلاغيون على
تسميته لازم فائدة الخبر .

٣ - إفادة قصر المسند المعرفة على المسند إليه المعرفة قصراً إضافياً ، ولا يتأتى ذلك
(١) مفتاح العلوم ص ١٠١ - ١٠٢ .

إلا إذا كان المسند معرّفاً بأل الجنسية كقولك : فيصل المسافر وعلاء العاقل وكارم المجامل
ومحمد المجتهد وناصر الذكي ، قاصداً قصر كل صفة من الصفات المذكورة على صاحبها .
ونحن مع الغرضين الأول والثاني (فائدة الخبر) و (لازم فائدة الخبر) أمام الغرضين
الحقيقيين من أغراض الخبر .

والأغراض الحقيقية في الحقل البلاغي تقابل بالأغراض البلاغية ، وهي الأغراض ذات
اللطائف الدقيقة والاعتبارات الذوقية .

أما الغرض الثالث وهو قصر المسند على المسند إليه قصراً إضافياً لا حقيقياً ، فهو
جزء صغير من (هيولا) أسلوب القصر . وستأتي دراسته دراسة مستقلة منفصلة .

التنكير

أولاً : تنكير المسند إليه :

ينكر المسند إليه تحقيقاً لغايات بلاغية كثيرة منها :

١- الدلالة على واجد مبهوم من الرزين يصحق عليهم لفظ المسند
إليه :

إما لقصد الأفراد كقولهم « ويل أهون من ويلين » ، وإما لعدم تعلق الغرض بتعيينه كقول
الله تعالى : « وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى » ، فالغرض إنما هو أن موسى بلغ بما
دبره فرعون له . لا بمن بلغه .

٢- التنبيه على نوع معين من أنواع المسند إليه :

كقول الله تعالى : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة » أي نوع
خاص من أنواع الأغشية هو غشاء التعامى عن الحق ، وكقول الشاعر :

لكل داء دواء يستطب به إلا الحماسة أعت من يداويها
أي دواء خاص بهذا الداء .

٣- التكثر :

كقول الله تعالى : « قالوا : أئن لنا لأجراً » أي لأجراً كبيراً ، وكقولهم : « إن لنا لإبلاً ،
وإن لنا لغنماً » ، يفتخرون بكثرة إبلهم وغنمهم .

٤ - التقليل :

كقول الله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ورضوان من الله أكبر » أى ومقدار يسير من رضوان الله أكبر من كل ما مر ، لأن رضاه سبب كل سعادة وفرح ، وكقولك لسائل طرق بابك : لو كان عندى شئ لأعطيتك .

(٥) التعظيم :

كقول الله تعالى : « ولكم فى القصاص حياة » أى حياة وادعة يأمن فيها الإنسان على نفسه وأهله ، وكقولك لابنك الناجح « لك عندي هدية » أى عظيمة .

(٦) التحقير :

كقول الله تعالى : « ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك » أى نفحة خفيفة من العذاب ، وقوله تعالى : « إن نظن إلا ظنا » أى ضعيفاً .

ومن التعظيم والتحقير معاً قول مروان بن أبى حفصة مادحاً :

فتى لا يبالى المدلجون بناره	إلى بابه ألا تضى الكواكب
يصم عن الفحشاء حتى كأنه	إذا ذكرت فى مجلس القوم غائب
له حاجب عن كل شئ يشينه	وليس له عن طالب العرف حاجب

فتنكير (فتى) و (حاجب) الأولى للتعظيم ، وتنكير (حاجب) الثانية للتحقير .

ومن التعظيم والتحقير معاً أيضاً قول الشاعر :

ولله منى جانب لا أضيعة ولله منى والخلاعة جانب

فتنكير (جانب) الأولى للتعظيم ، وتنكير (جانب) الثانية للتحقير .

وقد يجتمع التعظيم والتكثير كقول الله تعالى : « وإن كذبوك فقد كذبت رسل من قبلك » أى رسل نوب عدد كثير ثم هم رسل أى صفوة ، كما قد يجتمع التحقير والتقليل كقول الله تعالى : « لو كان لنا من الأمر شئ » أى شئ أى شئ ولو كان قليلاً وحقيقياً . والفرق بين التعظيم والتكثير أن الأول ينظر فيه إلى الكيف والثانى ينظر فيه إلى الكم وهو الفرق بين

التحقير والتقليل (١) .

ولم يفرق السكاكى بين التعظيم والتكثير ولا بين التحقير والتقليل .
ولعله نظر فى ذلك إلى أن التعظيم كما يكون بالكيف يكون بكثرة العدد ، وإلى أن التحقير
كما يكون بالضعفة يكون بالقلة .

والحق أنك لو نظرت فى أمثلة التقليل لوجدت الكثير منها يحتمل التحقير وبالعكس ، كما
أنك لو نظرت إلى أمثلة التكثير لوجدت الكثير منها يحتمل التعظيم وبالعكس .

(٧) التهوويل :

كقول الله تعالى على لسان إبراهيم : « يا أبت إنى أخاف أن يمسخ عذاب من الرحمن » .
وكقولك : دهم المؤسسة التى أعمل بها حريق .

(٨) إخفاء المسند إليه عن المخاطب خوفاً عليه منه كقولك لمن تسائله : أبلغنى شخص
أنك سرقت ، وقال لى قائل إنك قتلت .

(٩) أن يمنع من تعريفه مانع نوقى مثل :

إذا سئمت مهئسده يمينن لطلول العهد بدلها شمالاً
نكر (يمين) لئلا ينسب السأم إلى يمين مملوحة (٢) .

ثانياً : تنكير المسند

ينكر المسند لأغراض بلاغية كثيرة منها :

(١) القصد إلى انتفاء حصر المسند فى المسند إليه ، وإلى عدم العهد والتعيين فى
المسند .

تقول لصاحبك : أنت مخلص ، ولا تقول له : أنت المخلص ، لأنك لا تخلص له ذلك لأفاد
كلامك أن صاحبك هو المخلص الذى لا مخلص سواه ، أو هو المخلص اليهود فى الأصدقاء
المخلصين ؛ وأنت لا تريد أحد المعنيين بل تريد مجرد الحكم بإخلاصه .

(١) انظر علوم البلاغة للمراغى ص ١٥٠ .

(٢) السكاكى ص ٩٢ والقزوينى ص ٩٢ - ٩٦ ومجموع الأدب ص ٢٢ - ٢٣ والمنهاج الواضح ج ٢ ص
١٤٢ .

(٢) القصد إلى تفخيم المسند وتعظيمه:

كقول الله تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » فقد أفاد تنكير (هدى) تفخيم هداية القرآن وتعظيمه إلى درجة لا يكتفه كتبها على حد قول السكاكي ، وكقوله تعالى: « إن زلزلة الساعة شيء عظيم » .

(٣) القصد إلى تحقيره وتقليله كقولك : « نصيبى من التركة شيء » أى شيء حقير قليل ، وكقول قيس بن جرادة يخاطب عمرو بن هند :

غدرت بأمر كنت أنت دعوتنا . إليه وبئس الشيمة الغدر بالعهد
وقد يتروك الغدر الفتى وطعامه إذا هو أمسى حلبة من دم الفصد
أى وطعامه قليل حقير (١) .

أحوال متعلقات الفعل

فى باب متعلقات الفعل وما فى معناه مما يعمل عمله استوقفنى أن البلاغيين عللوا لحذف أحد قيوده ، وهو المفعول به ، علما بأنه ليس ركناً من أركان الجملة إذ هو ليس مسنداً إليه ولا مسنداً ، وكان المنتظر العكس وهو أن يعللوا لذكره لا لحذفه . قد يقال : إن الفعل إما متعد وإما لازم ، وهم قد عللوا لحذف مفعول الفعل المتعدى . فأقول : وماذا تركوا للنحويين !!؟

ولأن لحذف مفعول الفعل المتعدى عللاً بلاغية دقيقة جاريت البلاغيين فى عرض هذا الموضوع هنا مع تقديرى للنحويين وثقتى بأننا لو تركنا ذلك لهم لامتدوا وحدهم إليه . ومن المعروف أن عبد القاهر الجرجاني كان من كبار النحويين ، وأنه كان يقول عن علم المعانى الذى نحن فيه : علم معانى النحو .

ومن العلل البلاغية لحذف مفعول الفعل المتعدى ما يأتى :

(١) انحصار القصد فى النسبة الفاعلية ، أى فى إسناد الفعل إلى الفاعل دون نظر إلى تعلقه بمفعول ، كأن أقول: ذاكر الطلاب أو الطلاب يذاكرون ، وكأن يقول الأبناء لأهمم التى تطلب منهم أن يأكلوا : ألا ننتظر حتى نأكل مع والدنا ؟ فتجيبهم : والله أكل ، ومن ذلك قوله تعالى فى قصة موسى عليه السلام : « ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من

(١) المفتاح ص ١٠٠ - ١٠١ ويغية الإيضاح ج ١ ص ١٨٩ .

الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تنودان قال ما خطبكما ؟ قالتا : لا نسقى حتى يصدر الرعاء ، وأبونا شيخ كبير فسقى لهما .

فالأفعال « يسقون » و « تنودان » و « نسقى » و « فسقى » قد حذفنا مفاعيلها لانحصار المقصود منها في النسبة الفاعلية بالمعنى الذى شرحناه في مطلع هذه الفقرة .

(٢) إرادة العموم في المفعول به ، وأنه لا يقصد به فرد معين من أفرادهم كقولهم : فلان يحل ويربط ويأمر وينهى ويضر وينفع ويعطى ويمنع ، ويصل ويقطع ويبنى ويهدم . وكقول الله تعالى : « وأنه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيا » وقوله تعالى : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

هذا ما قرره البلاغيون ، والفرق دقيق بين الفقرتين ١ ، ٢ حتى يمكن القول بأنهما علة واحدة مزدوجة الغرض ، دليل ذلك أننا لو مثلنا بأمثلة العلة الأولى للعلة الثانية ، وبأمثلة العلة الثانية للعلة الأولى ما كنا مخطئين ، وفي كتب البلاغيين مصداق ما نقول (١) .

(٣) دفع أن يتوهم السامع في أول الأمر إرادة شئ غير المراد ، كقول البحتري :

وكم زدت عنى من تحامل حادث وسودة أيام حزنن إلى العظم

إذ لو قال : « حزنن اللحم » لجاز أن يتوهم السامع قبل ذكر ما بعده أن الحزن كان في بعض اللحم ولم ينته إلى العظم ، فترك ذكر اللحم ليبرئ السامع من هذا الوهم ويصور في نفسه من أول الأمر أن الحزن مضى في اللحم حتى لم يرد إلا العظم .

(٤) أن يكون في ذكر المفعول به خروج على آداب المدح ونوع من سوء الأدب في حق المدح .

وقد نجا البحتري من ذلك في بيته الذى خاطب به الخليفة المعتز قال :

قد طلبنا فلم نجد لك فى السؤ دد والمجد والمكأارم مثلاً

يقول الجرجاني : « فإنه لو بدأ بقوله : قد طلبنا مثلاً لكان فيه ما فيه » (٢) وصدق .

ولم يكن القزوينى موقفاً وهو يعلل حذف المفعول به في هذا البيت بأنه أريد ذكره ثانياً

(١) انظر المفتاح ص ١١٠ والإيضاح ج ٢ ص ٢ - ١٢ والإشارات والتنبيهات ص ٨١ - ٨٢

(٢) الإشارات ص ٨٢

على وجه يتضمن إيقاع الفعل على صريح لفظه إظهاراً لكمال العناية بوقوعه عليه « (١) .
- **فأولاً** :- لم تُذكر (مثلاً) في البيت إلا قافية ، ولا يقول أحد إنها مقدره ، فالمقدر لم يذكر .

وثانياً :- كمال العناية بالممدوح قد تمثلت في حذف (مثلاً) لا في إيقاع الفعل على لفظ (مثلاً) ، وكلام القزويني بناء على ذلك في غير محل .

(٥) أن يكون في ذكر المفعول به نوع قبح لدلالته على ما لا ينبغي التصريح به كقول عائشة رضي الله عنها : « كنت أغتسل أنا ورسول الله ﷺ في إناء واحد فما رأيت منه ولا رأى مني » تعنى العورة .

٦ - أن يحذف للاختصار ، أو لأمر لفظي كرعاية الفاصلة في النثر والوزن في الشعر .
فالأول كقولك : أصغيت إليه أي أذني ، وأغضيت عنه ، أي بصري . وكقول الله تعالى : « أرني أنظر إليك » أي ذاتك ، وقوله تعالى : « أهذا الذي بعث الله رسولاً » أي بعثه .
والثاني : كقول الله تعالى : « والضحي ، والليل إذا سجي ، ما ودعك ربك وما قلى » فالأصل « وما قلاك » وكقول الشاعر :

بناها فأعلى والقنا يقرع القنا ومسوج المنايا حولها متلاطم

أي فأعلاها .

٧ - **الإيجاز بجمع الأبحاث** تقريراً للمعنى في نفس القارئ أو السامع ، ويكثر ذلك في فعل المشيئة وما في معناه إذا وقع شرطاً ، وإذا لم يكن في مفعوله غرابة ، نقول : لو شئت جئت أو لم أجي .

أي لو شئت المجيء ، أو عدم المجيء ، يقول القزويني : « فإنك متى قلت : لو شئت علم السامع أنك علقت المشيئة بشئ فيقع في نفسه أن هنا شيئاً تعلقت به مشيئتك بأن يكون أولاً يكون ، فإذا قلت : جئت أو لم أجي عرف ذلك الشئ .

ومنه قوله تعالى : « فلو شاء لهداكم أجمعين » وقوله تعالى : « فإن يشأ الله يختم على قلبك » وقوله تعالى : « من يشأ الله يضلله » ، وقول طرفه في وصف ناقته :

(١) بغية الإيضاح ج ٢ ص ٨ .

فإن شئتُ لم ترقل وإن شئتُ أرقلت مخافة ملوى من القدِّ مُحصَدِ
لم ترقل أى لم تسرع ، والملوى : السوط ، والقد : الجلد المشقوق . والمحصد : المفتول
المحكم « وقول البحترى :

لو شئتُ عدت بلاد نجد عودة فصلت بين عقيقه وزروده

(العقيق والزود : موضعان بنجد) وقوله (البحترى) :

لو شئتُ لم تفسد سماحة حاتم كرمأ ولم تهدم مأثر خالد

(حاتم هو حاتم الطائي ، أما خالد فهو خالد بن إصبع النبهاني) (١) .

* * *

ومن أمثلة حذف المفعول به لفعل فى معنى فعل المشيئة قول الشاعر :

ولو أنى استطعت خفضت طرفى فلم أبصر به حتى أراكا

يقصد : لو أنى استطعت خفض الطرف خفضت طرفى ، والمفعول المحذوف لأفعال
المشيئة وما فى معناها إنما هو المصدر المقدر من فعل الجواب يقول الجرجاني : « وإن كان
فى المفعول به غرابة فلا بد من ذكره كقولك مظهراً عزك : لو شئت أن أرد على الأمير
لرددت ، وعليه قول الشاعر :

ولو شئتُ أن أبكى دماً لبكيت عليه ولكن ساحة الصبر أوسع (٢)

٨ - إمكأن إنكار أنه مقصود بك :

كقولك : (لعن الله وأخزى) تقصد شخصاً معيناً ، فإذا أخذت أمكنك القول بأنك
لا تقصده .

٩ - تعيينه حقيقة مثل : نحمد ونشكر ، أى الله سبحانه وتعالى ، أو ادعاء نحو نحب
ونكرم ، تريد شخصاً معيناً لكنك حذفته مدعياً تعينه وأن أحداً لا يستحق الحب والإكرام
غيره .

(١٠) يحونه عن لسانك لرفعته ، أو يحون لك عنه لرفعته .

فالأول مثل : نحب ونجل تريد المصطفى ﷺ .

والثانى مثل : لعن الله وطرده .. تريد الشيطان الرجيم .

وواضح أن الفهم للعلل الثلاث السابقة متوقف على القرينة ، وغالباً ما تكون قرينة عالية
لا لفظية . والله أعلم .

(١) بغية الإيضاح ج ٢ ص ٦ .

(٢) الإشارات ص ٨٢ .

تقديم متعلقات الفعل وما في معناه عليه

تتردد الأغراض التي يحققها هذا التقديم بين أن تكون أغراضاً حقيقية لا دخل للبلاغة فيها وأن تكون أغراضاً بلاغية تعرض لها هنا من حيث هي كلام بليغ ومقال يقتضيه المقام. فمن الأغراض الحقيقية تصحيح خطأ المخاطب : كقولي لمن اعتقد أنني صادقت إنساناً وأنه غير محمد : محمداً صادقت ، وإذا أردت تأكيد كلامي وتقريره في نفس سامعه قلت : محمداً صادقت لا غيره .

ومن الأغراض البلاغية التخصيص :

والتخصيص هو القصر ، والقصر مبحث مستقل من مباحث علم المعاني مكانه بعد ما نحن فيه وما نحن فيه هو متعلقات الفعل ، ولكن ما هو ذا القزويني يستعجله ويبشر به في قوله : « والتخصيص في غالب الأمر لازم للتقديم ، ولذلك يقال في قوله تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين » معناه : نخصك بالعبادة لا نعبد غيرك ، ونخصك بالاستعانة لا نستعين غيرك ، وفي قوله تعالى : « إن كنتم إياه تعبدون » معناه إن كنتم تخصونه بالعبادة وفي قوله تعالى : « لآلى الله تحشرون » معناه : إليه لا إلى غيره .

وقد أخرجت صلة الشهادة في قوله تعالى : « لتكونوا شهداء على الناس » وقدمت في قوله تعالى : « ويكون الرسول عليكم شهيدا » لأن الغرض في الأولى إثبات شهادتهم على الأمم ، وفي الثانية اختصاصهم بكون الرسول شهيداً عليهم « (١) .

* * *

ولا يقتصر التقديم على إفادة التخصيص ، بل يفيد مع التخصيص الاهتمام بشأن المقدم كقول الله تعالى : « قل أغير الله أبغى رياً » وقول الشاعر :

أكلُ امرئٍ تحسبين امرءاً وناراً توقد في الليل ناراً

ولهذا يقدر المحنوف في « باسم الله » مؤخراً ، وعلى حد قول السكاكي : « فعلى المؤمن في نحو (باسم الله) إذا أراد تقدير الفعل معه أن يؤخر الفعل نحو « باسم الله أقرأ أو أكتب » (٢) .

(١) بنية الإيضاح ج ٢ ص ١٥ - ١٧ طبعة ٢ .

(٢) مفتاح العولم ص ١١٣ .

ولما اعترض على ذلك بقول الله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذي خلق » أجيب بأن تقديم الفعل هنا أهم ، لأنها أول سورة نزلت ، وأجاب السكاكي بأن « باسم ربك » متعلق بأقرأ الثاني « اقرأ وربك الأكرم » أما « اقرأ » الأول فمعناه : افعل القراءة وأوجدتها (١) .

وعلى ذكر السكاكي نقرر أنه أصل كل ما قاله القزويني ، لكن برز عنده غرض طريف لتقديم بعض متعلقات الفعل عليه ، وهذا الغرض هو :

التعريض:

واندعه هو يتكلم قال : « وفي معنى قوله تعالى : (وبالآخرة هم يوقنون) ، نذهب إلى أنه تعريض بأن الآخرة التي عليها أهل الكتاب فيما يقولون إنها لا يدخل الجنة فيها إلا من كان هوداً أو نصارى ، وأنها لا تمسهم النار فيها إلا أياماً معدودات . وأن أهل الجنة فيها لا يتلذذون إلا بالنسيم والأرواح العبقة والسماع اللذيذ ، ليست بالآخرة ، وإيقانهم بمثلها ليس من الإيقان بالتي هي الآخرة عند الله في شيء » .

ويسبيل مما مر قوله مستطرداً ، بل عائداً إلى التعريض بعد أن كان قد مضى عنه : « وتسمعهم في قوله تعالى : « لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون » يقولون : قدم الظرف تعريضاً بخمور الدنيا وأن المعنى : هي على الخصوص لا تغتال المقول اغتيال خمور الدنيا ويقولون في قوله تعالى : « ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه » .

يمنتع تقديم الظرف على اسم لا ، لأنه إذا قدم أفاد تخصيص نفي الريب بالقرآن ، ويرجع دليل خطاب على أن ريباً في سائر كتب الله .

وعلى هذا متى قلت : إذا خلوت قرأت القرآن أفاد تقديم الظرف اختصاص قراءتك به ، ورجع إلى معنى : لا أقرأ إلا إذا خلوت فافهم » (٢) .

وقد أضاف الشيخ عبد المتعال الصعيدي إلى ما سبق من الأنراض البلاغية :

التبرك بالمقدم ، أو استلذاذه ، أو موافقته لكلام السائل مثل :

محمدأ اتبعت ، ومنى أحببت ، وناصرأ أكرمت ، في جواب من أكرمت ؟ قدمت (ناصرأ)

(١) المرجع السابق نفسه .

(٢) مفتاح العلوم ص ١١٢ .

ليوافق مقابله في كلام السائل وهو (مَنْ) الاستفهامية ، فمن المقرر أن الاستفهام له الصدارة في الكلام (١) .

وأما الشيخ حامد عوني فقد أضاف الفائدة التالية لتقديم متعلقات الفعل عليه وهي :

رعاية الفاصلة أو النزول على حكم الوزن والقافية :

فمن رعاية الفاصلة قول الله تعالى : « خذوه فغلوه ، ثم الجحيم صلّوه ، ثم في سلسلة ذرعا سبعون ذراعاً فاسلكوه » .

وقوله تعالى : « فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر » ، وقوله تعالى : « وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

ومن النزول على حكم الوزن والقافية قول الأقيشر الأسدي :

سريع إلى ابن العم يلطم وجهه وليس إلى داعي الندى يسريع
حريص على الدنيا مضيق لدينه وليس لما فسى بيته بمضيق
وقول العباس بن الأحنف :

قلبي إلى ما ضرب بي داع يكثر أسقامي وأوجاعي

وقول أحمد بن محمد الشامي في مطلع قصيدته التي أنشدها في ندوة الرفاعي بالرياض بمناسبة فوز صديقه الشيخ محمود محمد شاكر بجائزة الملك فيصل العالمية في الأدب سنة ١٤٠٤هـ .

على ربع سلمى عج مع الركب زائراً وحيى به من كان للعهد ذاكراً (٢)
وعن تقدير بعض متعلقات الفعل على بعض نقول :

إنها لا تختلف عن تقديم بعض متعلقات الفعل على الفعل من حيث إن منها تقديماً واجباً ، وهو لذلك حقيقي لا بلاغة فيه ، لأنه لا اختيار معه .

(١) بغية الإيضاح ج ٢ ص ١٧ هامش رقم ٣ .

(٢) المنهاج الواضح ج ٢ ص ٣٤٣ وصحيفة الشرق الأوسط العدد ١٩٣٨ السنة السادسة ١٣٦٧/٦/١٤٠٤هـ
١٩٨٤/٣/١٩م .

وعندى أن المقدم لا يصح أن يسمى - من وجهة نظر البلاغة - مقدماً إلا إذا كانت رتبته التأخير ، ولكنه قدم عن موضعه الذى كنا نتوقع أن نراه فيه ، أما أن تأتى إلى الجملة الفعلية مثل : نصح محمد محموداً فى السر ، وأعطيت العامل الأجر الزائد أمام الناس .

ونعلل لتقديم الفعل على الفاعل ، ولتقديم الفاعل على المفعول به ، ولتقديم المفعول به على الجار والمجرور فى الجملة الأولى .

ولتقديم المفعول الأول على المفعول الثانى ، ولتقديم صاحب الحال على الحال ، ولتقديم الحال على الظرف فى الجملة الثانية .

فهذا كله ومثله لا يمت إلى البلاغة بصلة ولو واهية .

فلنسقط من مفتاح السكاكى ومن إيضاح القزوينى ذلك الركام الكثير الذى نجده فيهما عند كلامهما عن تقديم بعض متعلقات الفعل على بعض .

ولست أدرى كيف غاب ذلك عن السكاكى فقال : « أن يكون أصل الكلام هو التقديم ، ولا يكون فى مقتضى الحال ما يدعو إلى العدول عنه كالمبتدأ المعرف فإن أصله التقديم على الخبر نحو زيد عارف (لاحظ أن هذا من تقديم المسند إليه على المسند وليس من تقديم بعض متعلقات الفعل على بعض لتدرك مقدار حاجة كتب البلاغة القديمة إلى غريبة شديدة)

وكذى الحال المعرف ، فأصله التقديم على الحال نحو جاء زيد ركباً ، وكالعامل فإن أصله التقديم على معموله نحو عرف زيد عمراً ، وكان زيد عارفاً ، وإن زيدا عارف ، ومن زيد ؟ و غلام زيد » (١) .

لقد ابتعد السكاكى عن موضوعه أكثر وأكثر بل لقد خرج عنه جملة فلنضرب صفحاً عن ذلك ، ولنقف من التقديم أو التأخير عند ما هو بلاغى حقيقى .

يقول القزوينى صاحب تلخيص المفتاح وصاحب شرحه المسمى بالإيضاح ، والحق أن المفتاح والإيضاح مفتاحان لقفل واحد هو قفل البلاغة العربية ، ومفهوم أن عمل أى مفتاح إنما هو عمل مزوج ، فهو يفتح مثلما يغلُق ، ويغلُق مثلما يفتح « ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين » . يقول القزوينى :

(١) مفتاح العلوم ص ١١٣ .

(١) وإِما لِأَنَّ ذِكْرَهُ أَهْمٌ وَالْحِضَانِيَّةُ بِهِ أَتَمُّ فَيَقْدِمُ الْمَفْعُولُ عَلَى الْفَاعِلِ :

إذا كان الغرض معرفة وقوع الفعل على من وقع عليه لا وقوعه ممن وقع منه كما إذا خرج رجل على السلطان وعاش في البلاد وكثر منه الأذى فقتل وأردت أن تخبر بقتله فتقول : قتل الخارجي فلان .

إذ ليس للناس فائدة في أن يعرفوا قاتله ، وإنما الذي يريدون علمه هو وقوع القتل به ليخلصوا من شره .

ويقدم الفاعل على المفعول به إذا كان الغرض معرفة وقوع الفعل ممن وقع منه لا وقوعه على من وقع عليه ، كما إذا كان رجل ليس له بأس ، ولا يقدر فيه أن يقتل ، فقتل رجلاً وأردت أن تخبر بذلك فتقول : قتل فلان رجلاً بتقديم القاتل لأن الذي يعنى الناس من شأن هذا القتل ندوره وبعده من الظن ، ومعلوم أنه لم يكن نادراً ولا بعيداً من حيث كان واقفاً على من وقع عليه ، بل حيث كان واقفاً ممن وقع منه ، وسليه قوله تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم » وقوله تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم » .

قدم المخاطبين في الأولى دون الثانية ، لأن الخطاب في الفقرة الأولى للفقراء بدليل قوله تعالى : « من إملاق » فكان رزقهم أهم عندهم من رزق أولادهم ، فقدم الوعد برزقهم على الوعد برزق أولادهم .

والخطاب في الثانية للأغنياء بدليل قوله تعالى : « خشية إملاق » فإن الخشية إنما تكون مما لم يقع ، فكان رزق أولادهم هو المطلوب دون رزقهم لأنه حاصل ، فكان رزق أولادهم أهم ، فقدم الوعد برزق أولادهم على الوعد برزقهم .

(٢) وإِما لِأَنَّ فِي التَّأْخِيرِ إِخْلَالَ بَيِّنَاتٍ الْمَعْنَى :

كقوله تعالى : « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه » ، فإنه لو أخر (عن آل فرعون) عن (يكتم إيمانه) لأوهم ذلك أن (من) متعلقة بـ « يكتم » فلم يفهم أن الر. يل من آل فرعون ، والمطلوب بيان أنه منهم ، فكونه من آل فرعون ثم ينتصر لموسى دليل على عناية الله بموسى ورعايته له .

(٣) أو لؤ في التأخير إجمالاً بالتناسب :

ومن التناسب رعاية الفاصلة في النثر ، ورعاية الوزن والقافية في الشعر ، فالأول كقوله تعالى : « فأوجس في نفسه خيفة موسى » .

قدم فيه الجار والمجرور ، والمفعول لأجله على الفاعل ، مراعاة للتناسب بين الفواصل المختومة بألف لتكون على نسق واحد .

والثاني كقول العباس بن الأحنف :

سلبتني من السرور ثياباً	وكستني من الهموم ثياباً
كلما أغلقت من الوصل باباً	فتحت لى إلى المنية باباً
عذبينى بكل ما شئت سوى الصد	دُ فما ذقت كالصدود عذاباً

والشاهد أن الشاعر قدم الجار والمجرور على المفعول الثاني في شطرى البيت الأول .

وقدم الجار والمجرور على المفعول في شطرى البيت الثاني .

وقدم صفة المفعول به عليه في الشطرة الأخيرة من البيت الثالث .

القصر

لا يبعد المعنى الاصطلاحي للقصر من المعنى اللغوي له ، فمعناه اللغوي هو الحبس في أساس البلاغة « قصرته : حبسته ، وقصرت نفسي على هذا الأمر ، إذا لم تطمح إلى غيره ، وقصرت طرفي : لم أرفعه إلى ما لا ينبغي ، ومن قاصرات الطرف : قصرته على أزواجهن ، وقصر الستر : أرخاه . قال حاتم :

وما تشكيني جارتى غير أختى إذا غاب عنها زوجها لا أزورها
سيبلغها خيري ويرجع بعلمها إليها ولم تقصر على ستورها^(١)

* * *

أما في الاصطلاح البلاغي فالقصر هو تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص .
والشئ الأول هو المقصور ، والشئ الثاني هو المقصور عليه ، والطريق المخصوص هو أدوات القصر .

والمقصود بتخصيص الشئ بالشئ إثباته له ونفيه عن غيره .

فإذا قلت : ما حج من بيتنا هذا العام إلا أختي الأكبر ، فهمنا تخصيص الحج بالأخت الأكبر ونفيه عن بقية أفراد البيت ، وبهذا تكون جملة القصر بمثابة جملتين ، ففي القصر إيجاز ، وهو مع إيجازه يفيد التوكيد والمبالغة . والإيجاز والتوكيد والمبالغة من أسرار بلاغته .
وقد وضح من تعريفه أنه يتكون من عنصرين أساسيين هما : المقصور والمقصور عليه ، ويسمى البلاغيون هذين العنصرين (طرفي القصر) . وأي قصر باعتبار طرفيه قسمان : قصر صفة على موصوف ، وقصر موصوف على صفة .

والصفة في القصر أعم من الصفة في النحو ، فهي في القصر المعنى الذي يقوم بغيره ، وبعبارة أخرى : هي ما ليس ذاتاً ، أما الموصوف فهو في الغالب ذات جماداً كان أو نباتاً أو حيواناً أو إنساناً ، وقد يكون الموصوف معنى مثل : ما التفكير إلا نشاط ذهني ، وإنما الحب عاطفة .

أدوات القصر

أدوات القصر أي طرقه ، وهي كثيرة منها :

(١) أساس البلاغة ص ٣٦٧ - ٣٦٨ .

(١) العطف بأدوات مخرجة هي: (لا) و (لكن) و (بل) ؟

أما (لا) فتأتى فى المثبت مثل : محمد ناجح لا راسب ، وكارم كريم لا بخيل فى قصر الذات على المعنى أى فى قصر الموصوف على الصفة ، والمسافر فيصل لا ناصر والخاطب علاء لا خالد فى قصر المعنى على الذات أى فى قصر الصفة على الموصوف .

والمقصود عليه مع (لا) هو المذكور قبلها مباشرة ، وبعبارة أخرى هو المقابل لما بعدها .

وأما (لكن) فتأتى فى المنفى مثل : ما محمد راسباً لكن ناجح ، وما كارم بخيلاً لكن كريم فى قصر الذات على المعنى أى فى قصر الموصوف على الصفة ، وما المسافر ناصر لكن فيصل ، وما الخاطب خالداً لكن علاء ، فى قصر المعنى على الذات أى فى قصر الصفة على الموصوف .

والمقصود عليه مع لكن هو المذكور بعدها ذاتاً كان أو معنى .

ومثل (لكن) (بل) .

إذ يمكنك أن تحلها محل (لكن) فى الأمثلة السابقة ، وستجد أن الأداء البلاغى لـ (لكن) يختلف عنه مع (لكن) لا مبنى ولا معنى ، كما ستجد أن المقصود عليه فى العطف بها هو ما بعدها مثل لكن .

تقول : ما الحجر مظلمة بل مضيئة فى قصر الذات على المعنى أى فى قصر الموصوف على الصفة ، وما المسافر أبى بل عمى فى قصر المعنى على الذات أى فى قصر الصفة على الموصوف .

(٢) النفي والاستثناء:

تقول ما محمد إلا ناجح فتكون قد قصرت محمداً على النجاح قصر ذات على معنى أى قصر موصوف على صفة ، وتقول : ما ناجح إلا محمد فتكون قد قصرت النجاح على محمد قصر معنى على ذات أى قصر صفة على موصوف .

والمقصود عليه فى تلك الطريقة هو ما بعد أداة الاستثناء .

وليس يلزم أن تكون أداة النفي هي (ما) بل قد تحل محلها (لا) أو (إن) أو (ليس) ونحوها .

قال عليه السلام : « لا يحل للمرأة أن تسافر ثلاث ليالٍ إلا ومعها نور رحم » وقال تعالى : « إن أنت إلا نذير » ، وقال تعالى : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » كما أنه ليس بلازم أن تكون أداة الاستثناء هي (إلا) بل قد تحل محلها (غير) أو (سوى) وما في معناهما ، قال ابن الرومي :

لعمرك ما الحياة لكل حي^١ إذا نفذ الشباب سوى عذاب

وقال محمد حسن فقي :

ما ينبج الصيد الأشا وش للملاحم غير صيد

وقال البحترى :

لا أدعى لأبي العلاء فضيلة حتى يسلمها إليه عداه

ومن الجمع بين (لا) و (غير) قول ابن نباتة :

ولا عيب فيه غير أنى قصدته فأنستنى الأيام أهلاً وموطنا

وقول الشاعر :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

(٣) إنما :

وهي تنحل في المعنى إلى النفي والاستثناء . فإذا قلت : إنما محمد ناجح كان معنى ذلك : ما محمد إلا ناجح ، وإذا قلت : إنما الناجح محمد ، كان معنى ذلك : ما الناجح سوى محمد .

وبالاستقراء لاستعمالات (إنما) في كلام العرب عرفنا أنها تأتي لإثبات ما بعدها ونفي ما عداه ، وقد علل السكاكي ذلك بتضمنها معنى (ما) و (إلا) .

وبما نقله عن علي بن عيسى الربيعي النحوي البغدادي قال : « لما كانت إن لتأكيد إثبات المسند للمسند إليه ثم اتصلت بها (ما) المؤكدة ؛ نامسب أن تُضمن معنى القصر ، لأن قصر الصفة على الموصوف وبالعكس ليس إلا تأكيداً للحكم على تأكيد »^(١).

(١) مفتاح العلوم ص ١٤٠ .

والمقصود عليه مع (إنما) هو ما ختمت به جملة القصر ، ففي قول الله تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » المقصود عليه هو العلماء .

يقول القزويني عن (إنما) : « وإذا استقرت وجدتها أحسن ما تكون موقفاً إذا كان الغرض بها التعريض بأمر هو مقتضى معنى الكلام بعدها كما في قوله تعالى : « إنما يتذكر أولو الألباب » فإنه تعريض بدم الكفار وأنهم من فرط العناد وغلبة الهوى عليهم في حكم من ليس بذي عقل ، فأنتم في طمعكم منهم أن ينظروا ويتذكروا كمن طمع في ذلك من غير أولي الألباب ، وكذا قوله تعالى : « إنما أنت منذر من يخشاها » وقوله تعالى : « إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب » .

المعنى على أن من لم تكن له هذه الخشية فكأنه ليس له أذن تسمع وقلب يعقل ، فالإنذار معه كلاً إنذار .

ويتقوى القزويني في التمثيل لـ (إنما) الدالة على التعريض بما مثل لها به عبد القاهر من قول العباس بن الأحنف :

أنا لم أرزق محبتها إنما للعبد ما رزقا

فإنه تعريض بأنه قد علم أنه لا مطمع له في وصلها فينس من أن يكون منها إسعاف به ، وقوله :

وإنما يعذر العشاق من عشقا

إذ معناه : ينبغي للعاشق ألا ينكر لوم من يلومه فإنه لا يعلم كنه بلوى العاشق ، ولو كان قد ابتلى بالعشق مثله لعرف ما هو فيه فعذره .

ويقول الباخرزي :

ما أنت بالسبب الضعيف وإنما نجح الأمور بقوة الأسباب
فاليوم حاجتنا إليك وإنما يدعى الطبيب لساعة الأوصاب

يقول في البيت الأول : ينبغي أن أنجح في أمرى حين جعلتك السبب إليه ، ويقول في البيت الثاني : إنا قد طلبنا الأمر من جهته حين استعنا بك فيما عرض لنا من الحاجة وعولنا على فضلك ، كما أن من عول على الطبيب فيما يعرض من السقم كان قد أصاب في فعله ^(١) .

(١) بغية الإيضاح ج ٢ ص ٤٢ - ٤٤ ودلائل الإعجاز ص ٢٧٢ .

(٤) التقديم:

وهو ثلاثة أقسام :

(أ) تقديم المسند على نحو ما سبق في تقديم المسند ، كقول عمرو بن كلثوم :

لنا الدنيا ومن أضحى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا

(ب) تقديم المسند إليه على نحو ما سبق في تقديم المسند إليه كقول أبي الطيب :

وما أنا أسقمست جسمي به ولا أنا أضرمت في القلب نارا

(ج) تقديم بعض القيود على نحو ما سبق في تقديم بعض متعلقات الفعل أو ما في معناه عليه كقول الله تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين » وقوله تعالى « عليه توكلت وإليه أنيب » ، وكقول الشاعر :

وحياته أعطى الشهيد لقومه أترى أجل من الحياة عطاء

وقول الآخر :

إلى الله أشكو لا إلى الناس أننى أرى الأرض تبقى والأخلاء تذهب

والمقصود عليه في التقديم هو المقدم وهو :

(لنا) فى مثال (أ) قصر موصوف على صفة ؛ فالأصل : الدنيا كائنة أو حاصلة لنا .

و (أنا) فى مثال (ب) قصر صفة على موصوف .

و (إياك) و (عليه) و (إليه) و (حياته) و (إلى الله) فى أمثلة (ج) وهى من أمثلة قصر

الصفة على الموصوف .

* * *

وطرق القصر السابقة تتفق من وجه وتختلف من وجوه .

أما اتفاقها : ففى أن المخاطب بها لابد أن يكون قد حكم حكماً مشوباً بصواب

وخطأ ، وأنت تطلب بها تحقيق صوابه ونقى خطئه ، قرر السكاكى ذلك ووضحه بقوله :

« تحقق فى قصر القلب كون الموصوف على أحد الوصفين ، أو كون الوصف لأحد

الموصوفين ، وهو صوابه ، وتنشئ تعيين حكمه وهو خطؤه ، وتحقق فى قصر الأفراد حكمه

فى بعض وهو صوابه وتنفيه عن البعض وهو خطؤه » (١) .

(١) المفتاح ص ١٤١ .

أما اختلافها فيتلخص في أمور هي :

١ - الطرق الأولى الثلاث تدل على القصر بوساطة الوضع وجزم العقل ، أما التقديم فدلالته عليه بوساطة الفحوى وحكم النوق .

٢ - الأصل في القصر بالعطف النص على المثبت والمنفى كما ترى في قولك محمد ناجح لا راسب ، في قصر الموصوف على الصفة .

والمسافر فيصل لا ناصر ، في قصر الصفة على الموصوف .

أما الطرق الثلاث الأخرى ، فالأصل فيها النص على المثبت فقط كقولك :

ما أنا إلا سعودي ، وإنما أنا سعودي ، وسعودي أنا . في قصر الموصوف على الصفة . وقولك لا يحج إلا المسلم ، وإنما يحج المسلم ، والمسلم يحج ، في قصر الصفة على الموصوف .

٣ - الأصل في النفي والاستثناء أن يستعمل فيما يجله المخاطب وينكره أو يشك فيه كقولك لصاحبك وقد رأيتما شبحاً من بعيد ما هو إلا فيصل ، إذا وجدته يعتقد أنه غير فيصل ويصر على إنكار أنه فيصل أو على الأقل يشك في أنه فيصل . وذلك على العكس من الأصل في (إنما) .

فالأصل فيه أن يكون مما يعلمه المخاطب ولا ينكره ولا يشك فيه كقولك لمخاطبك : إنما هو أخوك أو إنما هو صديقك ، فالمخاطب هنا عالم بالأخوة وبالصدقة ، وما قصدت إلا أن ترفقه ، وإلا أن تنبهه لما يجب عليه من حق الأخ وحرمة الصديق .

على أنه قد ينزل المعلوم منزلة المجهول لاعتبار مناسب فيستعمل له النفي والاستثناء كقول الله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » أي أنه ﷺ مقصور على الرسالة لا يتعداها إلى التبرى من الهلاك .

نزل سبحانه وتعالى إنكارهم موته منزلة إنكارهم رسالته ، وكقوله تعالى : « وما أنت بمسمع من في القبور ، إن أنت إلا نذير » فإنه ﷺ كان لشدة حرصه على هداية الناس يكرر دعوة الممتنعين عن الإيمان ولا يرجع عنها ، فكان في معرض من ظن أنه يملك صفة الإنذار صفة إيجاد الشيء المستحيل وجوده .

* * *

كما قد ينزل المجهول منزلة المعلوم لادعاء المتكلم ظهوره فيستعمل له (إنما) كقوله تعالى على لسان اليهود : « إنما نحن مصلحون » .

ادعوا أن كونهم مصلحين ظاهر جلي ، ولذلك جاء قول الله تعالى في الرد عليهم « ألا إنهم هم المفسدون » مؤكداً بما نراه من اسمية الجملة ، وتعريف الخبر بآل وتوسيط ضمير الفصل ، والتصدير بحرف التنبيه ، ثم بإن .

ومثله قول عبد الله بن قيس الرقيات في مدح مصعب بن الزبير :

إنما مصعب شهاب من اللـ — تجلت عن وجهه الظلماء

ادعى أن كون مصعب كما ذكر جلي معلوم لكل أحد ، على عادة الشعراء إذا مدحوا أن يدعوا في كل ما يصفون به ممدوحهم الجلاء ، وأنهم قد شهرروا به حتى لا يدفعه أحد .

٤ - القصر بالعطف أقوى في الدلالة على التخصيص من القصر بالأدوات الأخرى ، ويليها النفي والاستثناء . فإنما ، فالتقديم .

وفي المقابل : للقصر بالأدوات الثلاث الأخرى مزية على القصر بالعطف ، وهي أنه يفهم منها إثبات الشيء ونفيه عن غيره دفعة واحدة بخلاف العطف .

٥ - لا يجتمع النفي والاستثناء مع النفي بلا العاطفة ، فلا يصح أن تقول ما شوقى إلا شاعر لا كاتب ، لأنك إذا قلت : ما شوقى إلا شاعر ، تكون قد نفيت كل صفات شوقى غير الشاعرية ، وبهذا تكون الكتابة قد نفيت ضمن الصفات المنفية الأخرى ، فإذا أردت ما سبق بقولك (لا كاتب) تكون قد نفيت بلا العاطفة أمراً هو منفي قبلها بما النافية .

يقول السكاكي : « والطريق الأول (القصر بلا العاطفة) لا يجامع الثاني (القصر بالنفي والاستثناء) فلا يصح : ما زيد إلا قائم لا قاعد ، ولا ما يقوم إلا زيد لا عمرو ، والسبب في ذلك هو أن (لا) العاطفة من شرط منفيها ألا يكون منفيها قبلها بغيرها من كلمات النفي ، نحو جاعى زيد لا عمرو ، ونحو : زيد قائم لا قاعد أو متحرك لا ساكن أو موجود لا معدوم ، ويمتنع تحقق شرطها هذا في منفيها إذا قلت : ما يقوم إلا زيد لا عمرو ، ما زيد إلا قائم لا قاعد (١) .

* * *

(١) انظر السكاكي ص ١٤١ - ١٤٢ ، وبغية الإيضاح ج ٢ ص ٢٨ - ٤٢ : والإشارات والتنبيهات ص ٩٠ .

وقبل أن نغادر أدوات القصر ننبه إلى أن ما ذكرناه منها ليس إلا أظهرها وأشهرها ، وقد أوصلها السيوطى فى الإتيان إلى أربعة عشر طريقاً^(١) منها :

١ - ضمير الفصل مثل ناصر هو الأول .

٢ - التصريح بلفظ (وحده) أو (ليس غير) أو (فقط) ، تقول : عرفت فلاناً وحده أو ليس غير أو فقط .

٣ - تعريف المسند إليه والمسند مثل : محمد الناجح ، خير الزاد التقوى .

٤ - استعمال مادة خص وقصر ونحوها . أقول خصصت فلاناً بحبى وقصرت احترامى على فلان ، وعكفت على التأليف ، ووقفتى الآن وقف على إنجاز البلاغة الاصطلاحية .

ومع أن هذه الأساليب ونحوها تتوزع على المعنيين اللغوى والاصطلاحى للقصر ، فإن ما يتبادر إلى الذهن عند سماع (أدوات القصر) ليس سوى الأدوات الأربع الأولى ، ولا عجب فهى التى دار البحث فيها وخولها بشكل مكثف .

أقسام القصر

أقسام القصر ثلاثة :

ووجه كون أقسامه ثلاثة أن الأسس التى قام عليها التقسيم ثلاثة :

(أ) فتقسيم أساسه مبنى جملة القصر وهو طرفا القصر .

(ب) وتقسيم أساسه دلالة جملة القصر على الإثبات والنفى .

(ج) وأخيراً تقسيم للإضافى باعتبار حال المخاطب إلى قصر أفراد وقصر قلب وقصر تعيين .

وعن التقسيم الأول وهو القائم على مبنى جملة القصر نقرر أن جملة القصر تتكون لا محالة من طرفى القصر وهما المقصور والمقصور عليه ، وكل منهما إما أن يكون ذاتاً وإما أن يكون معنًى ، والقصر بهما ومعهما إما أن يكون قصر صفة على موصوف ، وإما أن يكون قصر موصوف على صفة .

(١) الإتيان ج ٢ ص ٥٠ .

وإدراك ذلك سهل فيهما ؛ فقد سبقت أمثلة كثيرة لهما .

أما التقسيم الثاني وهو القائم على دلالة جملة القصر على الإثبات والنفي فقد نتج عنه ما سمي في الاصطلاح البلاغى بالقصر الحقيقي والقصر الإضافى ، لأن الشق الثاني من دلالة جملة القصر وهو النفي إما أن يكون عاماً وإما أن يكون خاصاً ، فإن كان عاماً كان القصر حقيقياً ، وإن كان خاصاً كان القصر إضافياً .

فى القصر الحقيقى :

يختص المقصور بالمقصور عليه ؛ بمعنى أنه يثبت له وينتفى عما عداه انتفاء عاماً ومطلقاً ، أقول : لا يروى مصر إلا النيل ، فأكون قد قصرت إرواء مصر على النيل قصراً حقيقياً ، لأننى نفيت ضمناً إرواء مصر عن غير النيل من سائر الأنهار ، ويقول أحد الطلاب : لا يدرس لنا الفيزياء إلا الدكتور فلان فيكون قد قصر تدريس الفيزياء له ولزملائه على هذا الدكتور دون غيره من أعضاء هيئة التدريس فى جامعته وفى غير جامعته ، ولأن النفى هنا مطلق وعام كان قصر الصفة على الموصوف فى المثاليين السابقين قصراً حقيقياً .

وفى القصر الإضافى :

يتم تخصيص المقصور بالمقصور عليه كالحقيقى ، ولكن نفى المقصور عن غير المقصور عليه لا يكون عاماً ومطلقاً كالحقيقى ، بل يكون خاصاً ومقيداً ، وبلغت البلاغيين يكون إضافياً أى بالإضافة إلى صفات أخرى معينة ومحددة أو إلى موصوفين آخرين معينين ومحددين :

نقول فى قصر الصفة على الموصوف قصراً إضافياً : لا ذكى من الطلاب إلا على . وإذا تأملت وجدت أن الذكاء مقصور على على قصراً إضافياً أى بالنسبة إلى زملائه فقط ، فلم تنف الذكاء عن غير على مطلقاً بل نفياً مقيداً بأنه بالنسبة للطلاب الذين يدرسون معه .

ونقول فى قصر الموصوف على الصفة قصراً إضافياً : ما على إلا ذكى ، فتنفى عنه صفة معينة أو مجموعة محددة من الصفات كالاتصال بالحكام ، والاطلاع على خفايا الأمور ، ومعرفة خبايا الصدور ، وتقرر مؤكداً أنه ذكى فقط أى ما هو إلا مستنطق الأحداث ومدرك من مقدماتها نتائجها ؛ فقد نفيت عن على غير الذكاء نفياً مقيداً بأنه لا يملك المدعاة له ، وبالإضافة إليها وحدها ، فلم تنف عنه الكرم ، ولم تنف عنه الشجاعة ، ولم تنف عنه الإخلاص ، وغير ذلك من الصفات .

والخلاصة أن الإطلاق والتقييد في النفي المفهوم من جملة القصر هما السمتان المميزتان للقصرين الحقيقي والإضافي .

ما كان النفي فيه عاماً أى مطلقاً كان قصراً حقيقياً ، وما كان النفي فيه خاصاً أى مقيداً كان قصراً إضافياً .

وللقصرين : الحقيقي والإضافي تفرعات شتى .

فالقصر الحقيقي قد يكون حقيقياً تحقيقاً أى بحسب الحقيقة والواقع كالمثالين السابقين في الحقيقي وهما : لا يروى مصر إلا النيل ولا يدرس لنا الكيمياء إلا فلان ونزيد على هذين المثالين قولنا لا رازق إلا الله ، ولا أمير للشعراء إلا شوقي ولا يشغل هذا المبنى إلا فلان وأسرته إذا كان فلان وأسرته قد تفردوا بالسكن في المبنى المذكور فعلاً .

وقد يكون القصر الحقيقي غير تحقيقى بأن يكون ادعائياً مجازياً أساسه الغلو والمبالغة، أقول إنما الشاعر صلاح عبد الصبور قاصداً نفي الشاعرية عن غيره لعدم اعتدادي بشاعرية غيره ، ولا عجب ، فشاعرية غيره من وجهة نظري عدم .

ولأن هذا ليس هو الحقيقة والواقع كان هذا القصر حقيقياً ادعائياً أى على سبيل الادعاء والمبالغة لا على سبيل التحقيق والواقع .

ولننبه إلى أن القصر الحقيقي يكون قصر صفة على موصوف ، ولا يكون قصر موصوف على صفة ، وهذا هو المعقول ، فلا يمكن أن نقول على سبيل القصر الحقيقي التحقيقى : ما محمد إلا موظف .

فمن غير المتصور أن يقصر محمد نفسه على وظيفته فلا يذهب إلا إليها ولا يعود إلا منها ، ولا يمارس شيئاً سواها طول عمره الوظيفى ، بل يوماً واحداً من عمره الوظيفى ، وإلا فأين هو من نومه ويقظته ومن أكله وشربه ، ومن حركته وسكونه ومن فرحه وحزنه ومن رضاه وسخطه ومن حلمه وغضبه ومن قيامه بواجباته الأسرية والاجتماعية إلخ .

* * *

بقى التقسيم الأخير من تقسيمات القصر وهو تقسيم القصر الإضافى منه باعتبار حال المخاطب إلى قصر أفراد وقصر قلب وقصر تعيين ، ولأن أساس التقسيم هنا إنما هو حال المخاطب سماه صاحب الإشارات والتنبيهات : القصر فى المحاورات قال :

والقصر فى المحاورات إما قصر أفراد أو قصر قلب أو قصر تعيين .

الأول : فى الموصوف نحو ما زيد إلا عالم ، وفى الصفة نحو ما العالم إلا زيد ، يخاطب به من يعتقد أن للموصوف صفة أخرى ، أو للصفة موصوفاً آخر .

والثانى : يخاطب به من يعتقد اتصاف الموصوف بغير تلك الصفة ، أو اتصاف غير ذلك الموصوف بتلك الصفة .

والثالث : يخاطب به من يتساوى عنده الموصوف المذكور وغيره فى الصفة المذكورة أو الصفة المذكورة وغيرها فى ذلك الموصوف .

وشروط الأول : عدم تنافى الوصفين حتى يكون المنفى فى قولنا ما زيد إلا شاعر كونه كاتباً أو منجماً أو نحو ذلك لا كونه مفحماً يعجز عن قول الشعر .

وشروط الثانى : تنافيهما حتى يكون المنفى فى قولنا ما زيد إلا قائم كونه قاعداً أو جالساً أو غير ذلك لا كونه أبيض أو أسود ونحو ذلك .

وشروط الثالث : أعم من ذلك ، أى من التنافى وعدم التنافى ، فكل مثال يصلح لقصر الأفراد أو القلب يصلح لقصر التعيين من غير عكس « (١) .

انتهى كلام صاحب الإشارات والتنبيهات .

واستشعاراً منى لما عساه أن يكون فيه من خموض فإنى أوضحه بالأمثلة الآتية :

تقول فى قصر الموصوف على الصفة قصر أفراد : ما محمد إلا كاتب ، رداً على من يعتقد أنه كاتب وشاعر معاً .

وتقول فى قصر الصفة على الموصوف قصر أفراد : ما كاتب إلا محمد ، رداً على من يعتقد أن محمداً كاتب وأن أحمد أيضاً كاتب .

* * *

وتقول فى قصر الموصوف على الصفة قصر قلب : ما ناصر إلا ذكى ، رداً على من يعتقد اتصافه بالغباء .

(١) الإشارات والتنبيهات ص ٨٩ - ٩٠ .

وتقول فى قصر الصفة على الموصوف قصر قلب : ما ذكى إلا ناصر ، رداً على من يعتقد أن الذكى خالد لا ناصر .

* * *

وتقول فى قصر الموصوف على الصفة قصر تعيين : ما سعد إلا ناجح . خطاباً لمن تردد بن نجاح سعد ورسوبه .

وتقول فى قصر الصفة على الموصوف قصر تعيين : إنما العظيم ناصر خطاباً لمن تردد بين ناصر وغيره فى ثبوت العظمة له .

وقد سكت السكاكى عن اشتراط عدم التنافى فى قصر الأفراد ، وعن التنافى فى قصر القلب (١) .

وسكوت السكاكى هذا من ذهب ، فعدم التنافى فى قصر الأفراد معلوم بما ذكر فى تعريفه من أن المخاطب به من يعتقد الشركة ، والشركة لا تتصور إلا فى وصفين غير متنافيين .

والتنافى فى قصر القلب يخرج به قولنا « إنما محمد شاعر » لمن يعتقد أنه كاتب ، والصحيح أنه لا يخرج ، فهو قصر قلب لا ريب ، لأنك قلبت ما علمه عن محمد رأساً على عقب والله أعلم .

(١) المفتاح ص ١٣٩ .

الوصل والفصل

الوصل فى الاصطلاح البلاغى عطف جملة على جملة بالواو ، والفصل ترك هذا العطف. فلا يدخل فى الوصل عطف مفرد على مفرد ، كما لا يدخل فيه عطف جملة على جملة بغير الواو من حروف العطف الأخرى كالفاء وثم وحتى وبل ولكن ولا وأما وأوأم وأى . ثم إن عدم وجود هذه الحروف بين الجمل المتجاورة لا يسمى فصلاً .

وقد انحزت بالتحديد المزوج فى تعريف الوصل والفصل إلى جمهور البلاغيين .

(عبد القاهر فى الدلائل ، والقزوينى فى الإيضاح ، والعلوى فى الطراز ، وابن القيم فى الفوائد) .

أما السكاكى فقد ذهب إلى أن كلا من الوصل والفصل يأتى فى عطف الجمل والمفردات وفى العطف بالواو وغيره من حروف العطف (١) .

ويظهر أنه قد وقف من الوصل والفصل عند معناهما اللغوى فعمم .

وعندى أن عطف مفرد على مفرد لا يخرج عن كونه عطف جزء على جزء ، والجزء واحداً أو متعدداً لا يؤدى معنى كاملاً لعدم تضمنه نسبة بين مسند إليه ومسند فلا يتعلق به غرض بلاغى بالمعنى الاصطلاحى للبلاغة فى مقابلة المعنى الاصطلاحى للفصاحة .

وإنما اقتصررت الدراسة على الواو وجوداً فى الوصل وعدمها فى الفصل ، لأنها الأداة الوحيدة التى تفيد الجمع فقط أى الجمع مطلق الجمع ، أما غيرها من حروف العطف الأخرى فإن منها ما يفيد معانى أخرى غير الجمع وما يفيد مع الجمع معنى آخر هو الترتيب مع التعقيب فى (الفاء) ، والترتيب مع التراخى فى (ثم) وترتيب الأجزاء ترتيباً ذهنياً فى (حتى) .

وقد ترتب على ذلك أن مرسل الأدب إذا وصل جملتين بالواو كان على متلقيه أن يبحث عن سر هذا الوصل ، وإذا لم يصلهما بها كان عليه أن يبحث عن سر هذا الفصل ، وهكذا جاء هذا الدرس من دروس البلاغة فى علم المعانى ، وهو درس دقيق ؛ لأنه محتاج بعد الفهم العام إلى فهم خاص ، محتاج إلى ذوق وعقل .

(١) بنية الإيضاح ج ٢ ص ٨٣ هامش رقم (١) ومفتاح العلوم ص ١٢٠ وما بعدها .

مواضع الفصل

يتم الفصل بين الجملتين المتجاورتين في خمسة مواضع :

الموضع الأول :

كمال الإتصال بينهما

وهو يتحقق في ثلاثة مواطن هي :

(١) أن تكون الجملة الثانية مؤكدة للجملة الأولى .

كقول الله تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه » .

يقول القزويني : « فإن وزان (لا ريب فيه) في الآية وزان (نفسه) في قولك : جاعني الخليفة نفسه، فإنه لما بولغ في وصف الكتاب ببولغ الدرجة القصوى من الكمال، يجعل المبتدأ (ذلك) الدال على العظمة وعلو الدرجة ، ويتعريف الخبر بأداة التعريف الدالة على الانحصار حتى صار المعنى أنه وحده الكتاب الكامل . وأن ما عداه من الكتب ناقص ، بل ليس بكتاب أصلاً ، جاز أن يظن السامع أو القارئ أن جملة (ذلك الكتاب) مما يرمى به جزافاً من غير تحقق ، فأتبعها (لا ريب فيه) نقياً لذلك ، إتباع (الخليفة) (نفسه) إزالة لما عسى أن يتوهم السامع أنك في قولك (جاعني الخليفة) متجاوز أو ساء » (١) .

وكالآية السابقة قوله تعالى : « كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرأ » ، فإن الثانية مقررة للأولى ؛ وقوله تعالى : « إنا معكم إنما نحن مستهزئون » لأن قولهم : (إنا معكم) معناه الثبوت على اليهودية ؛ وقولهم : « إنما نحن مستهزئون » رد للإسلام ودفع له .

ومن ذلك قولك : تزوج محمد مندأ عقد عليها ، وقول المتنبي :

وما الدهر إلا من رواة قصائدى . . . إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً

وقول الآخر

يهوى الثناء مبرز ومقصر . . . حب الثناء طبيعة الإنسان

وسر بلاغة الفصل في التوكيد أن التأكيد والمؤكد كالشئ الواحد ، فعطف التأكيد على

المؤكد يكون كعطف الشئ على نفسه وهو غير وارد

(١) بغية الإيضاح ج ٢ ص ٩٣

(ب) أَوْ تَكْوِينُ الْجُمْلَةِ الثَّانِيَةِ بَيَانًا لِلأُولَى .

وذلك بأن تنزل منها منزلة عطف البيان من متبوعه في إفادة الإيضاح كقول الله تعالى :
« فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدك على شجرة الخلد وملك لا يبلى » فصل جملة
(قال) عن جملة (فوسوس ...) لأنها مبيّنة لها ووزانها وزان (عمر) في قول عبد الله
ابن كيسة : أقسم بالله أبو حفص عمر .

فكما جعل (عمر) بياناً وتوضيحاً لأبي حفص لأنه كنية يقع فيها الاشتراك جعلت جملة
(قال ...) بياناً لجملة (فوسوس ..) .

ومن ذلك قولك : الأستاذ أبو لطلابه يحبهم . أو الطلاب أبناء لأستاذهم يحبونه ، وقول
المعري :

الناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وإن لم يشعروا خدام
وقول الآخر :

كفى زاجراً للمرء أيام دهره تروح له بالواعظات وتغتدى

وسر بلاغة الفصل بين جملة البيان والجملة المبيّنة هو ما سبق من سر بلاغة الفصل بين
جملة التأكيد والجملة المؤكدة .

(ج) أَوْ تَكْوِينُ الْجُمْلَةِ الثَّانِيَةِ بِدَلِّ بَعْضٍ أَوْ اشْتِمَالٍ مِنَ الْجُمْلَةِ الأُولَى :

فمن أمثلة بدل البعض قولنا : يربي الأب أبناءه تربية إسلامية : يأمرهم
بالصلاة لسبع . فإن أمرهم بالصلاة لسبع بدل بعض من تربيتهم تربية إسلامية ، وقوله
تعالى : « أمدكم بما تعلمون ، أمدكم بأنعام وينين ، وجنات وعيون » ، فإن الأنعام والبنين
والجنات والعيون بعض ما يعلمون أن الله تعالى أمدهم به ، وقوله تعالى : « يدبر الأمر
يفصل الآيات » فإن تفصيل الآيات جزء من تدبير الأمر وبدل بعض منه .

وقوله تعالى : « يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم » لأن تذبيح الأبناء بعض .
يسومونهم من العذاب ، ووزان الثانية من الأولى في الأمثلة الأربعة السابقة وزان (وجهه)
في قولك « أعجبنى الصديق وجهه » .

ومن أمثلة برزخ الإشتمال :

قول الله تعالى : « اتبعوا المرسلين ، اتبعوا من لا يسألكم أجراً » .

وقول الشاعر :

أقول له (ارحل) (لا تقيمن عندنا) ، وإلا فكن في السر والجهر مسلماً
فوزان الجملة الثانية في كل من الآية والبيت وزان (حسنهما) في قولك أعجبتني الدار
حسنها .

وسر بلاغة الفصل في البديل أن المبدل منه في نية الطرح ، والعطف عليه لذلك يكون
كالعطف على غير مذكور .

وقد علل الفصل في كمال الاتصال جملةً بأن العطف بالواو يقتضى المغايرة بين
الجملتين ولا مغايرة فيما بينهما كمال الاتصال ، فلو عطفنا بالواو لحصل التناهي بين ما
تقتضيه الواو من المغايرة ، وما بين الجملتين من كمال الاتصال (١) .

الموضع الثانى من مواضع الفصل بين الجملتين المتجاورتين هو تشبيه بكمال الإتصال بينهما :

وهو يتحقق إذا كانت الجملة الثانية جواباً عن سؤال اقتضته الجملة الأولى فتنزل منزلته
فتفصل الثانية عنها كما يفصل الجواب عن السؤال .

ويسمى الفصل لذلك استثناءً ، وتسمى الجملة الثانية كذلك استثناءً ، **والإستثناء**
ثلاثة أجناس ، يقول القزوينى : لأن السؤال الذى تضمنته الجملة الأولى ، إما عن سبب
الحكم فيها مطلقاً كقوله :

قال لى كيف أنت قلت عليل (سهر دائم) وحزن طويل

أى ما بالك عليلاً أو ما سبب علتك .

وإما عن سبب خاص له كقول الله تعالى :

« وما أبرئ نفس إن النفس لأمارة بالسوء » .

وإما عن غيرهما بأن يكون عن شئٍ آخر له تعلق بالجملة الأولى غير السببية كقوله
تعالى : « قالوا سلاماً قال سلام » كأنه قيل : فماذا قال إبراهيم عليه السلام ؟ فقيل : قال

(١) المنهاج الواضح ج ٢ ص ١٣٣ .

سلام ، ومنه قول الشاعر :

زعم العواذل أننى فى غمرة صدقوا ولكن غمرتى لا تنجلى

فإنه لما أبدى الشكاية من جماعات العذال ، كان ذلك مما يحرك السامع ليسأل :
أصدقوا فى ذلك أم كذبوا ؟ فأخرج الكلام مخرجه إذا كان ذلك قد قيل له ففصل .

كما أن منه قول المتنبى :

وما عفت الرياح له محلاً عفاه من أحدا بهم وساقا

فإنه لما نفى الفعل الموجود عن الرياح كان مظنة أن يسأل عن الفاعل .

ولما سعى هذا الضرب من أضرب الفصل بين الجملتين المتجاورتين شبه كمال الاتصال
لما فيه من ارتباط الجواب بالسؤال ، وهو ارتباط شبيه بالارتباط القائم بين الجملتين
المتجاورتين فى المواطن الثلاثة المكونة لكمال الاتصال ، فكما أن الجملة الأولى فى المواطن
الثلاثة مستتبة للثانية ، وكما أن الثانية لا توجد بدون الأولى ، كذلك السؤال مستتبع
الجواب ، ولا يوجد الجواب بدون السؤال (١) .

* * *

والذى قعد بشبه كمال الاتصال عن أن يكون اتصالاً كاملاً إنما هو ما بين السؤال
والجواب من عدم الاتحاد فى المعنى ، أجل . إنهما متلازمان لكنهما مختلفان ، فالسؤال
شئ والجواب شئ آخر .

أما فى كمال الاتصال فالجملة الثانية معناها هو معنى الجملة الأولى كاملاً فى البيان
والتوكيد وبدل الاشتمال ، وغير كامل فى بدل البعض .

الموضوع الثالث من مواضع الفصل بين الجملتين المتجاورتين هو :

كمال الانقطاع بينهما

وكمال الانقطاع بينهما وصف يطلق عليهما إذا كانتا من التباعد اللفظى والمعنوى بحيث
لا يصح ربطهما ببعضهما ببعض ، وهذا يتحقق فى حالتين :

(١) بغية الإيضاح ج ٣ ص ١٤٧ .

الحالة الأولى : أُوّ تَخْتَلِفَا خَبْرًا وَإِنْشَاءً .

بأن تكون إحداهما خبراً لفظاً ومعنى أو معنى فقط .

وتكون الثانية إنشاء لفظاً ومعنى أو معنى فقط .

ولهذه الحالة صور كثيرة منها :

لا تطلبن بألةٍ لك حاجةٌ قلم البليغ بغير حظٍ مغزل

تم الفصل بين الجملتين في البيت لأن الأولى إنشائية لفظاً ومعنى ، والثانية خبرية لفظاً ومعنى . وكهذه الصورة قول الله تعالى : « وأقسطوا : إن الله يحب المقسطين » ، وقول الصديق أبي بكر رضى الله عنه : « أيها الناس إنى وليت عليكم » .

ومنها :

لست مستمطراً لغيرك غيثاً كيف يظما من قد تضمن بحرا

تم الفصل بين جملتي البيت : لأن الأولى فيه خبرية لفظاً ومعنى ، والثانية إنشائية لفظاً ومعنى ، أى عكس الوضع في البيت السابق .

وكهذه الصورة قوله تعالى : « وإياك نستعين . اهدنا الصراط المستقيم » . وقولى لابنى : أخوك أخطأ انصححه .

ومنها ، نجح علاء في الامتحان وفقه الله .

والفصل هنا لأن الجملة الأولى خبرية لفظاً ومعنى ، والثانية خبرية لفظاً إنشائية معنى .

ومنها :

جزى الله الشدائد كل خير عرفت بها عدوى من صديقى

فالأولى خبرية لفظاً إنشائية معنى ، والثانية خبرية لفظاً ومعنى أى عكس الوضع السابق .

والحالة الثانية أُوّ تتفق الجملتان خبراً وإنشاءً لكون لّا تكون ههنا
مناسبة بينهما فى المعنى أو فى السياق .

الأول : مثل : محمد نجح خالد قصير ، إذ لا مناسبة بين نجاح محمد وقصر خالد .
ومنه قول الشاعر :

وإنما المرء بأصغريه كل امرئ رهن بما لديه

والثاني : كقول الله تعالى : « بسم الله الرحم الرحيم . ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ، وما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون . إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » .

لم يعطف (إن الذين كفروا) على ما قبله مع أن بينهما مناسبة في المعنى بالتضاد ، حيث إنه مبين لحال الكفار ، وما قبله مبين لحال المؤمنين ، لأن بيان حال المؤمنين غير مقصود بل ذكر على سبيل الاستتباع لبيان حال الكتاب وليس بين حال الكتاب وحال الكفار مناسبة تقتضى الوصل .

* * *

ويلزم التنويه بأن سبب الفصل في الحالتين المكونتين لكمال الانقطاع أمر ذاتي لا يمكن تفاديه وهو اختلاف الجملتين خبراً وإنشاء في الحالة الأولى وعدم التناسب بينهما في الحالة الثانية ، ولأن سبب الفصل بين الجملتين في الحالتين أمر ذاتي أي مستكن في تكوينهما وليس أمراً طارئاً عليهما كان الانقطاع كاملاً وكان عدم ربطهما بالواو واجباً ، لا نستثنى من ذلك إلا حالة واحدة هي حالة إيهام الفصل خلاف المقصود وستأتي في مواضع الوصل .

الموضع الرابع

من مواضع الفصل بين الجملتين المتجاورتين هو :

شبه كمال الإنقطاع بينهما

ويؤسفني أنني لم أجد لشبه كمال الانقطاع هذا إلا مثلاً واحداً يحتمله ويحتمل أن يكون شبه كمال الاتصال أي من الضد إلى الضد ، وهذا المثال هو :

وتظن سلمى أنني أبغى بها بدلاً أراها في الضلال تهيم

فبين الجملتين الرئيسيتين في البيت وهما (وتظن سلمى أنني أبغى بها بدلاً) و (أراها في الضلال تهيم) .

أقول بين هاتين الجملتين مناسبة مزدوجة شقها الأول : اتحاد المسندين أو شبه اتحادهما وهما (تظن) و (أراها) ، وشقها الثاني : شبه التضاييف بين المسند إليه فيهما للزومهما لبعضهما ، فهما المحب والمحبوب . ولقد كانت هذه المناسبة المزدوجة مبرراً لعطف (أراها) على (تظن) لكن ترك العطف لثلا يتوهم أنه عطف على (أبغى) فيكون من مطنونات سلمى ، وهو خلاف المقصود ، إذ المقصود تخطئة سلمى في ظنها أن الشاعر يبغى بها بدلاً .

وقد سمي هذا المثال بشبه كمال الانقطاع ، لاشتماله على المانع من العطف وهو إيهام خلاف المقصود .

والسبب في أنه شبه كمال انقطاع ، وليس كمال انقطاع هو أن المانع من الوصل فيه أمر عارض على الجملتين وليس أمراً داخلياً في تكوينيهما ، ولأنه عارض عليهما ، وليس داخلياً في تكوينيهما ، يمكن تلافيه بقريئة لفظية ، أو حالية وقد سمي لهذا (شبه كمال الانقطاع) ، أما المانع من الوصل في كمال الانقطاع فلأنه أمر ذاتي في الجملتين وليس أمراً خارجاً عنهما كان الانقطاع انقطاعاً كاملاً .

* * *

وعن أن هذا البيت يمكن أن يكون شاهداً على كمال الاتصال ، فلأنه يمكن أن نقطع استرسال الشاعر بعد قوله (وتظن سلمى أنني أبغى بها بدلاً) بسؤال نوجهه إليه فحواه : وما رأيك في ظن سلمى أنك تبغى بها بدلاً ؟ ويكون جواب هذا السؤال هو (أراها في الضلال تهيم) .

وهو شبه كمال الاتصال نصاً .

الموضع الخامس

من مواضع الفصل بين الجملتين المتجاورتين هو :

التوسط بين الركاملين كمال الاتصال وكمال الإنشطار :

وذلك بأن تكون الجملتان متناسبتين ومتفقتين خبراً وإنشاء لفظاً ومعنى أو معنى ، لكن يمنع من العطف مانع كأن يكون للأولى حكم لا يصح إعطاؤه الثانية ، أو يكون معها قيد يفسد معنى الكلام لو طال الثانية .

ومن أمثلته قوله تعالى : « وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ،
الله يستهزئ بهم » .

لا يصح عطف جملة (الله يستهزئ بهم) على جملة (إنا معكم) أو ما بعدها ، لاقتضائه
أنها من مقولة المنافقين وليس الأمر كذلك .

كما لا يصح عطفها على جملة (قالوا ...) إذ يلزم من هذا اختصاص استهزاء الله بهم
بوقت خلوهم إلى شياطينهم وتحديثهم معهم .
والواقع أن استهزاء الله بهم حاصل في كل وقت .

* * *

انتهت مواضع الفصل بين الجملتين المتجاورتين ، وإن بها لتزييداً يتمثل في الموضوعين
الأخيرين ، وهما الموضوعان اللذان لم نجد لأولهما في كتب البلاغة إلا مثلاً واحداً ، ولم
يخلص هذا المثال الواحد لما ضرب له كما رأينا .

ولهذا أضف صوتي إلى صوت الشيخ أحمد مصطفى المراغي في اقتراحه الخاص
بإدراجهما في الموضوع الثالث قال : « وعند إمعان النظر نجد أن أقسام الفصل ثلاثة لأن
موجبه إما الامتزاج التام ، وذلك هو الصورة الأولى (كمال الاتصال) ، وإما التباين التام
وهو الصورة الثانية (كمال الانقطاع) وإما قوة الرابطة بالأولى لكونها كالجواب عن سؤال
يفهم منها وتلك هي الصورة الثالثة (شبه كمال الاتصال) وأما الحالتان الرابعة والخامسة
(شبه كمال الانقطاع ، التوسط بين الكمالين) فيندرجان في الثالثة ، ويظهر فيهما أنهما
جواب سؤال مقدر ، صرح بذلك السكاكي والقزويني في الرابعة بقولهما بعد البيت (وتظن
سلمى ..) . (ويحتمل الاستئناف) وصرح عبد القاهر بذلك في الخامسة (١) .

ونعزذ كلام المراغي بأن القزويني سيجعل السبب الخامس للفصل سبباً للوصول بعد ألا
يمنع من العطف مانع طبعاً (٢) .

(١) علوم البلاغة ص ١٥٧ هامش رقم / ٣ .

(٢) انظر بغية الإيضاح ج ٢ ص ١٠٧ .

مواضع الوصل

يتم الوصل بين الجملتين المتجاورتين في ثلاثة المواضع الآتية :

الموضع الأول :

إذا قصد المتكلم بإيرادهما في إثر بعضهما إشراكهما في الحكم الإعرابى مثل : علاء نجح وتفوق ، ومحمد باع واشترى ، وناصر زار الحرم المكى وزار الحرم المدنى . والجملتان هنا محلها الرفع على الخبرية للمبتدأ .

ومثل : « عاد فيصل من أمريكا وقد حصل على الدكتوراه وتزوج وأنجب ووفر بعض المال » فالجمل : (تزوج) و (أنجب) و (وفر بعض المال) موصولة ببعضها ومعطوفة على جملة (حصل على الدكتوراه) قبلها لاشتراكها معها في الحكم الإعرابى لها وهو الذنب على الحالية من الفاعل (فيصل) .

ومثل : « التقيت فى أوربا بطالب عربى يعمل فى الصباح ويدرس فى المساء » فجملة (يدرس فى المساء) معطوفة على جملة (يعمل فى الصباح) لاشتراكها معها فى الحكم الإعرابى وهو هنا الجر صفة للطالب العربى .

الموضع الثانى :

من مواضع الوصل بين الجملتين المتجاورتين .

أن يكون بين الجملتين كمال الانقطاع مع إيهام الفصل خلاف المقصود .

وهذه هى الحالة التى نوهنا بها فى الموضع الثالث من مواضع الفصل ، وهى تتحقق - كما سبق أن قلنا فى كمال الانقطاع - بأن تختلف الجملتان خبراً وإنشاءً أو بالآ يكون بينهما تناسب فى المعنى أو فى السياق ، ولكن فصل إحداهما : الأخرى يوهن خلاف المقصود ؛ ويعطى معنى مضاداً للمعنى الذى أراد المتكلم .

يسألك عائذك وهو منصرف عنك قائلاً : أتريد شيئاً فترد لا وحفظك الله .

أو : لا وبورك فيك . أو لا وعافاك الله .

(لا) هنا فى معنى جملة خبرية تقديرها (لا أريد شيئاً) أما (حفظك الله) ونحوها ،

فهي وإن كانت خبرية لفظاً إلا أنها إنشائية معنى ، ولما كانت العبرة بالمعنى فإن بين
الجملتين (لا ، وما بعدها) كمال الانقطاع ، لكن لو فصلنا لأهم الفصل الدعاء على
المخاطب لا الدعاء له ، ولما كان الدعاء له هو مقصود المتكلم ومراده وجب الوصل .

الموضع الثالث من مواضع الوصل بين الجملتين المتجاورتين :

هذا الموضع لا يتحقق إلا بثلاثة شروط هي :

(أ) أن تتفق الجملتان خبراً أو إنشَاء لفظاً ومعنى أو معنى فقط .

(ب) أن يكون بينهما تناسب في المعنى .

(ج) عدم وجود سبب من أسباب الفصل السابقة ، وهي كمال الاتصال وشبهه ، وكمال
الانقطاع وشبهه والتوسط بين الكمالين .

مثال الخبريتين لفظاً ومعنى قوله تعالى : « إن الأبرار لفي نعيم ، وإن الفجار لفي
جحيم » .

ومثال الإنشائيتين لفظاً ومعنى قوله تعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً » .

ومثال المتفقتين خبراً معنى فقط قوله تعالى : « إني أشهد الله وأشهدوا » إذ التقدير :
إني أشهد الله وأشهدكم .

ومثال المتفقتين إنشَاء معنى فقط : اركب الطائرة وتجلس في مقعدك . إذ التقدير اركب
الطائرة واجلس في مقعدك .

والتناسب بين الجملتين هو التلاؤم بينهما كالتوافق في (يأكل ويشرب) ، وكالتضاد في
(يضحك ويبكى) .

وإنحصر على ألا تكون هناك فروق صارخة بين المسند إليه في الجملتين ، ولا بين
المسندين .

فلا نقول : علاء ناجح والسماء ممطرة ، لعدم التناسب بين (علاء) و (السماء) في
الجملتين ، وبين (ناجح) و (ممطرة) فيهما ، وقد عيب لهذا قول أبي تمام :

لا والذي هو عالم أن النوى صبر وأن أبا الحسين كريم

إذ لا تناسب بين مرارة النوى وكرم أبي الحسين .

محسنات الوصل

قال القزويني « ومن محسنات الوصل تناسب الجملتين في الاسمية والفعلية . وفي الماضي والمضارعة إلا لما منع . كما إذا أريد بإحدهما التجدد ، وبالأخرى الثبوت كما إذا كان زيد وعمرو قاعدين ثم قام زيد دون عمرو ، وقلت : « قام زيد وعمرو قاعد » (١)

انتهى كلام القزويني

ومن تناسب الجملتين في الاسمية
أعز مكان في الدنيا سرج سابح وخير جليس في الزمان كتاب
ومن تناسبهما في الماضي
أعطيت حتى تركت الريح حاسرة وجدت حتى كأن القيث لم يجد
ومن تناسبهما في المضارعة

نروح ونغدو لحاجاتنا وحاجة من عاش لا تنقضي
ومن تناسبهما في الأمر قول الشاعر
فكل إن أكلت وأطعم أخاك فلا الزاد يبقى ولا الأكل
وقول الآخر

سافر تجد عوضاً عن تفارقه وانصب فإن لذيذ العيش في النصب
ومن اختلاف الجملتين في الاسمية والفعلية ، للدلالة على الثبوت والتجدد . قول الله تعالى : « ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خيراً لأنفسهم ، إنما نملى لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين » ، وقوله تعالى « أجنثنا بالحق أم أنت من اللاعبين » صدق الله العظيم .

* * *

(١) نغية الإيضا - ج ٢ ص ١١٦

الإيجاز والإطناب والمساواة

لما كان الإيجاز والإطناب والمساواة من الأمور النسبية التي يتوقف تصورهما على تصور أمر آخر تضاف إليه وتقاس عليه ، جعل السكاكي ذلك الأمر (متعارف الأوساط) أى أوساط الناس ، وهم الذين يأتى كلامهم صحيح الإعراب لكنه لا يرتفع إلى البلاغة ، ولا ينحط إلى الفهامة ، وعرف الإيجاز - لهذا - بأنه أداء المعنى المقصود بأقل من عبارات متعارف الأوساط ، وعرف الإطناب بأنه أدائه بأكثر من عباراته .

ولم يرتض الجرجاني ولا القزويني هذا المقياس ، وارتضيا أن يكون المعنى المقصود نفسه هو الأمر المقيس عليه .

فإن كانت العبارة وافية بأدائه وهى أقل منه فهى الإيجاز .

وإن كانت أكثر لعل على وجه التطويل والحشو فهى الإطناب وإن كانت مثله فهى المساواة^(١) .

وما ذهبنا إليه هو الحق ، فمصطلحات الإيجاز والإطناب والمساواة لا تفهم دون التنظير بين حجم الكلام ومعناه .

خط المعانى	_____	}	فإن كان الكلام مساوياً لمعناه هكذا فهو مساواة .
خط الألفاظ	_____		
خط المعانى	_____	}	وإن كان أقل من معناه هكذا فهو إيجاز
خط الألفاظ	_____		
خط المعانى	_____	}	وإن كان أكثر من معناه هكذا
خط الألفاظ	_____		

ننظر :

فإن كانت زيادة الألفاظ على المعانى لفائدة فهو الإطناب .

وإن كانت زيادة الألفاظ على المعانى لغير فائدة وغير متعينة فهو التطويل .

وإن كانت زيادة الألفاظ على المعانى لغير فائدة ومتعينة فهو الحشو .

والخلاصة أن حجم الكلام بالنظر إلى معناه تتعاقب عليه مصطلحات المساواة والإيجاز والإطناب والتطويل والحشو .

(١) المفتاح ص ١٥٠ وبغية الإيضاح ج ٢ ص ١٢٢ والإشارات والتنبيهات ص ١٤٢ .

المساواة

جعلها الجرجاني آخر الباب ، وعرفها بأنها الكلام الذى لا يحتاج إلى زيادة لفظ ، ولو حذف شئ من لفظه اختل معناه (١) .

والمراد بها عند القزوينى أن يكون اللفظ بمقدار أصل المراد لا ناقصاً عنه بحذف أو غيره ولا زائداً عليه بنحو تكرير أو تتميم أو اعتراض (٢) .

والمساواة هى الأصل المقيس عليه عند السكاكى ؛ لأنها متعارف الأوساط الذى قال به وجعلها نصب عينه وهو يعرف الإيجاز والإطناب .

ومن أمثلتها قول الله تعالى : « وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره » .

وقوله تعالى : « ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله » .

وقوله تعالى : « وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله » .

وقول الرسول ﷺ : « الحلال بين والحرام بين ، وبين ذلك مشتهيات » .

وقول زهير :

ومهما يكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم
وقول طرفة :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود
وقول النابغة :

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع
وقول الحكيم :

إذا أنت لم تقصر عن الجهل والخنا أمسبت حلماً أو أمساك جهلاً
وقوله :

ليس الجمال بأثواب تزيننا إن الجمال جمال العلم والآداب

(١) الإشارات ص ١٦٦ .

(٢) بغية الإيضاح ج ٢ ص ١٣٤ .

الإيجاز

الإيجاز على ضربين : إيجاز قصر ، وإيجاز حذف

الضرب الأول : إيجاز القصر :

وهو التعبير عن المعنى المراد بلفظ أقل منه مع الوفاء به .

فإن لم يف به كان إخلالاً لا إيجازاً .

ومن الإخلال قول عروة بن الورد :

عجبت لهم إذ يقتلون نفوسهم ومقتلهم عند الوغى كان أعذرا

أراد يقتلون نفوسهم في السلم فأخل .

وقول الحارث بن حلزة :

والعيش خير في ظلا ل النوك ممن عاش كدا

أراد أن العيش الطيب في ظلال الحمق خير من العيش الخشن في ظلال العقل فأخل .

وأمثلة إيجاز القصر كثيرة منها :

« ولكم في القصاص حياة » ، « ألا له الخلق والأمر » ، « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض

عن الجاهلين » ، « إنما الأعمال بالنيات » ، « الضعيف أمير الركب » ، « مظل الغنى ظلم » ،

« خير عادة ألا تكون للمرء عادة » ، « الأسلوب هو الشخص » ، « المعدة بيت الداء والحمية

رأس الدواء » .

ومن إيجاز القصر أن النبي ﷺ سئل عن جمال المرأة فيم يكون ؟

فأجاب : « في لسانها » ، ومنه ما كتبه عمرو بن مسعدة إلى بعض العمال قال : « كتابي

إليك كتاب واثق بمن كتب إليه ، معنى بمن كتب له ، وإن يضيع بين الثقة والعناية حمله » .

الضرب الثاني إيجاز الحذف :

يقول القزويني : وهو ما يكون بحذف .

ويقول الجرجاني : « هو حذف بعض متعلق الكلام للقرينة » (١) .

وتعريف الجرجاني أدق ، لنصه فيه على شرط الحذف وهو القرينة .

(١) بغية الإيضاح جـ ٢ ص ١٤٤ والإشارات ص ١٤٨ .

ثم المحذوف:

إما حرف : كقول الله تعالى « ولم أك بغياً » أصله : ولم أكن ، وقوله تعالى « تالله تفتأ تذكر يوسف » أى لا تفتأ تذكر يوسف . وكقول عاصم المنقرى :

رأيت الخمر جامدة وفيها

فلا والله أشربها حياتي

أراد : لا أشربها .

وقول امرئ القيس :

فقلت يمين الله أبرح قاعداً ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

أراد لا أبرح .

أو اسم مضاف :

نحو « وجاهدوا فى الله حق جهاده » أى فى سبيل الله .

أو اسم مضاف إليه نحو « وواعدنا موسى ثلاثين ليلة ، وأتممناها بعشر » أى بعشر

ليال .

أو اسم موصوف : نحو ، أنا ابن جلا ، أى ابن رجل جلا .

أو اسم صفة : نحو « وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » أى سفينة صالحة .

أو قسم : نحو : لأجتهدن . أى والله لأجتهدن .

أو جواب قسم : نحو ، « ق والقرآن المجيد ، بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم » إذ

التقدير ، « ق والقرآن المجيد (لتبعثن) بل عجبوا » . ونحو « والفجر وليال عشر والشفع

والوتر ، والليل إذا يسر ، هل فى ذلك قسم لذى حجر » و . جواب القسم المحذوف هو :

لتعذبين يا كفار مكة .

أو شرط :

نحو « اتبعونى يحببكم الله » أى فإن تتبعونى يحببكم الله .

أو جواب شرط :

وحذف جواب الشرط إما أن يكون لمجرد الإيجاز كقوله تعالى : « وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون » أى أعرضوا ، لقرينة قوله بعدها « إلا كانوا عنها معرضين »

وإما للدلالة على أنه شئ لا يحيط به الوصف قصداً إلى المبالغة حتى تذهب النفس فيه كل مذهب كقوله تعالى ، « ولو ترى إذ وقفوا على النار » .

وقوله تعالى ، « ولو ترى إذ وقفوا على ربهم » ، وقوله تعالى : « ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم » إذ التقدير : لرأيت أمراً مهولاً لا يحيط به الوصف .

أو اسم معطوف كقوله تعالى : « لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل » .

التقدير : لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، ومن أنفق من بعده وقاتل .

بدليل قوله تعالى بعده : « أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا » .

أو المستتر :

نحو : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » أى خلقهن الله .

أو المستتر إليه كقول حاتم :

أماوى ما يغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

أى إذا حشرجت الروح يوماً

أو المفعول به - أو الجار والمجرور : وقد جمعهما معاً قول الشاعر :

ألت فحيت ثم قامت فودعت فلما تولت كادت النفس تزهب

أراد ألت بنا فحيتنا ثم قامت عنا فودعتنا ، فلما تولت عنا كادت النفس منا أن تزهب .

أو جملة تامة :

نحو « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين » أى فاختلّفوا فبعث الله النبيين .

والجملة التامة المحذوفة قد تكون معللة بالمذكورة كقوله تعالى : « ليحق الله الحق ويبطل

الباطل « أى فعل ما فعل ليحق الحق ويبطل الباطل .

وكقول المتنبي :

أتى الزمان بنوه فى شببته فسرهم وأتيناها على الهرم

أى فسانا .

وقد تكون علة للمذكورة كقول الله تعالى : « فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم » أى فاقتتلتم فتاب عليكم .

أو أكثر من جملة :

كقول الله تعالى فى سورة يوسف : « أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ... يوسف أيها الصديق أفتنا » إذ التقدير : فأرسلون إلى يوسف لأستعبره الرؤيا فأرسلوه فاتاه فقال : يوسف أيها الصديق .

وقوله تعالى فى قصة موسى مع ابنتى شعيب « فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير .. فجاءته إحداها تمشى على استحياء » .

التقدير : عادت القتاتان مبكرتين خلافاً لعادتهما كل يوم فاستنفسا منهما والدهما عن سبب ذلك فقصتا عليه قصة الغريب معهما وسقيه لهما واقترحت عليه إحداها أن يدعوه ليجزيه أجر ما سقى لهما فوافق شعيب وأرسلها فى طلبه فمثلت بين يديه وقالت : « إن أبى ... » .

وقوله تعالى فى قصة سليمان والهدد وبلقيس ملكة سبأ : « اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون * قالت ياأيها الملا إنى ألقى إلى كتاب كريم » التقدير : فذهب بالكتاب وألقاه إلى بلقيس فلما قرأته قالت : « ياأيها الملا ... » .

والجذوف على وجهين :

أحدهما : ألا يقام شئ مقام المحنوف اكتفاء بالقرينة الدالة عليه ، وجمهرة الأمثلة السابقة من هذا الوجه .

والثانى : أن يقام شئ مقامه يدل عليه كقوله تعالى : « فإن تولوا فقد أبلغنكم ما

أرسلت به إليكم . ليس الإبلاغ هو الجواب لتقدمه على توليهم ، والتقدير : فإن تولوا فلا لوم على لأنى قد أبلغتكم ، أو فلا عذر لكم عند ربكم ، لأنى قد أبلغتكم ...

وقوله تعالى : « وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك » أى فلا تحزن واصبر فإنه قد كذبت رسل من قبلك ، وقوله تعالى : « وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين » أى فيصيبهم مثل ما أصاب الأولين (١) .

والحذف الذى لا يقام فيه شئ مقام المحذوف أدلة منها :

العقل ، والمقصود الأظهر ، والعادة ، والشرع فى الفعل ، والاقتران بالفعل .

وهذه الأدلة تعمل أكثر ما تعمل بشكل ثنائى كالآتى :

(١) أن يدل العقل على الحذف ، والمقصود الأظهر على تعيين المحذوف كقوله تعالى : « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به .. » وقوله تعالى : « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم » . فإن العقل يدل على الحذف لما هو مسلم به من أن التحريم يتعلق بالأفعال لا بالذوات .

والمقصود الأظهر يرشد إلى أن التقدير : حرم عليكم أكل الميتة وحرم عليكم نكاح أمهاتكم.

إذ الغرض الأظهر من هذه الأشياء تناولها ومن النساء نكاحهن .

(٢) أن يدل العقل على الحذف والتعيين معاً كقوله تعالى : « وجاء ربك » أى أمر ربك أو عذابه أو بأسه ، وقوله تعالى : « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام » أى عذاب الله أو أمره (٢) .

(١) بغية الإيضاح ج ٢ ص ١٥١ .

(٢) قال الإمام أحمد بن حنبل قال الله تعالى : « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام » فهل يجئ الله !!؟ إنما يجئ أمره . والمشهور عن أصحاب الإمام أحمد أنهم لا يتأولون الصفات التى من جنس الحركة كالمجئ والإتيان والنزول والهبوط والدنو والتدلى كما لا يتأولون غيرها متابعة للسلف الصالح وكلام السلف الصالح فى هذا الباب يقتصر على إثبات المعنى المتنازع فيه أى دون الدخول فى شرحه أو كلفيته . وانظر (الاستقامة) لابن تيمية ج ١ ص ٧٤ - ٧٦ . تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم ط (١) سنة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

(٣) أن يدل العقل على الحذف ، والعادة على التعيين ، كقوله تعالى حكاية عن زليخا :
« فذلكن الذي لمتننى فيه » .

دل العقل على الحذف ، لأنه لا معنى للوم في ذات الشخص ، ولما بحثنا عن المحذوف
ترددنا بين أن يكون :

(أ) (في مرادوكته عن نفسه) بدليل : « وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود
فتاها عن نفسه » ، وأن يكون :

(ب) (في حبه) بدليل « قد شغفها حباً » ، وأن يكون .

(ج) (في شائته) ليشمل الحب والمرادة جميعاً .

ودلتنا العادة على تعيين المرادة ، فالإنسان - عادة - لا يلام على حبه ، لأنه ليس من
كسبه ، وإنما يلام على المرادة التي يقدر أن يدفعها عن نفسه .

(٤) أن يدل العقل على المحذوف ، والشروع في الفعل على تعيينه كقول المؤمن عند
الشروع في أي فعل « بسم الله الرحمن الرحيم » أي باسم الله أقرأ أو أكتب أو أكل أو
نحوه .

(٥) أن يدل العقل على المحذوف ، واقتران الكلام بالفعل على تعيينه ، نقول لمن أعرس :
بالرفاء والبنين ، فيكون التقدير : بالرفاء والبنين أعرست .

(٦) أن تدل العادة على الحذف والتعيين جميعاً ، كقول الله تعالى : « لو نعلم قتالاً
لاتبعناكم » قالوا ذلك مع أنهم كانوا أخبر الناس بالحرب ، فلا بد من تقدير الحذف ، وتعيين
المحذوف وهو هنا مكان القتال .

والمعنى أنكم تقاتلون في موضع لا يصلح للقتال ، ويخشى عليكم منه ، ودليل ذلك أنهم
كانوا قد أشاروا على رسول الله ﷺ بالبقاء في المدينة والتحصن بها (١) .

* * *

ومن لطائف الإيجاز وطرائفه أن شمس الدين النواجي قد أطلق على إيجاز الحذف اسم
(الاكتفاء) وألف فيه كتاباً سماه (الشفاء في بديع الاكتفاء) وهو مطبوع بتحقيق الدكتور
محمد أبو ناجي بيروت د . ت .

(١) بغية الإيضاح ج ٢ ص ١٥١ - ١٥٢ .

وقد أسرف النواجي على نفسه وعلينا وعلى الواقع البلاغي وهو يفتعل تفرقة لا تتبين بين (إيجاز الحذف) و (الاكتفاء) هي :

إن الاكتفاء ما دُلُّ على الحذف فيه بدلالة لفظية ، أما الإيجاز ، فما دُلُّ عليه فيه بدلالة لفظية أو عقلية .

ورتب على ذلك أن كل ما صح أن يكون شاهداً للاكتفاء . صح أن يكون شاهداً للإيجاز من غير عكس .

ومن أمثلة الاكتفاء عنده قول الشاعر :

ما أحسن الصبر وأما على إلا أرى وجهك يوماً فلا

أى فلا يحسن .

وقوله تعالى : « سراويل تقيكم الحر » قال أهل المعاني : أراد الحر والبرد لكنه اكتفى بذكر أحدهما لدلالة الكلام على الآخر .

ومن يدرى فقد تكون كلمة (اكتفى) في قول أهل المعاني هي التي دعت النواجي إلى أن يعطى لإيجاز الحذف مصطلحاً جديداً هو الاكتفاء^(١) . ولولا أن الزمن قد سبق بـ (إيجاز الحذف) لفضلنا مصطلح النواجي عليه ، إن لم يكن اختصاراً وطرافة فعصبية نواجية ، وقبل النواجي عبر السكاكي عن الإيجاز والإطناب بـ (طى الجمل ، ولا طيها)^(٢)

زيادة الألفاظ على المعاني

سبق القول بأن هذه الزيادة تشمل ثلاثة أنواع هي التطويل والحشو والإطناب ، لأن هذه الزيادة إما أن تكون لفائدة ، وإما أن تكون لغير فائدة ، فإن كانت لفائدة فهي الإطناب وسيأتي .

وإن لم تكن لفائدة ، ولم تكن متعينة فهي التطويل .

مثل : نزلت بصديقي فوجدت منه كل خير وفضل ، والتطويل منحصر في (خير وفضل) ، فإن معناه واحد ، ولأن معناه واحد ، فإن واحدة منهما زائدة بون فائدة ، ولو اخترنا بينهما لاخترنا لأن الزيادة غير متعينة .

(١) الشفاء في بديع الاكتفاء ص ٣١ - ٣٢ .

(٢) المفتاح ص ١٣٣ - والنواجي نسبة إلى (نواج) مركز طنطا غربية وهي قريتي التي ولدت ونشأت بها ومن سراتها آل قلقيلة .

وكقول عنتره :

حييت من طلل تقادم عهده أقوى وأقفر بعد أم الهيثم

الشاهد في (أقوى وأقفر) فهما كخير وفضل .

وكقول الآخر :

ألا حبذا هند وأرض بها هند وهند أتى من دونها النأى والبعد

والشاهد في (النأى والبعد) فهما كأقوى وأقفر .

وقول عدى بن زيد العبادى فى جذيمة الأبرش لما خدعته الزباء وصرعته :

وقددت الأديم لراهشيه وألفى قولها كذباً ومينا

والشاهد في (كذباً ومينا) فهما كالنأى والبعد .

(قددت : قطعت ، والأديم ، الجلد ، والراهشان : عرقان فى باطن الذراع إذا فصد

الإنسان منهما مات لتوه) .

وإذا كانت الزيادة لغير فائدة ومتعينة فإنها تسمى حشواً

وهو نوعان :

حشو مفسد للمعنى ، وحشو غير مفسد له .

مثال الحشو المفسد للمعنى قول المتنبي :

ولا فضل فيها للشجاعة والندى وصبر الفتى لولا لقاء شعوب

يقول القزوينى :

فإن لفظ (الندى) فيه حشو مفسد للمعنى ، لأن المعنى أنه لا فضل فى الدنيا للشجاعة والصبر والندى لولا الموت ، وهذا الحكم صحيح فى (الشجاعة) وفى الصبر لكون (الندى) لأن الشجاع لو علم أنه يخلد فى الدنيا لم يخش الهلاك فى الإقدام فلم يكن لشجاعته فضل ، بخلاف الباذل ماله ، فإنه إذا علم أنه يموت هان عليه بذله ، فلو علم أنه يخلد ثم جاد بماله ، كان جوده أفضل ، فالشجاعة لولا الموت لم تحمد والندى بالضد .

ومثال الحشو غير المفسد للمعنى قول أبي العيال الهذلي :

ذكرت أخي فساودني صداع الرأس والوصب

فإن لفظ (الرأس) فيه ، حشو غير مفسد للمعنى ، وقول زهير :

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم مافي غد هم

فإن قوله (قبله) مستغنى عنه غير مفسد .

وقول أبي عدى عبد الله بن عمر بن عبد الله العبلي :

نحن الرؤوس وما الرؤوس إذا سمت في الجسد للأقوام كالأنساب

فإن قوله (« للأقوام ») حشو لا فائدة فيه مع أنه غير مفسد (١) .

* * *

انتهى كلام القزويني ، وقد روي عن بدر الدين بن مالك قوله :

يكثر الحشو بلفظ (أصبح) و (أمسى) و (عدا) و (ألا) و (قد) و (اليوم)

و (لعمرى) و (يا صاحبي) قال أبو تمام :

أقروا (لعمرى) بحكم السيوف وكانت أحق بفصل القضا

وقال البحتري :

ما أحسن الأيام إلا أنها (يا صاحبي) إذا مضت لم ترجع (٢)

ويظهر أن بدر الدين لم يكن يقصد الحشو بالمعنى الذي شرحناه هنا ، بل كان يقصد ما يمكن أن نسقطه من الكلام دون أن نخل بالمعنى الأصلي ولو أننا التمسنا دلالات للكلمات التي ذكرها لوجدنا أنها تؤدي وظائف ذهنية وشعورية ، وأن الكلام بها أحسن منه بدونها والله أعلم .

(١) بغية الإيضاح ج ٢ ص ١٣٦ - ١٣٧ .

(٢) علوم البلاغة لأحمد مصطفى المراغي ص ١٧٤ طبعة دار القلم لبنان ط (١) . ١٩٨٠ .

الإطناب

تكرر القول بأنه زيادة اللفظ على المعنى لفائدة .

ومن وجهة نظر السكاكي : هو تأدية المعنى بعبارة زائدة على متعارف الأوساط لأغراض يسعى الأديب الأريب إلى تحقيقها .

والإطناب أنواع كثيرة منها :

١ - الإيضاح بعد الإبهام :

وأسرار بلاغته تتردد بين أن تكون :

(أ) رؤية المعنى المقصود التعبير عنه في صورتين مختلفتين ، بمجيئه لإبسا كسوتين : كسوة الخموض والإبهام ، وكسوة الوضوح والبياض .

وهذا يؤدي إلى تمكته في النفس ؛ فإن المعنى إذا ألقى على سبيل الإجمال والإبهام تشوقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التنصيل والإيضاح ، فتوجه إلى ما يرد بعد ذلك ، فإذا ألقى كذلك تمكن فيها فضل تمكن ، وكان شعورها به أتم .

(ب) حصول المتعة الكاملة بإدراكه على مرحلتين : فإن الشيء إذا حصل كمال العلم به دفعة واحدة ؛ لم يتقدم حصول اللذة به ألم ، وإذا حصل الشعور به من وجه دون وجه تشوقت النفس إلى العلم بالمجهول ، فيحصل لها بسبب المعلوم لذة ، وبسبب حرمانها من الباقي ألم، ثم إذا حصل لها العلم به حصلت لها لذة أخرى ، واللذة عقب الألم أقوى من اللذة التي لم يتقدمها ألم .

(ج) تفخيم الأمر وتعظيمه :

كقول الله تعالى : « وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين » .

ففي إبهام الأمر أولاً ، وتوضيحه ثانياً تفخيم له أى تفخيم .

وقوله تعالى : « رب اشرح لي صدري ، ويسر لي أمري » .

فإن قوله : « اشرح لي » يفيد طلب الشرح لشيء ما ، وقوله : (صدري) يفيد تفسيره ومثله « ويسر لي أمري » .

وهن الإطناب بالإيجاز بحذف الإبهام باب : نعم وبئس

على قول من يجعل المخصوص خبراً لمبتدأ محذوف ، أو يجعله مبتدأً حُذِف خبره لدلالة ما قبله عليه .

أما على قول من يجعله مبتدأً والجملة قبله خبره فلا يكون من الإيضاح بعد الإبهام لأن المخصوص من وجهة نظر أصحاب هذا القول مقدم فى التقدير .

تقول : نعم الرجل محمد أو نعم رجلاً محمد

وبئس الرجل مسيلمة أو بئس رجلاً مسيلمة

وتقول : نعم خلق المرء الإخلاص ، وبئس خلق المرء النفاق .

ووجه حسنه سوى الإيضاح بعد الإبهام أمران :

أحدهما : إبراز الكلام فى معرض الاعتدال نظراً إلى إطنابه بالإيضاح بعد الإبهام ، وإلى إيجازه بحذف المبتدأ .

والثانى : هو إبهام الجمع بين المتناقضين وهما الإطناب والإيجاز .

* * *

وأيضاً من الإطناب بالإيضاح بعد الإبهام :

التوشيح

وهو أن يؤتى فى الكلام بمثنى مفسر باثنين أو بجمع مفسر بثلاثة .

فمن الأول : هذه الأقوال لرسول الله ﷺ .

منهومان لا يشبعان : طالب علم وطالب مال .

خصلتان لا تجتمعان فى مؤمن : البخل وسوء الخلق .

يشيب ابن آدم وتشب معه خصلتان : الحرص وطول الأمل .

الخمير من هاتين الشجرتين : النخلة والعنب .

وقولهم ، العلم علمان : علم الأبدان وعلم الأديان .

وقول ابن الرومى :

إذا أبو قاسم جادت لنا يده لم يحمد الأجودان : البحر والمطر

وإن أضاءت لنا أنوار غرته تضاءل النيران : الشمس والقمر

وقول ابن المعتز :

سقتنى فى ليل شبيهه بشعرها
فمازلت فى ليلين ، شعر وظلمة
شبيهة خديها بغير رقيب
وشمسين من خمر ووجه حبيب

وقول البحتري :

لما مشين بذى الأراك تشابهت
فى حلتى حبر وروض فالتقى
وسفرن فامتلات عيون راقها
أعطاف قضبان به وقود
وشيان ، وشى ربي ووشى برود
وردان ، وردجنى وورد خدود

وقول شوقي :

بأيديهم نوران ، ذكر وسنة
وقول محمود حسن إسماعيل :

نوران نور هدى ونور تبسم
وهن الثانى قول محمد بن وهيب :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها
وقول غانم الملقى :

ثلاثة يجهل مقدارها

وقول الآخر :

ثلاثة تنفى عن المرء العزن

الماء والخضرة والوجه الحسن

(٢) بذكر الخاص بعموم العام :

للتبنيه على فضل الخاص حتى كأنه ليس من جنس العام ، تنزيلاً للتغاير فى الوصف
منزلة التغاير فى الذات كقوله تعالى : « من كان عدواً لله وملائكته ورسوله وجبريل وميكال » .

وقوله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر »
وقوله تعالى : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » .

(٣) بذكر العام بذكر الخاص :

إفادة العموم مع العناية بشأن الخاص بذكره مرتين : مرة وحده ، ومرة ضمن العام

كقوله تعالى: « رب اغفر لي ولوالدي ولئن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات » وقوله تعالى .
« إن صلاتي ونسكي ... » .

فالنسك العبادة وهي أعم من الصلاة ، وقوله تعالى : « ولقد آتيناك سبعاً من المثاني
والقرآن العظيم » وقوله تعالى : « ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام
الغيب » (١) .

(٤) التكرار: وهو ذكر الشيء أكثر من مرة لداع بلاغى .

أ - كتأكيد الإنذار فى قوله تعالى : « كلا سوف تعلمون ، ثم كلا سوف تعلمون » .

ب - وكزيادة التنبيه على ما ينفى التهمة ليكمل تلقى الكلام بالقبول فى قوله تعالى :
« وقال الذى آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ، يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع »

ج - وكالتلذذ بذكر المكرر فى بيت مروان بن أبى حفصة :

سقى الله نجداً والسلام على نجدٍ ويا ههنا نجد على القرب والبعـد
وفى الشاهد النحوى :

سعاد التى أضفناك حب سعادا

د - وكإظهار التحسر فى قول الحسن بن مطر يرثى معن بن زائدة :

فيا قبر معن أنست أول حفرة من الأرض خطت للسماحة موضعاً
ويا قبر معن كيف وأريت جسده وقد كان منه البر والبحر مترعاً

هـ - وكالدلالة على الاستيعاب فى قولك : عرفت الرياض حيا حيا ، وشارعاً شارعاً ،
وقرأت الكتاب باباً باباً وفصلاً فصلاً .

و - ومن نواعى التكرار كذلك طول الفصل بين ركنى الجملة فى قول الله تعالى :

« ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها
لغفور رحيم » .

وفى قوله تعالى : « ثم إن ربك للذين هاجروا من بعدما فتنوا ثم جاهدوا وحبروا ، إن
ربك من بعدها لغفور رحيم » .

(١) البرهان فى علوم القرآن للزركشى ج ٢ ص ٤٧١ .

ز - وقد يكون التكرار لتعدد المتعلق تعظيماً لشأنه كالذى نجده فى سورة الرحمن من تكرار آية « فبأى آلاء ربكما تكذبان » ، وكقولهم ، « السخى قريب من الله ، قريب من الناس ، قريب من الجنة ، والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة » (١) .

(٥) الإيغال:

والإيغال فى اللغة المبالغة ، تقول أوغل فى الأمر إذا أمعن فيه وبألغ ، أما فى الاصطلاح البلاغى ، فقد عرفه القزوينى بأنه ختم البيت بما فيه نكتة يتم المعنى بدونها كزيادة المبالغة فى قول الخنساء :

وإن صخرألتأتى الهداة به كأنه علم فى رأسه نار

لم ترض أن تشببه بالعلم الذى هو الجبل المرتفع المعروف بالهداية ، حتى جعلت فى رأسه ناراً .

وفى قول ذى الرمة :

قف العيس فى أطلال مكة واسأل رسوماً كأخلاق الرداء المسلسل
أظن الذى يجدى عليك سؤالها دموعاً كتبذير الجمان المفصل
العيس : الإبل يخالط بياضها سواد خفيف جمع أعيس ، والأخلاق : جمع خلق وهو البالى ، والمسلسل : الردىء النسج ، والتبذير : التفريق ، أما الجمان المفصل فهو اللؤلؤ المنظوم .

وزيادة المبالغة فى البيتين تمت بالوصفين (المسلسل) و (والمفصل) .

وكزيادة المبالغة فى الإيغال :

تحقيق التشبيه

وهو إظهار التساوى بين الطرفين فى وجه الشبه كقول امرئ القيس :
كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذى لم يثقب
فإنه لما أتى على التشبيه قبل ذكر القافية ، واحتاج إليها جاء بزيادة حسنة فى قوله « لم يثقب » ، لأن الجزع إذا كان غير مثقوب كان أشبه بالعيون .

(١) بغية الإيضاح ج ٢ ص ١٥٦ - ١٥٧

ومثله قول زهير :

كأن فتات العهن في كل منزل نزلن به حب القنا لم يحطم
فإن حب القنا أحمر الظاهر أبيض الباطن ، فهو لا يشبه الصوف الأحمر إلا ما لم
يحطم، وكذا قول امرئ القيس :
حملت ردينياً كأن سنانه سنا لهب لم يتصل بدخان

* * *

ولما كان تعريف القزويني للإيغال في أول كلامه عنه نصاً أو كالنص على أنه خاص
بالشعر ، فإنه لم يفادره حتى ذكر ما يدل على أنه كما يأتي في الشعر يأتي في النثر ،
ومثل له في النثر بقول الله تعالى : « اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون » .
فقوله تعالى : « وهم مهتدون » إيغال ، لأن المعنى يتم بدونهم ، إذ الرسل مهتدون لامحالة ،
فذكر هدايتهم - والحالة هذه - تصريح بما علم التزاماً .

* * *

ومن الإيغال في النثر أيضاً قوله تعالى : « إن كثيراً من الناس لفاسقون * أفحكم
الجاهلية يبيغون ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » .
فقد تم المعنى بقوله تعالى : « ومن أحسن من الله حكماً » وجاء قوله تعالى : « لقوم
يوقنون » إيغالاً لإفادته معنى زائداً هو أنه لا يعلم أن حكم الله أحسن من كل حكم إلا من
أيقن أنه سبحانه وتعالى حكيم عادل (١) .

(٦) التذييل :

التذييل تعقيب الجملة بجملة تشتمل على معناها تقوية لها .

وهو **خرب لا يجري هجري المثل** :

(١) **خرب لا يجري هجري المثل** ، لأنه لا يستقل بمعناه ، بل يتوقف على ما قبله
كقوله تعالى : « ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور » أي وهل نجازي الجزاء
المذكور فيما قبل ، وهو إرسال سيل العرم وتبديل الجننتين ، إلا الكفور ، وكقول المتنبي :
تمسسى الأمانى صرعى دون مبالغه فما يقول لشئ ليست ذلك لي
وقول ابن نباتة :

لم يبق جودك لي شيئاً أؤمله تركتني أخصب الدنيا بلا أهل

(١) بديع القرآن ص ٧٢ .

وقد تم التذييل بالشطرة الثانية فى كل من البيتين .

(ب) **وخرّب يجرى المثل فى الاستقلال بنفسه وفى التمثل به كقوله تعالى:**
« **وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً** » ، فقوله تعالى « **إن الباطل كان زهوقاً** » تذييل جار مجرى المثل ، لتضمنه معنى كلياً قائماً بنفسه هو أن الباطل لا محالة زائل ، وقوله تعالى : « **وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء** » . ف « **إن النفس لأمارة بالسوء** » تذييل جار مجرى المثل .

وكتول النابغة :

ولست بمستبىق أخاً لا تلمه على شعث أى الرجال المهذب

قوله « **أى الرجال المهذب** » تذييل يمكن التمثل به .

وقول الحطيئة :

تزور فتى يعطى على الحمد ماله ومن يعط أثمان المحامد يحمد
والشاهد فى الشطرة الثانية ، فهى تذييل جار مجرى المثل .

وقد اجتمع الضريان فى قول الله تعالى : « **وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفان مت فهم الخالدون** . كل نفس ذائقة الموت » .

فإن قوله تعالى : « **أفئن مت فهم الخالدون** » تذييل غير جار مجرى المثل .

وقوله تعالى : « **كل نفس ذائقة الموت** » تذييل جار مجرى المثل .

وتقسيم آخر للتذييل :

هو أنه إما أن يكون لتأكيد منطوق الجملة السابقة كقوله تعالى : « **إن الباطل كان زهوقاً** » ، فهى مسبوقه بمنطوقها وهو « **وزهق الباطل** » .

وكتول الحطيئة : « **ومن يعط أثمان المحامد يحمد** » فهو مسبوقه بمنطوقه قبله وهو « **يعطى على الحمد ماله** » .

وإما لتأكيد مفهومها فقط ، وذلك كبيت النابغة ، فإن صدره قد دلّ بمفهومه على نفي الكامل من الرجال ، وجاء عجزه فقرّر ذلك وأكدّه (١) .

(١) بغية الإيضاح ج ٢ ص ١٥٩ - ١٦٠ .

٧ - التكميل ويسمى الإحتراس أيضاً:

وهو أن يؤتى فى كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه .

وقد فرق الجرجانى بينه وبين التذليل بأن الكلام الثانى فى التكميل لا يكون بمعنى الأول بخلاف التذليل^(١) .

والتكميل ضربان :

ضرب يتوسط الكلام كقول طرفة :

فسقى ديارك (غير مفسدها) صوب الربيع وديمة تهمسى

فإن قوله (فسقى ديارك) كما يحتمل أن يكون على وجه الإصلاح ، يحتمل أن يكون على وجه الإفساد ، وقد أزال الشاعر الاحتمال غير المقصود بقوله (غير مفسدها) ، وكقول ابن المعتز :

صبينا عليها (ظالمين) سياطنا فطارت بها أيدٍ سراع وأرجل

والإحتراس هنا فى قوله (ظالمين) فقد دفع به توهم أن فرسه بليدة تستحق الضرب .

رخصب يأتى فى آخر الكلام :

كقول الله تعالى : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين » ، فإنه لو اقتصر على وصفهم بالذلة على المؤمنين لتوهم أن ذلتهم لضعفهم ، فلما قيل « أعزة على الكافرين » علم أنها منهم تواضع لهم .

وكذا قول الحماسى :

رهننت يدي بالعجز عن شكر بره وما فوق شكرى للشكور مزيد

الإحتراس هو الشطرة الثانية ، فقد دفع بها ما توهمه الشطرة الأولى من عجزه عن شكر من أبره .

وقول كعب بن سعد الغنوى :

حليم إذا ما الحلم زين أهله مع الحلم فى عين العدو مهيب

(١) الإشارات ص ١٦١ .

فإنه لو اقتصر على وصف مملوحة بالحلم لأوهم أن حلمه عن عجز ، فلم يكن صفة مدح
ولما قال : « إذا ما الحلم زين أهله » أزال هذا الوهم ، أما بقية البيت فتأكيد لل لازم ما يفهم
من الاحتراس كما قال القزويني (١) .
وقول السموط بن عادياء :

وما مات منا سيد في فراشه ولا طل منا حيث كان قتيل

فإنه لو اقتصر على وصف قومه بشمول القتل إياهم لأوهم أن ذلك لضعفهم وقتلهم ،
فأزال هذا الوهم بقوله : « ولا طل منا حيث كان قتيل » يقصد أنه لم يمض قتيل لهم بون
ثار .

وقول المتنبي :

أشد من الرياح الهوج بطشا وأسرع في الندى منها محبوبا

فإنه لو اقتصر على وصفه بشدة البطش لأوهم أنه عنف كله ، فأزال هذا الوهم بالشرطة
الثانية .

٨ - التتميم:

وهو أن يُؤتى في كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضلة تفيد نكتة ، كالمبالغة في قول الله
تعالى : « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيمماً وأسيراً » أى مع حبه لحاجتهم إليه
واشتهاؤهم له .

ونحوه « وآتى المال على حبه » ، « لن نتالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » « حتى
تنفقوا » أى حتى يقع منكم إنفاق ، و « مما تحبون » تتميم .

ومن التتميم قول زهير في مدح هرم بن سنان :

من يلقى يوماً على علاته مرماً يلقى السحابة منه والندى خلقاً
فقوله (على علاته) أى فى جميع أحواله ، تتميم .

٩ - الاعتراض:

وهو أن يُؤتى فى أثناء الكلام أو بين كلامين متصلين معنىً بجملة أو أكثر لا محل لها من
الإعراب لفائدة سوى دفع الإيهام .

(١) بغية الإيضاح ج ٢ ص ١٦٣ .

(أ) كالتنزيه في قوله تعالى : « ويجعلون لله البنات - سبحانه - ولهم ما يشتهون » .

(ب) وكالدعاء في قول المتنبي :

وتحتقر الدنيا احتقار مجرب يرى كل ما فيها - وحاشاك - فانيا
يقول القزويني فإن قوله (وحاشاك) دعاء حسن في موضعه، وعندى أنها كسابقتها تنزيه. أما
الدعاء فكقول عوف بن مطم الشيباني:

إن الثمانين - وبلغتها - قد أوجتُ سمي إلى ترجمان
(ج) وكالتنبيه في قول الشاعر :

واعلم (فعلم المرء ينفعه) أن سوف يأتي كل ما قدرا
ف (علم المرء ينفعه) جملة اعتراضية قصد بها تنبيه المخاطب إلى أن ما مرُّ به نافع له.
(د) وكتخصيص أحد المذكورين بزيادة التأكيد في أمر متعلق بهما كقوله تعالى :
« ووصينا الإنسان بوالديه (حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين) أن اشكر لي
ولو اليك إلى المصير » .
والشاهد في (حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين) والاعتراض فيه بجملتين :
فعلية واسمية .

(هـ) والمطابقة مع الاستعطاف في قول المتنبي :

وخفوق قلب لو رأيت لهيبه يا جنتي لرأيت فيه جهنما
الشاهد فيه (يا جنتي) ، فهي مسبوقة بالهيب ، وملحوقة بجهنم وهذا هو الطباق ، ثم
إن مناداته حبيبه بـ (يا جنتي) استعطاف رقيق .
(و) وكالتنبيه على سبب أمر فيه غرابة كقول ابن ميادة :

فلا هجره يبدو (وفي اليأس راحة) ولا وصله يبدو لنا فنكارمه
فإن قوله : (فلا هجره يبدو) يشعر بأن هجر الحبيب أحد مطلوبيه : ولما كان من الغريب
طلب هجر الحبيب قال : « وفي اليأس راحة » لينبه على سببه .

(ن) وكالمبادرة إلى اللوم فى قول كثير عزة :

لو ان الباخلين – وأنت منهم – رأوك تعلموا منك المطالا

عجل بالاعتراض تعبيراً عن ضيقه بها ، وإسراعاً منه إلى لومها .

(ح) وكالتعظيم فى قوله تعالى : « فلا أقسم بمواقع النجوم * وإنه لقسم لو تعلمون

عظيم * إنه لقرآن كريم » .

قوله (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) اعتراضان : أحدهما (وإنه لقسم عظيم) والآخر (لو تعلمون) هو اعتراض داخل اعتراض ، وغرضه مزيج فشق لتعظيم المقسوم به وهو مواقع النجوم ، وشق لتعظيم المقسوم عليه وهو القرآن الكريم .

(ط) وكالتحسر فى قول إبراهيم بن المهدي يرثى ابنه :

وإنى – وإن قُدمتَ قبلى – لعالم بأنىسى – وإن أُخزرتُ منك – قريب

ففى البيت إطناب بالاعتراض فى كل من شطريه .

والغرض الذى قصد الشاعر إليه إنما هو إظهار الأسى والتحسر على أن الموت قد سبق

إلى ابنه .

* * *

ومن الاعتراض بجملتين بين كلامين متصلين معنى قوله تعالى : « وأتوهن من حيث أمركم الله ، إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين * نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم ... » .

فأولاً : قد تم الاعتراض بجملتين هما (إن الله يحب التوابين) ، (ويحب المتطهرين) .

وثانياً : « نساؤكم حرث لكم » بيان لقوله : « فأتوهن من حيث أمركم الله » يعنى أن الماتى الذى أمركم الله به هو مكان الحرث ، دلالة على أن الغرض الأصلى من الإتيان هو طلب النسل لا قضاء الشهوة ، وإذا فأتوهن إلا من حيث يتحقق هذا الغرض .

ومثله فى كون الاعتراض بجملتين قول الله تعالى : « قالت : رب إنى وضعتبا أنثى والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى . وإنى سميتها مريم » .

فإن قوله : « والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى » ليس من قول أم مريم .

* * *

أما بجهت: فتسعة الأنواع السابقة ليست كل الإطناب .

وما هو ذا القزوينى يسوق نماذج أخرى له كقولهم : رأيتُه بعينى وسمعتُه بأذنى .
وكقول البحترى :

تأمل من خلال السجف وانظر بعينك ما شربت ومن سقانى
تجد شمس الضحى تدنو بشمس إلى من الرحيق الخسروانى
ومنه قول الله تعالى : « إذ تلقونه بالسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم » أى
هذا الإفك ليس إلا قولاً يجرى على ألسنتكم ويدور فى أفواهكم من غير ترجمة عن علم فى
القلب كما هو شأن المعلوم إذا ترجم عنه اللسان .

وقوله تعالى : « تلك عشرة كاملة » بعد قوله تعالى : « فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى
الحج وسبعة إذا رجعت » إطناب فائدته أن يعلم العدد جملة كما علم تفصيلاً ، ليحاط به من
جهتين فيتأكد العلم به ، فى أمثال العرب « علمان خير من علم » وقوله (كاملة) تأكيد آخر .
وقيل أريد به تأكيد الكيفية لا الكمية ، حتى لو وقع صوم العشرة على غير الوجه المذكور
وهو أن يكون ثلاثة منها فى الحج وسبعة عند الرجوع لم تكن كاملة (١) .

وهقياس آخر للإيجاز والإطناب :

ختم القزوينى علم المعانى به وهو أنه قد يوصف الكلام بالإطناب أو بالإيجاز باعتبار
كثرة حروفه أو قلتها بالنسبة إلى كلام آخر مساو له فى أصل المعنى كالشطر الأول من قول
أبى تمام :

يصد عن الدنيا إذا عنُ سؤدد ولو برزت فى زى عذراء ناهد
وقول المعذل بن غيلان - وقيل إنه لأبى سعيد الخزومى - :
ولست بنظار إلى جانب الغنى إذا كانت العلياء فى جانب الفقر
ومنه قول الشماخ :

إذا ما راية رفعت لجد تلقاها عرابة باليمين

(١) بغية الإيضاح ج ٢ ص ١٦٩ - ١٧٠ .

وقول بشر بن أبي خازم :

إذا ما المكرمات رفعن يوماً وقصُرُ مبتغوها عن مداها

وضاقت أذرع المثرين عنها سما أوس إليها فاحتواها

ويقرب من هذا الباب قوله تعالى : « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » .

وقول السموع بن عادياء :

وننكر إن شئنا على الناس قولهم ولا ينكرون القول حين نقول

وكذا ما ورد في الحديث « الحزم سوء الظن » وقول العرب (الثقة بكل أحد عجز)^(١) .

(١) بغية الإيضاح ج ٢ ص ١٧١ - ١٧٢ .

« ٢ »

علم البريد

علم البديع

علم البديع فى اصطلاح البلاغيين قديما ومحدثين هو العلم الذى يعرف الأديب به وجهه تحسين كلامه بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال ، ورعاية وضوح الدلالة على ما يريد التعبير عنه .

وهذه الرعاية المزوجة تعنى فى شقها الأول علم المعانى ، وفى شقها الثانى علم البيان . فوجه تحسين الكلام لا تجئ قبلهما ولا بدونهما ، وإلا كانت كتعليق الدر فى أعناق الخنازير - على حد قول المغربى - (١) .

وهذا هو السبب فى أن نفر الذين قصدوا من الخوض فى البلاغة ، ومن التلبس بها ببيان إعجاز القرآن من جهتها - كعبد القاهر والزمخشري والرازى - قد جعلوا علم البديع تابعاً لعلمى المعانى والبيان .

وسر التبعية أنه لا يكون بنية قائمة بنفسها فى الهيكل العام للنظم القرآنى ، كما أنه هو السبب فى أن إمامه به قد جاء جزئياً لا كلياً ، واستطراداً لا تأسيساً .

أما من تكلموا فى البلاغة لذاتها وهم الأكثرية العظمى من رجالها - كابن المعتز وقدامة والعسكرى وابن رشيق وابن سنان وابن منقذ والتيفاشى وابن أبى الإصبع - فقد تناولوا البديع تناولاً مسهباً واستكثروا منه حتى أضجروا به .

* * *

ونذكر بما قلناه فى صدر هذه الدراسة من أن (البديع) - شأنه فى ذلك شأن (البيان) - كان يطلق ويراد به علوم البلاغة الثلاثة ، ومن أنه كان كذلك حتى فى البديعيات (٢) لكنه

(١) مواهب الفتاح ج ٣ ص ٣ . الطبعة الأولى سنة ١٣٤٢هـ .

(٢) المشهور أن البديعيات قصائد فى مدح الرسول ﷺ من بحر البسيط وعلى قافية الميم المكسورة ، وكل بيت من البديعية مثال للون بلاغى أو أكثر بون التورية باسمه أو بها ، وقد صارت [البديعية] مصطلحاً علمياً وفنياً . أما (علمياً) فلما فيها من علوم البلاغة الثلاثة تحت اسم البديع . وأما (فنياً) فلما فيها من خصائص فن المدح بعامه ، وفن مدح الرسول ﷺ بخاصة . وانظر : أنوار الربيع فى أنواع البديع للسيد على صدر الدين بن معصوم المدنى ج ١ ص ٣١ - ٣٢ بتحقيق شاكر هادى شاكى . الطبعة الأولى . النجف الأشرف ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م ، والصبيغ البديعى للدكتور أحمد موسى ص ٢٧٠ وما بعدها القاهرة ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٩ م ، وخط سير الأدب العربى للدكتور عبده قلقيلة ص ٤٣٠ - ٤٣٣ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٧ م .

قبل البديعيات وبعدها قد استأثر بالدراسة المستقلة وعرفت وجوهه باسم (المحسنات البديعية) .

وهذه المحسنات نوعان :

(١) محسنات معنوية:

وهي التي يكون التحسين بها راجعاً إلى المعنى قصداً وإلى اللفظ عرضاً لأنه كلما أفيد باللفظ معنى حسن ، تبعه حسن اللفظ الدال عليه ، كالطباق بين (يسر) و (يعلن) في قول الله تعالى « يعلم ما يسرون وما يعلنون » .

والعلامة المميزة لهذا النوع أننا لو عدلنا عن اللفظ فيه إلى ما يرادفه ، فقلنا مثلاً « يعلم ما يخفون وما يعلنون » بقي المحسن المذكور وكأن لم يحصل تغيير .

(٢) محسنات لفظية:

وهي التي يكون التحسين بها راجعاً إلى اللفظ قصداً وإلى المعنى عرضاً : لأنه كلما عبر عن معنى بلفظ حسن ، استحسن معناه تبعاً ، وذلك كالجناس في قول الله تعالى : « يوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة » .

والعلامة المميزة لهذا النوع أننا لو عدلنا عن اللفظ فيه إلى ما يرادفه فقلنا مثلاً ، (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا إلا وقتاً قصيراً) أو (ويوم تقوم القيامة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة) : زال ذلك المحسن وكأنه لم يكن .

وسنبداً بالمحسنات المعنوية ، لأن المقصود الأصلي للمتكلم إنما هو المعاني .

أما الألفاظ : فإنها أوعيتها ، وهي لذلك توابع لها يقال :

لولا المعاني ما احتجنا إلى الألفاظ ، ولا يقال : لولا الألفاظ ما احتجنا إلى المعاني .

إذ كلما توصل الإنسان إلى المعنى ألقى اللفظ وليس العكس (١) .

هذا ما قالوه . والحقيقة أننا نفكر باللغة ، وأن الفصل بين الألفاظ والمعاني فصل افتراضي هدفه بيان أوجه حسن كل منهما أو قبحه على حدة لنراعي ذلك في إبداع الأدب ونقده تحلية وتخلية .

(١) انظر مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي ج ٢ ص ٤ وعلوم البلاغة لأحمد

مصطفى المراغي ص ٢٩٦ الطبعة الأولى دار القلم بيروت ١٩٨٠ م .

المحسنات المهنوية

المطابقة - الطباق - التجاذب :

ثلاثة مصطلحات لمسمى فرد هو الجمع في الكلام الواحد بين الشئ الواحد وضده أو مقابله ظاهراً كان ذلك الجمع أو خفياً وبالإيجاب في الطرفين أو في أحدهما ، وسواء كان الطرفان حقيقيين أو مجازيين ، اسمين أو فعلين أو حرفين أو مختلفين .

فمن الطباق الظاهر بالإيجاب في الطرفين الحقيقيين وهما أسماء :

قول الله تعالى : « وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود » وقوله تعالى : « يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي » وقوله تعالى : « وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور » وقوله تعالى : « فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات » وقوله تعالى : « هو الذى يريك البرق خوفاً وطمئناً » وقوله تعالى : « له الحمد فى الأولى والآخرة » .

وقوله ﷺ : « فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة للكبر ، ومن الحياة للممات ، والذى نفسى بيده ما بعد الحياة من مستعقب ، وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار » وقوله عليه الصلاة والسلام « لعن الله بائع العرة ومشتريها » (١) .

وقوله أيضاً : « أهل المعروف فى الدنيا أهل المعروف فى الآخرة ، وأهل المنكر فى الدنيا أهل المنكر فى الآخرة » .

وقول امرؤ القيس :

مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل
وقول أبى الحسن التهامى :

طبعت على كدر وأنت تريدها صنوا من الأقداء والأكدار
ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب فى الماء جذوة نار
وقول السموط :

سلى إن جهلت الناس عنا وعنهم فليس سواء عالم وجهول

* * *

(١) العرة : ما يفلح الوصى مما تحت يده لليتم قالت عائشة رضى الله عنها : « مال اليتيم عرة لا أدخله فى مالى ولا أخلطه به » .

وهن الطبايق الظاهر بالإيجاب في الطرفين الحقيقيين وهما جرفان

قول الله تعالى : « قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير » .
وقوله تعالى : « وأنه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمان وأحيا »
وقول النبي ﷺ « أفضل الفضائل أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتصفح عن شتمك » .

وقول الحصين المري :

تأخرت استبقى الحياة فلم أجد لنفسي حياة مثل أن أتقدما
وقول الفرزدق في مجاء بني كليب :

يستيقظون إلى نهيق حمارهم وتنام أعينهم عن الأوتار
وقول أبي صخر الهذلي :

أما والذي أبكى وأضحك والذي مات وأحيا والذي أمره الأمر
لقد تركتني أحسد الوحش أن أرى أليفين منه لا يروعهما الذعر
وقول بشار :

إذا أيقظتك حروب العدا فنبه لها عمراً ثم نم

وهن الطبايق الظاهر بالإيجاب في الطرفين الحقيقيين وهما جرفان:

قول الله تعالى : « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » وقوله تعالى : « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف » وقول مجنون ليلى :

على أننى راض بأن أحمل الهوى وأخرج منه لا على ولا ليا
وقول الآخر :

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نساء ويوم نسر

* * *

وهن الطبايق الظاهر بالإيجاب والطرفان مجازيان :

قول الله تعالى : « أومن كان ميتاً فأحييناه » أى ضالاً فهديناه .
وقوله تعالى : « هو الذى أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها » .

وقول الشاعر

حلو الشمائل وهو مر باسسل يحمى الذمار صبيحة الإرهاق

فقوله (حلو) و (مر) جار مجرى الاستعارة ؛ إذ ليس فى الإنسان ولا فى شمائله ما يدرك بحاسة النوق .

وقول الآخر :

إذا نحن سرنا بين شرق ومغرب تحرك يقظان التراب ونائمه

الشاهد فى المطابقة بين (يقظان) و (نائم) فنسبتهما إلى التراب ليست حقيقية بل على سبيل الاستعارة المكنية .

وقدامة وابن أبى الإصبع يطلقان على الطباق بالطرفين المجازيين اسم (التكافؤ) أو (المتكافئ) (١) .

* * *

وقد ألحق البلاغيون بالطباق المجازى ما أسموه : إيهام الطباق .

وهو الجمع بين معنيين غير متقابلين لكن عبر عنهما بلفظين يتقابل معناهما الحقيقى .
ومما مثلوا له به قول دعبل :

لا تعجبنى يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى

(ضحك المشيب برأسه) أى ظهر ظهوراً تاماً ، أما (فبكى) فهى (بكى) حقيقة ، ولما كان ظهور المشيب لا يقابل البكاء عبر عنه بالضحك الذى معناه الحقيقى مقابل للبكاء (٢) .

وهن الطباق الخفى بالإيجاب :

قول الله تعالى : « مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً » .

توضيح ذلك أن إدخال النار ليس ضد الإغراق فى المعنى ، ولكنه يستلزم ما يقابله وهو الإحراق ، وقوله تعالى : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » بيانه أن رحماء ليست ضداً فى المعنى لـ (أشداء) ولكن الرحمة تستلزم اللين المتأبل للشدّة .

* * *

(١) انظر نقد الشعر ص ٨٥ وتحرير التعبير ص ١١١ والتصوير البيانى ص ٣١٢

(٢) المختصر للتفتازانى ج ٢ ص ٨ الطبعة الأولى سنة ١٢٤٦ هـ والإيضاح للقزوينى ج ٦ ص ١٥

* تحقيق الدكتور خفاجى

ومن تحسين التحسين بالمطابقة ما سموه :

التدبيح

من دبج الارض إذا زينها

والتدبيح هو افتتان المطابقة بلون بلاغى آخر من علم البيان أو من علم المعانى أو من علم البديع .

فمن تدبج المطابقة بلوغ بلاغى من علم البيان هو الكناية .

قول أبى تمام فى رثاء محمد بن حميد :

تردى ثياب الموت حمرا فما أتى لها الليل إلا وهى من سندس خضر

معنى البيت أن ثياب الشهيد التى تطلخت بدمه فصارت حمراء ، لم ينقض يوم قتله ، ولم تدخل ليلته إلا وقد صارت من الحرير الأخضر الذى هو لباس أهل الجنة . قابل الشاعر بين الحمرة والخضرة ، ونذا طباق لكنه دبج بالكناية عن القتل بالحمرة ، وعن دخول الجنة بالخضرة ، وهذا من تحسين التحسين كما قلت .

* * *

ومن تدبج المطابقة بلوغ بلاغى من علم المعانى هو الإيغال .

قول الفرزدق :

لمن الإله بنى كليب إنهم لا يفقدون ولا يفنون لجار

« فإن غرضه وصفهم بالعجز ، ولذلك جمع بين المتقابلين ، وقد تم غرضه بنفى الفدر والوفاء عنهم بالإطلاق ، ولكنه كمله بقوله (لجار) وهو الإيغال » (١) .

* * *

ومن تدبج المطابقة بلوغ بلاغى من علم البديع هو التورية :

قول الحريري :

« فمذ اغبر العيش الأخضر ، وازور المحبوب الأصفر . اسود يومى الأبيض وأبيض فودى الأسود ، حتى رق لى العدو الأزرق ، فيا حبذا الموت الأحمر » .

(١) الإشارات والتبهيئات ص ٢٦١ .

النص طباق ، والألوان كنايات عن صفات باستثناء (المحبوب الأصفر) فإنه تورية ، إذ له معنيان : قريب ظاهر غير مراد هو حبيبتة الصفراء وبعيد خفى مراد هو الذهب .

* * *

يقول محمد الجرجاني « وقد تكون مع المطابقة المناسبة كقول ابن رشيق :
وقد أطفأوا شمس النهار وأوقدوا نجوم العوالى فى سماء عجاج
ففيه مطابقة لتقابل (أطفأوا) و (أوقدوا) ، ومناسبة ، لتناسب الشمس والنجوم
والسما ، ولذلك جاء سحراً فى الحسن والبلاغة » (١) .
انتهى كلام الجرجاني .

والجمع فى الكلام بين مناسبة وطباق هكذا له مصطلح خاص به سماه هو
التفويقه قال : « وقد يركب الكلام من المطابقة والمناسبة فيختص باسم
التفويق » (٢) .

أما المناسبة وحدها فما هو ذا يعرفها بقوله : « هى أن يجمع فى الكلام بين كلمات
متناسبة كقوله تعالى : « الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان » فإن القمر
يناسب الشمس ، والشجر يناسب النجم » (٣) .

وأما الإئتلاف والتوفيق والتناسب ومراعاة النظم :

فمن عجب بل من عبث أنها مصطلحات مترادفات أى مصطلحات ذات مدلول واحد هو
أن يجمع الإنسان فى كلامه بين أمر وما يناسبه لا بالتضاد .
كقول أسيد الفزارى :

كأن الثريا علقست فى جبينه وفى خده الشعرى وفى وجهه القمر
وكقول أبى القاسم الزاهى :

سفرن بدورا وانتقين أهلة ومسن غصونا والتفتن جاذرا
وكقول ابن رشيق :

أصح وأقوى ما سمعناه فى الندى عن الخبر المأثور منذ قديم
أحاديث ترويهما السيول عن الحيا عن البحر عن كف الأمير تميم

(١) الإشارات ص ٢٦١ والعوالى : أعالى السيوف ، والعجاج : الغبار .

(٢) السابق نفسه ص ٢٦٦ .

(٣) السابق نفسه ص ٢٦٤ .

فإنه ناسب بين (الصحة) و (القوة) ، و (السماع) و (الخبر الماثور) و (الأحاديث) و (الرواية) ثم بين (السيل والحيا والبحر وكف تميم) مع ما فى البيت الثانى من صحة الترتيب فى العننة ، إذ جعل الرواية لصاغر عن كابر كما يقع فى سند الأحاديث ، فإن السيول أصلها المطر ، والمطر أصله البحر وقد جعل كف الممدوح أصلاً للبحر مبالغة (١) .

المقابلة

جعلها السكاكى والقزوينى شعبة من الطباق .

جاء فى الإيضاح : « ودخل فى المطابقة ما يخص باسم المقابلة : وهى أن يؤتى بمعنىين متوافقين ، أو معان متوافقة ثم يؤتى بما يقابلهما أو يقابلها على الترتيب » (٢) .

ولهى إما ثنائية :

كقول الله تعالى : « فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً » وقوله تعالى : « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه وتبتغوا من فضله » ، وقول النبى ﷺ : « إن الرفق لا يكون فى شئ إلا زانه ، والخرق لا يكون فى شئ إلا شاناه » .

وقوله عليه السلام : « إن لله عبادةً جعلهم مفاتيح الخير مغاليق الشر » .

وقوله ﷺ للأنصار : « إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع » .

وقول الإمام على كرم الله وجهه : « احذروا صولة الكريم إذا جاع واللئيم إذا شبع » ، وقول مسلمة بن عبد الملك : « الغنى فى الغربية وطن ، والفقر فى الوطن غربة » .

وقول النابغة الجعدى :

فتى تم فيه ما يسر صديقه على أن فيه ما يسوء الأعدايا

وقول البحترى :

فحاجب الشمس أحياناً يضحكها وريق الغيث أحياناً يباكيها

وقول المعرى :

يا دهر يا منجز إيعاده ومخلف المأمول من وعده

وقول الآخر :

فواعجبا كيف اتفقنا فنامسهم وفي مطوي على الغل غادر

فإن الغل ضد النصح ، والغدر ضد الوفاء .

(١) الإيضاح ج ٦ ص ٢٠ .

(٢) الإيضاح ج ٦ ص ١٦ والمفتاح ص ١٧٩ .

أو ثلاثية :

كقول الله تعالى : « يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث » وقول على رضى الله عنه :
« إن الحق ثقيل وبسّ ، والباطل خفيف مرى » .

وقول أبى دلامة :

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل
وقول البحتري :

فإذا حاربوا أذلوا عزيزاً وإذا سالموا أعزوا ذليلاً

وقول المتنبي :

فلا الجود يفنى المال والجد مقبل ولا البخل يبقى المال والجد مدبر

أورباكية :

كقول الله تعالى : « فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، وأما
من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى » .

يقول القزوينى : « فإن المراد باستغنى أنه زهد فيما عند الله كأنه مستغن عنه فلم يتق ،
أو استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الجنة فلم يتق » ، وقد اقتصر الجرجانى على المعنى
الثانى للفعل (استغنى) (١) .

وقول أبى بكر رضى الله عنه فى وصيته قبيل موته « هذا ما أوصى به أبو بكر عند آخر
عهده بالدنيا خارجاً منها وأول عهده بالآخرة داخلها فيها » .

فقد قابل (أول) بـ (آخر) و (الآخرة) بـ (الدنيا) و (داخل) بـ (خارجاً) و (فيها)
بـ (منها) .

وقول الطغرائى :

حلو الفكاهة مر الجد قد مزجت بشدة البأس منه رقة الغزل

قابل الحلو والفكاهة بالمر والجد فى صدر البيت ، وقابل الشدة والبأس بالرقة والغزل فى
عجزه .

(١) الإيضاح ج ٦ ص ١٨ والإشارات ص ٢٦٢ .

وقول جرير :

وباسط خير فيكم بيمينه وقابض شرعنكم بشماله
قابل بين (باسط وقابض) و (خير وشر) و (فيكم وعنكم) و (بيمينه وبشماله) .
وقول أبي تمام :

يا أمة كان قبح الجور يسخطها دهراً فأصبح حسن العدل يرضيها
قابل بين (كان وأصبح) و (قبح وحسن) و (الجور والعدل) و (يسخطها ويرضيها) .
وقول ابن حجة :

قابلتهم بالرضا والسلم منشرحاً ولأوأ غضاباً فوا حربى لغيظهم
قابل بين (قابلتهم وولوا) و (الرضى والغضب) و (السلم والحرب) و (الانشراح
والغيظ) .

أو خماسية :

كقول صفي الدين الحلى :

كان الرضا بدنوى من خواطرهم فصار سخطى لبعدى عن جوارهم
والمقابلة بين (كان وصار) و (الرضا والسخط) و (الدنو والبعد) و (من وعن)
و (خواطرهم وجوارهم) .

وقول المتنبي :

أزورهم وسواد الليل يشفع لى وأنثنى وبياض الصبح يغرى بى
فقد تمت المقابلة بين (أزورهم وأنثنى) و (سواد وبياض) و (الليل والصبح) و (يشفع
ويغرى) و (لى وبى) .

وقول الآخر :

بواطئ فوق خد الصبح مشتهر وطائر تحت ذيل الليل مكتتم
قابل بين (واطئ وطائر) و (فوق وتحت) و (خد وذيل) و (الصبح والليل) و (مشتهر
ومكتتم) .

أوسجاسية :

كقول شرف الدين الأربلى :

على رأس عبد تاج عز يزينه وفى رجل حر قيد ذل يشينه
قابل بين (على وفى) و (رأس ورجل) و (عبد وحر) و (تاج وقيد) و (عز وذل)
و (يزينه ويشينه) .

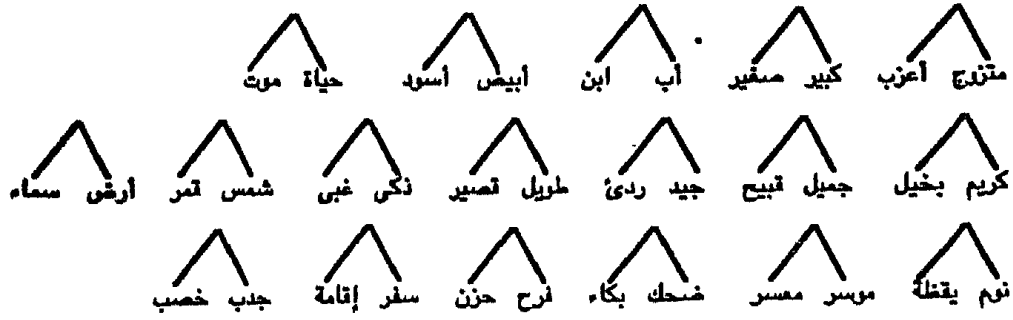
ويمكن المضي بالمقابلة إلى ما شاء الله تعالى نقول :

محمد كريم وذكى وصالح ومنتزوج وناجح وشجاع ورزين ومتفائل ووسيم وطويل وممتلى
ومتحضر

أما فلان فبخيل وغبى وطالح وأعزب وفاشل وجبان وخفيف ومتشائم وقبيح وقصير
ونحيف وهمجى

بلاغة الطباق والمقابلة

فى رأى أن سر بلاغة كل من المطابقة والمقابلة إنما هو تداعى المعانى ، فالضد أو المقابل يجلب إلى الذهن ضده أو مقابله ، لأنهما متضايقان ، ويستند أحدهما على الآخر هكذا :



فإذا كتب الأديب أو نطق أحد المتساندين وقع مقابله فى ذهن متلقى الأدب قبل أن يقرأه أو يسمعه ، وبهذا يتحول متلقى الأدب إلى مرسل له ، ويمكن - على التجوز - أن نقول : يتحول من سالب إلى موجب .

وقد جعل نقاد الأدب هذا التحول فى موقف مستقبل الأدب مقياساً لجودة الأدب ولنجاح الأديب .

وسيتأكد ذلك بدراستنا لما سموه :

الإرصاد أو التسهيم

فميزته أنه يُقدر القارئ أو السامع على التنبؤ بما يختلج داخل الأديب حتى يمكنه متى عرف أوله أن يكمله بما كان الأديب قد كمله به وهو ما عناه ابن نباتة بقوله :

خذها إذا أنشدت فى القوم من طرب صدرها عرفت منها قوافيها

ينسى بها الراكب العجلان حاجته ويصبح الحاسد الغضبان يطربها

قال القزوينى :

الإحصاء

ويسمى التسهيم أيضاً :

وهو أن يُجعل قبل العجز من الفقرة أو البيت ما يدل على العجز إذا عرف الروى كقول الله تعالى : « وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » . وقوله تعالى : « وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما كانوا فيه يختلفون » ، وقوله تعالى : « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب » وقوله تعالى : « ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » . وقوله تعالى : « ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور » .

وكقول النابغة الذبياني :

ولو كفى اليمين بفتك خوناً لأفردت اليمين من الشمال

وقول زمير :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولاً لا أبأ لك يسأم

وقول عمرو بن معد يكرب :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

وقول البحترى :

أبكيكما دمعاً ولو أنى على قدر الجوى أبكى بكيتكما دماً

وقوله :

أحلت دمي من غير جرم وحرمت بلا سبب يسوم اللقاء كلامي

فليس الذي حللته بمحلل وليس الذي حرمته بحرام

وإذ نكتفى في التمثيل للإحصاء بما مثلنا له به ، ننبه إلى أنه من حسن التأليف ولا عجب ، فخير الكلام ما دل بعضه على بعض .

المشاكلة

خالفت البلاغيين قداماً ومحدثين بجعلها من المحسنات اللفظية لا المعنوية . وهي وجهة نظر اقتنعت بها فنقدتها ، وستجدها مع لداتها من المحسنات اللفظية .

التورية

التورية فى اللغة مصدر وريت الخبر تورية إذا سترته وأظهرت غيره .

وفى الاصطلاح البلاغى : هى إيراد لفظ له معنيان :

أحدهما قريب ظاهر غير مقصود وهو المورى به .

والآخر بعيد خفى مقصود وهو المورى عنه .

ولا فرق بين المعنيين اللغوى والاصطلاحى .

والتورية فى كتب البلاغة أقسام ، وهذه الأقسام قد تكون اثنين وقد تكون ثلاثة وقد تكون أربعة ، والأقسام ذاتها تتردد بين أن يظل القسم قسماً واحداً وأن يصير قسمين أو ثلاثة ، وبهذه الأقسام – أصلية أو فرعية – يدخل دارس التورية فى متاهات لا داعى لها ، فهى تبهم أكثر مما توضح ، وتربك فى فهمها أكثر مما تسعف بهذا الفهم .

وتسهيلاً للموضوع نقول : إن أساس التقسيم هو المعنى المزدوج فى التورية بشقيه وهما المعنى المورى به ، والمعنى المورى عنه .

وبالنسبة للمعنى المورى به تنقسم التورية قسمين هما :

(أ) التورية المجردة .

(ب) والتورية المرشحة .

والتورية المجردة هى مالم يصحبها شئ يلائم المعنى المورى به كقول الله تعالى :

« الرحمن على العرش استوى » .

وبيان أنها تورية مجردة هو أن لكلمة (استوى) معنيين :

أحدهما قريب ظاهر غير مقصود وهو استوى بمعنى استقر فى المكان أى لبث فيه ومكث به والآخر بعيد خفى مقصود وهو استوى بمعنى استولى وملك .

وإنما كان المعنى الأول غير مقصود ، لأنه لا يلائم الحق تبارك وتعالى فالله جل جلاله منزّه عن ذلك ، وقد جاءت الآية الكريمة فى كتب البلاغة مثلاً للتورية .

قال الزمخشري وهو بإزائها على أنها تورية :

« ولا ترى في باب البيان (البيان هنا بمعنى البلاغة) أدق ولا أطف من هذا الباب ولا أعون على تعاطي تأويل المشتبهات من كلام الله وكلام رسوله وكلام صحابته رضي الله عنهم أجمعين منه » وقال السكاكي : « أكثر مشتبهات القرآن من التورية » لكن للأستاذ أحمد مصطفى المراغي رأياً وجيهاً في هذه الآية عبر عنه بقوله :

« والتحقيق أنها استعارة تمثيلية ، بأن شبهت الهيئة الحاصلة من تصرف المولى في الممكنات بالإيجاد والإعدام بالهيئة الحاصلة من استقرار الملك على عرشه بجامع أن كلاً منهما يبنى عن الملك التام ، واستعير التركيب الدال على المشبه به للمشبه على طريق الاستعارة التمثيلية» (١) .

وقد كان هذا الرأي وجيهاً لأن المعنى الأول للفعل (استوى) بمعنى استقر في المكان وشغله ، هذا المعنى مستحيل على الله تعالى ، ولأنه مستحيل فهو غير وارد أصلاً ويكون لكلمة (استوى) معنى واحد تخرج به الآية عن حد التورية .

وخروجاً من الخلاف بل تفادياً للحرص نمثل للتورية المجردة بقوله تعالى : « وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار » .

أراد بقوله تعالى (جرحتم) معناه البعيد الخفى وهو اقتراف الذنوب ، ولم يرد معناه القريب الظاهر وهو شق الجلد .

وكالآية السابقة قول إبراهيم لفرعون لما سألته عن زوجته «سارة» هي أختي « مورياً بالأخوة الحقيقية عن الأخوة الدينية .

وقول محمد ﷺ وقد سئل : ممن أنتم : « من ماء » .

مورياً بالمعنى القريب وهو القبيلة عن المعنى البعيد الماء وهو الذي جعل الله منه كل شيء حي .

وقول أبي بكر وقد سئل عن النبي في رحلة الهجرة « هاد يهدينى » قصد رضى الله عنه هادياً يهدينى إلى الإسلام لكنه ورى عنه بهادى الطريق وهو الدليل فى السفر .

* * *

(١) علوم البلاغة ص ٢٠٥ هامش رقم (٢) .

وقد سميت التورية الخالية مما يلائم المعنى المورى به مجردة لتجردها مما يقوى^{١١} بهذا المعنى والتوجيه إليه .

ولعل تسمية التورية بالتورية وبالإيهام والتوجيه قد أتت من هنا ، فعل ذلك القزوينى وابن أبى الإصبع وابن حجة وغيرهم .

وإذا كان السبب فى الإيهام وفى التوجيه غير موجود فى التورية المجردة فإنه موجود فى :

التورية المرشحة :

وهى التى صاحبها شئ يلائم المورى به (عكس المجردة) .

وقد سميت مرشحة لأنها تقوّت بملائم هذا المعنى على الإيهام به وعلى التوجيه إليه من جهة ، وعلى إبعاد الذهن نوعاً ما عن المعنى المورى عنه من جهة .

والشئ الملائم للمعنى المورى به إما أن يأتى قبل كلمة التورية ، وإما أن يأتى بعدها .

فالأول : وهو الذى يأتى فيه الملائم قبل كلمة التورية كقول الله تعالى : « والسمااء بنيناها بأيد وإنا لموسعون » .

التورية فى كلمة (أيد) والمعنى المورى به هو الجارحة ، والمعنى المورى عنه هو القدرة ، وقد ذكر قبل كلمة (أيد) ملائم المعنى المورى به ، وهذا الملائم هو جملة (بنيناها) .

وكقول يحيى بن منصور الحنفى :

فلما نأت عنا العشيرة كلها أنحنأ فخالقنا السيوف على الدهر
فما أسلمتنا عند يوم كريبه ولا نحن أغضينا الجفون على وتر

التورية فى كلمة (الجفون) ، فإنها تحتمل أن تكون جفون العيون ، وهذا هو المعنى المورى به ، وتحتمل أن تكون جفون السيوف أى أغمادها وهذا هو المعنى المورى عنه ، وقد سبقت كلمة (الجفون) بملائم المعنى المورى به ، وهذا الملائم هو جملة (أغضينا) .

وكقول صلاح الدين الصفدى :

وصاحب لما أتاه الفنى تاه ونفس المرء طماحه
وقيل هل أبصرت منه يدا تشكرها قلت ولا راحه

التورية فى كلمة (راحة) والمعنى المورى به هو (الكف) ، والمعنى المورى عنه هو الراحة المضادة للتعب ، والترشيح قد تم بذكر الملائم للمعنى المورى به قبل كلمة التورية ، وهذا الملائم هو (يدا تشكرها) .
ومن ذلك قول الشاعر :

أيها المعرض عنا حسبك الله تعال

التورية فى كلمة (تعال) والمعنى المورى به هو تنزيه الله (فعل ماض) والمعنى المورى عنه هو طلب إقبال المعرض ، وملائم المعنى المورى به قد سبق كلمة التورية : وهذا الملائم هو لفظ الجلالة .

وقول الآخر :

حملناهم طرا على الدهم بعدما خلعنا عليهم بالطعان ملابسا

كلمة التورية هى (الدهم) والمعنى المورى به الخيول السود ، والمعنى المورى عنه هو القيود الحديدية ، وقد سبق الملائم كلمة التورية ، وهذا الملائم هو جملة (حملناهم) .

* * *

والثانى من المرشحة :

وهو الذى يأتى فيه الملائم للمورى به بعد كلمة التورية :

كقول القاضى عياض يصف صيفاً بارداً .

كأن كانون أهدى من ملابسه لشهر تموز أنواعاً من الصل

أو الغزالة من طول المدى خرفت فما تفرق بين الجدى والحمل

(كانون) من أشهر البرد و (تموز) من أشهر الصيف ، و (الجدى والحمل) برجان ، ونوعان من النعم قال تعالى : « ومن الأنعام حمولةً غرشاً » ويقولون : « أكل الجداء قليل الجداء » (١) .

والتورية فى كلمة (الغزالة) فمعناها البعيد المورى عنه هو الشمس ، ومعناها القريب المورى به هو الحيوان المعروف ، وقد أتى بعد كلمة (الغزالة) بملائم المعنى المورى به وهذا الملائم هو كلمة (خرفت) ، التى بهتت على كلمتى (الجدى) و (الحمل) فحددت معناهما بما جعلناه المعنى الثانى لهما .

(١) انظر أساس البلاغة ص ٥٣ و٥٤ .

وكقول شاعر مسن :

مذهمت من وجدى فى خالها ولم أصل منه إلى اللثم
قالت قفوا واستمعوا ما جرى لخالى قد هام به عمى

التورية فى لفظ (خالها) فإنه يحتمل خال النسب وهو المعنى القريب المورى به .

وقد ذكر ملائمه بعد كلمة التورية ترشيحاً للتورية وهذا الملائم هو كلمة (العم) ، ويحتمل أن يكون الشامة السوداء التى تظهر غالباً فى الوجه وتكون مظهر حسن ، وهذا هو المعنى البعيد الخفى المورى عنه .

* * *

بقى أن يصحب كلمة التورية ملائم المعنى المورى عنه منبئاً به ومبيناً له حتى ليكاد يقوله بل إنه فى بعض الأمثلة قد قاله ، وهذا الملائم يضعف التورية ، لأنه يجعل البعيد قريباً والخفى ظاهراً : ويترتب على ذلك أن يدرك متلقى الأدب المعنى المورى عنه دون تعب ، ولا عجب ، فالتورية مكشوفة ، لكأنها غير موجودة وقد سماها البلاغيون لهذا :

التورية المبينة : وهو اسم على مسعى حقاً .

والملائم المبين للمعنى المورى عنه مكانه أحد الموقعين السابقين فى التورية المرشحة ، وهما ما قبل كلمة التورية ، وما بعدها .

مثال ما قبلها قول البحترى :

وراء تسدية الوشاح مليه بالحسن تملح فى القلوب وتعذب

التورية فى الفعل (تملح) فإنه يحتمل أن يكون من الملوحة الى هى ضد العنوبة ، وهو المعنى المورى به ، ويحتمل أن يكون من الملاحه بمعنى الجمال وهو المعنى المورى عنه ، والذي ذكر ملائمه قبل كلمة التورية ، وهذا الملائم هو (مليه بالحسن) .

ومثال ما بعدها قول ابن سناء الملك :

أما والله لولا خوف سخطك لهان على ما ألقى برهطك

ملكك الخافقين فتهدت عجباً وليس هما سوى قلبى وقرطك

التورية فى كلمة الخافقين .

والمعنى الموزني به نحو المشرق والمغرب ، والمعنى الموزني عنه هو القلب والقرط وقد بينه الشاعر بالنص عليه في آخر البيت .

* * *

والخلاصة : أن التورية المجردة قسم قائم بنفسه ، وأن التورية المرشحة شحبتان ، وكذلك التورية المبينة .

أما درجات التورية من حيث القيمة الفنية فهي تنازلياً :
المرشحة ، فالمجردة ، فالمبينة .

* * *

وهناك قسم رابع سماه أصحابه التورية المهيأة .
وهي التي لا تقع فيها التورية ولا تنهياً إلا باللفظ الذي قبلها أو باللفظ الذي بعدها ، أو تكون في لفظين لولا كل منهما لما تهيأت في الآخر .
وواضح من تعريفها أنها ثلاث شعب ، وقد بلغت من التكلف حداً يسمح لنا بأن نهملها^(١) .

حسن التعليل

كان القزويني موفقاً في تعريفه حسن التعليل وفي تقسيمه له قال :
« حسن التعليل هو أن يدعى لوصف علة مناسبة باعتبار لطيف غير حقيقي »^(٢) .
وإذا كان التعريف هكذا واضحاً فإنه بالأمتثلة سيكون أوضح .
وحسن التعليلة أربعة أقسام ، والقسمة عقلية .
لأن الوصف المعلن بالعلة المدعاة : إما وصف ثابت أي موجود أصلاً وكل ما سنعمله أننا سنعله تعليلاً حسناً .

وإما وصف غير ثابت أي غير موجود ، ونريد إثباته أولاً وتعليله تعليلاً حسناً ثانياً .
والأول وهو الوصف الثابت الذي نقصد تعليله ينقسم إلى :

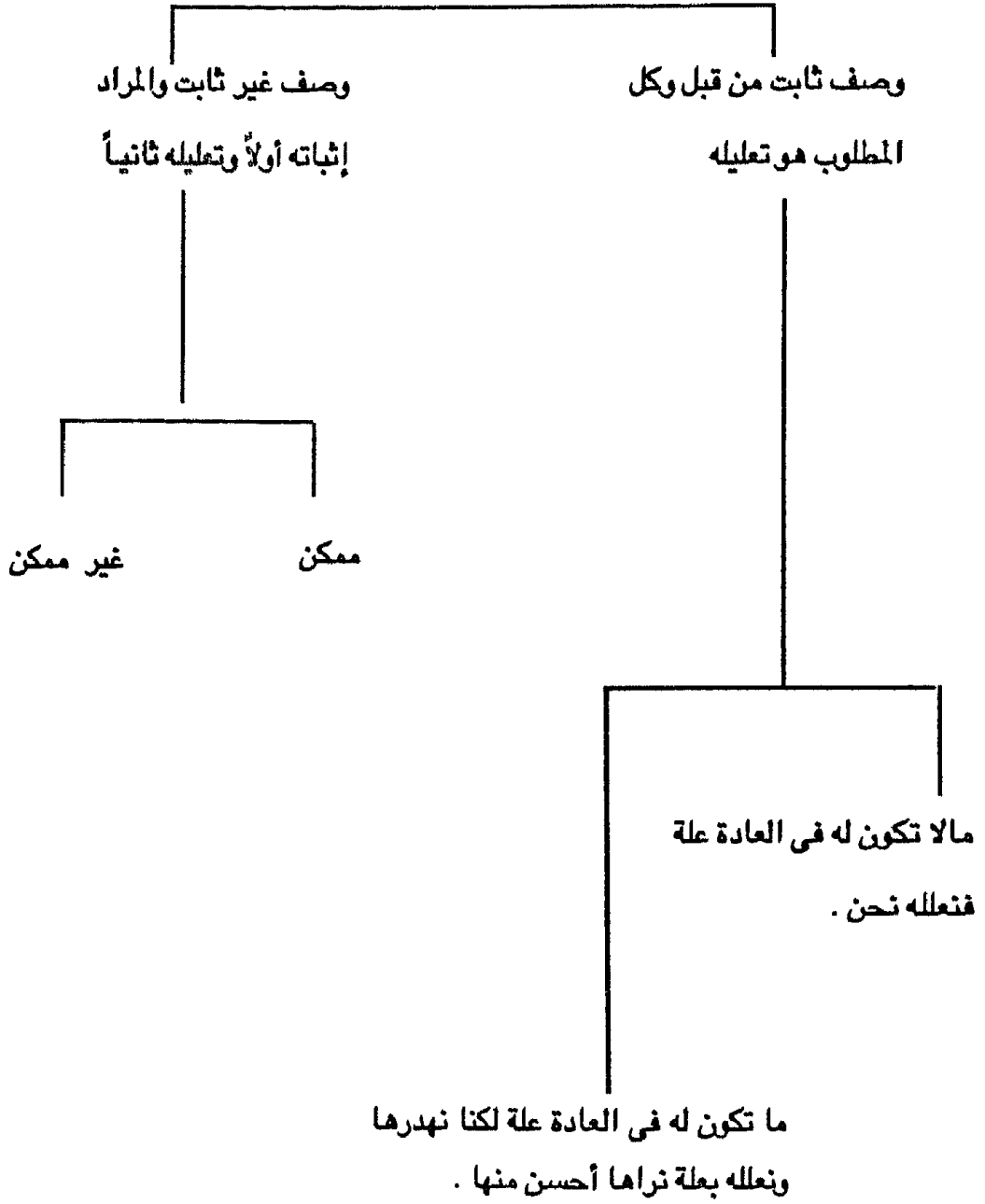
(أ) ما لا تكون له في العادة علة .
(ب) ما تكون له في العادة علة غير التي سيأتي بها الكاتب أو الشاعر .
والثاني وهو الوصف غير الثابت وأريد إثباته أولاً وتعليله ثانياً .
ينقسم إلى :

(أ) ممكن .
(ب) غير ممكن .

(١) انظرها في التصوير البياني ص ٣٨٤ - ٣٨٥ وفي علم البديع للدكتور عتيق ص ٢٢١ - ١٢٣ .
(٢) الإيضاح ج ٦ ص ٦٨ .

الوصف المحلل

مكنا :



والخلاصة :

أن الوصف المعطل قسمان .

(١) ثابت .

(٢) غير ثابت .

وأن الثابت قسمان .

(أ) ما لا تكون له في العادة علة .

(ب) ما تكون له في العادة علة .

وأن غير الثابت كذلك قسمان :

(أ) ممكن .

(ب) غير ممكن .

فالاقسام أربعة هي :

القسم الأول : الوصف الثابت مما لا تكون له في العادة علة .

القسم الثاني : الوصف الثابت مما تكون له في العادة علة لكننا نعدل عنها إلى علة

أخرى نراها أحسن من العلة الأولى .

القسم الثالث : الوصف غير الثابت ونريد إثباته أولاً وتعليه تعليلاً حسناً ثانياً

وإثباته ممكن .

القسم الرابع : الوصف غير الثابت ونريد إثباته أولاً وتعليه تعليلاً حسناً ثانياً

وإثباته غير ممكن .

أمثلة القسم الأول :

من ذلك قول أبي تمام :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالى

علل الشاعر فقر الكريم بتتابع ضيوفه عليه أى بكثرة ضيوفه ، واستأنس فى ذلك

بالأماكن العالية ، فكما أنها مفرغة مما عساه أن يكون فيها بسبب توالى السيول عليها ، كذلك هو .

وواضح أن عطل الكريم من الغنى أمر ثابت أصلاً أى موجه قبلاً ، ولما كان غير معطل عادة ، فقد جاء الشاعر وعطه تعليلاً حسناً .

وقول المتنبي :

لم يحك نائك السحاب وإنما حمت به فصبيها الرخاء

قصد أن السحب المطرة دائماً لا تقصد بإمطارها الدائم هذا محاكاة الممدوح فى جوده، فذلك ما لا طاقة لها به ، وإنما حُمتُ كمدأ منه وحسداً له ، وما مطرها إلا عرقها بسبب الحمى .

وقول أبى هلال العسكري :

زعم البنفسج أنه كعذاره عسناً فسلوا من قفاه لسانه

فخروج ورق البنفسج إلى الخلف لا علة له لكن العسكري ادعى له علة حسنة هى افتراؤه على المحبوب .

وكالأمثلة السابقة قول المعرى فى الرثاء :

وما كلفة البدر المنير قديمة ولكنها فى وجهه أثر اللطم

وقول ابن رشيق :

سألت الأرض لم كانت مصلى
فقاللت غير ناطقة لأنى
ولم جعلت لنا طهراً وطيباً
حويت لكل إنسان حبيباً

وقول ابن هانى :

ولو لم تصافح رجلها صفحة الثرى
لما كنت أدرى علة للتيمم

وقول ابن نباتة فى فرس :

وأدهم يستمد الليل منه
سرى خلف الصباح يطير جرياً
وتطلع بين عينيه الثريا
ويطوي خلفه الأفلاك طيراً
فلمما خاف وشك الفوت منه
تشبث بالقوائم والحيا

وقول الشاعر :

أما ذكاء فلم تصفر إذ جنحت
إلا لفرقة ذاك المنظر الحسن
وقول الآخر :

بين السيوف وعينيها مشاركة
من أجلها قيل للأجفان أجفان
وقول الآخر :

أرى بدر السماء يلوح حيناً
ويبدو ثم يلتصف السحاباً
وذاك لأنه لما تبدى
وأبصر وجهه استحيا وغاباً
أمثلة القسم الثاني :

من ذلك قول المتنبي :

ما به قتل أعادييه ولكن يتقى إخلاف ما ترجى الذئاب

يقول القزويني : فإن قتل الملوك أعداءهم في العادة لإرادة إهلاكهم ، وأن يدفعوا مضارهم عن أنفسهم حتى يصفو لهم ملكهم من منازعتهم ، لا لما ادعاه من أن طبيعة الكرم قد غلبت عليه ، ومحبتة أن يصدق رجاء الراجين بعثته على قتل أعدائه لما علم أنه إذا غدا للحرب غدت الذئاب تتوقع أن يتسع عليها الرزق من قتلاهم ، وهذا مبالغة في وصفه بالجد ، ويتضمن المبالغة في وصفه بالشجاعة على وجه تخييلي ، أي تنهى في الشجاعة حتى ظهر ذلك للحيوانات العجم ، فإذا غدا للحرب رجّت الذئاب أن تنال من لحوم أعدائه وفيه نوع آخر من المدح وهو أنه ليس ممن يسرف في القتل طاعة للفيظ والحنق ^(١) .

وقول أبي طالب المأموني في بعض الوزراء :

مفرم بالثناء طب بكسب المجـد يهتز للسماح ارتياحاً
لا يذوق الإغفاء إلا رجاء أن يرى طيف مستميح رواها

يقول القزويني : « وكان تقييده بالرواح ليشير إلى أن العفاة إنما يحضرونه في صدر النهار على عادة الملوك ، فإذا كان الرواح قلوباً ، فهو يشناق إليهم فينام ليأنس برؤية طيفهم» ^(٢) .

(١) الإيضاح ج ٦ ص ٧٠ .

(٢) السابق نفسه ص ٧١ .

وقول ابن عربى :

أَتَتْنِي تَوْبِنِي بِالْبِكَاءِ فَأَهْلأُ بِهَا وَبِتَأْنِيهَا
تَقُولُ وَفِي قَوْلِهَا حَشْمَةٌ أَتَبْكِي بِعَيْنِ تَرَانِي بِهَا
فَقُلْتُ إِذَا اسْتَحْسَنْتَ غَيْرَكُمْ أَمَرْتُ الدَّمْعَ بِتَأْدِيهَا

وذلك أن العادة في دمع العين أن يكون السبب فيه إعراض الحبيب أو اعتراض الرقيب ، ونحو ذلك من الأسباب الموجبة للاكتئاب ، لا ما جعله من التأديب على الإساءة باستحسان غير الحبيب .

وكالأمثلة السابقة قول ابن المعتز :

قالوا : اشتكت عينه فقلت لهم من كثرة القتل نالها الوصب
حمرتها من دماء من قتلت والدم في النصل شاهد عجب
من أمثلة القسم الثالث :

قول مسلم بن الوليد :

يا وأشياء حسنت فينا إساءته نجى حذارك إنسانى من الفرق
فإن استحسان إساءة الواشى ممكن ، وإن كان غير واقع عادة ، لكنه لما خالف الناس فيه عقبه بذكر سببه ، وهو أن حذاره من الواشى منعه من البكاء فسلم إنسان عينه من الفرق في الدموع .

ومن أمثلة القسم الرابع ، هذا البيت :

لو لو تكن نية الجوزاء خدمته لما رأيت عليها عقد منتطق
فإن نية الجوزاء خدمته ممتعة .

* * *

ومما يلحق بالتمليل وليس منه لبناء الأمر فيه على الشك لا على ادعاء تحقق العلة نحو قول أبى تمام :

رُبى شفت ريح الصبا لرياضها إلى المزن حتى جادها وهو هامع
كأن السحاب الغرغرين تحتها حبيباً فما ترقى لهن مدامع

فقد علل - على سبيل الشك - نزول المطر من السحب بأنها غيبت حبیباً تحت تلك الربا ،
فهى تبكى عليه .

وقول المتنبي :

رحل العزاء برحلتى فكاننى أتبهته الأنفاس للتشيع

ولما ألق عبد القاهر هذا البيت بحسن التعليل علق عليه بقوله :

« وذلك أنه علل تصعد الأنفاس من صدره بهذه العلة الفريية وترك ما هو المعلوم المشهور
من السبب والعلة فيه وهو التحسر والتأسف .

والمعنى : رحل عنى العزاء بارتحالى عنكم ، أى عنده ومعهُ أو به وبسببهِ فكأنه لما كان
محل الصبر الصدر ؛ وكانت الأنفاس تصعد منه أيضاً ، صار العزاء وتنفس الصعداء
كأنهما نزيلان ورفيقان ، فلما رحل ذاك كان حق هذا أن يشيعه قضاءً لحق الصحبة « (١) .

* * *

تأكيد المدح بما يشبه الذم

لتأكيد المدح بما يشبه الذم ثلاثة أضرب ، أفضلها الأول وهو :

(١) أن نستثنى من صفة ذم منفية عن الشئ صفة مدح بتقدير دخولها فى صفة الذم
المنفية حيث إن الأصل فى الاستثناء أن يكون متصلاً ، وذلك كقول النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

أى إن كانت فلول سيوفهم من قراع الكتائب عيباً ، فإن فيهم شيئاً من العيب هو هذه
الفلول ، ولما كانت فلول السيوف من قراع الكتائب مدحاً لا قدحاً كان الاستثناء منقطعاً ،
وتأكد المدح بما يشبه الذم .

والتأكيد فى هذا الضرب من وجهين هما :

(أ) أنه كدعوى الشئ ببينة ، فالشاعر قد علق - ضمناً - وجود عيب فيهم على التسليم
بأن فلول سيوفهم بسبب قراع الكتائب من العيوب ، ولما كانت الحقيقة أن فلول السيوف
بسبب قراع الكتائب من المزايا لا من العيوب ، امتنع التسليم بأن ما بعد أداة الاستثناء فى
البيت عيب ، والمعلق على الممتنع ممتنع مثله .

(١) أسرار البلاغة ص ٢٦ .

ونفى العيب عن الممدوحين بهذه الطريقة أقوى مما لو قال :

(لا عيب فيهم) وسكت .

(ب) أن الأصل في الاستثناء - مطلق الاستثناء - أن يكون متصلاً ، والاستثناء يكون متصلاً إذا كان المستثنى من جنس المستثنى منه ، فإذا نطق المتكلم بأداة الاستثناء توهم المخاطب قبل أن يسمع ما بعدها أن ما بعدها سيكون من جنس ما قبلها ، وانتظر أن يكون ما بعد (غير) في البيت الذي معنا من جنس العيب المنفى قبلها ، فإذا فوجئ بعدها بصفة مدح تأكد المدح الأول (ولا عيب فيهم) بتحول الاستثناء بعده من متصل إلى منقطع إذ في تحوله من متصل إلى منقطع إشعار بأن الشاعر لم يجد صفة تدم يستثنىها فاضطر إلى استثناء صفة مدح .

والمحصلة أن ما بعد أداة الاستثناء مدح كالمدح الذي قبلها وعلى حد قول القزويني :
« تأكد المدح لكونه مدحاً على مدح ، وإن كان فيه نوع من الخلابة » (١) .

ومن أمثلة هذا الضرب غير بيت النابغة :

قول الله تعالى : « لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً ... إلا قبيلاً سلاماً سلاماً » .

وقول حاتم الطائي :

وما تشتكى جارتى غير أننى إذا غاب عنها بعلمها لا أزورها

وقول ابن الرومي :

ليس له عيب سوى أنه لا تقع العين على شبهه

وقول الشاعر :

ولا عيب فيكم غير أن ضيوفكم تُعساب بنسيان الأحبة والوطن

الجزء الثاني :

وهو أن يثبت لشيء صفة مدح ويعقب بأداة استثناء تليها صفة مدح أخرى كقول النبي

ﷺ : « أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش » .

(١) الإيضاح ج ٦ ص ٧٧ .

وقول النابغة الجعدي :

فتى كملت أخلاقه غير أنه جواد فما يبقى من المال باقيا

وقول الشاعر :

أطلب المجد وائباً غير أنسى فى طلابى لا تعرف اليأس نفسى

والاستثناء فى هذا الضرب منقطع من أول الأمر ؛ لانتفاء العموم فى المستثنى منه فيه ، وهو لذلك باق على حاله الذى بدأ به .

وقد ترتب على ذلك أنه لا يفيد التأكيد إلا بالوجه الثانى من الوجهين المذكورين فى الوجه الأول ، ومن هنا جاء الحكم بأن الضرب الأول هو الأفضل .

الضرب الثالث :

وهو أن يؤتى بمستثنى فيه معنى المدح معمولاً لفعل فيه معنى الذم .

أو كما قال القزوينى : « هو أن يأتى الاستثناء فيه مفرغاً » كقول الله تعالى : « وما تنتقم منا إلا أن آمننا بآيات ربنا لما جاءتنا » .

أى وما تعيب منا إلا أصل المناقب والمفاخر كلها وهو الإيمان بآيات الله .

فالفعل (تنتقم) فيه معنى الذم ، والمستثنى بإلا وهو المصدر المؤول من (أن آمننا) متضمن صفة مدح ، وهو فى الوقت نفسه مفعول به للفعل (تنتقم) لأن الاستثناء مفرغ ، وإلا ملغاة ، فيعرب ما بعدها على حسب موقعه فى الجملة .

* * *

وقد ختم القزوينى تأكيد المدح بما يشبه الذم بهذا التنبيه قال :

« وأعلم أن الاستدراك فى هذا الباب يجرى مجرى الاستثناء كما فى قول أبى الفضل بديع الزمان الهمذانى :

هو البدر إلا أنه البحر زاخراً سوى أنه الضرغام لكنه الويل (١)

فالممدوح هنا هو البدر رفعة وشرقاً ، إلا أنه البحر زاخراً ، أى متراكم الأمواج كرمياً ، سوى أنه الضرغام أى الأسد شجاعة وقوة ، لكنه الويل : جمع وابل وهو المطر الغزير .

(١) الإيضاح ج ٦ ص ٧٨ .

ولم يكتف في وصفه بكونه بحرأ في الكرم عن كونه وبلا فيه ، لأن الويلية تقتضى وجون العطاء ، والبحرية تقتضى التهيؤ للأخذ من كل جانب فالكرم المستفاد من البحرية كأنه كرم بالقوة ، والكرم المستفاد من الويلية كأنه كرم بالفعل (١) .

ومهما يكن من أمر ، فقد شبه الشاعر ممدوحه بالبدر ، وهذا مدح ثم أكد المدح بتشبيهات أخرى هي أنه البحر ، وأنه الأسد وأنه الويل ، والفضل في ذلك للاستثناء والاستدراك ؛ فقد أزالا توهم السامع لصفات ذم تعقبهما بل أكثر من ذلك أحلاً محلها صفات مدح .

والاستدراك - بناء على هذا - من الضرب الثاني من ضروب تأكيد المدح بما يشبه الذم .

* * *

ولا يسمنى قبل أن أغادر هذا المحسن البديعى إلا أن أشيد بتناول محمد الجرجاني له ، ولو أنه أهدر عكسه وهو « تأكيد الذم بما يشبه المدح » (٢) .

تأكيد الذم بما يشبه المدح

وهو ضربان :

الأول : أن يستثنى من صفة مدح منفية عن الشئ صفة ذم بتقدير دخولها في صفة المدح المنفية .

تقول : فلان لا خير فيه إلا أنه لص ، ولا فضل للقوم إلا أنهم بخلاء .

والثاني : أن يثبت للشئ صفة ذم تعقب بأداة استثناء تليها صفة ذم أخرى له .

تقول : فلان كذاب إلا أنه خائن ، وفلان حسود إلا أنه تمام .

ومنه قول الشاعر :

هو الكلب إلا أن فيه ملالة وسوء مراعاة وما ذاك في الكلب

* * *

(١) انظر مواهب الفتاح للمغربى ج ٣ ص ٦٧ .

(٢) الإشارات والتنبيهات ص ٢٨٣ - ٢٨٤ .

والضرب الأول يفيد تأكيد الذم من وجهين ، أما الضرب الثاني فيفيدة من وجه واحد ،
وهى هى الوجوه التى مرت فى تأكيد المدح بما يشبه الذم .

* * *

والاستدراك هنا كالأستدراك هناك فى إفادة التأكيد :

تقول من الضرب الأول : لا خير فى فلان لكنه جبان

وتقول من الضرب الثانى : فلان غبى لكنه شتام

* * *

بقى أن سر بلاغة تأكيد المدح بما يشبه الذم وعكسه إنما هو التأثير على متلقى الأدب به
بما يحدث فيه نفسياً من مدٍّ وجزر ومدٍّ فى تأكيد المدح بما يشبه الذم .

ومن جزر ومدٍّ وجزر فى تأكيد الذم بما يشبه المدح .

إن مرسل الأدب فى تأكيد المدح بما يشبه الذم وعكسه كتمسك الخيوط فى مسرح
العرائس يحرك ما يشاء منها بالخيوط غير المنظور فى يده ، أما مستقبل أدبه فإنه بتموجات
نفسه وترددتها بين الاغتياب والإحباط وعكسهما كالعرائس نفسها تتحرك بجذب الخيوط لها
حركات ليست من كسبها .

الإلتفات

في أساس البلاغة مادة (ل - ف - ت) : لفته عن رأيه : صرفته ، وفلان يلفت الكلام لفتاً : يرسله علي عواهنه لا يُبالى كيف جاء .

والمعنى الاصطلاحي للإلتفات قريب مما قاله الزمخشري ، ذلك أنه الانتقال في الكلام من صيغة إلى صيغة ، كالانتقال من خطاب حاضر إلى غائب ، أو من مفرد أو مثنى أو جمع إلى عكس ذلك .

قال ابن الأثير معللاً تسمية ابن جنى له **بشجاعة الحربية** :

« وإنما سمي بذلك لأن الشجاعة هي الإقدام ، وذلك أن الرجل الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره ، ويتورد ما لا يتورده سواه ، وكذلك هذا الإلتفات في الكلام » (١) .

* * *

والإلتفات ثلاثة أضرب :

الضرب الأول : الرجوع من الغيبة إلى الخطاب ، ومن الخطاب إلى الغيبة .

ويفعل الأديب ذلك جرياً على عادة العرب من افتتانهم في الكلام وتوسعهم فيه ، ولأن الكلام إذا نُقل من أسلوب إلى أسلوب كان أكثر إثارة لنشاط السامع ، وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد ولأمور بلاغية أخرى .

فأما الرجوع من الغيبة إلى الخطاب فكقوله تعالى في سورة الفاتحة:

« بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . إياك نعبد وإياك نستعين . اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » .

يقول ابن الأثير : هذا رجوع من الغيبة إلى الخطاب .

(١) انظر الخصائص ج ١ مطبعة الهلال بالقاهرة سنة ١٣٣١ هـ / ١٩١٢ م . صفحات ١٤٨ - ١٨٨ ،

٢٢١ ، ٢٢٣ - ٢٤٦ - ٢٦٠ ، ٢٦٦ ، ٢٧٣ - ٢٧٣ - ٢٣٩ - ٢٥١ ، ٣٥١ - ٥٣٧ - ٥٦٧ .

ومن الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور موضوعات :

الإلتفات ٩٨ - ١٠٢ والإخبار عن الفعل الماضي بالمضارع وعن الفعل المضارع بالماضي من ١٠٢ -

١٠٥ وعكس الظاهر من ١٠٥ - ١٠٦ والحمل على المعنى من ١٠٦ - ١٠٨ والتقديم والتأخير من ١٠٧ -

١١٨ والاعتراض من ١١٨ - ١٢٢ - ومن المثل السائر من ١٦٧ - ١٧٣ .

ومما يختص به هذا الكلام من الفوائد أنه ذكر الحقيق بالحمد وأجرى عليه تلك الصفات العظام من الربوبية العامة والرحمة الدائمة والملك الخاص ثم خاطبه بقوله : « إياك نعبد وإياك نستعين » أى نخصك بالعبادة والاستعانة يا من لا تكون العبادة إلا له : ولا تليق الاستعانة إلا به . فقوله : « إياك نعبد وإياك نستعين » بعد قوله « الحمد لله رب العالمين » ليس العدول فيه من الغيبة إلى الخطاب اتساعاً فحسب ، بل إنه قد عدل به إلى الخطاب لفائدة حسنة ، وذلك أن الحمد دون العبادة ، ألا تراك تحمد نظيرك ولا تعبه .

فلما كان الحال كذلك استعمل لفظ (الحمد) مع الغيبة فقال « الحمد لله » ولم يقل : لك .

ولما صار إلى العبادة التى هى أقصى الطاعات قال : « إياك نعبد » ، وعلى نحو من ذلك جاء آخر السورة فقال : « صراط الذين أنعمت عليهم » . صرح بالخطاب لما ذكر النعمة ، ثم قال : « غير المغضوب عليهم » ولم يقل : غير الذين غضب عليهم أو غضبت عليهم ، لأن الأول وضع موضع التقرب إلى الله بذكر نعمه ، فلما صار إلى ذكر الغضب قال : « غير المغضوب عليهم » فجاء باللفظ مُتَّحِرفاً به عن ذكر الغضب ، أسند النعمة إليه لفظاً ، وزوى عنه ذكر الغضب تحسناً ولطفاً .

* * *

ومن هذا الجنس قوله تعالى : « وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ، لقد جئتم شيئاً إداً » . فقوله « جئتم » وما فيه من المخاطبة بعد الغيبة ، زيادة تنكيل عليهم بالجرأة على الله عز وجل ، والتعرض لسخطه ، وتنبية لهم على عظم ما قالوه .
وقول جرير :

طرب الحمام بذي الأراك فشاقتنى لازلت فى علل وأيك ناظر
فجرير قد أخبر عن الغائب فى الشطر الأول وهو (الحمام) ولكنه انصرف فى الشطر الثانى عن الاستمرار فى الكلام عنه والتفت إلى مخاطبته بقوله :

« لازلت فى علل وأيك ناظر » لزيادة فائدة فى المعنى هى الدعاء للحمام .

وقول القاضى الأرجانى :

وهل هى إلا مهجة يطلبونها فإن أرضت الأحباب فهى لهم فدى
إذا رمتم قتلى وأنتم أحبتي فماذا الذى أخشى إذا كنتم عدى

فاليوم الثاني قد جاء وهو خطاب الحاضرين بعد البيت الأول وهو حديث عن الغائبين .
والفرض البلاغي من وراء الالتفات بالعدول عن الاستمرار في الإخبار عن الغائب إلى مخاطبته هو تمثيل أحيائه الغائبين في البيت الأول كأنهم حاضرون أمامه : ليقرعهم ويأمرهم على عدم معاملته بالمثل ، وذلك بالمقابلة بين مشاعرهم نحوهم ومشاعرهم نحوه . هو على أنهم استعداد لأن يقدِّمهم بمهجته إن أرضاهم ذلك وهم يرومون قتله بالتمادي في هجرانه والإعراض عنه كما لو كان عدواً لهم .

* * *

وأما الرجوع من الخطاب إلى الغيبة :

فكقوله تعالى : « هو الذي يسيركم في البر والبحر ، حتى إذا كنتم في الفلك ، وبيرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين » .
هنا صرف الله الكلام من الخطاب إلى الغيبة .

وإنما فعل ذلك لفائدة هي أنه ذكر لغيرهم حالهم ايمعجبهم منها كالمخبر لهم ، ويستدعي منهم الإنكار عليهم والتوبيخ ، ولو قال : حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بكم بريح طيبة وفرحتم بها ، وساق الخطاب معهم إلى آخر الآية ، لفاتت تلك الفائدة التي أنتجها خطاب الغيبة .

هذا ملخص كلام ابن الأثير .

ومعناه أن الله خاطب من كانوا في الفلك حتى أنساهم أنفسهم فحدثهم عنهم كأنهم ليسوا هم ؛ ليتحولوا من ذاتيين إلى موضوعيين فيستنكروا فعلهم وكأنهم ليسوا هم كما يقول الأب لابنه الذي أخطأ : أنت فعلت كذا وكذا اليوم .. ثم يعطف بقوله : ويعد أن فعل ذلك لقي والده بكل جرأة كأنه لم يقترب إثماً ولم يرتكب ذنباً ، وأخذ يستعطفه راجياً منه العفو .

إن هذا اللون من التعبير فيه إسهاد الناس على أنفسهم دون أن يشعروا ، فإذا حكموا على الغائبين كان هذا الحكم حكماً منهم على أنفسهم فلا يتظلمون منه بعد ذلك ، لأنهم ارتضوه لغيرهم ظانين أن هذا الغير أناس آخرون ، وما هم بأناس آخرين بل هم المخاطبون أولاً .

* * *

ومن هذا الجنس قوله تعالى : « قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون » .

فإنه إنما قال : « فآمنوا بالله ورسوله » ولم يقل : فآمنوا بالله وبى ، حيث قال أولاً : « إني رسول الله إليكم » ؛ لكى تجرى عليه الصفات التى أجريت عليه ، وليعلم أن الذى وجب الإيمان به واتباعه إنما هو هذا الشخص المستقل بأنه النبي الأمي الذى يؤمن بالله وكلماته كائناً من كان ، أنا أو غيرى ؛ إظهاراً للإنصاف وبعداً عن التعصب للنفس ، فكرر أولاً فى صدر الآية بأنه رسول الله إلى الناس ، وبعد أن ثبت ذلك فى أنفسهم أخرج كلامه من الخطاب إلى معرض الغيبة للغرضين اللذين ذكرناهما آنفاً وهما :

(أ) إظهار الإنصاف .

(ب) موضوعية الشخص المطلوب الإيمان به ، لكأنه ليس هو الذى خاطبهم أولاً .

* * *

ومن هذا الجنس كذلك قول ابن النبيه :

من سحر عينيك الأمان الأمان قتلت رب السيف والطيلسان

أسمر كالرمح له مقله لو لم تكن كحلاء كانت سنان

فقد عدل عن الخطاب فى البيت الأول إلى الغيبة فى البيت الثانى لغرض بلاغى قد يكون التفنن فى الأسلوب ، وقد يكون التمکن من بناء التشبيه الذى يشبه فيه القوام بالرمح ، مع المحافظة على سلامة الوزن الشعرى .

الضرب الثانى

الرجوع من الفعل المستقبل إلى فعل الأمر

أى الرجوع من الفعل المضارع إلى فعل الأمر .

يفعل ذلك تهويلاً لحال من أجوى عليه فعل الأمر .

مثال ذلك قوله تعالى : « يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى أللهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين * إن نقول إلا اعتراك بعض أللهتنا بسوء ، قال : إنى أشهد الله وأشهدوا أنى برئ مما تشركون » .

قال : (وأشهدوا) ولم يقل (وأشهدكم) حتى يكون موازناً له وبمعناه ، لأن إلهاد الله على البراءة من الشرك يثبت التوحيد ويشد معاقده .

وأما إلهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم ، ودلالة على قلة المبالاة بهم ، وذلك مثلما نقول لمن ساء رأينا فيهم وفى ذكائهم : إننا نشهد الله وأشهدوا أنكم أغبياء . أو كما يقول الزوج لزوجته : إنى أشهد أبناءك وأشهدى أنك مخطئة .

ونرجع إلى الموضوعية ، فكأنه يشهدا على امرأة أخرى قد اقتنعت هى بأنها مخطئة ويستشهد .

الضرب الثالث

الرجوع من خطاب التثنية إلى خطاب الجمع ومن خطاب الجمع إلى خطاب الواحد أو من خطاب الواحد إلى خطاب الجمع .

مثاله قوله تعالى : « وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوأ لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين » .

هنا توسع فى الكلام بتنوع الخطاب .

فقد ثنى ثم جمع ثم وحد ، فخطب موسى وهارون عليهما السلام بالنبوة والاختيار ، وذلك مما يفوض إلى الأنبياء .

ثم ساق الخطاب لهما ولقومهما باتخاذ المساجد وإقامة الصلاة ، لأن ذلك واجب على الجمهور .

ثم خص موسى صلوات الله عليه بالبشارة التي هي الغرض تعظيماً له وتفخيماً لأمره ولأنه الرسول على الحقيقة .

* * *

ومن هذا النحو قوله تعالى حكاية عن حبيب التجار : « ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون » .

ففى هذه الآية عدول عن خطاب الواحد إلى خطاب الجماعة ، وإنما صرف الكلام عن خطاب نفسه إلى خطابهم ، لأنه أبرز الكلام لهم فى معرض المناصحة لنفسه وهو يريد مناصحتهم ؛ ليلطف بهم ويداريهم ، ولأن ذلك أدخل فى إمحاض النصيح حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه .

وقد وضع قوله « ومالى لا أعبد الذى فطرنى » مكان قوله : « ومالكم لا تعبدون الذى فطركم » ألا ترى إلى قوله « وإليه ترجعون » . ولولا أنه قصد ذلك لقال : الذى فطرنى وإليه أرجع .

* * *

والخلاصة أن الالتفات مظهر من مظاهر شجاعة العربية وقدرتها على تفتيق الكلام وتشقيقه والذهاب به إلى حيث يريد مرسل الأدب منه وله من إيصال فكره ووجدانه ، والتأثير به على القارئ أو السامعين .

وهو حر فيما يريد مادام عنده الرصيد الكافى من النحو والبلاغة ، ومن ذوق العربية وحسها ، واللغة معه معطاء مطواع يمضى بها فى طريق الأفراد ، ثم يبدوله فيغير اتجاهه إلى طريق التثنية أو الجمع ، ويسلك سبيل الغيبة ، إلى أن يقطع جزءاً منه فيرجع عنه إلى سبيل الخطاب أو التكلم .

وهكذا يقتحم الأديب مختلف الدروب ولغته الشجاعة معه ، لا تتخلى عنه ولا تخذله بل تسبقه إلى وجهته الجديدة لتمنحه الحكمة وفصل الخطاب .

أسلوب الحكيم والقول بالموجب

أسلوب الحكيم أو الأسلوب الحكيم هو تلقى المخاطب بترك الإجابة عن سؤاله ، والإجابة عن سؤال آخر لم يسأله لفتاً له إلى أنه كان ينبغي أن يسأل السؤال الثاني لا الأول .
من أمثله قوله تعالى : « يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج » .
السؤال فى الآية الكريمة عن حقيقة الأهلة ومرائيتها .

لم تبدأ صغيرة ثم تزداد حتى تتكامل ثم تتضائل حتى لا ترى ؟؟؟
ولما كانت هذه قضية فلكية عويصة ، وكان السؤال عنها حينئذ سابقاً زمنه بوقت طويل جداً ، عدل القرآن الكريم عن الإجابة عنه إلى بيان أن الأهلة للتوقيت والعبادات وفى هذا إشارة إلى ما كان ينبغي أن يسألوا عنه وهو فائدة الأهلة لا حقيقتها ، وذلك إلى أن تنهياً عقولهم لفهم هذه الظاهرة الكونية الصعبة .

وكالآية السابقة قوله تعالى : « ويسألونك ما إذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل » .

سألوا عما ينفقون فصرفوا إلى بيان مصارف الزكاة إشارة إلى أن الزكاة لا يعتد بها إذا لم تقع فى أيدي مستحقيها .

* * *

ما سبق كان أسلوب الحكيم .

أما القول بالموجب :

وأبادر فأقرر أنه فى كتب البلاغة مخلوط بأسلوب الحكيم تحت اسم أسلوب الحكيم ، وأن أسلوب الحكيم مخلوط به تحت اسم القول بالموجب .

هذا القول بالموجب ضربان :

أجرهما : أن تدل صفة فى كلام لغيرك على شئ مثبت له حكم تقتضيه تلك الصفة ، وتأتى أنت فتثبت فى كلام لك تلك الصفة لغير الشئ الأول دون تعرض لثبوت ذلك الحكم له أو انتفائه عنه .

وإذا كان هذا التعريف غامضاً فإن مثاله سيوضحه وهو قول الله تعالى على لسان

المنافقين في دار الهجرة : « يقولون : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، والله العزة ورسوله والمؤمنين » .

فإنهم دلوا بالأعز على أنفسهم وبالأذل على المؤمنين ، وأثبتوا للأعز الإخراج فأنبت الله تعالى في الرد عليهم صفة العزة لله ورسوله وللمؤمنين دون تعرض منه سبحانه وتعالى لثبوت حكم الإخراج للموصوفين بصفة العزة ، ولا لنفيه عنهم .

والقائى : حمل لفظ وقع في كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله بذكر متعلقه .
وأمثله هذا الضرب كثيرة منها :

قول ابن حجاج :

قلت : ثقلتُ إذ أتيتُ مراراً قال : ثقلت كاهلي بالأيدى

قلت : طولتُ . قال : لا بل تطولت وأبرمتُ قال : حبيل وداى

قال الشاعر لمضيفه : قد ثقلت عليك وحملتك المشقة بزياراتي المتكررة ، فصرفه المضيف عن رأيه ، وعدل بكلمته عن معناها المراد له إلى معنى طريف لطيف .

والشئ نفسه فعلة لما قال له ضيفه : أبرمت : أى جعلتك برماً بى لطول مكثى عندك ، فقد حول الكلمة عن معناها المقصود لمضيفه إلى معنى البرم وهو قتل حبيل المودة ليصير مبرماً أى قوياً ، فالبرم طاقان يُفتلان حتى يصيرا واحداً^(١) .

وكبيتى ابن حجاج قول القاضى الأرجانى :

فألظنتى إذ كسست جسمى الضننا كسوة عرت من اللحم العظاما

ثم قالت : أنت عندى فى الهوى مثل عيني صدقت لكن سقاما

وقول دويدة المغربى من أبيات يخاطب بها رجلاً أودع بعض القضاة أموالاً فادعى القاضى ضياعها :

إن قال : قد ضاعت فيصدق . إنها ضاعت . ولكن منك يعنى لو تعرض .

أو قال : قد وقعت فيصدق . إنها وقعت ولكن منه أحسن موقع

(١) أساس البلاغة مادة (ب . ر . م) ص ٢١ .

وقول على بن فضالة القيروانى :

وإخوان حسبتهم دروعاً فكانوها ولكن للأمدى
وخلتهم سهاماً صائبات فكانوها ولكن فى فؤادى
وقالوا قد صفت منا قلوب لقد صدقوا ولكن من ودادى

وقول شاعر راثياً :

ولما نعى الناعى سألناه خشية وللعين خوف البين تسكاب . . . طار
أجاب: قضى. قلنا قضى حاجة العلا فقال : مضى . قلنا لكل نغار
الشاهد فى قوله « قضى » يريد (مات) ولكنهم حملوها على إنجاز الحاجات وقضائها
وأيضاً فى قوله (مضى) فقد أراد بها (ذهب إلى بارئه) لكنهم غيروا متعلق (ذهب) إلى
(ذهب بالفضل ولم يترك لغيره شيئاً يفتخر به) .

* * *

انتهى الكلام عن أسلوب الحكيم والقول بالموجب .

وقد نصُّ الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى فى ملاحظته الثانية بهامش ص ٨٩ ج ٦ من
كتاب الإيضاح على أن السبكى قد جعل الضرب الأول من القول بالموجب من المذهب
الكلامى ، والضرب الثانى من الأسلوب الحكيم ، وجعل بيت المشاكلة (قلت اطبخوا لى جبة)
من القول بالموجب .

وإن دل هذا على شئٍ فإنما يدل على فوضى البديع بعامة وفوضى المحسنات المعنوية
منه بخاصة ، ولا غرابة فى ذلك ، فبعض هذه المحسنات متداخل ، والأكثر متمحل .

المذهب الكلامى

أو المذهب الكلامى الفلسفى كما قال ابن رشيق (١) .

وواضع أن النسبة فى العنوان إنما هى إلى علم الكلام أى علم التوحيد ، ومنطلقه - إن
كان لا بد أن يكون له منطلق - هو علم المنطق أو الفلسفة ، لا علوم البلاغة ولا علم البديع من
علوم البلاغة ، لكن بهذا جرت المقادير .

(١) العدة ج ٢ ص ٧٦ .

وما هو ذا القزوينى يعرفه بقوله : « هو أن يورد المتكلم حجة لما يدعيه على طريق أهل الكلام » (١) .

يقصد على صورة قياس اقترانى أو استثنائى ، وبالجملة على طريقة أهل المنطق .
واقراً معنى كلام الجرجانى عن المذهب الكلامى وقد سماه (الحاجة) قال : « هى ادعاء شئ مع الحجة عليهم ، وهى كثيرة فى القرآن كقوله تعالى : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين » .

هى مقدمة شرطية ، وملزوم المقدمة الاستثنائية ، والنتيجة : لم يشأ ربك أن يكون الناس أمة واحدة ، بل جعل بعضهم فوق بعض درجات لاقتضاء الحكمة ذلك .

وكقوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » وهى مقدمة شرطية ، والاستثنائية هى نقيض التالى ، أى لكن لم تفسد السموات والأرض ، تنتج : ليس فيهما إله غير الله ، وبيان الملازمة ما ذكره المتظلمون وسموه برهان التمانع .

وكقوله تعالى : « قالوا : ما أنزل الله على بشر من شئ » ، قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى . ناقض السالبة الكلية بالموجبة الجزئية (٢) إلخ ما ذكره القزوينى والجرجانى ، والمضى فيه معهما ومع البلاغيين قبلهما وبعدهما خروج بالكتاب عن خطته التى قلتها فى مقدمته ، بل خروج به عن اسمه ، فهيا بنا من هنا .

تجاهل العارف

تجاهل العارف بأمثلته المتنوعة وبأغراضه المختلفة – عدا التعريض – من صميم علم المعانى ، ومن الاستفهام البلاغى فى علم المعانى على وجه التحديد .

عرفه السكاكى بأنه سوق المعلوم مساق غيره لنكتة (٣) .

وهذه النكتة تتردد بين أن تكون :

١ – التوبيخ كقول الخارجية :

(١) الإيضاح ج ٦ ص ٦٦ – ٦٧ .

(٢) الإشارات والتنبيهات ص ٢٨٠ .

(٣) المفتاح ص ١٨٠ .

أيا شجر الخابور مالك مورقا كأنك لم تجزع على ابن طريف
٢ - المبالغة في المديح كقول البحري :

المع برق سوى أم ضوء مصباح أم ابتسامتها بالمنظر الضاحي
أو في الذم كقول زهير :

وما أدري ولست إخال أدري أقوم آل حصن أم نساء
٣ - التذلل في الجب كقول الحسين بن عبد الله الفزري :

بالله يا ظبيات القاع قلن لنا ليلاى منكن أم ليلى من البشر
وقول ذي الرمة :

أيا ظبية الوعاء بين جلاجل وبين النقا أنت أم أم سالم
٤ - التحقير كقول الله تعالى في حق النبي ﷺ حكاية عن الكفار : « هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق أنكم لفي خلق جديد » يستهزئون بالنبي ﷺ لكأنهم لم يكونوا يعرفون عنه إلا أنه رجل .

٥ - الإيأس ، لأن المقام مقام هيبة ورهبة كقوله تعالى : « وما تك بيمينك يا موسى » ؟

٦ - التحريص في قوله تعالى : « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » يقول القزويني : وفي مجي هذا اللفظ على الإبهام فائدة أخرى وهي أنه يبعث المشركين على الفكر في حالة أنفسهم وحال النبي ﷺ والمؤمنين ، وإذا فكروا فيما هم عليه من إغارات بعضهم على بعض ، وسبى ذراريهم واستباحة أموالهم وقطع الأرحام وإتيان الفروج الحرام وقتل النفوس التي حرم الله قتلها وشرب الخمر التي تذهب العقول ، وتحسن ارتكاب الفواحش ، وفكروا فيما النبي ﷺ عليه من صلة الأرحام واجتناب الآثام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإطعام المساكين وبر الوالدين ، والمواظبة على عبادة الله تعالى ، علموا أن النبي عليه الصلاة والسلام والمسلمين على هدى ، وأنهم على الضلالة ، فبعثهم ذلك على الإسلام ، وهذه فائدة عظيمة (١).

(١) الإيضاح ج ٦ ص ٥٥ .

التجريد

عرفه القزوينى بقوله : هو أن ينتزع من أمر ذى صفة أمر آخر مثله فى تلك الصفة
مبالغة فى كمالها فيه .

وهو أقسام منها :

(١) ما يكون بـ (مِنْ) التجريدية كقولهم : لى من فلان صديق حميم ، أى بلغ من
الصداقة مبلغاً صح معه أن يستخلص منه صديق آخر مثله فيها .

(٢) ما يكون بالباء التجريدية الداخلة على المنتزع منه نحو : لئن سألت فلاناً لتسألن به
البحر ، فقد بالغ فى وصفه باتساع علمه أو كرمه حتى انتزع منه بجرأً فيهما .

(٣) ما يكون بدخول باء المعية على المنتزع منه كقول الشاعر :

وشوهاء تعدو بى إلى صارخ الوغى بمسئلتم مثل الفنيق المرهل (١)

يعنى أنها تجرى بى ومعنى من نفسى لكمال استعدادها للحرب مسئلتم .

(٤) ما يكون بدخول (فى) على المنتزع منه كقوله تعالى « لهم فيها دار الخلد » فإن
جهنم هى دار الخلد ، لكنه انتزع منها داراً أخرى وجعلها معدة فى جهنم للكفار ، تهريلاً
لأمرها ، ومبالغة فى اتصافها بالشدة .

(٥) ما يكون بدون توسط حرف نحو قول قتادة بن مسلمة الحنفى :

فلئن بقيت لأرحلن بفسزوة تحوى الغنائم أو يموت كريم

يريد بالكريم نفسه ، وقد انتزع من نفسه كريماً للمبالغة فى كرمه .

(٦) ما يكون بطريق الكناية كقول الأعشى :

يا خير من يركب المطى ولا يشرب كأساً يكف من يخال

(١) شوهاء : فرس قبيحة المنظر لسعة أشداقتها وهى صفة محمودة فى الخيل ، وصارخ الوغى يعنى
الصارخ فى الحرب والمستلتم : لابس الأمانة وهى الدرع ، والفنيق : الفحل المدلل ؛ أما المرهل فمن
رَحَلُ البعير أى أرسله . شبه الشاعر الفرس بالفنيق المرهل فى الضخامة والقوة وفى عدم استطاعة
مصادمتها .

يقصد أنه يشرب الكأس بكف الجواد ، فقد انتزع من مخاطبه وهو ممدوحه جواداً يشرب الممدوح بكفه على سبيل الكناية ، لأنه إذا نفى عنه الشرب بكف البخيل فقد أثبت له الشرب بكف الكريم ، ولما كان الإنسان إنما يشرب بكف نفسه ، فإن الممدوح بناء على ذلك هو الكريم .

(٧) ما يكون بمخاطبة الإنسان نفسه بأن ينتزع من نفسه شخصاً آخر يوجه الخطاب إليه كقول الأعشى :

ودع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعاً أيها الرجل
وقول أبي الطيب :

لا خييل هناك تهديهما ولا مال فليسعد النطق إن لم تسعد الحال
انتزع الأعشى من نفسه إنساناً آخر خاطبه ببيته أو فى بيته .
وكذلك فعل المتنبي .

* * *

وقد قيل فى التعليل لتسمية هذا المحسن بالتجريد « إن العرب تعتقد أن فى الإنسان معنى كامناً فيه كأنه حقيقته ومحصوله ، فتخرج ذلك المعنى إلى الفاظها مجرداً عن الإنسان كأنه غيره وهو هو بعينه كقولهم « لئن لقيت فلاناً لتلقين به الأسد ، ولئن سألته لتسألن منه البحر ، وهو عينه الأسد والبحر ، لا أن هناك شيئاً منفصلاً عنه أو متميزاً منه ، ثم قال : وعلى هذا النمط كون الإنسان يخاطب نفسه حتى كأنه يقاوم غيره كما فعل الأعشى فى « ودع هريرة إن الراكب مرتحل » (١).

* * *

والتجريد فائدتان هما :

(١) أن الإنسان بالتجريد يتمكن من إضفاء الصفات الحميدة على نفسه بون حرج ومن أين يأتيه الحرج وهو يخاطب غيره لا نفسه ، ويتكلم بحريته وراحته .
(٢) التوسع فى الكلام ، فالتجريد فى الظاهر خطاب لغيرك أو حديث عن غيرك ، وهو فى الحقيقة خطاب لنفسك أو حديث عن نفسك وفى هذا من التوسع فى الأداء ما لا يخفى على متأمل .

* * *

(١) القائل هو أبو على الفارسي وانظر علوم البلاغة للمرغى ص ٢١٣ والإيضاح للقرينى ج ٦ ص ٥٤

إرضاءة

يحسن التنبيه إلى أنني سأجعل المحسن التالي مدخلاً إلى عدد من وجوه التحسين المعنوي أراه على شاكلته ومن قبيله من حيث أنه كلام نقوله بسليقة الكلام التي ورثناها أو تعلمناها، أو أنها رست على شواطئنا من واقع بيئتنا وثقافتنا فغنمناها دون أن نبذل جهداً فيها ، حتى إذا قلنا أو كتبنا انعكس ذلك كله أو بعضه على ما نقول أو نكتب دون قصد مناله ، ودون حرص منا عليه ، وربما دون معرفة علمية به ، إن هو إلا التعبير وفنونه ، وإن هو إلا التصرف اللبق مع الأفكار والأحاسيس ، وإن هي إلا التوفيق في الربط بين الأفكار والأحاسيس من جهة ، والتعبير عنها من جهة على نحو يحقق التعادلية الواجبة لها في أي شكل أدبي ، قصيدة أو مقالة أو قصة أو رواية أو مسرحية إلى آخر هذه الأشكال الأدبية التي تتوالى وتتوالد وتأخذ حظها من الدراسة الواعية حيناً وغير الواعية بل الذاهلة أحياناً .

يفرط بعضهم في تحقيق ذاته فيفتعل أشياء ويعطى أسماء يصدق عليها قول الله تعالى: « إن هي إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » وفي علم البديع من هذه الأشياء والأسماء الكثير الكثير .

فيه أسماء لوجوه من المحسنات البديعية ما كان ينبغي لها أن تكون : لأنه ليس لها مضمون ، وإن وجد فهو شيء عادي نقوله بحكم أننا نقول لا بحكم أننا أدباء بارعون وشعراء بلغاء . من ذلك .

الهزل الذي يراجه به الجذ

يقول القزويني أن ترجمته تغنى عن تفسيره ، والحمد لله لقد شهد شاهد من أهله .

أما ما عدل له به فقول أبي نواس :

إذا ما تميمي أتاك مفاخرأ فقل عد عن ذا كيف أكلك للضب

وقول امرئ القيس :

وقد علمت سلمى وإن كان بعلمها بأن الفتى يهذى وليس بفعل

هذا ما هنالك بل كل ما هنالك : عنوان وأسطر ثلاثة في كتاب الإيضاح ج ٦ ص ٨٤

والبيتان هجاء تهكمى واضح ، فالضرب لا يأكله أشراف الناس ، أما « ليس بفعال » فالمعنى فى بطن الشاعر ، وأظنه يشنع على غريمه بتقصيره فيما لا تعلمه إلا سلمى .

التفريع

وهو أن يثبت لمتعلق أمر حكم بعد إثباته لمتعلق له آخر كقول الكميث :

أحلامكم لسقام الجهل شافية كما دماؤكم تشفى من الكلب

فرع من وصفهم بشفاء أحلامهم لسقام الجهل ، وصفهم بشفاء دماؤهم من داء الكلب انتهى التفريع فى كتاب الإيضاح ج ٦ ص ٧٤ .

أسأل ما رأى النقاد دارسى البلاغة العربية فى جعل شاهد هذا التفريع - وهو مدح غليظ فج - محسناً بديعياً معنوياً وصورةً بلاغيةً جديدةً بأن تفرد بالدراسة ؟

الإستتباع

قالوا : هو المدح بشئ على وجه يستتبع المدح بشئ آخر .

هذا تعريفه .

أما مثاله فهو بيت المتنبي :

نهبت من الأعمار ما لوحيته لهننت الدنيا بأنك خالد

يقول القزوينى : « فإنه مدحه ببلوغه النهاية فى الشجاعة ، إذ كثر قتلاه بحيث لو ورث أعمارهم لخلد فى الدنيا على وجه استتبع مدحه بكونه سبباً لصلاح الدنيا ونظامها حيث جعل الدنيا مهنةً بخلوده » .

ثم يضيف : قال على بن عيسى الربيعى : وفيه وجهان آخران من المدح :

أحدهما : أنه نهب الأعمار دون الأموال .

الثانى : أنه لم يكن ظالماً فى قتل أحد من مقتوليه ، لأنه لم يقصد بذلك إلا صلاح الدنيا وأهلها فهم مسرورون ببقائه .

انتهى الاستتباع فى كتاب الإيضاح ج ٦ ص ٧٩ .

والمسألة أن بيت المتنبي من أبيات المعاني وتمحل محسن بديعى معنوى فيه يطمع كل فارغ فى تلمس مثل ذلك من مظانه ومن غير مقلاته ، والنتيجة تخمة بلاغية وخيمة العواقب .

الجمع

وهو أن يُجمع بين شيئين أو أشياء فى حكم واحد كقوله تعالى : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » وقول أبى العتاهية :

إن الشباب والفراغ والجده مفسدة للمرء أى مفسده

وقول محمد بن وهيب :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها شمس الضحى وأبو إسحق والقمر

انتهى الجمع وما هو إلا مبتدأ وخبر أو ما أصله المبتدأ والخبر مع تعدد فى أحد ركنى الجملة أو فيهما معاً ، وسامح الله السكاكى والقزوينى ومن لف لفهما وحذا حذوهما (١) .

التفريق

وهو إيقاع تباين بين أمرين من نوع واحد فى المدح أو فى غيره كقول الوطواط :

ما نوال الغمام وقت ربيع كنوال الأمير يوم سخاء

فنوال الأمير بدرة عين ونوال الغمام قطرة ماء

وقوله أيضاً :

من قاس جدواك بالغمام فما أنصف فى الحكم بين شكلين

أنت إذا جدت ضاحك أبدا وهو إذا جاد دامع العين

غفر الله لرشيد الدين ، فقد أمد السكاكى والقزوينى وغيرهما بهذين المثالين للتفريق (٢) .

التقسيم

عرفه السكاكى بقوله هو أن تذكر شيئاً ذا جزأين أو أكثر ثم تضيف إلى كل واحد من أجزائه ما هو له عندك كقوله :

(١) المفتاح ص ١٧٩ والإيضاح ج ٦ ص ٤٦ .

(٢) المفتاح ص ١٧٩ - ١٨٠ ، والإيضاح ج ٦ ص ٤٧ .

أديبان في بلخ لا يأكلان إذا صحبا المرء غير الكبد

فهذا طويل كظل القناة وهذا قصير كظل الوقت (١)

وعرفه القزويني بأنه ذكر متعدد ، ثم إضافة ما لكل إليه على التعيين ومثل له ببیتی
البحتری :

فما هو إلا الوحي أو حد مرهف تميل ظباه أخدعي كل طائل

فهذا دواء الداء من كل عالم وهذا دواء الداء من كل جاهل

وببیتی المتلمس :

ولا يقيم على ضميم يراد به إلا الأذلان عير الحي والوتد

هذا على الخسف مربوط برمته وذا يشج فلا يرثى له أحد

الجمع مع التفريق

وهو أن يُدخَل شيئان في معنى واحد ، ويُفَرَق بين جهتي الإدخال .

كقول الطواط :

فوجهك كالنار في هبوبها وقلبي كالنار في حرها

شبه وجه الحبيب وقلب نفسه بالنار ، وفرق بين وجهي المشابهة .

ومنه قوله تعالى : « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار

مبصرة » (٢) .

المزاوجة

وهي أن يزاوج بين معنيين في الشرط والجزاء كقول البحتری :

إذا ما نهى الناهي فلج بي الهوى أصاغت إلى الواشي فلج بها الهجر

(١) المفتاح ص ١٨٠ ولا يأكلان غير الكبد كناية عن الغيبة وسوء العشرة أو وصف لهما بسوء المآكل .

(٢) المفتاح ص ١٨٠ والإيضاح ج ٦ ص ٤٩ .

وقوله أيضاً :

إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها تذكرت القربى ففاضت دموعها (١)

اللف والنشر

وهما يذكران في البلاغة بمضعف الثلاثي ومضعف الرباعي في الصرف ولما كنت ومازلت لا أحب الصرف ، فإنى أخطاهما ، وعلى من أراد التفرج عليهما أن يرجع إلى المفتاح ص ١٧٩ وإلى الإيضاح ج ٦ ص ٤٧ .

العكس

وهو أن يقدم في الكلام جزء ثم يؤخر .

ويقع على وجوه ثلاثة :

الأول كقولهم : عادات السادات سادات العادات .

والثاني : كقول الله تعالى : « يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي » .

والثالث : كقوله تعالى : « من لباس لكم وأنتم لباس لهن » .

هذا هو العكس ولولا أن التمثيل للوجهين الأخيرين فيه من القرآن الكريم لقلت (الوكس) في أساس البلاغة أو كس الرجل ذهب ماله ، ورجل أو كس قليل الحظ ، وليلة الوكس هي ليلة دخول القمر في نجم منحوس ، وبرزت الشجة على وكس : على مدة في جوفها ، ويقال للطبيب انظر : إن كان فيها وكس فأخرجه « (٢) .

ومن لنا في البلاغة بمن نقول له :

« اقصد إلى ما فيها من وكس فأخرجه » ، وما سيخرجه من وكس كثير كثير من ذلك العكس ، واللف ، والنشر ، والمزاوجة ، والجمع ، والتفريق ، والتقسيم ، والجمع مع التفريق ، والجمع مع التقسيم ، والجمع مع التفريق والتقسيم ، والتفريع ، والاستتباع ، والجد الذي يراد به الهزل إلى آخر ما في البلاغة العربية من وكس .

* * *

(١) المفتاح ص ١٧٩ والإيضاح ج ٦ ص ٢٤ - ٢٥ ودلائل الإعجاز ص ٧٤ - ٧٥ .

(٢) ص ٥٠٨ .

مسك الختام للمحسنات المعنوية

بعد ما ذكرناه من الوجوه الجادة وغير الجادة التحسين المعنوى نتفكه بمحسن بديعى جاء فى كتب البلاغة ختاماً للمحسنات المعنوية ، وبعده المحسنات اللفظية - على الأعراف أعنى . والحقيقة أنه كالمشاكله ، بل أولى منها فى وجوب سلكه فى المحسنات اللفظية ، ولو كان الأمر بيدى لأمرت بطرده من وجوه التحسين جملة . أقول بطرده وهى ليست من عندى ، بل من عنده ، أقصد من عند هذا المحسن البديعى المغضوب عليه ، ذلك أن اسمه (الاطراد) . والطراد والاطراد أصلهما اللغوى واحد هو مادة (ط . ر . د) .

قال الجرجانى : وهو ذكر نسب إنسان على الترتيب كقول النبى ﷺ : « الكريم بن الكريم بن الكريم بن يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم » وقول دريد بن الصمة: قتلنا يعبد الله خير لساته ذؤاب بن إسماعيل بن زيد بن قارب قيل لما سمعه عبد الملك بن مروان قال : « لولا القافية لبلغ به آدم » (١) . أما أنا فقد وجدت فى نسخة الطلب من كتاب الإيضاح بخطى ما يأتى : لما جئت إلى الدنيا فى الخامس من سبتمبر سنة ١٩٢٢ م سمانى أبى على اسم والده (أحمد) لكن القابلة - سامحها الله - كتبتنى فى سجل المواليد (عبده) ، ربما لأنها كانت طرية أو غزلة أوهما معاً .

وبهذا صار اسمى عبده عبد العزيز أحمد حسن على قلقيلة ، ولا تسعنى الفرحة ، فاسمى الرسمى - ولست فى ذلك وحدى - محسن بديعى معنوى هو الاطراد .

* * *

أما بعد :

فلم يبق من وجوه التحسين المعنوى مما أورده السكاكى والقزوينى ومحمد الجرجانى إلا تسعة أنواع هى :

التوجيه والإدماج والمبالغة والجمع مع التقسيم والجمع مع التفريق والتقسيم والاستطراد والاستخدام والنقض والمزاوجة .

تركبتها لعدم اقتناعى بها ، فهى - كالهزل الذى يراد به الجد وما بعده - كلام عادى ، إذا لم نقله فماذا نقول !؟

واحتراماً لعقلى وعقلك ، وحرصاً على وقتى ووقتك ، ثم توفيراً للحبر والورق والجهد والعرق أتوقف .

* * *

(١) الإشارات والتنبيهات ص ٢٨٨ .

المحسنات اللفظية

الجناس

هو تشابه كلمتين في النطق واختلافهما في المعنى .
ويتبعه في كتب البلاغة والأدب وجدنا أنه ينقسم قسمين رئيسيين هما : الجناس التام والجناس غير التام ، وأن الجناس التام هو ما اتفق طرفاه في أربعة أمور هي :
١ - جنس الحروف .
٢ - عدد الحروف .
٣ - ضبط الحروف .
٤ - ترتيب الحروف .
أما غير التام فهو ما اختلف طرفاه في واحد من الأربعة المتقدمة .

* * *

ولتوضح معالم الجناسين التام وغير التام سنفرد كلاً منهما بدراسة خاصة به على الوجه الآتي :
أولاً :

الجناس التام

هذا الجناس ثلاثة أصناف هي :

(١) المماثل .

(٢) المستوفى .

(٣) المركب .

المماثل

وهو ما كانت الكلمات فيه من نوع واحد : اسمين أو فعلين أو حرفين .

مثال الإسميين :

قول الله تعالى : « ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة » الجناس في (الساعة) و (ساعة) ولا التفات إلى أداة التعريف (أل) لأنها ليست أصلاً في بنية الكلمة .

وبواضح أن الكلمتين قد اتفقتا لفظاً واختلفتا معنى ، فمعنى الأولى : يوم القيامة ومعنى الثانية بعض الوقت .

وقوله تعالى : « يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ، يقلب الله الليل والنهار ، إن هي ذلك لعبرة لأولى الأبصار » .

(الأبصار) الأولى معناها : العيون ، والثانية معناها : العقول .

وقول أبي سعيد الخزومي :

صدق الأجل أجال والهوى للمرء قتال

الأول : جمع إجْل وهو القطيع من بقر الوحش ، والثاني جمع أجَل وهو نهاية العمر .

وقول أبي تمام :

إذا الخيل جابت قسطل الحرب صدعوا صدور العوالي في صدور الكتاب

(قسطل الحرب غبارها ، وصدعوا أمالوا ، والجناس في (صدور) و (صدور) فالأولى

أعلى الرماح والثانية نحور الجنود) .

وقول البحتري :

إذا العين راحت وهي عين على الجوى فليس بسرُّ ما تُسرُّ الأضالع

فالعين الأولى الباصرة ، والثانية الجاسوس .

ومثال الفحلين :

قول أبي محمد الخازن :

قوم لو أنهم ارتاضوا لما قرضوا أو أنهم شعروا بالنقص ما شعروا

والجناس في (شعروا) وما (شعروا) فهما فعلان ماضيان لكن الأول معناه (أحسوا)

والثاني معناه (نظموا الشعر) .

وقول الشاعر :

يا إخوتى مذ بانث النجب وجب الفؤاد وكان لا يجب

فارتكمت وبقيت بعدكم ما هكذا كان الذى يجب

(يجب) التى فى آخر البيت الأول من الوجيب وهو الخفقان ، والتى فى آخر البيت

الثانى من الوجوب وهو الحتم .

ومثال الحرفين :

قول بعضهم « من الناس من يعمل من أول النهار إلى آخره » .
والجناس في (من) و (من) فالأولى تفيد التبويض أى بعض الناس والثانية تفيد التوقيت
أى ابتداء من أول النهار .

ومثل (من) (قد) في « قد ينزل المطر شتاء وقد ينزل صيفاً » .
و (قد) الأولى للتكثير والثانية للتقليل .

٢

المستوفى

وهو ما كانت كلمته من نوعين مختلفين بأن تكون إحداهما اسماً والأخرى فعلاً أو بأن
تكون إحداهما حرفاً والأخرى اسماً أو فعلاً .

فمن أمثلة الجناس المستوفى بين اسم وفعل قول أبى تمام :

ما مات من كرم الزمان فإنه يحيا لدى يحيى بن عبد الله

(اختلاف الرسم بسبب الإملاء لا يؤثر على الجناس لأن العبرة فيه بالنطق لا بالكتابة)
وقول أبى العلاء :

لو زارنا طيف ذات الخال أحيانا ونحن فى حفر الأجدات أحيانا

(أحيانا) الأولى بمعنى فى بعض الأوقات و (أحيانا) الثانية فعل ماضٍ معناه ردنا إلى
الحياة .

وقول ابن رشيق :

إذا رماك الدهر فى معشر قد أجمع الناس على بغضهم

فدارهم ما دمت فى دارهم وأرضهم ما دمت فى أرضهم

(فدارهم) فعل أمر من المداراة و (دارهم) هى الدار بمعنى البيت وكذلك (وأرضهم) و (فى)
أرضهم) .

ومن أمثلة الجناس المستوفى بين فعل وحرف قول الشاعر :

علا نجمه في عالم الشعر فجأة على أنه مازال في الشعر شادياً
والجناس في (علا) الأولى فهي فعل ماضٍ من العلو ، و (على) الثانية فهي حرف جر .
وقول الآخر :

ولو أن وصلاً علوه، بقربه لما أن من حمل الصبابة والجوى
والجناس هذه المرة في (أن) الأولى وهي حرف توكيد ونصب ، و (أن) الثانية وهي
فعل ماضٍ من الأنين .

٣

المركب

وهو ما كان أحد طرفيه مفرداً والآخر مركباً .

والمركب - كأصله التام - ثلاثة أضرب هي :

(أ) المرفوع :

وهو ما كان طرفه المركب مركباً من كلمة وبعض كلمة كقول الحريري :

ولا تله عن تذكار ذنبيك وأبيك بدمع يحاكي الويل حال مصابه

ومثل لعينيك الحمام ووقعه وروعة ملقاه ومطعم صابه

الجناس في كلمة (مصابه) المفردة في نهاية البيت الأول و (م صابه) المركبة من الميم
الآخيرة في كلمة (مطعم) وكلمة صابه في آخر البيت الثاني .

وقوله أيضاً :

والكر مهما استطعت لا تأته لتقتنى السؤدد والكرمه

الجناس بين (الكر) في أول البيت مضافاً إليه الميم والهاء من (مهما) وكلمة (الكرمه)
في آخر البيت .

ابن المتشابه :

وهو ما كان طرفه المركب مركباً من كلمتين كاملتين أولاً وأشبه طرفه المفرد لفظاً وخطاً
ثانياً .

كقول أبي الفتح البستي :

إذا ملك لم يكن ذا هبة فدعسه فدولته ذاهبه

الأولى مركبة من مضاف هو (ذا) بمعنى صاحب ومضاف إليه هو (هبة) أى عطية
والثانية كلمة مفردة اسم فاعل من ذهب أو من الذهاب بمعنى مولية .

وقول الآخر :

عضنا الدهر بنايه لبيت ما حل بنا به

الجناس فى (بنايه) وهى كلمة واحدة معناها بضرسه و (بنايه) فى آخر البيت وهى
مركبة (بنا) جار ومجرور ، (به) جار ومجرور كذلك أى لبيت الذى نزل بنا نزل به .

(جا) المفروق :

وهو كالمتشابه فى أن أحد طرفيه مركب من كلمتين كاملتين والفرق بينهما أن التشابه هنا
فى النطق فقط أى دون الكتابة كقول أبي الفتح البستي أيضاً :

كلكم قد أخذ الجا م ولا جام لنا
ما الذى ضر مدير الـ جام لوجاملنا

والجناس بين (جام لنا) فى نهاية البيت الأول وهو مركب من كلمتين هما (جام) و (لنا)
و (جاملنا) فى نهاية البيت الثانى وهى كلمة واحدة من المجاملة .
والطرفان متشابهان لفظاً لا خطأً كما نرى .

وقول المطوى :

لا تعرضن على الرواة قصيدة ما لم تكن بالفتى تهذيبها
فمتى عرضت الشعر غير مهذب عدوه منك وساوساً تهذى بها

والجناس فى (تهذيبها) بمعنى تنقيحها فى نهاية البيت الأول و (تهذى بها) من الهذيان
فى نهاية البيت الثانى ، وهما متشابهان لفظاً لا خطأً مع اختلافهما معنى .

وقول ابن أسد الفارقى :

غدوننا بأعمال ورحنا بخيبة أماتت لنا أفهامنا والقرايحنا
فلا تلق منا غادياً نحو حاجة لتسأله عن حاجة والق رائحنا

والجناس بين (والقرائحا) فى نهاية البيت الأول جمع قريحة و (الق رائحا) فعل أمر ومفعول به فى نهاية البيت الثانى ، وقد اتفقا لفظاً واختلفا خطأ وقول بهاء الدين السبكي :
كن كيف شئت عن الهوى لا أنتهى حتى تعود لى الحياة وأنت هى
والجناس بين (أنتهى) فعل مضارع فى نهاية الشطر الأول ، و (أنت هى) مبتدأ وخبر
فى نهاية الشطر الثانى ، وهما مختلفان خطأ ومتفقان نطقاً .

* * *

انتهى الجناس التام بأقسامه : المماثل والمستوفى والمركب ، وبتفريعات المركب وهى :
المرفو والمتشابه والمفروق .
وقد علق القزوينى عليه بقوله : « وجه حسن هذا القسم أعنى التام حسن الإفادة مع أن
الصورة صورة الإعادة » .

وهى مقولة مختصرة عن مقولة مطولة لعبد القاهر^(١) .

ثانياً : الجناس غير التام

وهو ما اختلفت كلمتاها فى واحد من الأمور الأربعة الواجب توافرها فى الجناس التام
وهى :

(أ) جنس الحروف .

(ب) عدد الحروف .

(ج) ضبط الحروف .

(د) ترتيب الحروف .

(أ)

فإن اختلفت الكلمتان فى جنس الحروف المكونة لهما وهذا الاختلاف مسموح به فى
حرف واحد فقط ، إذا اختلفت كلمتا الجناس فى حرف واحد من حيث نوعه فإن الجناس
فى هذه الحالة يتوزع على ثلاثة أقسام هى :

(١) الإيضاح ج ٦ ص ٩٤ وأسرار البلاغة ص ٣ - ١٣ .

١ المضارع

وهو ما كان الحرفان المختلفان فيه متقاربين في مخرجيهما سواء كانا في أول الكلمتين كقول الحريري : « بينى وبين كنى ليل دامس وطريق طامس » والحرفان هما الدال في (دامس) والطاء في (طامس) .

أو في وسطهما كقوله تعالى : « وهم ينهاون عنه وينأون عنه » والحرفان هما الهاء في (ينهاون) والهمزة في (ينأون) وقولهم « البرايا أهداف البلايا » والحرفان هما الراء في (البرايا) واللام في (البلايا) .

أو في آخرهما كقول النبي ﷺ : « الخيل معقود بزواصيها الخير إلى يوم القيامة » .
والحرفان هما اللام في (الخيل) والراء في (الخير) .

* * *

٢

الإلحاق

وهو ما كان الحرفان المختلفان فيه متباعدين في مخرجيهما سواء كانا في أول الكلمتين كقوله تعالى : « ويل لكل همزة لمزة » والحرفان هما الهاء في (همزة) واللام في (لمزة) ، وقول بعضهم : « رب وضى غير رضى » والحرفان هما الواو في (وضى) والراء في (رضى) ، وقول الحريري « لا أعطى زمامى لمن يخفر ذمامى » والحرفان هما الزاى والذال .

أو في وسطهما كقوله تعالى : « ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفرحون » والحرفان هما الفاء في (تفرحون) والميم في (تفرحون) وقوله تعالى : « وإنه على ذلك لشهيد ، وإنه لحب الخير لشديد » والحرفان هما الهاء في (لشهيد) والذال في (لشديد) .

أو في آخرهما كقول الله تعالى : « وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به »
والحرفان هما الراء في (أمر) والنون في (أمن) وقول البحتري :

هل لما فات من تلاق تلاف أم لشاك من الصبابة شاف

والحرفان هما القاف فى (تلاق) والفاء فى (تلاف) ثم الكاف فى (شاك) والفاء فى (شاف) .

٣

المصحف

وهو ما كان اختلاف الحرفين فى الكلمتين بسبب النقط فقط كالقاف والفاء ، والياء والياء، والنون والتاء ، والعين والغين ..

نجد ذلك فى قول النبى ﷺ لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه :

« قصر ثوبك فإنه أنقى وأتقى وأبقى » ، وفى قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه :
« لو كنت تاجراً ما اخترت غير العطر إن فاتنى ريحه لم تفتنى ريحه » .

كما نجده فى قول أبى فراس الحمدانى :

من بحر جودك أغترف وبفضل علمك أعترف

وقول البهاء زهير :

وأعجبنى التجنيس بينى وبينه . . . فلما تبدى أشنباً رحت أشيباً

(بدا)

وإن اختلفت الكلمتان فى عدد الحروف فإن الجنس يسمى ناقصاً ويكون على وجهين :

١

ما كانت الزيادة فى إحدى الكلمتين بحرف واحد سواء كان فى أول الكلمة كقول الله تعالى : « والتقت الساق بالساق » ، إلى ربك يومئذ المساق « أو فى وسطها نحو « جدى جهدى » ، أو فى آخرها كقول البهاء زهير :

أشكروا وأشكر فله فاعجب لشاك منه شاكر
طرفى وطرف النجم فيه ك كلاهما ساه وساهر

وقول البحتري :

لئن صدفت عنا فريبة أنفـس صواد إلى تلك الرجوه الصوادف

وقول أبي تمام :

يمدون من أيد عواص عواصم تصول بأسياف قواض قواضب

ومنه الأبيات التي كتبها المعتمد بن عباد إلى محمد بن الطيب المصري يدعوه إلى مجلس

أنس له وهي :

أيها الصاحب الذي فارقت عيـ نى ونفسي منه السنا والسنا
نحن في المجلس الذي يهب الرا حة والمسمع الغنى والغناء
نتعاطى التي تنسى من اللذة والرقصة الهوى والهواء
فأته تلقى راحة ومحيا قد أعداً لك الحيا والحيا

ويسمى هذا الأخير مطرفاً لتطرف الزيادة فيه .

ولقد كان عبد القاهر معجباً به ، ها هو ذا يقول فى تقريره :

وذلك أنك تتوهم قبل أن يرد عليك آخر الكلمة كالميم من (عواصم) والباء من (قواضب)
أنها هي التي مضت ، وقد أرادت أن تجيئك ثانية ، وتعود إليك مؤكدة ، حتى إذا تمكن من
نفسك تمامها ووعى سمعك آخرها انصرفت عن ظنك الأول ، وزلت عن الذى سبق من
التخيل ، وفى ذلك ما ذكرت لك من طلوع الفائدة بعد أن يخالطك اليأس منها وحصول الريح
بعد أن تغالط فيه حتى ترى أنه رأس المال « (١) .

٢

ما كانت الزيادة فى إحدى كلمتيه بأكثر من حرف فى آخرها ويسمى
مذيلاً :

كقول النابغة الذبياني :

لهم نار جن بعد أنس تصولوا وزال بهم صرف النوى والنوائب

(١) أسرار البلاغة ص ١٣ .

وقوله أيضاً :

فيالك من هزم وعزم طواهما جديد الردى بين الصفا والصفائح

وقول حسان رضى الله عنه :

وكنا متى يغز النبي قبيلة نصل جانبيه بالقنا والقنابل

وقول الخنساء :

إن البكاء هو الشفا من الجوى بين الجوانح

(ج)

وإن اختلفت كلمتا الجناس فى ضبط حرف أو حرفين لا أكثر فهو الجناس المحرف .
مثال اختلاف الضبط فى حرف واحد .

قول الله تعالى : « ولقد أرسلنا فيهم منذرين * فانظر كيف كان عاقبة المنذرين » .

وقول النبي ﷺ : « جبة البرد جنة البرد » .

وقول ابن الفارض :

هلا نهاك نهاك عن لوم امرئ لم يكف غير منعم بشقاء

وقول عبد العزيز الحموى :

لعينى كل يوم فيك عبره تصيرنى لأهل العشق عبره

ومثال اختلاف الضبط فى حرفين :

قول النبي ﷺ : « اللهم كما حسنت خلقى حسن خلقى » .

وقول المعرى :

والحسن يظهر فى بيتين رونقه بيت من الشعر أو بيت من الشعر

(د)

وإن اختلفت الكلمات فى ترتيب الحروف سمي الجناس.

جناس القلب أو جناس العكس

وهو ثلاثة أضرب هي :

١

قلب كل

وذلك إذا كانت كلمتا التجنيس متعاكستين لفظاً كقولهم : « حسامه (فتح) لأوليائه (حتف) لأعدائه » .

(حتف) مقلوب (فتح) و (فتح) مقلوب (حتف) .

وهو قول العباس بن الأحنف :

حسامك فيه للأحباب فتح ورمحك فيه للأعداء حتف

ومن بديع قلب الكل قول ابن نباتة في مدح الأمير بهرام :

قيل كل القلوب من رهب الحرب تضطرب

قلت هذا تخرص قلب بهرام ما رهب

والشاهد في (بهرام) فهو معكوس (ما رهب) أو في (ما رهب) فهو معكوس (بهرام) .

* * *

ومن قلب الكل ما يسمى (المقلوب المجنح) .

وهو ما وقعت إحدى كلمتيه في أول البيت والأخرى في آخره ، وقد سمي بذلك لأنهما يكونان حينئذ بمثابة الجناحين للبيت .

كقول الشاب الظريف شمس الدين محمد بن العفيف :

ساق يرينى قلبه قسوة وكل ساق قلبه قاس

الجناس في (ساق) في أول البيت و (قاس) في آخره ، والكلمتان متعاكستان ومتجانحتان .

وكقول الآخر :

لا ح أنوار الهدى من كفه فى كل حال
الشاهد فى (لا ح) فى أول البيت و (حال) فى آخره فهما كذلك متعاكستان ومتجانحتان .

٢

قلب بحض

وهو ما اختلفت فيه الكلمتان فى ترتيب بعض الحروف دون بعض كما جاء فى الخبر :
« اللهم استر عورتنا وأمن روعتنا » ، وكقول بعضهم : « رحم الله امرأ أمسك ما بين فكيه
وأطلق ما بين كفيه » ، وكقول عبد الله ابن رواحة فى مدح المصطفى ﷺ .

تعمله الناقة الأدماء متعجراً^(١) بالبؤر كالبدر جلى نوره الظلما

وقول المتنبي :

ممنوعة ممنوعة رداح يكلف لفظها الطير الوقوعا^(٢)

وقول الآخر :

إن بين الضلوع منى ناراً تتلظى فكيف لى أن أطيقا^(٣)
فبحقى عليك يا من سقانى أرحيقاً سقيتنى أم حريقاً

فى الأمثلة الأربعة السابقة وقع الجناس بين كلمتين مختلفتين فى ترتيب بعض الحروف
لا فى كلها ، وقد سمي لذلك (قلب بعض) .

٣

الجناس المستوي

وهو لا يبعد عن قلب الكل بل قد سماه السكاكى مقلوب الكل ، وسماه الحريري (ما لا
يستحيل بالانعكاس) وفى هذه التسمية للحريري يكمن الفرق بينه وبين قلب الكل ، فالأول
يختلف فيه معنى الكلمتين بالقلب (فتح) (حتف) (بهرام) (ما رهب) .

(١) الأدماء : شديدة البياض ، واعتجر العمامة : لفها حول رأسه .

(٢) الرداح : ممثلثة الجسم بعمامة والنصف الأسفل منه بخامسة .

أما في الجنس المستوي فإنه كما قال الحريري . « لا يستحيل بالانعكاس » أي لا يتحول معناه بالانعكاس عما عرفناه قبل الانعكاس ، بل يبقى هو هو ، ويكون عكس كلمتي الجنس كطردهما في أنه تمكن قراءتهما من آخرهما كما تمكن قراءتهما من أولهما دون أن يتغير المعنى مثل : « كل في فلك » ، (ربك فكبر) وقول عماد الدين الكاتب للقاضي الفاضل: « سر فلا كبابك الفرس » وقول القاضي الأرجاني :

مودته تدوم لكل هول وهل كل مودته تدوم

فكل نص من النصوص السابقة يُقرأ طرداً ويقراً عكساً مع احتفاظ الكلام بمعناه في القراءتين .

* * *

ومن الإمعان غير المحمود في تقسيمات الجنس :

تقسيمه إلى جناس عادي هو كل ما سبق ، وجناس غير عادي سموه **الملفق** : وهو ما كان طرفاه مركبين من كلمتين .

ومن لطيفه قول القاضي عبد الباقي بن أبي حصين الذي ولى القضاء بمعرفة النعمان خمس سنين وكان حين ولى ابن خمس وعشرين :

وليت الحكم خمسا وهي خُمسُ لعُمُري والصبا في العنقوان
فلم تضع الأعدى (قد رشاني) ولا قالوا فلان (قد رشاني)

والطف منه قول شرف الدين بن عنين :

خبروها بأنه (ما تصدى) لسلو عنها ولو (مات صدأ)

وأيضاً بتقسيمه إلى جناس **لفظي** هو كل ما سبق .

ومعنوي :

نظمه السيد علي صدر الدين بن معصوم المدني في بديعته بقوله :

قُدري أبو حسنين يا معنوي بهم ووصف حالي ابنه حال يحبهم

وشرحه فقال :

« أردت علياً وحسناً أى قدرى عليّ بهم ووصف خالى حسن ، فحصل جناسان دل عليهما كنايةات الألفاظ الظاهرة أحدهما فى صدر البيت وهو (علىٌ وعلىٌ) والثانى فى عجزه وهو (حسن حسن) (١) .

وها هو ذا يعرف به فى قوله : من أنواع الجناس الجناس المعنوى وهو قسمان :
تجنيس إضمار ، وتجنيس إشارة .

فتجنيس الإضمار هو أن يضم المتكلم ركنى الجناس ويظهر فى اللفظ ما يرادف أحد الركنين ليدل على ما أضمره ، فإن تعذر المرادف أتى بلفظ فيه إشارة لطيفة تدل على ذلك المضمّر ، كقول أبى بكر بن عبدون وقد اصطبغ بخمرة وترك بعضها إلى الليل فصار خلا :

ألا فى سبيل اللهو كأس مداومة أتننا بطعم عهده غير ثابت
هككت بخت بسطام بن قيس صبيحة وأمسك كجسم الشنفرى بعد ثابت

بنت بسطام بن قيس اسمها الصهباء ، وقوله « كجسم الشنفرى بعد ثابت » أشار به إلى قول الشنفرى يرثى خاله تأبط شراً واسمه ثابت :

فاسقنيها أيا سواد بن عمرو إن جسمى من بعد خالى بخل

والخل : النحيف المهزول ، فصح معه جناسان مضمران فى صدر البيت وعجزه .

الأول (صهباء وصهباء) والثانى (خل وخل) (٢) .

* * *

أما تجنيس الإشارة ويسمى أيضاً تجنيس الكناية فهو ما ذكر فيه أحد ركنى الجناس وأشار إلى الآخر بلفظ يدل عليه من صفة أو عكس أو تصحيف أو مرادف كقول الشاعر :

وتحت الأبراق مقلوبها تسهب على ورد خد ندى

كنى عن المقارب بمقلوب الأبراق ، ولا شك أن بين اللفظ المصرح به والمكنى عنه وهو المشار إليه تجانساً (٣) .

(١) أنوار الربيع ص ٢١٧ .

(٢) السابق نفسه ص ٢٠٩ .

(٣) السابق نفسه ص ٢١٩ .

وكقول الآخر :

يا حمزة اسمع بوصول
في ثفرك اسمك أضفى
وامنن علينا بقرب
مصحفنا وأقبلبى

فقد ذكر أحد المتجانسين وهو (حمزة) وأشار إلى الجناس فيه بأن مصحفه فى ثفره
أى (خمره) وفى قلبه أى (جمرة) (١) .

يقول ابن معصوم : « وقل من ذكر هذا النوع (الجناس المعنوى بشقيه) وهو عزيز
الوجود جداً ، وأكثر من ألف فى المعانى والبيان. أغفل ذكره ، فلم يذكره السكاكى فى
مفتاحه ، ولا القزوينى فى تلخيصه ولا إيضاحه ، ولا ابن رشيق فى العمدة ، ولا ابن أبى
الإصبع فى تحريره على تبحره ، ولا ابن منقذ فى كتابه » (٢) .

وأقول للسيد على : لم يذكره لأنهم لم يكونوا من أصحاب البديعيات المتكثرين
بالمحسنات أولاً ، ولأنهم حرصوا على أن يظل الجناس من وجوه التحسين اللفظى ثانياً .
والحق أن الجناس المعنوى يغادر الدفاتر ليوشوش الشاعر بما لا يعرفه القارئ ولا
السامع .

ومن تداعى المعانى أننى ذكرت به ما عول عليه إلبوت فى الأداء الأدبى وسماه المعادل
الموضوعى .

* * *

وننبه إلى أن القزوينى قد أعطى ثلاثة أسماء لأى تجنيس يلى فيه أحد المتجانسين الآخر
كقوله تعالى : « وجنتك من سبأ نبأ يقين » وكما جاء فى الخبر « المؤمنون هيتون لينون »
وكتوتهم « من جد وجد ، ومن قرع باباً ولج ولج » .
وكما سبق فى الجناس المطرف من قول أبى تمام :
همدون من أيد عواص عواصم تصول بأسياف قواض قواضب
والأسماء الثلاثة هى :

(١) جواهر البلاغة للسيد أحمد الهاشمى الطبعة السادسة ص ٣٢٦ .

(٢) أنوار الربيع ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

المزكوج - المكرر - المرصود

ولأن هذه الأسماء مترادفة فإن واحداً منها يكفي مصطلحاً للظاهرة البلاغية ، وأو كان الأمر لي ما رصدت الظاهرة ولا سميتها ، فالظاهرة عادية وثلاثة الأسماء المقترحة لها غير كاشفة .

* * *

وكان كل ما سبق من الجناس لم يكف ولم يشف ، ها هو ذا القزويني يلحق شيئين به ،
ولندعه هو يتكلم قال :

واعلم أنه يلحق بالجناس شيئان :

أجرهما : أن يجمع اللفظين الاشتقاق^(١) كقول الله تعالى : « فاقم وجهك للدين القيم »
وقوله تعالى : « فروح وريحان » وقول النبي ﷺ : « الظلم ظلمات يوم القيامة » وقول
الشافعي رضي الله عنه - أو غيره - وقد سئل عن النبيذ : « أجمع أهل الحرمين على
تحريمه » وقول أبي تمام :

وأنجدتم من بعد إتهام داركم فيادمع أنجدنى على ساكنى نجد
وقول البحتري :

يمشى من المجد الغيبى ولن ترى فى سؤدد أربا لغير أريب
وقول محمد بن وهيب :

قسمت صروف الدهر بأساً وناثلاً فمالك موتور وسيفك واتر
والثاني :

أن يجمعها المشابهة وهي ما يشبه الاشتقاق وليس به كقول الله تعالى : « اثاقتم إلى
الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة » وقوله تعالى : « قال : إني لعملك من القالين » ،
وقوله تعالى : « وجنى الجنتين دان » .

وقول البحتري :

وإذا ما رياح جودك هبت صار قول العذول فيك هباء^(٢)

* * *

(١) الاشتقاق هو توافق الكلمتين فى الحروف الأصول مع الاتفاق فى أصل المعنى .

(٢) الإيضاح ج ٦ ص ٩٩ - ١٠٠ .

انتزى الجناس بأقسامه وتفريعاته ، ويتفرعات تفريعاته وملحقاته عددها فوجدتها خمسة وعشرين لا يمارى عاقل فى أنها ترف وسرف ، لكأنه ليس أمامنا ولا وراءنا سوى الجناس بـ حاجته القليلة وسماجته الكثيرة ، ومن رأى أن نستغنى عن الدراسة الأكاديمية السابقة بدراسة لاحقة نقتصر فيها على الجناس اللفظى ، ونقسمه إلى تام وغير تام فقط .

* ما توافرت فى طرفيه الموافقات الأربع وهى :

جنس الحروف ، وعدد الحروف ، وضبط الحروف ، وترتيب الحروف ، **فهو الجناس التام** .

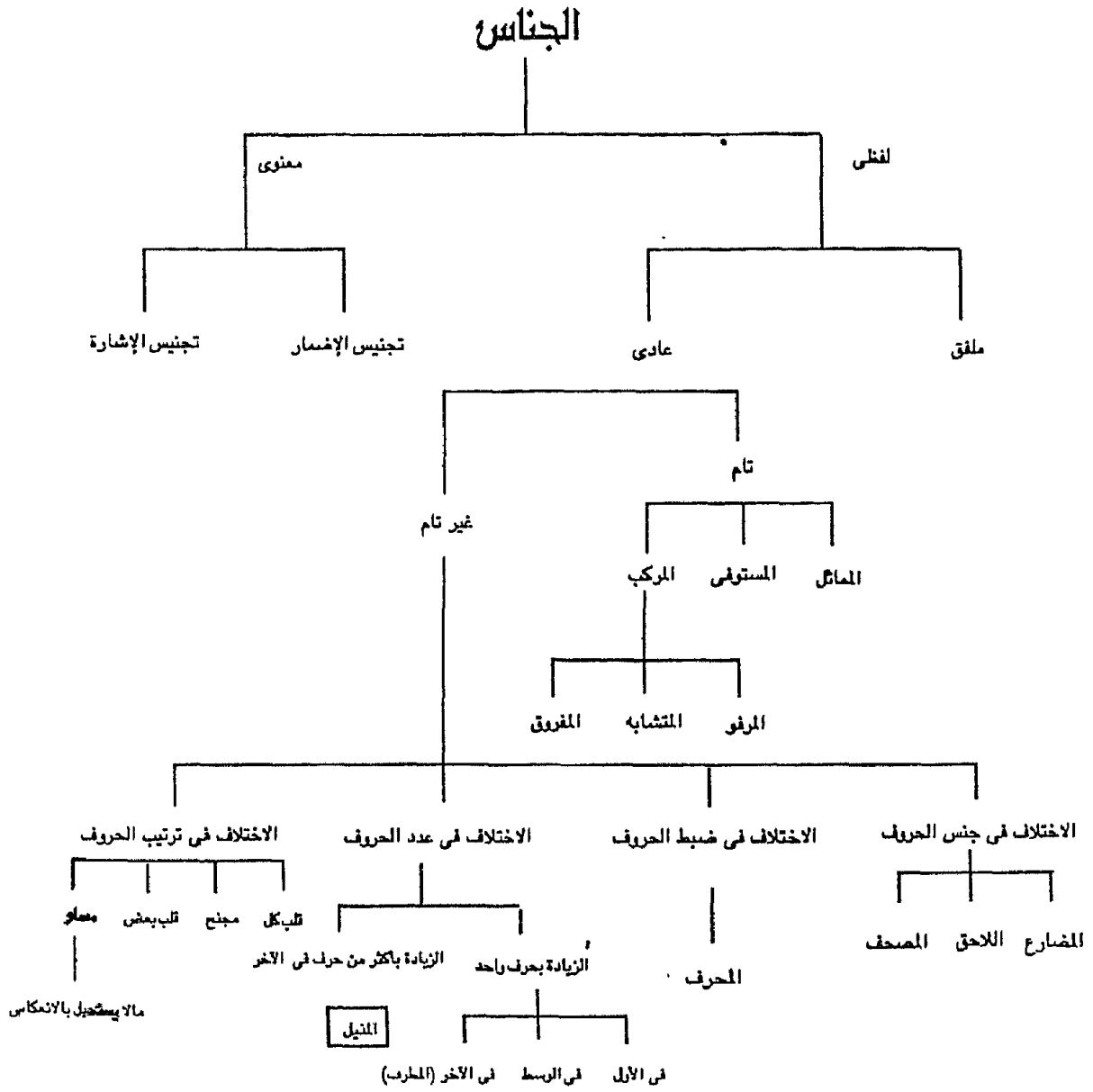
بلا دخول فى التفصيلات والتسميات .

* وما تخلفت عن طرفيه موافقة من الموافقات المتقدمة **فهو الجناس غير التام** دون دخول كذلك فى التفصيلات والتسميات .

ويا حسرتا على ما فرطت فى جنب الراحة والإراحة (١) .

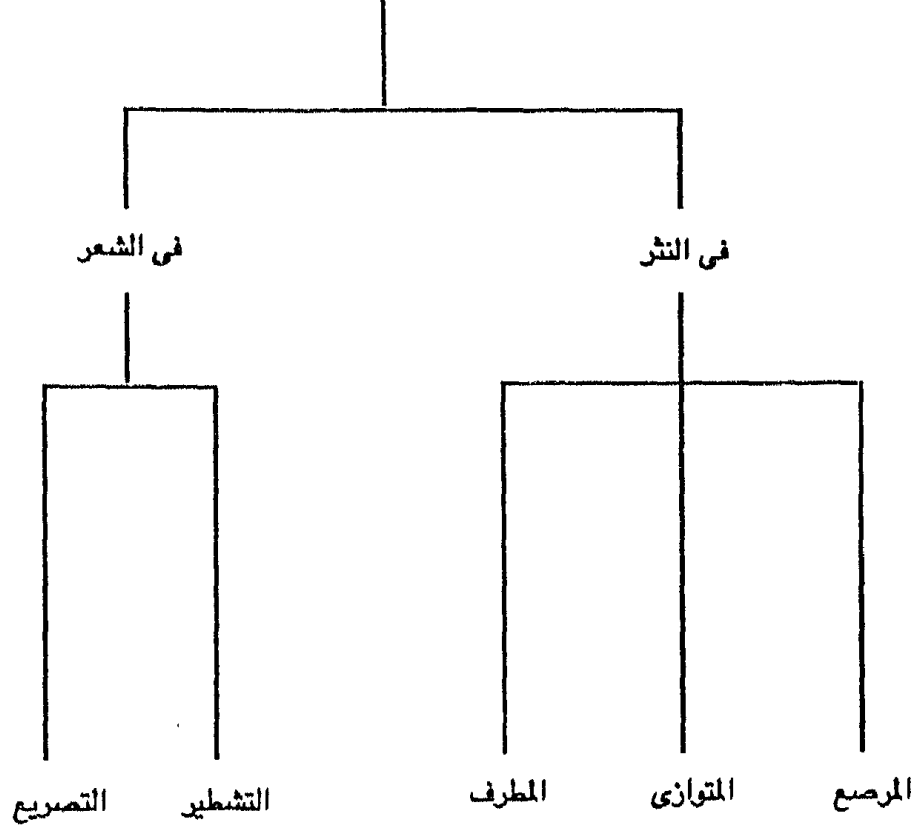
(١) الإشارات والتنبيهات ص ٢٨٩ - ١٩١ ، والإيضاح ج ٦ ص ٩٠ - ١٠٠ وأنوار الربيع ص ٢٠٨ - ٢١٩ وعلم البديع للدكتور عتيق طبعة دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٤ ص ١٨٦ - ٢٠٥ وعلوم البلاغة العربية للمراغى ص ٣٣٠ - ٣٣٤ ، وجواهر البلاغة ص ٢١٩ - ٣٢٦ ، والتصوير البياني للدكتور حنفى شرف ص ٢٥٣ وأسرار البلاغة ص ٢٥٣ - ٢٨٩ .

الجناس (رسم تخطيطي).



السجع

السجع



لنتفق من البدء على أن السجع محسن بديعي مجاله الأول النثر ومجاله الثاني الشعر ،
هو قاسم مشترك بينهما لكنه في النثر أكثر منه في الشعر ، ومن الإنصاف القول بأن النثر
أولى به من الشعر ، فقد ذهب الشعر بالوزن والقافية ، وهما موسيقى مزدوجة شقها الأول
أفقى ممثلاً في الوزن وشقها الثاني رأسى ممثلاً في القافية .

ولنتفق من البدء على تحديد معاني الكلمات التي سيجرى القلم بها هنا كثيراً وهي
القرينة ، الفاصلة ، السجع .

والأمر سهل :

فالقرينة : قطعة من الكلام - جملة أو فقرة - جعلت مزوجة لأخرى أى مقارنة لها ، ولعله من هنا جاء اسمها .

والفاصلة هى الكلمة الأخيرة فى القرينة .

أما السجع فقد عرفه القزوينى بأنه تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد . وهو تعريف غير دقيق ، لأنه لم يحدد الحرف الذى تواطأت الفاصلتان عليه ، وأحسن منه أن نقول : هو وحدة الحرف الأخير فى الفاصلتين .

وعبارة (من النثر) فى تعريف القزوينى هى التى جعلته يقول فى إثره (وهذا معنى قول السكاكى : « الأسجاع فى النثر كالقوافى فى الشعر » .

فقد فهم القزوينى كما فهم غيره تبعاً له من عبارة السكاكى أنه أى السكاكى يقصر السجع على النثر .

أما أنا فأرى أن السكاكى قد قصد بعبارته إحضار السجع إلى الذهن من أقصر الطرق وأيسرها ، ولم يقصد حبس السجع فى قمع النثر .

لكأنه سأل : ألا تعرفون القوافى ؟

ولكأنه أجيب : بلى نعرفها .

فعقب : الأسجاع فى النثر كالقوافى فى الشعر .

تعريف بالتنظير ، أو تشبيهه غرضه بيان المشبه وهو السجع .

مع السجع فى النثر

للسجع فى النثر ثلاثة أضرب :

١ - الترصيع أو المرصع .

٢ - المتوازى .

٣ - المطرف .

المرصع

وهو يتحقق إذا كان ما فى إحدى القرينتين من الألفاظ أو أكثر ما فيها مثل ما يقابله من الأخرى فى الوزن والتقفية .

فمن الأول :

- قول الحريرى : « فهو يطبع الأسجاع بجواهر لفظه ، ويقرع الأسماع بزواجر وعظه » .
 وقول أبى الفضل الهمذانى : « إن بعد الكدر صفواً وبعد المطر صحواً » .
 وقول أبى الفتح البستى : « ليكن إقدامك توكلأ وإحجامك تأملاً » .
 وقول الحكيم : « من أطاع غضبه أضاع أدبه » .

ومن الثانى :

- قول الله تعالى : « إن الأبرار لفى نعيم ، وإن الفجار لفى جحيم » .
 وقوله تعالى : « إن إلينا إيابهم ، ثم إن علينا حسابهم » .
 وقول ابن نباتة : « أيها الناس ، أسيموا القلوب فى رياض الحكم » .
 وأديموا النحيب على بياض اللمم ، وأجيلوا الأفكار فى انقراض الامم » .
 وإنما سمي هذا النوع الترصيع أو المرصع « تشبيهاً له بجعل إحدى اللؤلؤتين فى العقد فى مقابلة الأخرى مثلها » (١) .

المتوازي

والمتوازي هو ما اتفقت فيه الفاصلتان وزناً وتقفية .
 كقول الله تعالى : « فيها سرر مرفوعة ، وأكواب موضوعة » .

(١) مواهب الفتح ج ٣ ص ٩٦ .

وكقول النبي ﷺ : « اللهم إني أدرك بك في نحورهم ، وأعوذ بك من شرورهم » وكقول
حصل الناطق والصامت وهلك الحاسد والشامت .

* * *

والفرق بين المرصع والمتوازي أن التوافق في المرصع قد تحقق في كل القرينتين أو
أكثرهما كما رأينا ، أما هنا فقد اقتصر التوافق على الفاصلتين ، والشرط أن يتم فيهما
وزناً وتقفية أى معاً ، أما في غيرهما فلا يشترط أى منهما ، لكن قد توجد في القرينتين
كلمات قليلة متوافقة مع مثيلاتها وزناً أو تقفية .

ولاقتصر التوافق في المتوازي على الفاصلتين وزناً وتقفية وعدم اشتراطه فيما قبلهما -
كله أو أكثره كالمرصع - كانت مرتبة المتوازي من الناحية البديعية تالية للمرصع .

٣

المطرف

وهو ما اتفقت فيه الفاصلتان تقفية لا وزناً كقوله تعالى : « مالكم لا ترجون لله وقاراً *
وقد خلقكم أطواراً » وقوله تعالى : « والمرسلات عرفاً ، فالعاصفات عصفاً » وواضح أن
التوافق في المطرف قد تقلص حتى اقتصر على روى القرينة وهو الحرف الأخير من
فاصلتها ، فلا غرابة - وهذا حاله - أن تكون رتبته البديعية بعد أخويه : المرصع والمتوازي .
يقول المغربي : « وإنما سمي مطرفاً ، لأنه خارج في التوغل في الحسن إلى الطرف بخلاف
غيره ، أو لأن ما وقع به التوافق وهو الاتحاد بين الفاصلتين إنما هو الطرف وهو الحرف
الأخير دون ما يعم وهو الوزن » (١) .

والتعليان صحيحان وهما لذلك واردان .

مع السجع في الشعر

سبق القول بأن السجع قد بسط جناحيه على النثر والشعر .

ومن أمثلته في الشعر على وجه العموم قول الخنساء في أخيها صخر :

(١) مواهب الفتح ج ٣ ص ٩٥ .

حامى الحقيقة محمود الطريقة مهـ جاب قاصية جازان ناصية
سدي الخليفة نفاع وضرار عقاد الوية للجيش جرار

وقول مروان بن أبي حفصة :

هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دعوا أجابوا وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا

وقول أبي تمام :

تجلى به رشدي وأثرت به يدي وقاض به شمدي وأورى به زندى (١)

وقول أبي فراس :

وأفعالنا للراغبين كريمة وأموالنا للطالبين نهاب

وقول المتنبي :

فنحن في جذل والروم في وجل والبر في شغل والبحر في خجل

ومن أكمله قول الشاعر :

ومكارم أوليتها متورعسا وجرائم ألغيتها متبرعسا

هذه الأمثلة وغيرها تعطي حكماً قاطعاً بوجود السجع في الشعر لا بقله بل بكثرة : وإنه لمن السهل التمثيل بالشعر لضروب السجع في النثر ، لكن البلاغيين قد وقفوا مما في الشعر من السجع عند نوعين اثنين سموهما :

التشطير والتعريض :

أما التشطير :

فهو أن يجعل كل من شطري البيت سجعة مخالفة لأختها كقول أبي تمام :

تدبير مهتصم بالله منتقم لله مرتقب في الله مرتقب

فالشطر الأول كما نرى سجعة مبنية على قافية الميم ، والشطر الثاني سجعة مبنية على قافية الباء .

(١) الشد : القليل . في كلام العرب : « لو كنتم ماءً لكنتم ثمداً » أى قليلاً . ومن المجاز : أصبح الرجل مثموداً : فنى ماء صلبه والنساء ثمدنه .

وكبيت أبا تمام فى ذلك قول البوصيرى :

كالزهر فى ترفه والبدر فى شرفه والبهر فى كرم والدهر فى همم
وقول ابن جابر الأندلسى والشاهد هو البيت الثانى :

يا أهل طيبة فى مغناكم قمرى يهدى إلى كل محمود من الطرق
كالغيث فى كرم والليث فى حرم والبدر فى أفق والزهر فى خلق
وقول صفى الدين الحلى :

بكل منتمر للفتح منتظر وكل مغترم بالحق ملتزم

* * *

بقى سر التسمية .

وعندى أن هذا الضرب من السجع إنما سمي التشطير لأنه يشطر شطر البيت وبه يصير
البيت أربعة أشطر بعد أن كان شطرين .

فى أساس البلاغة : شطرت الشئ أى جعلته شطرين ، وولده شطرة نصف ذكور ونصف
إناث وإناء شطران أى نصفان (١) .

وأما التصريح :

فمأخوذ من مصراعى الباب .

وهو جعل العروض مقفاة تقفية الضرب ، لكنه لا يستحسن إلا فى المطالع تمييزاً لها عن
غيرها ، ويعرف منذ الشطر الأول روى القصيدة وقافيتها .

واستجابة لهذين المحظين الفنين صرعت مطالع المعلقات ومطالع الكثير من القصائد
الجيدة .

* * *

ومن المصراع مطلقاً وغير مطلع قول أبا تمام :

ألم يأن أن تروى الظماء الحوائم وأن ينظم الشملى المبدد ناظم

(١) أساس البلاغة ص ٢٣٥ .

وقوله :

بأطراف المثقفة العوالي تفردنا بأوساط المعالي

وقول المتنبي :

إذا كان مدح فالنسيب المقدم أكل فصيح قال شعراً متيم

وقوله :

الرأى قبل شجاعة الشجعان هو أول وهى المحل الثانى

قالوا : وأكثر من كان يستعمل التصريح فى شعره من القدماء امرؤ القيس ، فبعد مجيئه
به فى مطلع معلقته :

قفانيك من ذكرى حبيب ومنزل يسقط اللوى بين الدخول فحومل

أثنى به فى أثنائها فقال :

أفأطم مهلاً بعض هذا التذلل وإن كنت قد أزمعت هجرى فأجملى

ثم قال :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجل بصبيح وما الإصباح منك بأمثل

كذلك صرع أول قصيدته :

ألا عم صباهاً أيها الطلل البالى وهل يعمن من كان فى العصر الخالى

ثم قال فى أثنائها :

ديار لسلمى عافيات بذى الخال ألسح عليها كل أسحم هطال

ثم قال بعد أبيات :

ألا إننى بال على جمل بال يقود بنا بسال ويتبعنا بال

لكن علماء البلاغة فضلوا أن يقتصر الشاعر فى التصريح على مطلع القصيدة للسبيين
السابقين ولئلا ينسب إلى التكلف .

وإذن فقول أبي تمام :

وتقفوا لى الجدوى بجدوى وإنما يروقك بيت الشعر حين يصوع
ليس على إطلاقه .

* * *

ونختم التصريح بما ختمه به القزوينى قال : وهو مما استحسن ، حتى أن أكثر الشعر
صرع البيت الأول منه ، ولذلك متى خالفت العروض الضرب فى الوزن جاز أن تجعل موازنة
له إذا كان البيت مصرعاً كقول امرئ القيس :

ألا عم صباحاً أيها الطلل البالى وهل يعمن من كان فى العصر الخالى
أتى بعروض الطويل (مفاعيلن) ، وذلك لا يصح إذا لم يكن البيت مصرعاً ، وهذا خطأ
أبو الطيب فى قوله :

تفكره علم ومنطقه حكم وباطنه دبين وظاهره ظرف (١)

* * *

وتنبيه هام هو أن الأصل فى الفواصل أن تكون ساكنة الأواخر بالوقف عليها ، لأن
الغرض أن يزاوج بينها ، ولا يتم ذلك فى بعض صور السجع إلا بالوقف .

ألا ترى أنك لو وصلت قولهم « ما أبعد ما فات وما أقرب ما هوأت » لم يكن بد من إجراء
كل من الفاصلتين على ما يقتضيه حكم الإعراب ، فتختلف أواخرها ويفوت السجع .

وإذا كانوا يترخصون من أجل المزاوجة فى تصريف اللغة فيقولون « الغدايا والعشايا »
بدلاً عن (الغدوات) لمزاوجة العشايا .

ويقول النبى ﷺ فى تعويذه لابن بنته : « أعيذه من الهامة والسامة والعين اللامة »
وأصلها اللمة ، لأنها من ألم فعبر عنها باللامة كى توافق ما قبلها .

ويقول للنساء : « انصرفن منزوات غير مأجورات » والأصل موزورات أخذاً من الوزر ،
لكنه عدل عن ذلك لكان مأجورات .

أقول : إذا كانوا يترخصون فى ذلك كله ويفتخرون ذلك كله من أجل تحقيق المزاوجة ،
فلأن يغتفروا الوقف لاكتساب حسن ازدواج السجع أولى وأحرى ، وعلى حد قول القزوينى :
« فما ظنك بهم فى ذلك » ؟

(١). الإيضاح ج ٦ ص ١١٢ - ١١٣ .

أى وهو أيسر وأسهل .

والسجع من حيث الطول والقصر لا يخرج عن أن يكون :

(أ) قصيراً : كقول الله تعالى : « والمرسلات عرفاً . فالعاصفات عصفاً » .

(ب) طويلاً :

كقول الله تعالى : « إذ يريكم الله في منامك قليلاً ، ولو أراكم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ، ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور ، وإذ يريكم وهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ويقللكم في أعينهم ليقضى الله أمراً كان مفعولاً وإلى الله ترجع الأمور » .

(ج) متوسطاً :

كقول الله تعالى : « اقتربت الساعة وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر » .

* * *

وأحسنه ما تساوت قرائنه كقول الله تعالى : « فى سدر مخضود ، وطلح منضود : وظل ممدود » .

ثم ما طالت قرينته الثانية . كقوله سبحانه : « والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى » .

ثم ما طالت قرينته الثالثة . كقوله تعالى : « خذوه فغلوه ، ثم الجحيم صلوه » وقول أبى الفضل الميكالى : « له الأمر المطاع ، والشرف اليفاع ، والعرض المصون والمال المضاع » .
وقد اجتمعا فى قوله تعالى : « والعصر ، إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

* * *

ولا يحسن أن تكون القرينة الثانية أقصر من الأولى كثيراً ، لأن السجع إذا استوفى أمدّه من الأولى لطولها ، ثم جاءت الثانية أقصر منها كثيراً يكون كالشئ المبتور ، ويبقى السامع كمن يريد الانتهاء إلى غاية فيعثر دونها ، والنوق يشهد بذلك ويقضى بصحته .

* * *

وعن السجع فى القرآن الكريم نقرر أنه لا خلاف فى وجوده فىه وكثرتة به وإنما الخلاف فى تسميته .

فبعض البلاغيين - كالباقلانى وابن الأثير - يتخرج من تسمية ما فى القرآن منه باسم السجع ، ويسميه (فواصل) ، تعظيماً للقرآن عن اسم السجع إذ السجع فى الأصل هديل الحمام والحمام حيوان أعجم ، وتنزيهاً له عن نغمات الكهنة ، وأجدنى غير مقتنع بالأميرين كليهما ، فكلمة (سجع) لا غبان عليها ، وتسمية ما فى القرآن الكريم مما يندرج تحت مفهومها البلاغى باسم السجع إنما هى تسمية اصطلاحية شأنها شأن غيرها من المصطلحات البلاغية الأخرى بديعية كانت أو غير بديعية .

شروط جودة السجع :

ولجودة السجع شروط منها :

١ - اختلاف قرينتيه فى المعنى .

فقول ابن عباد فى مهزومين : « طاروا واقين بظهورهم صدورهم ، وبأصلاهم نحورهم » تكرر بلا فائدة .

٢ - أن يأتى عقواً غير مقصود ولا متكلف .

والمعيار فى ذلك أن يكتشفه صاحبه عند مراجعة ما قال أو كتب .

٣ - أن يراعى فى نسقه ما قلناه عن مساواة القرائن وعن طولها وقصرها .

الموازنة والمماثلة

الموازنة هى تساوى الكلمتين الأخيرتين من القرينتين أو المصراعين فى الوزن دون التقفية (عكس الطرف) .

كقول الله تعالى : « ونمارق مصفوفة ، وزرابى مبثوثة » .

التاء تاء التأنيث والفاء غير التاء ، وإذا كانت التقفية قد تخلفت فى (مصفوفة) و (مبثوثة) فإن الوزن قد تحقق فيهما وتلك هى الموازنة .

وكالآية السابقة قوله تعالى : « واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا » كلا سيكفرون يعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ، ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا ، فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا .

والموازنة هنا بين (عزاً وضداً) ثم بين (أزاً وعداً) فقد جاء كل زوج على وزن واحد ،
وتخلفت التقفية .

ومعظم آيات القرآن الكريم جارية على هذا النهج حتى أنه لا يكاد يخرج منه شئ عن
السجع والموازنة .

ومن أمثلة الموازنة شعراً قول ربيعة بن ذؤابة :

إن يقتلوك فقد تثلت عروشهم بعتيبة بن الحارث بن شهاب
بأشدهم بأساً على أصحابه وأعزهم فقداً على الأصحاب
(بأساً) و (فقداً) فى البيت الثانى ، اتفقا وزناً لا تقفية .

وقول الآخر :

هو الشمس قدرا والملوك كواكب هو البحر جوداً والكرام جداول
ف (جداول) على وزن (كواكب) دون رويها .
تلك كانت الموازنة .

أما المماثلة فتتحقق إذا كان ما فى إحدى القرينتين من الألفاظ أو أكثر ما فيها مثل ما
يقابله من الأخرى فى الوزن وحده .

فالأول : كقوله تعالى : « وأتيناها الكتاب المستبين ، وهديناهما الصراط المستقيم »
وكقول البحترى يمدح الفتح بن خاقان ويذكر مبارزته للأسد :

فأحجم لما لم يجد فيك مطمعاً وأقدم لما لم يجد عنك مهرباً
والثانى كقول أبى تمام :

مها الوحش إلا أن هاتا أوانس قنا الخط إلا أن تلك ذوابل
فالموازنة تامة بين كل لفظة وما يقابلها فى المصرعين عدا اللفظين (هاتا) و (تلك) .

لزوم ما لا يلزم

وقد أورد الجرجانى اعتراضاً وجيهاً على هذه التسمية ، والاعتراض هو أن فى « لزوم
ما لا يلزم » تناقضاً ؛ إذ كيف يكون ما لا يلزم لازماً ؟!

وإذا كان قد رد على الاعتراض بقوله : إنه لا يلزم من حيث القافية ، ويلزم اطراده بعد
الالتزام به .

فإنى أرى أن الرد لم يدفع الاعتراض بعد ، فمنذ البدء من أُلزم الأديب بما لا يُلزم ؟
بالطبع لم يلزمه أحد ، وإنما هو الذى أُلزم نفسه ، أو كما قال ابن المعتز : هو الذى أعنت
نفسه .

ثم إن المصطلح الخاص بظاهرة أدبية أو فنية أو علمية يجب أن يشملها من أولها إلى
آخرها ، ولا يصح أن يقتصر عليها فى بعض مراحلها .

فلنسلم لصاحب الاعتراض اعتراضه ، ولنوافق على ما اقترحه وهو (التزام ما لا يلزم)
فهذا المصطلح أصدق من « لزوم ما لا يلزم » وأدق منه ، لأنه هو الاسم الحقيقى للظاهرة التى
نحن بصددنا . وهو الاسم الحقيقى لها ، لأنه يدل عليها منذ خلقها وفى جميع مراحلها .

* * *

ومن التسمية إلى المسمى .

قال القزوينى : هو أن يجئ قبل حرف الروى وما فى معناه من الفاصلة ما ليس بلازم
فى مذهب السجع « (١) .

كقوله تعالى « فإذا هم مبصرون ، وإخوانهم يمدونهم فى الفى ثم لا يقصرون » .

وقوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق » .

وقوله تعالى : « فلا أقسم بالخنس ، الجوارى الكنس » .

وقوله تعالى : « والليل وما وسق ، والقمر إذا اتسق » .

وقوله تعالى : « قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد ، قال : لا تختصموا
لدى وقد قدمت إليكم بالوعيد » .

وكقول الحريرى : « ملت فى ريق زمانى الذى غير إلى مجاورة أهل الوبر لأخذ أخذ
نفوسهم الأبية ، وألسنتهم العربية ، فأوطنونى أمعن جناب ، وفلوا عنى حد كل ناب » (٢) .

* * *

ومنه شعراً قول رافع بن هريم اليربوعى :

مخالفتى أو تقبسوا من شواريا	فإلا تحامونى تصبكم بعرة
نضارة وجهى مخضباً باصفراريا	إذا صار لونى كل لون وبدلت
وظلمة ليلى مثل ضوء نهاريا	فسرى كإعلانى وتلك سجيتى

(١) الإيضاح ج ٦ ص ١١٦ .

(٢) مقامات الحريرى - المقامة الوبرية ص ١٩٦ وانظر « علم البديع » للدكتور عتيق ص ٢٢٤ .

وقول عروة بن أذينة :

إن التي زعمت فؤادك ملها
بيقضاء باكرها النعيم فصاغها
حجبت تحيتها فقلت لصاحبي
وإذا وجدت لها وساوس سلوة

خلقت هواك كما خلقت هوى لها
بلباقاة فأدقها وأجلها
ما كان أكثرها لنا وأقلها
شفع الضمير إلى الفؤاد فسلها

وقول شاعر قديم :

عماني قومي والرشاد الذي به
فصبراً بنى بكر على الموت إننى

أمرت ومن يعص المجرب يندم
أرى عارضاً ينهل بالموت والدم

وقول آخر :

يقولون في البستان للعين لذة
إذا شئت أن تلقى المحاسن كلها

وفي الخمر والماء الذي غير آسن
ففى وجه من تهوى جميع المحاسن

وقد يكون الالتزام فى غير الفاصلتين أيضاً كقول الحريري :

« ما اشتار العسل من اختار الكسل » .

والشاهد هو التزام حرفى التاء والألف فى كلمتى (اشتار) و (اختار) (١).

* * *

وبالاستقراء علم أن (ما لا يلتزم) أحد أمور ثلاثة هى :

(١) **حرفه وحركته معاً** كما فى قول الله تعالى : « فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر » .

وكقول عبد الله بن الزبير - بفتح الزاى - فى مدح عمرو بن عثمان بن عفان :

سأشكر عمراً إن تراخت منيتى
فتى غير محبوب الغنى عن صديقه
رأى خلتي من حيث يخفى مكانها

أيادى لم تمنن وإن هى جلّت
ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت
فكانت قذى عينيه حتى تجلت

(١) الإيضاح ج ٦ ص ١١٦ - ١١٧ والبديع لابن المعتز ص ٧٤ - ٧٥ .

(٢) حرف فقط هو الميم في (القمر) و (مستمر) من قول الله تعالى : « اقتربت الساعة وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر » .

(٣) حركة فقط كقول ابن الرومي :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وإلا فما يبكيه منها وإنها لأوسع مما كان فيه وأرغد

يقول الأستاذ المراغي :

« والمراد أن يكون ذلك في بيتين أو أكثر أو فاصلتين أو أكثر ، وإلا ففي كل بيت أو فاصلة يجيء قبل الروي أو ما في معناه ما ليس بلازم في السجع كقول امرئ القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل يسقط اللوى بين الدخول فحومل

« فمجىء ميم مفتوحة قبل حرف الروي ليس بلازم في السجع » (*)

وهي ملاحظة صائبة ودقيقة .

* * *

ولما كان مناط البلاغة في السجع .

ما فيه من موسيقى تسرع به إلى أذن متلقيه وتستبقيه في ذاكرته . فإن مناط البلاغة في التزام ما لا يلزم إنما هو الاستزادة من هذا المحسن وصولاً به إلى درجة عالية في السلم الموسيقي . والله أعلم .

التشريع

التشريع هو بناء البيت على قافيتين ، ويصح المعنى إذا وقفنا على كل واحدة منهما وسبيل ذلك أن يبنى الشاعر أبيات قصيدته على وزنين وقافيتين ، فإذا وقفنا على القافية الأولى كان البيت مستقيماً ، وإذا أضفنا ما بنى عليه شعره من القافية الثانية كان كذلك مستقيماً ، وصار ما يضاف إلى القافية الأولى للبيت كالأوشاح ، وقد سمي التشريع لذلك (التوشيح) كما سمي (التوام) .

(١) علوم البلاغة ص ٣٤٠ هامش رقم (٢) .

هو محسن شعري إذن ، وإذا أمكن أن يأتي في النثر المسجوع فإنه يكون متكلفاً سمجاً .
وقد مارس الحريري التشريع في قصيدة له منها :

يا خاطب الدنيا الدنية إنها شرك الردى وقرارة الأكدار
دار متى ما أضحكت في يومها أبكت غداً بعداً لها من دار

والقصيدة كما نرى رائية القافية ومن وزن الكامل التام ، فإذا أسقطنا تفعيلتين صار
البيتان من مجزوء الكامل وصارت الدال هي القافية هكذا :

يا خاطب الدنيا الدنيـة إنها شرك الردى
دار متى ما أضحكت فى يومها أبكت غداً

وقبل الحريري قال الأخطل :

وإذا الرياح مع العشى تناوحت هوج الرمال تكبهن شمالاً
ألفيتنا نقرى العبيط لضيفنا قبل العيال ونقتل الأبطالاً (١)

البيتان من وزن الكامل التام ، والقافية اللام ، وبإسقاط تفعيلتين يتحول البيتان إلى وزن
آخر هو مجزوء الكامل ، وإلى قافية أخرى هي لام (الرمال) و (العيال) هكذا :

وإذا الرياح مع العشى تناوحت هوج الرمال
ألفيتنا نقرى العبيط ط لضيفنا قبل العيال

وأكثر البحور قبولاً للتشريع هو الرجز الذى يتألف من (مستفعلين) ست مرات .

فإنه قد جاء (تاماً) (ومجزوءاً) و (مشطوراً) و (منهوكاً) . بأربع قواف .

وهذا الشعر لمحمد بن جابر الأندلسى خير شاهد على ذلك قال :

يرنو بطرف فاتر مهما رنا فهو المنى لا أنتهى عن حبه
يهفو بغصن ناضر حلو الجنى يشفى الضنى لا صبر لى عن قربه
لو كان يوماً زائرى زال العنا يحلو لنا فى الحب أن نسمى به

(١) العبيط : الذبيح ، قال : اعتبط الإبل والغنم إذا ذبحها لغير داء ، ونقرى العبيط لضيفنا أى نحسن إلى
ضيفنا ونقدم له من طعامنا خير ما نذبح من إبلنا وغنمنا المبرأة من الأواء .

الأبيات من الرجز التام وقافيتها الباء، وإذا أسقطنا تفعيلتين من آخر كل بيت صارت
من مجزوء الرجز والقافية النون هكذا :

يرنـو بطـرف فـاتـر مـهـمـا رنـا فـهـو المـنى
يـهـفـو بـغـصـن نـاـضـر حـلـو الجـنى يـشـفى الضـنى
لـو كـان يـومـاً زائـرى زـال العـنا يـحـلـو لـنا

وإذا ثنينا وأسقطنا تفعيلة أخرى من آخر كل بيت صارت الأبيات من مشطور الرجز
والقافية النون أيضاً هكذا :

يرنـوا بطـرف فـاتـر مـهـمـارنـا
يـهـفـو بـغـصـن نـاـضـر حـلـو الجـنى
لـو كـان يـومـاً زائـرى زـال العـنا

وإذا ثلثنا وأسقطنا تفعيلة من المشطور السابق صار الشعر من منهوك الرجز والقافية
الراء هكذا :

يرنـو بطـرف فـاتـر
يـهـفـو بـغـصـن نـاـضـر
لـو كـان يـومـاً زائـرى

هذا هو التشريع ، ورأى فيه ليس لمصلحته ، إنه حافظة مثقوبة ، تهزها فتسقط منها
تفعيلتان ، وتهزها ثانية فتسقط تفعيلة ثالثة ، وتهزها ثالثة فتسقط تفعيلة رابعة حتى لينهك
الشعر ولا تبقى منه إلا تفعيلتان من ست تفعيلات ، ولما كان المعنى ابن المبنى فإن التشريع
يعكس قدرة الشاعر على الصنعة أكثر مما يعكس قدرته على الشعر وليس من شك فى أنه لا
مصلحة للشاعر ولا للشعر فى (تشريع) يبدد الشعر ، وهو لا يتبدد إلا لأنه مفكك من أول
الأمر .

ربك الصخر على العجز

يأتى هذا المحسن فى النثر وفى الشعر :

فى النثر يجعل أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين أو الملحقين بالمتجانسين عن طريق
الاشتقاق أو عن طريق شبه الاشتقاق .

نقول . يجعل أحد اللفظين مما مر في أول الجملة والآخر في آخرها هكذا

المكرران : « وتفضى الناس والله أحق أن تخشاه » .

المتجانسان : « سائل اللئيم يرجع ودمعه سائل » .

الملحقان بالمتجانسين اشتقاقاً : « استغفروا ربكم إنه كان غفارا » .

الملحقان بالمتجانسين شبه اشتقاق : « قال : إني لعملكم من القالين » .

وفي الشعر بأن يجعل اللفظان المكرران أو المتجانسان أو الملحقان بالمتجانسين اشتقاقاً أو شبه اشتقاق على الوجه الآتى :

يأخذ أحدهما موقعاً ثابتاً لا يتغير وهو آخر البيت .

ويتردد الآخر بين أن يكون :

أول المصراع الأول .

حشو المصراع الأول .

آخر المصراع الأول .

أول المصراع الثانى .

أربعة مواقع يتعاقب عليها أربعة أنواع من الالفاظ .

والمحصلة ستة عشر نموذجاً هى :

(أ) المكرران :

وأهون شئ عندنا ما تمننت

فما بعد العشيبة من عرار

فمازلت بالبييض القواضب مغرماً

تليدلاً فإنسى نافع يسى أليلها

(١) تمننت سليمى أن أموت صيابة

(٢) تمتع من شميم عرار نجد

(٣) ومن كان بالبييض الكواضب مغرماً

(٤) رأيت لى لم يكن إلا مخرج ساعة

ب) المتجانس :

(١) ذوائب سود كالعناقيد أرسلت فمن أجلها منها النفوس ذوائب
(ذوائب) الأولى جمع نؤابة وهى أعلى شعر الرأس ، و (ذوائب) الثانية : جمع ذائبة :
اسم فاعل من ذاب .

(٢) لا كان إنسان تيمم قاصداً صيد لها فاصطاده إنسانها
(إنسان) الأولى هو ابن آدم والمقصود به هنا الشاعر نفسه أما (إنسانها) فهو
إنسان عين مهاته أى حبيبه .

(٣) فمشغوف بأيات المثانى ومفتون برببات المثانى
(المثانى) الأولى (القرآن الكريم) و (المثانى) الثانية (المزامير) .

(٤) أملتهم ثم تأملتهم فلاح لى أن ليس فيهم فلاح
(فلاح) الأولى معناه بدا وظهر ، و (فلاح) الثانية معناها النفع والتجاح .

ج) الملحق بالمتجانسين للإشتقاق .

- (١) ضرائب أيدعتها فى السماح فلسنا نرى لك فيها ضريبا
(الضرائب . السجايا والطباع ، والضريب : الند . وأصلهما واحد هو مادة ضرب .
- (٢) إذا المرء لم يخزن عليه لسانه فليس على شئ سواه بخزان
(٣) فدع الوعيد فما وعيدك ضائرى أطنين أجنحة الذباب يضير
(ضائرى) و (يضير) يجمعهما أصل واحد هو مادة (ض . ي . ر) .
- (٤) وقد كانت البيض القواضب فى الوغى بواتر فهسى الآن من بعده بتر
(بواتر) و (بتر) من مادة واحدة هى (ب . ت . ر) .

* * *

(٣) الملحقاؤ بالتجانسين لشبه الاشتقاق .

(١) ولاح يلحى على جرى العنان إلى ملهى فسحقاً له من لائح لاح
(لاح) فى أول البيت فعل ماضٍ معناه ظهر ، و (لاح) فى آخر البيت اسم فاعل من
لحاه بمعنى لأمه : فما بينهما من تجانس لفظى هو شبه اشتقاق لا اشتقاق .

(٢) لو اختصرتم من الإحسان زرتكم والعذب يهجر للإفراط فى الخصر
(اختصر) الأول فعل ماضٍ بمعنى قلل ، و (الخصر) فى آخر البيت اسم بمعنى
البرودة ، فاللفظان متجانسان لفظاً مختلفان معنى ، وتجانسهما اللفظى مرجعه شبه
الاشتقاق .

(٣) ومضطلع بتلخيص المعانى ومطلع إلى تخلص عان
(المعانى) جمع معنى و (عان) أسير ، اسم فاعل من عنا يعنو فبينهما شبه اشتقاق .
(٤) تخمد الحرب حين تغمد بأساً وتسيل الدماء حين تسيل
(تسيل) من سال الماء فى مسيله ومسايه : جرى ، و (تسيل) من سل السيف من غمده
بمعنى انتصاه .

فاللفظان متجانسان لفظاً مختلفان معنى ، وما بينهما هو شبه اشتقاق .

انتهت نماذج رد العجز على الصدر فى الشعر .

ويعضهم يسميه (التصدير) ، والتصدير مقتصر على الصدر .

أما (رد العجز على الصدر) فمشمول على الصدر والعجز أولاً وهو نص فى رد العجز
على الصدر ثانياً ، وعندى أن تسمية هذا المحسن لا تتمشى مع ما نتمرس به فيه ، وما هو
الواقع من أمره ، وما نتمرس به فيه إنما هو رد الصدر على العجز وليس رد العجز على
الصدر فلنسمه [رد الصدر على العجز] أو [إلحاق الصدر بالعجز] .

فالعجز ثابت ومستقر فى آخر البيت لأنه قافيته .

أما الصدر الذى نرده عليه ونلحقه به فهو غير الثابت وغير المستقر ، نصادفه فى أول
البيت ، ونصادفه بعد أول البيت وقبل نهاية شطره الأول ونصادفه فى نهاية هذا الشطر

وأخيراً نصادفه في أول الشطر الثاني ولا يشوش على ما نقوله ما تحتمله مادة (ردد) من رجوع إلى الخلف فمن معانيها التردد بين شيئين نقول : يحلق الطائر بين السماء والأرض أى يتحرك في اتجاههما ويتردد بينهما . في أساس البلاغة تردد في الإجابة : تعثر لسانه وهو يتردد بالغدوات إلى مجالس العلم : يختلف إليها (ذهاباً وإياباً والذهاب قبلاً) وهذا أمر لا رادة فيه أى لا فائدة (والفائدة بعد) وما تقدم معناه أنه لا يلزم في الرد اتجاه محدد . وعن سر بلاغته فإنما هو الربط بين طرفيه وهما (الصدر والعجز) .

المشاكلة

المشاكلة هي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته ، أى لمجيئه معه وأمن اللبس معمول فيه على معمول اللفظ الذى تمت المشاكلة به ، أو على عامله .

الأول :

كقول أحمد الأنطاكي وقد دعاه أصحابه إلى الصبوح في يوم بارد : وأغروه بأنهم سيجيدون طبخ ما يريد أكله ، لكن حاجته إلى الثياب كانت أشد من حاجته إلى الطعام فكتب إليهم :

أصحابنا قصدوا الصبوح بسحرة وأتى رسولهم إلى خصيما
قالوا : اقترح شيئاً نجد لك طبخه قلت اطبخوا لى جبة وقميصا

أقام (اطبخوا) مقام (خيطوا) لدلالة الم معمول وهو (جبة وقميصاً) عليه قصداً إلى المشاكلة بين ما يخاط وما يطبخ .

وكقول أبى تمام :

من مبلغ أفناء يعرب كلها أنى بنيت الجار قبل المنزل

فالجار لا يبني بل ينتقى ، وإنما عبر عن انتقائه بينائه قصداً إلى المشاكلة بين اختيار الجار وبناء الدار .

وكقول صاحب بن عباد على لسان من رد القاضى شهادته بروية هلال شوال :

أترى القاضى أعمى أم تراه يتعمى
سرق العيد كأن الـ عيد أموال اليتامى

عدل عن (أخفى) أو نحوها إلى (سرق) لتشاكل أموال اليتامى .
والقرينة لفظية هي مجيء العيد مفعولاً به للفظ المشاكلة (سرق) .

والثاني:

كقول الله تعالى : « تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك » .

أقام (ما فى نفسك) مقام (ما عندك أو ما فى علمك) ، لتشاكل (ما فى نفسى)
والقرينة العاملان (تعلم) ، (ولا أعلم) .

وقوله تعالى : « جزاء سيئة سيئة مثلها » .

أقام (سيئة) الثانية مقام (عقوبة) لتشاكل (سيئة) الأولى .

والمشاكلة نوعان :

تحقيقية : كالأمثلة السابقة .

وتقديرية : كما حكى أن بعض الولاة كان يفرس غرساً حول مسجد فوقف عليه من
أنشده :

إن الولاية لا تدوم لواحد إن كنت تنكره فأين الأول
وأغرس من الفعل الجميل غرائساً فإذا عزلت فإنها لا تعزل
أقام (أغرس) مقام (اصنع) ليشاكل فعل الأمير ، ولما كان فعل الأمير وهو الفرس
عملاً لا قولاً كانت القرينة حالية ، لا لفظية .

وكقول الله تعالى : « صبغة الله » أراد تطهير الله بالإيمان ، فأقام الصبغ مقام
التطهير ، ليشاكل صبغ النصارى ، فإنهم كانوا يغمسون أولادهم فى ماء أصفر يسمونه
الممودية تطهيراً لهم ، والقرينة حالية هي سبب نزول الآيات ١٣٦ - ١٣٨ من سورة
البقرة^(١) .

والفرق بين نوعى المشاكلة من وجهين :

(١) أن التحقيقية يقع فيها لفظ المشاكلة على ما لا يصح أن يقع عليه حقيقة .

أما التقديرية فإن لفظ المشاكلة يجىء فيها على حقيقته ، ويقع على ما يصح وقوعه
عليه ، لكننا نقدره بلفظ آخر مشاكل لمراد المتكلم .

(١) الإشارات والتنبيهات ص ٢٦٧ - ٢٦٨ ، والإيضاح ج ٦ ص ٢٧ - ٢٠ .

(٢) أن قرينة التحقيقية لفظية ، وقرينة التقديرية حالية .

* * *

انتهت المشاكلة .

وقد وجدتني غير راض عن وجودها في علم البديع بعامة ، وفي وجوه التحسين المعنوي منه بخاصة ، ورأيت أنها أسلوب بياني ، مجاز لغوي علاقته المشابهة ، فإن كان ذلك فيها ، وإلا فهي بالمعنى اللغوي لها محسن لفظي .

وعن أنها أسلوب بياني أقول :

تردد الكلمة التي تتحقق بها المشاكلة بين أن تكون استعارة تصريحية أو مكنية .

تصريحية : بأن نشبه الخياطة بالطبخ في أن كلا منهما لازم للإنسان ومن حاجاته الضرورية ثم نحذف المشبه ، ونصرح بالمشبه به في مكانه على سبيل الاستعارة التصريحية.

وبأن نشبه اختيار الجار ببنايه ، وإخفاء رؤية هلال العيد بسرقة العيد .

وممكنية : بأن نشبه الثياب بالطعام ، ثم نحذف المشبه به بعد استبقاء شيء من لوازمه نكتي عنه به ونضيفه إلى المشبه المذكور في الكلام .

وبأن نشبه الجار بالمنزل في الإيناس به ومصاحبته ثم نحذف المشبه به بعد أن نأخذ شيئاً من خواصه ونفسبه إلى المشبه المذكور في الكلام .

وبأن نشبه العيد بأموال اليتامى في أن كلا منهما يمكن أن يستتر وينكر ، ثم نحذف أموال اليتامى بعد أن نأخذ شيئاً مما يمكن أن يقع لها وهو سرقتها ونحكم به على المشبه المذكور في الكلام .

وهكذا وهكذا ...

وإذا كان التعبير في المشاكلة مجازاً لغوياً علاقته المشابهة ، فإن مكانه الطبيعي في الدرس البلاغي علم البيان لا علم البديع .

وما هو ذا محمد الجرجاني يختم كلامه عن المشاكلة بقوله : « والباب كله استعارة ،

لقصد المشاكلة لا للمبالغة ، ولذلك ليست من مسائل علم البيان « (١) .

ونقول للجرجاني : أصبت وأخطأت وتناقضت .

أصبت في أن باب المشاكلة كله استعارة .

وأخطأت في إخراجها من علم البيان .

وتناقضت في الكلام بأنها استعارة ، وبأنها ليست من مسائل علم البيان ولا يشفع لك أن القصد هنا المشاكلة لا المبالغة ، فالكلام – بعيداً عن قصد المتكلم – مجاز لغوي علاقته المشابهة ، ومتى كان كذلك فهو استعارة والاستعارة من علم البيان .

وعبارة (بعيداً عن قصد المتكلم) مقصودة لى ، ففي البلاغة كما في النقد يجب أن نقصر اهتمامنا على الكلام ، ولا شأن لنا بقصد المتكلم ونيته ، فلو فتحنا هذا الباب لادفع كل إنسان عن نفسه .

وقال : إنما قصدت كذا ، وإن نيتي كانت كذا ، ولقد أفتى قدامة في شبيهه لما نحن فيه بقوله : « وليس إذا علمنا أن شاعراً أراد لفظة تقيم شعره ، فجعل مكانها لفظة تحيله وتفسده وجب أن يحسب له ما يتوهم أنه أراده ، ويترك ما صرح به ، ولو كانت الأمور كلها تجري على هذا لم يكن خطأ » (٢) .

* * *

وإذا كان البلاغيون قد عدلوا بالمشاكلة عن علم البيان إلى علم البديع ، فإنها مع التسامح ، ولقصد التماثل الذي لحظه الجرجاني تكون من محسناته اللفظية لا المعنوية ، لأن معناها الاصطلاحي هو ذكر الشيء بلفظ غيره والشيء المذكور بلفظ غيره في الأمثلة التي مثلنا بها لها هو (خياطة الثياب ، واختيار الجار ، ووجد الشهادة برؤية هلال شوال ، وصنع المعروف ، وتطهير الإيمان) عدل عن هذه الألفاظ إلى ألفاظ أخرى حلت محلها ، لنكتة بديعية لفظية هي المماثلة أو هي المشاكلة .

والألفاظ الأخرى على الترتيب هي (طبخ الثياب ، بناء الجار ، سرقة العيد ، غرس الجميل ، صيغة الله) .

(١) الإشارات ص ٢٦٨ .

(٢) نقد الشعر ص ٢٠٦ .

المسألة إذن أن ألفاظاً حلت محل ألفاظ .. لماذا ؟

لتشاكل الألفاظ الألفاظ لا لتشاكل المعاني المعاني .

ونتيجة لذلك فإنه يمكن أن نتسامح بإدخال المشاكلة في وجوه التحسين اللفظي أما المعنوي فلا .

وهأنذا قد خلعتها من هناك وزعتها هنا في حقلها ، حقل التحسين اللفظي .

* * *

وعن سر بلاغتها فإنما هو الاسترخاء الذهني والاقتصاد في الجهد العقلي . أريد ما سمعت أو ما قرأت بدلاً من عناء البحث عن كلمة أخرى لا تشاكل .

* * *

أما بعد : فقد ختم القزويني وجوه التحسين اللفظي بنقل عن عبد القاهر قال : « وأصل الحسن في جميع ذلك أعنى القسم اللفظي كما قال الشيخ عبد القاهر هو أن تكون الألفاظ تابعة للمعاني ، فإن المعاني إذا أرسلت على سجيبتها وتركت وما تريد طلبت لأنفسها الألفاظ ، ولم تكتس إلا ما يليق بها ، فإن كان خلاف ذلك كان كما قال أبو الطيب :

إذا لم تشاهد غير حسن شياتها وأعضائها فالحسن عنك مغيب (١)

ونمضي مع عبد القاهر فنجده يحذر وينذر بقوله :

« قاما أن تضع في نفسك أنه لا بد أن تجفس أو تسجع بلفظين مخصوصين فهذا الذي أنت منه يعرض الاستكراه وعلى خطر من الخطأ والوقوع في الذم » (٢) .

ويضرب على الرتر نفسه بقوله : « وقد تجد في كلام المتأخرين الآن كلاماً حمل صاحبه فرط شغفه بأمور ترجع إلى ماله اسم في البديع إلى أن ينسى أنه يتكلم ليفهم ، ويقول لييين ، ويخيل إليه أنه إذا جمع بين أقسام البديع في بيت فلا ضير أن يقع ما عناه في عمياء ، وأن يوقع السامع من طلبه في خبط عشواء ، وربما طمس بكثرة ما يتكلفه على

(١) الإيضاح ج ٦ ص ١١٧ .

(٢) أسرار البلاغة ص ٦٠ .

المعنى وأفسده ، كمن ثقل العروس بأصناف الحلى حتى ينالها من ذلك مكروه فى نفسها»^(١).
انتهى تشرط عبد القاهر وتحوطه ، وهما فى مكانهما ، وإنهما لأحسن ما نختم به .
رحمه الله ، والحمد لله .

عبدہ عبد العزیز قلقیلہ

الرياض ٢٧/١٢/١٤٠٤هـ / ٢٢/٩/١٩٨٤م

(٢) أسرار البلاغة ص ٦ .

كتب المؤلف

- ١- النقد الأدبي فى العصر المملوكى الأنجلو المصرية ١٩٧٢ ط (١) ودار الفكر العربى بالقاهرة ط (٢) ١٩٩١
- ٢ - النقد الأدبي فى المغرب العربى الأنجلو نصريه ١٩٧١ م ط (١) والهيئة انصريه العامة للكتاب ط (٢) ١٩٨٨ م .
- ٣ - القاضى الجرجانى والنقد الألبى (ط) (١) الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ م والأنجلو المصرية ط (٢) .
- (أ) القاضى الجرجانى على بن عبد العزيز ١٩٧٤ م
- (ب) النقد الأدبي عند القاضى الجرجانى ١٩٧٦ م .
- والهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠ ط (٣) القاضى الجرجانى والنقد الأدبي .
- ٤ - مقالات فى التربية واللغة والبلاغة والنقد الأنجلو المصرية ١٩٧٤ م
- ٥ - نقد النقد فى التراث العربى الأنجلو المصرية ١٩٧٥ م
- ٦ - خط سير الأدب العربى الأنجلو المصرية ١٩٧٦ م ط (١) ودار الفكر العربى ١٩٩٠ م ط (٢)
- ٧ - لغويات الأنجلو المصرية ١٩٧٦ ط (١) ودار الفكر العربى سنة ١٩٩٠ م ط (٢) .
- ٨ - من التراث الأدبي للمغرب العربى (ط) (١) عالم الكتب بالقاهرة ١٩٧٩ م ط (٢) دار أمية للنشر والتوزيع بالرياض ١٩٨٥ م
- ٩ - دراسات فى النقد الأدبي والبلاغة دار العلوم بالرياض ١٩٨٠ م ط (١) ودار الفكر العربى بالقاهرة ط (٢) ١٩٩٠ م .
- ١٢ - أبيات المعانى فى شعر المتنبى الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون ١٩٨٣ م
- ١١ - البلاط الأدبي للمعز بن باديس المجلس العلمى بجامعة الملك سعود بالرياض ١٩٨٣ م
- ١٢ - المقنع فى أن « هدى كامل المبرد » ليس « الممتع » دار الرياض للنشر والتوزيع ١٩٨٤ م
- ١٣ - التجربة الشعرية عند ابن المقرب : مضمونها وبنائها الفنى النادى الأدبي بالرياض ١٩٨٦ م

- ١٤ - البلاغة الاصطلاحية دار الفكر العربي بالقاهرة ١٩٨٧م ط (١) وسنة ١٩٩٠ ط (٢) .
- ١٥ - مساجلات الأنجلو المصرية ١٩٩٠ م
- ١٦ - معجم البلاغة العربية نقد ونقض دار الفكر العربي بالقاهرة ١٩٩١
- ١٧ - مقالة الأدب المقارن. دار المعارف بمصر ١٩٩١

المصادر والمراجع

مرتبة على حسب الحروف الهجائية لأسماء الكتب

الإتقان فى علوم القرآن . جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال السيوطي القاهرة سنة ١٣٦٨ هـ .

أساس البلاغة . تأليف جار الله محمود بن عمر الزمخشري . وتحقيق عبد الرحيم محمود . القاهرة سنة ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٣ م .

أسرار البلاغة . تأليف عبد القاهر الجرجاني وتحقيق هـ . ريتز استانبول سنة ١٩٥٤ وطبعة محمد رشيد رضا بيروت سنة ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .

الإشارات والتنبيهات . تأليف محمد بن علي بن محمد الجرجاني وتحقيق د. عبد القادر حسين . دار نهضة مصر للطباعة والنشر سنة ١٩٨٢ م .

أنوار الربيع فى أنواع البديع ج ١ . تأليف السيد على صدر الدين بن معصوم المدنى . وتحقيق شاكر هادى شكر . الطبعة الأولى العراق سنة ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .

الإيضاح فى شرح مقامات الحريري . لأبى المظفر ناصر المطرزى . إيران ١٢٧٢ هـ .

الإيضاح المختصر تلخيص المفتاح . تأليف الخطيب القزوينى طبعة محمد على صبيح الثانية د.ت وشرح وتعليق محمد عبد المنعم خفاجى سنة ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م ، ١٣٦٩ هـ / ١٩٥٠ م .

البديع فى نقد الشعر . تأليف أسامة بن منقذ ، وتحقيق الدكتورين : أحمد أحمد بدوى ، وحامد عبد المجيد . القاهرة سنة ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م .

البرهان فى علوم القرآن . تأليف بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى الطبعة الأولى القاهرة بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم سنة ١٣٧٦ هـ / ٢٩٥٧ م .

بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح . عبد المتعال الصعدي . الطبعة الثانية ج ١ سنة ١٣٦٢ هـ / ١٩٤٢ م ، ج ٢ سنة ١٣٦٣ هـ / ١٩٤٣ م ، ج ٣ سنة ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٤ م .

بغية الوعاة . جلال الدين السيوطى . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم القاهرة سنة

١٣٨٤هـ / ١٩٦٥م .

البلاغة تطور وتاريخ . د. شوقي ضيف الطبعة الثانية . دار المعارف بمصر سنة
١٣٨٣هـ / ١٩٦٤م .

البلاغة العربية . د. أحمد مطلوب طبعة وزارة التعليم العالي والبحث العلمي الجمهورية
العراقية سنة ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

البلاغة الواضحة . على الجارم ، ومصطفى أمين . دار المعارف بمصر ١٣٨٣هـ /
١٩٦٤م .

تحرير التعبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن . تأليف ابن أبي الإصبع ،
وتحقيق د. حنفي محمد شرف القاهرة سنة ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م .

التصوير البياني . د. حنفي محمد شرف . الطبعة الثانية . مكتبة الشباب القاهرة ١٩٧٢م

التصوير البياني . د. محمد أبو موسى . الطبعة الثانية . القاهرة سنة ١٤٠٠هـ /
١٩٨٠م .

تقديم أبي بكر . تأليف تقي الدين بن حجة الحموي . المطبعة الخيرية بالقاهرة سنة
١٣٠٤هـ .

التلخيص . تأليف جلال الدين القزويني وتحقيق عبد الرحمن البرقوقي الطبعة الثانية
القاهرة سنة ١٣٥٠هـ / ١٩٣٢م .

تهذيب السعد . تأليف سعد الدين التفاتازاني ، وتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد
سنة ١٣٥٦هـ / ١٩٣٨م .

الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور تأليف ضياء الدين ابن الأثير
وتحقيق الدكتورين مصطفى جواد ، وجميل سعيد . بغداد سنة ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م .

جواهر البلاغة . أحمد الهاشمي . الطبعة السادسة . دار الكتب العلمية . د. ت .

حدائق السحر في دقائق الشعر . تأليف رشيد الدين الوطواط وترجمة إبراهيم

- الشواربي طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٤٥ م .
- حلية اللب المصون بشرح الجواهر المكنون تأليف الشيخ أحمد الدمنهوري الطابعة بالقاهرة .
الناشرة سنة ١٣٧٧هـ / ١٩٥٨ م .
- خاص الخاص للثعالبي بيروت ١٩٦٦ م .
- الخصائص . لابن جنى ج ١ طبعة مطبعة الهلال بالقاهرة سنة ١٣٣١هـ / ١٩١٣ م .
- خط سير الأدب العربي د. عبده عبد العزيز قنقلة . مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٧م
ط (١) . ودار الفكر العربي سنة ١٩٩٠ ط (٢) .
- دراسات بلاغية ونقدية د. أحمد مطلوب . طبعة دار الحرية ، بغداد ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .
- دلائل الإعجاز . عبد القاهر الجرجاني . طبعة السيد محمد رشيد رضا عن دار المعرفة
بيروت سنة ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨ م . وطبعة ثانية تصحيح وشرح وتعليق أحمد مصطفى
المراغي . المكتبة المحمودية بالقاهرة د.ت
- دلالات التراكيب دراسة بلاغية . د. محمد أبو موسى الطبعة الأولى القاهرة سنة ١٣٩٩هـ
/ ١٩٧٩ م .
- رسائل الجاحظ . تحقي عبد السلام هارون ط (١) مكتبة الخانجي بمصر ١٩٧٩م .
- سر الفصاحة . لأبي محمد عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي شرح
وتصحيح عبد المتعال الصعيدي - القاهرة سنة ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩ م .
- الشفاء في بديع الاكتفاء . تأليف شمس الدين النواجي . تحقيق ومراجعة د. محمد
أبوناجي الطبعة الأولى . بيروت سنة ١٤٠٢هـ / ١٩٨٣ م .
- شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان . جلال الدين السيوطي ، وبهامشه شرح
الشيخ أحمد الدمنهوري المسمى (حلية اللب المصون بشرح الجواهر المكنون) و (الجواهر
المكنون) هذا تأليف السيد / عبد الرحمن الأخضرى .
- الصينغ البديهي . د. أحمد موسى . الطبعة الأولى القاهرة سنة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٩ م .
- الصناعاتين الكتابية والنسوية . تأليف ابن سنان الأسكندر وقطريق على البجاوي ومحمد أنس
الفضل إبراهيم . الطبعة الأولى سنة ١٣٧١هـ / ١٩٥٢ م .

الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز تأليف يحيى ابن حمزة العلوي :
القاهرة سنة ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م .

- عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح . بهاء الدين السبكي ، القاهرة ١٩٣٧م .
علم البديع د. عبد العزيز عتيق . دار النهضة العربية بيروت سنة ١٩٧٤م .
علم البيان . د. بدوى طبانة . الأنجلو المصرية سنة ١٢٨٦هـ / ١٩٦٧م .
علم البيان د. عبد العزيز عتيق . دار النهضة العربية . بيروت ١٩٧٤م .
علوم البلاغة . أحمد مصطفى المراغى . الطبعة الأولى دار القلم بيروت . ١٩٨٠م وطبعة
دار الباز للنشر والتوزيع . مكة المكرمة ١٣٠٢ هـ / ١٩٨٢م .
علم المعانى . د. درويش الجندى . الطبعة الثانية سنة ١٢٧١هـ / ١٩٦٢م القاهرة .
علم المعانى . د. عبد العزيز عتيق . طبعة دار النهضة العربية بيروت سنة ١٩٧٤م .
العمدة فى محاسن الشعر وأدابه ونقده . تأليف ابن رشيق القيروانى وتحقيق محمد
محيى الدين عبد الحميد . الطبعة الثانية القاهرة سنة ١٢٧٤هـ / ١٩٥٥م .
فصل المقال فى شرح كتاب الأمثال . لأبى عبيد البكرى بتحقيق د. إحسان عباس وعبد
المجيد عابدين بيروت سنة ١٣٩١هـ / ١٩٧١م .
فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور . د. رجاء عيد . منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٧٩م .
فن الاستعارة د. أحمد عبد الستار الصاوى . طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة
١٩٧٩م .
قبض الريح . إبراهيم عبد القادر المازنى . المطبعة العصرية بالقاهرة سنة ١٩٢٧م .
الاستقامة لابن تيمية بتحقيق محمد رشاد سالم ط (١) سنة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م الرياض .
الكامل للمبرد . نشر مكتبة المعارف . بيروت . د. ت .
كتاب البديع . لعبد الله بن المعتز . نشر وتعليق اغناطيوس كراتشكو فسكى لندن سنة
١٩٣٥م .

كتاب المصباح فى علم المعانى والبيان والبديع تأليف بدر الدين أبى عبد الله محمد بن جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك . القاهرة سنة ١٣٤١هـ .

الكشاف . جار الله الزمخشري . الطبعة الثانية القاهرة سنة ١٣٧٣هـ / ١٩٥٣م .

كلمات فى الأدب . أنور المعداوى . طبعة أولى القاهرة .

لسان العرب . لابن منظور . بيروت سنة ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م .

لغويات د . عبده عبد العزيز قلقيلة . الأنجلو المصرية سن ١٩٧٧م . ط (١) ، ودار الفكر العربى سنة ١٩٩٠ ط (٢) .

مجموع الأدب فى فنون العرب للشيوخ ناصيف اليازجى الطبعة الثالثة عشرة بيروت ١٩٤٨م .

المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر تأليف : ضياء الدين بن الأثير وتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد . القاهرة سنة ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م .

المختصر لسعد الدين التفتازانى على شرح تخيص المفتاح للقرزوينى الطبعة الأولى ج (١) سنة ١٣٤٠هـ / وج (٢) سنة ١٣٤١هـ ، ج (٣) سنة ١٣٤٢هـ القاهرة .

مع البلاغة العربية فى تاريخها د . محمد على سلطان . القسم الأول الطبعة الأولى . دمشق ١٩٧٩ .

معجم الأدباء لياقوت الحموى طبعة مر غليوث . القاهرة ١٩٢٣ .

معجم البلاغة العربية - د . بدوى طبانة ط (٢) دار العلوم بالرياض ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .

مفتاح العلوم لأبى يعقوب يوسف بن أبى بكر محمد بن على السكاكى الطبعة الأولى القاهرة ١٣٥٦هـ / ١٩٣٧م .

مقالات فى التربية واللغة والبلاغة والنقد . د . عبده عبد العزيز قلقيلة مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٤م .

منهاج البلغاء وسراج الأدباء تأليف حازم القرطاجنى وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة . تونس ١٩٦٦م .

المنهاج الواضح . حامد عونى الطبعة الثانية . القاهرة سنة ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م .

مواهب الفتاح فى شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربى الأولى بالقاهرة ج (١)
سنة ١٣٤٠ هـ ، ج (٢) سنة ١٣٤١ هـ ج (٣) سنة ١٣٤٢ هـ .

نحو بلاغة عربية جديدة للدكتورين محمد عبد المنعم خفاجى وعبد العزيز شرف . دار
غريب للطباعة بالقاهرة سنة ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .

نظرية إعجاز القرآن عند عبد القاهر الجرجانى عن كتابيه (أسرار البلاغة) و (دلائل
الإعجاز) تأليف : محمد حنيف فقيهى طبعة الشئون الدينية بدولة قطر . الطبعة الأولى سنة
١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .

النقد الأدبى فى العصر المملوكى د. عبده عبد العزيز قلقيلة . الأنجلو المصرية ١٩٧٢ م .

نقد الشعر لقدامة بن جعفر تحقيق كمال مصطفى الطبعة الثانية القاهرة سنة ١٩٦٣ م .

نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى ج (٧) الطبعة الأولى القاهرة . سنة ١٣٤٧ هـ /
١٩٢٩ م .

نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز ، فخر الدين محمد بن عمر الرازى . القاهرة ١٣١٧ هـ .

محتويات الكتاب

صفحة		صفحة	
٤٩	مراتب التشبيه	٨	مقدمة الطبعة الثالثة
٥٠	التشبيه المقلوب	٩	تقديم
٥٢	التشبيه الضمني	١٣	البلاغة : علومها وبعض أعلامها
٥٥	أغراض التشبيه	٢٠	أوجه الحاجة إلى دراسة البلاغة
٦٠	الحقيقة والمجاز	٢١	الفصاحة والبلاغة
٦٢	الاستعارة التصريحية	٢١	الفصاحة : فصاحة الكلمة
٦٤	الاستعارة المكنية	٢٥	فصاحة الكلام
	قرينة الاستعارة المكنية	٢٩	فصاحة المتكلم
٦٥	استعارة تخيلية	٣٠	البلاغة بلاغة الكلام
	الاستعارة الأصلية	٣١	بلاغة المتكلم .
٦٧	والاستعارة التبعية	٣٥	علم البيان
	الاستعارات : المرشحة	٣٧	التشبيه
٧٤	والمجردة والمطلقة	٣٩	أركان التشبيه وطرفاه
	موازنة بين المرشحة	٤١	أداة التشبيه
٧٦	والمجردة والمطلقة		أقسام التشبيه
٧٩	المجاز المرسل	٤٣	باعتبار الأداة
	العلاقات في المجاز		أقسام التشبيه باعتبار
٧٩	المرسل	٤٣	وجه الشبه
٨٠	(١) السببية		التشبيه غير التمثيلي
٨١	(٢) المسببية	٤٣	والتشبيه التمثيلي
٨١	(٣) اللازمية		التشبيه التحقيقي والتشبيه
٨٢	(٤) الملزومية	٤٥	التخيلي وتشبيه التضاد
٨٢	(٥) المحلية	٤٦	التشبيه المفصل والتشبيه المجمل
٨٢	(٦) الحالية	٤٨	صور التشبيه

صفحة		صفحة	
	الخبر الجارى على مقتضى	٨٣	(٧) الكلية
١٢٩	ظاهر حال المخاطب	٨٤	(٨) الجزئية
	الخبر الجارى على خلاف	٨٤	(٩) البدلية
١٣١	ظاهر حال المخاطب	٨٥	(١٠) المبدلية
١٣٤	أنوات توكيد الخبر	٨٥	(١١) اعتبار ما كان
١٣٤	اسمية الجملة	٨٦	(١٢) اعتبار ما سيكون
١٣٥	إن	٨٦	(١٣) الآلية
١٣٥	أما الشرطية	٨٦	(١٤) المجاورة
١٣٥	لام الابتداء	٨٧	المجاز المرسل المركب
١٣٥	السين	٩١	المجاز العقلى
١٣٥	القسم	١٠٠	الكناية
١٣٦	قد التى تفيد التحقيق	١٠٢	أقسام الكناية
١٣٦	نونا التوكيد	١٠٢	الكناية عن صفة
١٣٦	ضمير الفصل (هو)	١٠٦	الكناية عن موصوف
١٣٦	حروف التنبيه		الكناية عن نسبة الصفة
١٣٧	الحروف الزائدة	١٠٩	إلى الموصوف
١٣٨	أسلوب القصر .	١١١	نقاش مع الدكتور شوقى ضيف
١٣٩	أغراض الخبر	١١٢	نقاش مع السكاكى
١٣٩	الغرضان الحقيقيان	١١٣	التعريض
١٣٩	الأغراض البلاغية	١١٤	لماذا الكناية ؟
١٤٦	الإسناد الإنشائى	١٢٣-١٢١	علم المعانى
١٤٦	مدخل	١٢٤	الإسناد الخبرى
١٤٦	الإنشاء	١٢٤	مدخل
	الإنشاء الطلبى	١٢٦	الجملة الخبرية
١٤٧	والإنشاء غير الطلبى	١٢٨	أضرب الخبر

صفحة		صفحة	
١٨٧	طرفا الإسناد	١٤٧	أنواع الإنشاء الطلبى
١٨٨	أحوال الطرفين	١٥٠	الأمر:
١٨٩	الذكر:	١٥١	صيغ الأمر
١٨٩	ذكر المسند إليه	١٥٢	الأمر الحقيقى
١٩٢	ذكر المسند	١٥٢	الأمر البلاغى
١٩٤	الحذف:	١٥٧	النهى
١٩٤	حذف المسند إليه المبتدأ	١٥٧	صيغة النهى
١٩٧	حذف المسند إليه الفاعل	١٥٧	النهى الحقيقى
١٩٩	حذف المسند الخبر	١٥٧	النهى البلاغى
٢٠١	حذف المسند الفعل	١٦٠	الاستفهام:
٢٠٢	التقديم والتأخير:	١٦١	أدوات الاستفهام
٢٠٢	مدخل	١٦٧	الاستفهام الحقيقى
٢٠٣	التقديم	١٦٧	الاستفهام البلاغى
٢٠٣	تقديم المسند إليه	١٧٦	التمنى:
٢٠٧	تقديم المسند		أدوات التمنى
٢٠٩	التأخير:		التمنى الحقيقى
٢٠٩	تأخير المسند إليه	١٧٨	التمنى البلاغى
٢١٠	تأخير المسند	١٨٠	الترجى:
٢١٠	التعريف والتكثير	١٨٠	أدوات الترجى
٢١٠	التعريف:	١٨٠	الترجى الحقيقى
٢١٤	تعريف المسند إليه بالوصولية	١٨١	الترجى البلاغى
٢١٨	تعريف المسند إليه بالإشارة	١٨١	النداء:
	تعريف المسند إليه	١٨١	أدوات النداء
٢٢١	بأداة التعريف (أل)	١٨٢	النداء الحقيقى
٢٢٣	تعريف المسند إليه بالإضافة	١٨٥	النداء البلاغى
			تنوير

صفحة		صفحة	
٢٤٧	والقصر الادعائي	٢٢٤	تعريف المسند
	قصر الصفة على الموصوف	٢٢٦	التنكير :
٢٤٧	وقصر الموصوف على الصفة	٢٢٦	تنكير المسند إليه
٢٤٩	قصر الافراد	٢٢٨	تنكير المسند
٢٤٩	قصر القلب	٢٢٩	أحوال متعلقات الفعل
٢٤٩	قصر التعيين		من العلل البلاغية لحذف
٢٥١	الوصل والفصل	٢٢٩	مفعول الفعل المتعدى
٢٥١	تعريف الوصل والفصل		تقديم متعلقات الفعل
٢٥٢	مواضع الفصل	٢٣٣	وما فى معناه عليه
٢٦٠	مواضع الوصل		تقديم بعض متعلقات الفعل
٢٦٢	محسنات الوصل	٢٣٥	على بعض
٢٦٣	الإيجاز والإطناب والمساواة	٢٣٩	القصر :
	متعارف الأوساط هو المقياس	٢٣٩	تعريف القصر
٢٦٣	فى الإيجاز والإطناب والمساواة	٢٣٩	أدوات القصر
٢٦٣	المعنى هو المقياس		العطف بأدوات مخصوصة هى:
٢٦٤	المساواة	٢٤٠	لا - لكن - بل
٢٦٥	الإيجاز	٢٤٠	النفى والاستثناء
٢٧١	زيادة الألفاظ على المعانى	٢٤١	إنما
٢٧٤	الإطناب	٢٤٣	تقديم ما حقه التأخير
٢٧٥	التوشيع		طرق القصر بين
٢٧٨	تحقيق التشبيه	٢٤٣	الاتفاق والاختلاف
٢٨١	التكميل ضربان	٢٤٦	أقسام القصر
٢٨٥	مقياس آخر للإيجاز والإطناب		القصر الحقيقى
٢٨٨	علم البديع	٢٤٧	والقصر الإضافى
٢٨٩	المحسنات اللفظية والمعنوية		القصر الحقيقى

صفحة		صفحة	
٢٢٤	العكس	٢٩٠	الطباق
٢٢٤	الاطراد	٢٩٢	التدبيح
٢٢٦	المحسنات اللفظية - الجناس	٢٩٥	المقابلة
٢٢٦	الجناس التام	٢٩٩	بلاغة الطباق والمقابلة
٢٤١	الجناس غير التام	٢٩٩	الإرصاد أو التسهيم
٢٥٤	السجع	٣٠٠	الإرصاد
٢٥٥	السجع في النثر	٣٠٠	المشاكلة
٢٥٦	المرصع	٣٠١	التورية
٢٥٦	المتوازي	٣٠٦	حسن التعليق
٢٥٧	المطرف	٣٠٧	الوصف المعلن
٢٥٧	السجع في الشعر	٣١٢	تأكيد المدح بما يشبه الذم
٢٥٨	التشطير	٣١٥	تأكيد الذم بما يشبه المدح .
٢٥٩	التصريح	٣١٧	الاتفات
٢٦٢	السجع من حيث الطول والقصر	٣٢٢	أسلوب الحكيم والقول بالموجب
٢٦٢	أحسن السجع	٣٢٥	المذهب الكلامي
٢٦٢	شروط جودة السجع	٣٢٦	تجاهل العارف
٢٦٢	الموازنة والمماثلة	٣٢٨	التجريد
٢٦٤	لزوم ما لا يلزم	٣٣٠	إضاعة
٢٦٧	التشريع	٣٣٠	الهزل الذي يراد به الجد
٢٦٩	رد الصدر على العجز	٣٣١	التفريع
٢٧٢	المشاكلة	٣٣١	الاستنباع
٢٧٧	عبد القاهر والمحسنات اللفظية	٣٣٢	الجمع
٢٧٩	كتب للمؤلف	٣٣٢	التفريق
٢٨١	المصادر والمراجع	٣٣٢	التقسيم
٢٨٧	الفهرس	٣٣٣	الجمع مع التفريق
		٣٣٣	المزاوجة